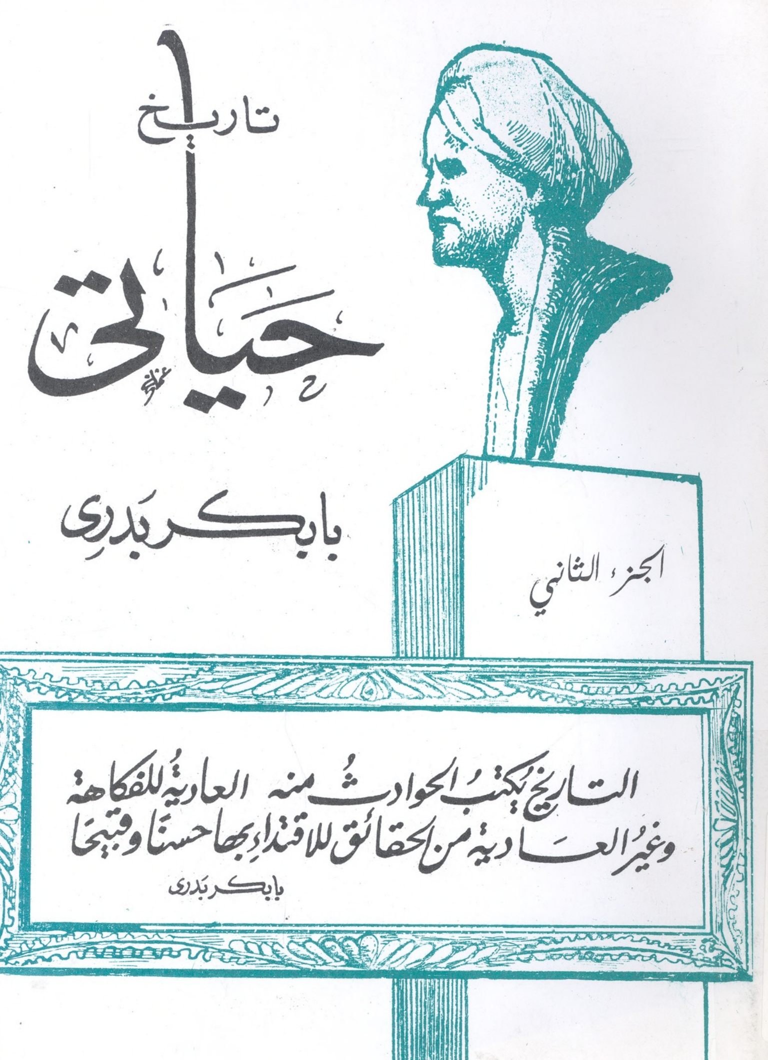
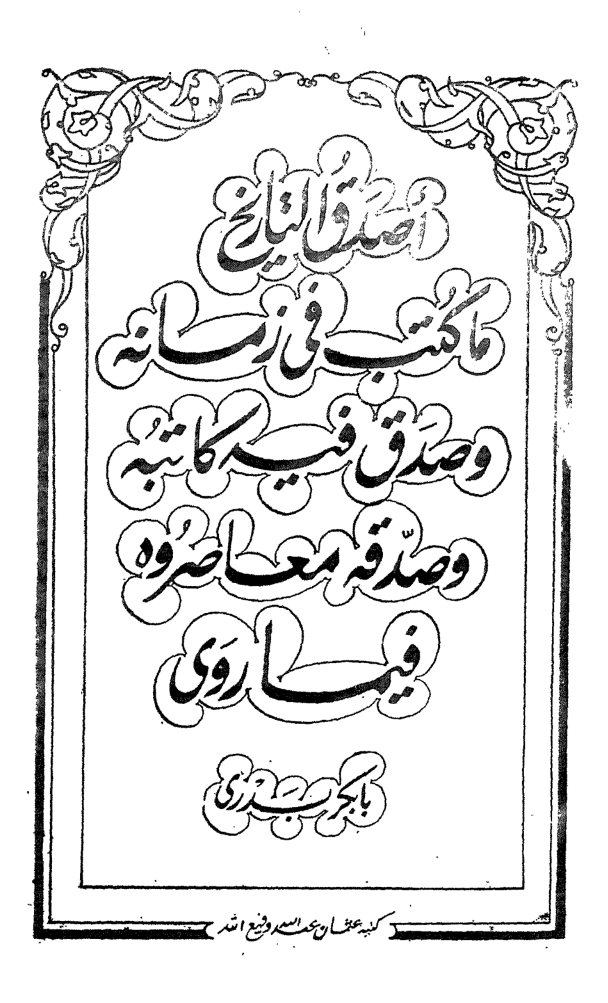

تاريخ
حياتي
بابكر بدري
الجزء الثاني
التاريخ يكتب الحوادث منه العادية للفكاهة
وغير العادية من الحقائق للاقتداء بها حسناً وقبحاً
بابكر بدري


اصدق التاریخ
ما کتب فی زمانہ
وصدق فیہ کاتبہ
وصدقہ معاصروہ
فیما روی
بابر جدری
کتبہ عثمان عبد اللہ رفیع اللہ



بابكر بدري

التاريخ يكتب الحوادث منه العادية للفكاهة
وغير العادية من الحقائق للاقتداء بها حسنا وقبحا

بابكر بدري

إهداء

الى اولئك النفر من الآباء والاخوان الذين بنوا سودان اليوم فى فترة الخمسين عاما الأولى من هذا القرن من لحق منهم بالرفيق الأعلى ومن لا يزال منهم يساير تقدم البلاد وتطورها نهدى هذا السفر الثانى الذى كتبه أحدهم اعترافا بفضلهم فى الجهاد واقتداء باعمالهم فى التضحية والصبر لتكون للأجيال قبسا يستضاء به فى حوالك الدجنة وحافزا للسير قدما على نهجهم والمحافظة على ما اسسوا وشادوا .

يوسف بدرى

المقدمة

انه لتشريف لى حقا أن أكلف كتابة مقـدمة قصيرة لمذكرات طيب الذكر الشيخ بابكر بدرى ، ومن معرفتى الشخصية له ومن سجل أعماله أعتقـد أن أبناء هذا الجيل من مواطنيه سيجدون متعة عظيمة وفائدة فى قراءتها ، قابلت شيخ بابكر لأول مرة عام ١٩٠٨ عندما كنت أرافق سلاطين باشا فى رحلة تفتيشية فى مديرية النيل الأزرق وكان لسلاطين رأى حسن فيـه فذكر لى أن أفكاره التعليمية التقدمية وخاصة عن تعليم البنات قد أثارت سخطا ونقدا عند كثيرين من معاصريه ممن لم يبلغوا ما بلغه هو من الاستنارة ، وفيما بعد عندما كنت سكرتيرا خاصا للحاكم العام تهيأ لى أن أقابله كثـيرا وبدأت أحس بالمكانة الكبيرة التى كان يحتلها هو ومشاريعه الجريئة عند رئيسى السير رجنلد ونجت وعند السير جيمس كرى الذى كان مديرا لمصلحة المعارف ، وعنـدما رجعت حاكما عاما للسودان بعد عشرين عاما وجدت ان مشاريع الشيخ قـد ازدهرت وانه قد أصبح من أجلها ذا سمعة عالية كرجل من رجال التعليم التقدميين فى الدوائر الحكومية ولدى الرأى العام ، وانى كرجل انجليزى لفخور بما أنجزه البريطانيون فى فترة نصف قرن من الوصاية على السودان من تطوير السودانيين وتنويرهم حتى وضعوا بذلك الأساس لدولة حديثة ، وعندى ان الشيخ بابكر كان مثلا لامعا لأولئك الأفراد من السودانيين الذين أدركوا منذ البداية جانب الخير فى أهداف السياسة البريطانية فى السودان فساهموا كل فى حقل نشاطه لتحقيق هذه الأهداف ، كان رحمه الله مسلما متدينا ووطنيا راسخ القدم وامرء شجاعا نزيها تام النزاهة وخادما لوطنه مخلصا ،

لندن : ٢٩ يوليو ١٩٦٠

ستيورت سايمز

اصدق التاريخ ما كتب فى زمانه

وصدق فيه كاتبه وصدقه معاصروه فيما روى

(الجزء الثـــانى)

من سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩٢٨

اليوم بدا الحكم الثنائى ـ الجمعة ٢ سبتمبر ١٨٩٨ :

قاسينا متاعب كثيرة فى أيام اباحة المدينة الثلاثة للعسكر حيث كانوا يدخلون المنازل فيأخذون ويأكلون منها كل ما رأته عيونهم ووصلت اليه يدهم ومن عارض فلا نعلم ما يحل به ومهد لهم ما ذاع من الأخبار المبالغ فيها من القتل والضرب المبرح الذى لا يقل عن كسر عضو أو أعضاء فاستسلم الناس ولكن الذى يحمدون عليه انهم لم يرو عنهم انهم يلتمسون العروض قط يكتفون بالأموال فقط من منقولات أو مصكوكات أو حليا حتى اضطررنا أن نترك الأبواب والدواليب والصناديق مفتحة الأقفال مشرعة الأبواب . دخل علينا فى اليوم الثانى عسكريان انجليزيان فأخذا ريالين مجيديين وشمعتين وتركا باقى النقود وكل شىء ردوه فى مكانه وأظنهما أخذا كل واحد ريالا وشمعة على سبيل الأنتيكة ثم جاء بعدهما ثلاثة عساكر سودانيين فدخلوا بيت الحريم الداخلى وصاروا يجمعون كل شىء من النحاس والخرز والنقود والحلى والبهائم ولحظنا أن دخل علينا رجل أخبرنى أن بمنزل محمد على مكينة بجوارنا بتجاويش يدعى بخيت موافى وكان ذلك فى عصر اليوم الثالث فأسرعت اليه لأنى أعرفه جيدا فأخبرته انهم للآن لم يخرجوا من البيت فأسرع معى بنفسه فلقيناهم فى الباب الخارجى محملين بالغنيمة على حمارة وعلى رءوسهم فلما رأونا بهتوا ووضعوا كل ما غنموه فى الأرض وأطلقوا الحمارة التى رجعت فى الحال جارية الى مراحها وأخذوا يعتذرون للبتجاويش الذى كان يسأل كل واحد منهم بغلظة عن اسمه ونمرته وأرطته وهم يعتذرون أذلاء بعد تلك الجبرة التى أبدوها الينا حينما دخلوا علينا فعدت أشفع لهم عند البتجاويش الذى لم يقبل شفاعتى بأنهم تعدوا لأن الميعاد باباحة المدينة قد انتهى وهم يعلمون ذلك فرجوته فى تركهم رغم ذلك فأمرهم بارجاع كل شىء الى مكانه بأنفسهم ودخل معهم ثم أخذهم ومضى وما أدرى ما صنع بهم ولكنه عند وصوله نقطته أرسل لنا عسكريين يحرسان منزلنا من كل طارق وهذا البتجاويش هو زوج البنت التى

ذهبت لها بأسوان وهو الذى استلم منى سيفى الذى رده لى بعد أسبوعين من الوافعة • جاء قريب لى يدعى كمال الدين مصطفى الذى تقـــدم ذكره فأعطانى عباية حمراء وكنت حينما انتشرت السخرة لردم الحفر ومساواة بعض الشوارع القذرة فصلت لى ولعبيدى الذين يخرجون عادة لقضـاء الأشـغال جلاليب كستور كان مستعملا ناموسية فلبست جلابيتى والعباية وزرت عمى العوض المرضى فلما رآنى لابسها دخل فى غرفة خالية وطلبنى فيهـا قال يا ولد الافضل ان أسخر أنا أو انت يا بابكر ففهمت غرضه وقلعت العباية والجلابية وقلع لى جبته فلبستها وزجعت لمنزلى ففى طريقى لحقنى جاويش وقبض على فقلت له يا أخى أنا أحفظ كتاب الله فاكرمنى لأجله فقـــال لى اقرأ انكم وما تعبدون من دون الله الى آخر السورة فقرأت له فخلى سبيلى فوصلت منزلى وفصلت غيرها فنجوت من السخرة والحمد لله •

قلنا ان الغلال أصبح رخيصا ولكنه ما لبث حتى صار أعلى مما كان وقل وجوده حتى ندر فاذا جاءت سفينة فيها غلال لا تستطيع أن تقف فى الشـاطىء الضحل بل فى مكان لا يصلها فيه قاصدها الا اذا وصل الماء الى صـدره ولا يعطى أكثر من نصف ربع أو ربعا من الغلال ليتسع لكثيرين •

أتذكر انى أتيت الموردة لأشترى مؤنة أسبوع فوجدت المركب بعيـدة جدا عن الشاطىء والناس يخوضون لها وكنت أعرف صاحبها وصاحب الغلال الذى بها وهو خلف الله تاتاى فرفعت صوتى له بالسـلام وبأنه يلزمنى أربع كيلات مؤونة أسبوع فضحك وقال ارسل رسولك لأربعة أقداح فقط فأرسلت عبد الله عبدى الذى كان معى فما وصله بقفة حتى بلغ الماء أعلى عنقه فسـلمه ربع مصرى فأين يقـع من عائلتى • خرجت الى موسى يعقوب الذى دفعت له الفرق فى الثلاثة أرادب ليرد لى شيئا من أرادبى التى اشتريتها منه فضحك وقال ما معناه الصيف ضيعت اللبن وأقسم أنه بالأمس اشترى ربعا مثلى من خلف الله تاتاى وما زال الغلال يرتفع حتى ألجأ اللورد كتشنر لجمع التجـار بأم درمان أرسل سعادته خبر للمأمور على شوقى ليجمع له التجار بالضبطية ليحادثهم فى أمور شتى فيما يتعلق بمصلحة البلاد فجمعنا المأمور فى الوقت الذى عينه له ولم نبحث فيما قد يسألنا عنه ولم نسأل غيرنا (ممن) نأمل فيهم المعرفة بل جلسنا كل أربعة أو خمسة نأتنس ببعضنـــا ولمـا كنت من أصغرهم سنا لم أجرؤ

بمصارحتهم بما خطر ببالي مما ذكرته لك يا قارىء حتى وصل اللورد كتشنر سلم علينا فحييناه بما يليق به ثم أوقفنا المأمور صفا أمامه وسعادته واقف فقال وكان يوجه أكثر كلامه لابراهيم بك خليل فقـــال له يا عمي ابراهيم بك بدأ حديثه (وكان ينطق العربي كما ننطقه ويفهمه كما نفهمه) قال سعادته لي رأي في التجارة أعرضه عليكم وآمل أن توافقوا عليه أنا أريد أن أمنع التجـــار الأجانب الكبار من المجيء بذواتهم بل يرسلون أموالهم وبضائعهم لكم ليكون الكبار منكم وكلاء لهم هنا فيرسلون أولادهم واخوانهم الصغـــار للجنوب والغرب ليشترون محصولات البلاد من كل نوع ويوصلوها لهنا فتحاسبوهم على أثمان السوق هنا فتأخذوا أرباحكم منهم ثم ترسلون البضاعة لشركائكم بمصر وغيرها فتباع بأسعار هناك فتأخذوا نصيبكم منهم بذلك تتمكنـــوا من استقلالكم التجاري ببلدكم فصاح كبارنا في وجهه لا لا يا سعادة الباشـــا الأحسن تأتينا بيوت الأموال الكثيرة بأصحابها فيكونون قريبا منا فننتفع منهم فقال لهم : بماذا تنتفعون منهم فقـــال النور ابراهيم الجريفاوي : نتعهد لهم الطوب والجير ونستلف منهم بفائدة قليلة ونرهن لهم أملاكنـــا من عقـــارات وغيرها ، وقال ابراهيم بك خليل وجود المال بأربابه في البلد يسرع بترقيتها ، اما اذا كانوا بعيدا عنا فتح أبواب الطعن فينا ، فيحدث بيننا وبينهم سوء الفهم فقال لوم على كيفكم ثم قال الباشا لأي سبب العيش غالي جدا ، فقال محمـــد دبلوك (وكان صاحب سفن) لأن الحكومة احتكرت المراكب لنقل مهمتها من بربر • فقال اللورد بأسرع ما يمكن اذا كان السبب المراكب لكان الغلال يكون في مدني رخيصا ، فقال آخر لم أتذكره أحمـــد السني ينهب العيش في مدني (وكنت واقفا آخر التجار وبعـــدي المأمور) الذي تستس اعتراضـــا لجواب القائل • فاهتاج سعادته وقال أحمد السني ينهب العيش ؟ ، فقلت لا يا سعادة الباشا الحكومة هي التي تنهب العيش بمدني • فحقب يديه بظهـــره وأسرع نحوي حتى وقف أمامي وطأطأ قليلا لطوله وقصري حتى حازى وجهـــه وجهي وقال لي : الحكومة تنهب العيش ؟ قلت نعم • فقال لي كيف ذلك ؟ فقلت أنا أرسلت أخي وهذا أرسل ولده وذلك أرســـل شريكه فاشتروا العيش بمدني بسعر ستين قرشا الأردب وأحمد السني مندوب الحكومة اشترى لها في ستين قرشا وانقطعت المراكب عن الترحيل • وصارت الحكومة تصرف من غلالهـــا

الذى اشترته حتى خلص فجاءت لما اشتريناه تكيل شونة التجـــار وتدفع له القيمة بسعر الستين قرشا • وقد انقطع الوارد من الخارج لأن الحكومة شرعت تبنى مبانيها لتشغل الجمال التى تأتى بالغلال من الخارج فى نقل الطوب فانقطع الوارد • قال سعادته لى وقد بدأ يبتسم بهائمنا ما تأكل معكم عليقـــة ؟ فقلت تأكل ولكن من الجالب وليس من الطالب • فطلب منى شرح الجالب والطالب• فقلت سعادتك تعرف العربى مثلنا تماما • فتبسم وقال يعنى الجالب الذى يبيع والطالب الذى يشترى قلت نعم • فقال لى من هذا اليوم الحكومة لا تشترى عيش الا بواسطة متعهدين منكم ورجع الى مكانه ثم بدأ مسألة منازل الخرطوم بقوله الخرطوم صار ملك الحكومة باستيلاء الدراويش عليه ونزعته الحكومة منهم ولكن الحكومة لا تنزعه نزعا كاملا الا شارع البحر فهذا لا تكون فيـــه لأحد ملك وستمسح الحكومة أملاك الناس بأسمائهم ثم تعطى كل أحد بقدر مساحة منزله أو ملكه فى مكان تختاره هى له غير شارع البحر • فقال ابراهيم بك الكنيسة لها ملك بجوار البحر • فقال له نعوضها بجوارها فقال أنا لا أحب أن أغير مكان منزلى ولا مساحته • فمشى له وقال له : أنا أنصحـــك يا عمى ابراهيم بك بأن تغير محل بيتك لأنه لا يكون فى الأماكن العزيزة فى المستقبل• فقال ابراهيم بك : مهما كان لا أحب تغييره • فقال له الباشا على كيفك وقـــد نصحتك • ثم ودعنا بلطف وقال : ان التجارة ركن عظيم فى عمران البلاد نسأل الله أن يوفقكم فودعناه •

الشدة والضيق يصرفانى نحو العلم :

جاء يوسف أخى من بربر وليس معه الا ستون جنيها • وفى الحال خاطبت صديقى مختار محمد سليمان بالهلالية فحضر وحاسبته على أماناته التى صارت سبعة وثلاثين جنيها أعطيته اياها رغما عن توقفه من أخـــذها وطلبه أن نعتبرها ضاعت فيما ضاع أو على الأقل نشركها بحساب المائة فنخصم منها ما يخصها • فقلت له يا مختار انت الآن سكنت بالقرى ومعيشة القرى تتطلب سعى البهائم، لتزيد بهذا المبلغ تشترى به ستة بقرات بعد عشر سنوات باذنه تعـــالى يكون ستين بقرة ، أنا ان أصبحت محتاجا أخذت منها واشترى بقرا غيرها فأقيمهـــا

معك ، اما اذا تركتها لى كلها فلا تنفعنى بشىء فى أم درمان مـع كثرة عائلتى وتعطيل تجارتى ، فابعادها عنى يكو نخيرا لى ولك عسى أن تنتفـع منها . فأخذها ودموعه تجرى حزنا على مصيبتى فى مالى ومصيبته كما قال فى كلامه رحمه الله رحمة واسعة : وجربت التجارة بما بقى عندى وما آمله من معارفى يمدوننى بما يساعدنى فلم أنجح خصوصا بعد ما جاءنى أخى يوسف مرة يبكى فقلت له مالك . فقال لى انه مر بجماعة فسمعهم قالوا انظروا الى عنق يوسف كيف صارت رقيقة وجسمه كيف اسود وضحكوا . فقلت له يا يوسف ان هذا الانقلاب قد حصل للناس الا قليلا واحدا من ثلاثة رجال . رجل مات وضاع ماله كالجعليين ورجل مات وبقى ماله للوارثين ورجل ضاع ماله وبقى هو حيا ينتظر رزقه وقد انتفع بتجاربهم فأيهم الأحسن ؟ قال الثالث . فقلت السنا من هذا الفريق فضحك وقال : والله يا بابكر منذ ضاع مالنا ما انشرح صدرى ولا ارتاحت نفسى الا بنصيحتك هذه . فقلت فى الحال هذين البيتين :

كل الدراهم ما ضربن لأنهـا تبقى لمن هـو صـائغ أو آمر
لكنهـا مضروبة لتنقـل عن ملك من يحوى لمـا هو آخـر

فحفظهما فى الحال وقال انه يقرؤهما كلما حصلت له حسرةالذكرى بضياع مالنا فينتفع بهمـا .

رجعنا للسوق فمر على بالدكان جهادى سودانى يحمل بيده الجزء الأول من تفسير الكشاف بطبعة اميرية وورق جميل مصقول واخبرنى انه اخـذه من بيت شيخ الدين فاشتريته منه بخمسة ريالات . وصرت ابحث عن الجزء الثانى حتى وجدته عند الشيخ عبد اللطيف وقيع الله اشتريته منه على قـدمه بخمس ريالات ، وهما عندى الى اليوم وطالعت الكثير منهما وكتبت على جزء منها الثلاثة الابيات الاتية :ـ

ان الزمخشرى فى الكشـاف أبدى لنـا
جـواهرا غـامض القـرأن توضحـه

فَنَقَلْتُهُ [1] حلت الاشـــــــكال فى جمل
عـن العـلوم وضـيق الصـدر تشرحه
فروضــــه يانع والزهــــر مبتسم
فكن أخى من أولى الألبـاب تشرحه

زارنى يوما ابناء عمى مختار محمد العامل و عمر الصادق وعبد القـادر الأمين (كاتب الأمير يعقوب) فقالوا جئناك لأمر مهم وهو انا لانريد أن نفترق فىسكنانا المقبلة بعد أن جمعنا الله تعالى وأن أم درمان لانستطيع أن نسكنها لصعوبة معيشتها المركبة وعدم تسكيننا . فقلت أوافقكم بشرطين أحدهما أن نسكن بلداً فيهاسـوق لنكتسـب ونعلم الأولاد والثانى لا يكون بعد مدنى جنوباً ولا بعد المتمة شمالا فقال مختار نسكن الخوالدة وقال عبد القادر نسكن أم سنط الجابراب جنوب مدنى وقال عمر الصادق نسكن أبو سليم غرب الدامر . فلم أوافقهم لأن شرطاً واحداً من شروطى لم يتوفر فأختلفنا وتوجه كل منهم للمكان الذى ذكره وسكنت رفاعه بعدما أكثر مختار محمد العامل مخاطبتى بسكنى حلة على الحاج طه التى بينها وبين رفاعه النيل والتى يشاع أن تكون بها عاصمة مديرية الجزيرة . فأرسلت والدى بزوجته وزوجتى حفصـة بأولادها ومعهم رقيقى ثم لحقتهم وبرفقتى يوسف وبابكر البشـير والرباطابى أحمد البشير والمصباح على حمد السيد ، وستأتى قصـة مضحكة لهذه الجمعية ، فلما أقلنا بالحصاحيصه وكانت ثلاث قطاطى على شاطىء النيل أخذت أنظر وأنا متوجه حلة على الحاج طه لما يلزم ساكن القـرى من المرعى والحطب وطين الزراعة فلم أجد فيها ما يدعو الى أو يستحق الترغيب فيهـــا فوصلناها بعد المغرب وبعد أن تبادلنا التحية وما كنت أميز شخص على الحاج طه فقلت لمختار ان مدحك لحلة على الحاج طه لم تصدقه ضواحيها بقى مدحك لعلى الحاج طه اذا كان مثل حلته فعلى الدنيا السلام . وقف على الحـاج طه بحمابس وقال على الطلاق على الحاج طه رجل كامل يعجبك فى كل ماتمتحنه به، فقلت من أنت ؟ قال أنا على . قلت اعتذر لك . قال لا تعتذر الا بعد أن تقتنع

---

(1) فى سياق تفسيره يقول الزمخشرى فان قلت كذا نقول كذا فنظمها الوالد فنقله

برجولتي قلت حاضر وأصبحنا فوجدت أولادي في غرفة تحيط بها زريبة شوك وقطية مطبخ ولوالدي كذلك ورقيقي في قطاطي • فلم أقم بها الا أقل من شهر لأني كنت استلفت ثلاثين جنيها من محمد منصور أعطيتها يوسف أخي وقلت له: اذا طلبها منك فادفعها له واذا أمهلنا فاشتري لنا بها جمالا واحضر بها سريعا لنتوجه لكركوج بجمالنا ورقيقنا حيث نجمع الصمغ ليكون لنا رأس مال نبتديء به تجارة جديدة • فارسل لي يوسف جملين أحدهما مريض وتأخر بأم درمان • فوصلني جواب من ميرغني شكاك بأني لا أنتظر من المال الذى عند يوسف فائدة لأنه شرع يلعب به مع أحمد البابتبرها في جمعية نساء سفيهات • وحيث لم يصلني من يوسف خطاب اعتمدت خبر ميرغني وسافرت بالرقيق والجملين وصحبني في هذه السفرة موسى الشامابي وبابكر البشير فلما وصلنا مدني وجدنا مرض السحائي منتشرا ومهولا به أكثر من فعله • فخرجت من مدني لأم سنط حيث عبد القادر وبيت عمي مالك بها فنزلت عند عبدالقادر لاتساع بيته ، ففخر علي بقوله أنا سائد في هذه الحلة فقلت له الله يعمي عينك انت كنت سائدا في أم درمان التي جمعت كل أعيان السودان ، ثم قلت له يا عبد القادر العاقل يجاور من هو أغنى منه ان لم ينل من خيره لا يكلفه شيئا ولا يحسده على شيء ويصادق من هو أعلم منه يستفيد من مجالسته بدون أن يضيع زمنا من عمله • اما من يساكن أقل منه يعرض نفسه للمضرة أو للمعرة لأنه ان بدأ يحسن اليهم يضيع ماله ويصدق فيه المثل القائل غني الفقراء فقير وان بخل عليهم يسيئون سمعته ويجتهدون في ذهاب ماله • فاني أنظر اليك بعيني المستقبل بعد خمسة سنوات تصير مثلهم • اذا وقعت بيوتك لا تستطيع تجديدها لأن الرقيق يدخل مدني فيتحرر وبهائمك تضيع ما بين السرقة والبيع • وفعلا بعد ثلاث سنوات مررت عليه فوجدت حالته في نزول سريع وفي أثناء وجودي بمنزله خرجت بالركوة حتى وصلت المقابر فوجدت الناس يحفرون لموتاهم بالسحائي ومن العجيب اني رأيت أحد ممن يحفرون وقع في الأرض فدرج (حمل) لمنزله فاذا الخبر يجيئنا انه توفي • فحفر له بعد أن كان يحفر فداخلني من الخوف والله عالم به فسافرت بمن معي فلما مررت على قرب حلة بقادي لقينا نساء فقلت لهن أبو فرار (السحائي) ما زال (رفع) عنكم • فقلن ليته لم يرتفع أخذ رجالنا فليلحقنا بهم • وصلنا البرياب فما رأينا بيتا في رأسه زعف

مما يدل على انه بيت عرس الا أخبرنا أن عريسه مات فازداد خوفى ، فلما وصلنا حلة الشيخ طلحة وجدنا الشيخ محمد توم فى المقابر يحفر للأموات بيده ، فلما حملنا للسفر جاءنا رجل جزار طلب منا أن نبيت عنــده لأنه رباطابى ونحن رباطاب معروفون لنثبت له نسبه المشكوك فيه عند مواطنيه فأخذنا بخاطره وفى تلك الليلة شعرت بدوار وتقزيز فى المعدة لدرجة انى لا أستطيع أن أتكلم فأيقظت بابكر البشير وأشرت له بعمل شاى فعملوه لى هو وخميســة أكبر خداماتى . فلما شربته انطلق لسانى وتيقنت قرب اصابتى فهونت على نفسى فقدانها وقلت :

أبا بكر لا تخش الممـات فانهـا ... متى تصرم الآجال فى اللوح تأتها
فانك من قوم يموتون كلهـم ... ومن يك من قوم سينعت بنعتها

فجاءتنى خميسة وبيدها مسعط فيه سمن وقالت لى يا سيدى أظنــك أخرجت دما أكثر مما يلزم اخراجه حينما احتجمت بمدنى ولهذا حصل لك هذا الدوار ، أتركنى أسعطك بهذا السمن فى أنفك فرضيت . فلما فرغنا منه ومضى على نحو ساعتين تماسكت قوتى وأخــذت تنتعش ونسيت أوهام عوارض السحائى فلم أشعر بعد بالخوف ولا بالوهم والحمد لله .

بعد الفتوح بأيام جاءنى عمى الشيخ بسالم ومعه أختــه زوجــة المرحوم القاضى ولد الخضر الذى قتل بالمتمــة وقالت لى لنا عنــدك خادمة ومصحف فجئتك لتعطنى المصحف . فقلت أعطيك الخــادمة فقالت لا أكرمنى بالمصحف فلما اشتد طلبها كما اشتد بخلى بالمصحف قال لى عمى الشيخ اعطها الخــادمة وعشر ريال مجيدى . فقالت أرنى المصحف لأنظره فقلت هل تعرفينه فوصفته فلما جئتها به اضطرب بدنها وقبلته وبقى عندى هذا المصحف الى رفاعة حيث استعاره منى الجنيد أفندى عبد الله واستعاره منه أحد أصدقائه فشددت عليه فى ارجاعه لى فشدد على صديقه الذى رده لأولاده برفاعة والجنيد أفنــدى بأم درمان فى مرضه الذى مات به . فظهر المصحف فى تركته فاشتريته منها مرة أخرى لأن صديقه الذى استلفه منه وضع ختمه على كثير من أوراقه بحيث ان يقال انى مدعيه كذبا فاستحقيت دفع ثمنه .

وصلنا كركوج ونزلنا بمنزل أبو السعود الفكى على وأرسلت عبيــدنا لحلة أبى نبقة محل الصمغ ولكننى لم أصحبهم فلم تنجح فى مأموريتنا ، جاءنا

البدوى على الأمين وخالى خالد ، ولكن محمد على الذى أعطيته بطانية تساوى خمسة جنيهات لم يعطنى شيئا صار البدوى اخوه يقول له اذا كنت لا تعطيه شيئا ارجع له بطانيته ، وعبد الرحيم مبشر المدعى الكرم أعطيته ثوبا حريرا بأم درمان وأكرمته كل الاكرام فلم يعطنى شيئا ولا عشاء ولا زوادة فعجبت مما أسمعه عنه وما رأيته فيه . والبدوى طالبنى بأن آتى بأولادى لكركوج وهو مستعد لمساعدتى فقلت له لو تدفع الحكومة لى حلتكم كلها آخذ ضرائبها لا يمكن أن أسكنها .

كنت فى ضحوة يوم جالسا بين أهلى المحتفين بى بحلة أم سنط متصدرا مجلسهم اذ جاءنا عسكرى يدعى سعيد فطلب شيئا غير لازم له ، فبدأت أخاطبه وليتنى لم أفعل . فهجم على وأخذ بلحيتى ، جرنى اليه وصفعنى وسب دينى وجنسى ، وكل من حولى لم يبذ حراكا . فذهبت للمأمور بحلة كركوج التى لم تبتعد عن أم سنط أكثر من ميلين . فقدمت له ولنائبه شكواى بهذه القصيدة المفصحة لها وللتملق :

أمحمد يا فهمى مأمور الهنا	يا من بثاقب فهمه لقبا شهر
يا عبد فتاح أفندى ها أنا	بك أستجير فيا مجير المزدجر
نفر سعيد اسمه قد سامنى	سبا وضربا منكما به ما أمر
دينى وأبائى يسب ، ولحيتى	هونا يجر وناصرى عنى زجر
والناس حولى فى صفوف بهت	والكل عندى هيبة لكما عذر
أيليق هذا بالغريب واتما	أمن البلاد وجابرا عظما كسر
فوضى الفتوح قد انقضت والعدل فى	كركوج مذحلت ركابكما انتشر

دخلت عليهما فى غرفة صغيرة لا تزيد عن أربع أمتار فى طولها فتناول القصيدة منى النائب عبد الفتاح أفندى ، وبعد أن قرأها حدد نظره لى فما دريت اعجابا بى أو حنقا على ثم ناولها المأمور محمد فهمى ، فلما قرأها وضعها على مكتبه ولم يسألنى عن الجانى ولا فى أى بلد جاء . وأخذا يتحدثان بما لا علاقة لى به فخرجت أجر ذيل الخيبة والندامة ورجعت صامتا حانقا .

جاء أخى يوسف وعنده قيمة خمسة جنيهات دمج برانى وكنت جمعت نحوا من اثنى عشر أردبا ذرة أنزلتها فى مركب وقلت ليوسف أخى عند توديعى

له . هل بقي عندنا شيء نملكه خلاف الرقيق والجملين والدمج الذى أحضرته انت ؟ قال لا فقلت استلم الجميع وأنا ان شاء الله أصير معلما فى أحد المساجد لأنى بحمد الله عرفت ما أعلمه الأميين وأنت قم بمعيشتنا أو أتركنا نموت وودعته وسافرت ، فلما وصلت عمارة على الحاج طه وقبل وصولى لرفاعة جاءنى بعد نصف الليل صديقى محمد دياب ومعه خمسة رجال بحميرهم ، ندهونى باسمى فاستيقظت وطلعت عليهم (خرجت لهم) والفنيار بيدى وبعد التحية أخرجت العنقريب الذى كنت نائما عليه بفراشه وأخرجت برشا كبيرا ومخدات وتمرا وعليقة لحميرهم . وقلت لهم الشايب فيكم يرقد على هذا العنقريب وأنا وانتم ننام على البرش ، اما العلف للحمير فمعدوم بالبلد فاتعشوا كلهم بالتمر والشاى ورقدنا على البرش . فلما أصبحنا طلبت خادمتى خميسة فعملت لهم عصيدة فطروا بها ، وقالوا نسافر فأذنت لهم وشددت حمارى وركبت معهم للمشرع . ونحن فى الطريق قال أحدهم الله يخيبك يا محمد دياب ويخيب صاحبك فخرت علينا نصل بابكر بدرى يريح بالنا وفترتنا ويشبع جوعتنا ساهرنا الليل حتى وصلناه لم يشبع جوعنا ولا أزال لنا فتورا ولا ذبح لنا ذبيحة. فقلت له ما ببيتى ولا بيدى شيء بخلت به عليكم ولا عندى خروف أذبحه لكم ولا ما اشتريه به . هل تريدنى أتدين لكم الخروف والبن والشاى والسكر فتمدحوننى وحين أرجع منكم أجد صاحب الخروف وتاجر البن والشاى والسكر يطالبوننى فلا يجدون حقوقهم فيتعبوننى ويشبعوننى سبا ،هذا حرام. فقال لماذا لا تعمل زوجتك لنا عشاء ؟

بنيت قطية بزريبة حمد الرباطابى واشتريت أخرى لضيوفى ، سكنا برفاعة فى أول ربيع أول وفى ستة عشر من ربيع آخر ١٣١٧ فى ليلتها جاءنى ابنى الحسين طلع معى العنقريب وقال لى أنا محموم ، فلما لمسته رفعت يدى لحرارة جسمه وأصبح بحالة خترفة يهزأ بما كان يحفظه من مديح أحمد أبى شريعة للنبى صلى الله عليه وسلم وبعض أصحابه . فمن الدهشة قلت يا الحسين تحفظ الحسين ثم آب الى رشدى فقلت لو ان الحسين رضى الله عنه قادرا على الحفظ لحفظ نفسه من القتل . وفى نحو الساعة ٨ ليلا أخذ فى النزع وخرجت روحه وعمره لم يكمل الخامسة من سنينه لأن ميلاده وأخته توأمته يوم عشرين رمضان سنة ١٣١٢ ووفاته ١٦ ربيع آخر ١٣١٧ . وفى ضحى اليوم الثانى دفن،

فكتبت ليوسف خبر وفاته فى ثلاثة أبيات من الشعر تضمن تاريخ وفاته وآمره بالصبر :

لحد الحسين لست يوم قد مضت … من بعد عشر فى ربيع الآخـــر
فاصبر أيوسف واحتسبه لربه … ان الجـــزوع لدى الاله بخاسر
حيث البشـــارة بالصلاة ورحمة … وهداية خصت لعبـد صـــابر

فأخبرنى يوسف انه لما وصله كتابى هذا أمسك برأسه الذى صار تضرب عروقه خمسة أيام لم يذق النوم فيها • أما أنا فكعادتى لم أجـزع بدمع ولا بصوت حتى جاءنى جبارة العـوض المرضى ودياب اللذين كانا معى فى أول الليلة التى حم فيها وكان يمدح لنا امداح أبى شريعة ونأنس به وتعجب من ذكائه ونباهته • فلما رأيتهما نزلت دمعة من احدى عينى ولم تتجاوز حاجرها اذ ربما يكون ما بالصدور أمر من مأتم الدور وقد قلت فى ما حصـل لى به قصيدة دالية فى كتاب شعراء السودان وبدأت أخرى فلما وجدتنى تأثرت حتى كدت أتجاوز الحد تركتها بيتين فقط :

مات الحسين فهـل من بعـــده خلف
مـولاى كى يستفيق المـــولع الدنف
وتنطفى زفـــرات من توجعـــه
أم هـــل قضيت بأنى هــالك تلف

أما الدالية فمطلعها :

ســـهام المنـــايا للعبـــاد بريد … قـلوب تحلت بالسرور تريد

ومنها :

يقولون لى لا بأس والبأس واقع … وكيف لعمرى والحسين فقيـــد

ومنها :

يذكرنى ليـــلى تســـلل روحه … وشمسى تذكرينه وهــو لحيد
فلا تنكروا شعرى رثاء وسلوة … ولا دمـــع عينى انه لجمـود
فقد دمعت عين النبى على ابنـه … ولى أسوة ان الفقيـــد وليـد

ومررت على قبره مرة غير شعور وقصـــد وقفت عليـــه وقلت مرتجلا فى الحال :

يا تربة ضمت أجب النـــاس لى بعـــد النبى هلا أجبت دعائى
ردى التحيـــة عن رميســـك انه زين الحياة وراحـــة الأحشـــاء

كل هذا الجزع لا شك أن سببه عدم الشغل الذى يصرف الفكر بمـا يملؤه من العمل البدنى الذى يتبعه التفكير ، انى متـأكد انه لولا فراغى من عمل يشغلنى عنه ما كنت أتعب بذكراه ولكن كما أقول (أكبر شغل عـــدم الشغل)

جاءنا الخريف رهنت بلادا بمكان يعرف بالصنقور بجوار بلاد عمى الشيخ عبد الاله أبو سن • فلما شرعنا فى الزرع كثر الغراب واشتد فى بحث التيراب (البذرة) ليأكلها فجئت بقلل وبقرب وقسمت الناس فرقتين وأنا مع من يجلبون الماء من التقى (جمع تقاة) والتروس (الجسوز) ونسلك بهاما يزرعه الزارعون قبل أن يبحثه الغراب ، حتى اذا فرغوا من زرع الشيله نكون قد سلكناها • فقال لى الشيخ عبد الاله : منـــذ خلقنى الله زرعت بنفسى ورأيت الزارعين ما سبقك أحد على عملك • ومع تعبنا هذا لم تنجح هذه البلاد لأنها أكلهـا الجراد • وبعد أن فرغنا من هذه البلاد زرعنا بلادا أخرى بجهة يقال لها حشيش تبعد عن رفاعة نحو عشرة أميال وبلاد أخرى بالميع حيث أجرنا فيها جماعة من الديم الغربى (القريداب) كان من بينهم ولد صغير الحجم فطلبت منه أن يكون نصف رجل فقال لى يا عمى السلوكه أليس الناس يرفعون رجلا ويضعونهـا معا ؟ قلت نعم • فقال ان قصرت عنهم اعتبرنى واذا أتممت يومى مثلهم أكون رجلا فقلت فليكن ذلك • فتميومه مثلهم تماما • واليـــوم هو فى مركز عظيم معتبر كفء به ومنهم قاضى مديرية ونظار مدارس • لا أعرف لمـــاذا يتكبر الانسان عن ذكر ماضيه • ألا يعترف انه كان عدما وقد ولد عاريا • وهـــل الانسان الذى يكون نفسه بلا مجد مورث أقل أهمية أو سمعة أو فخـرا فى نظرهم من الذى ورث المجد عن أهله وحافظ عليه ، هذا هو الرأى الســائد بين جهلاء الاجتماع الحقيقى •

أول مدير عين للجزيرة بلويت بك مديرا ومعه من الانجليز نائبه مكوين بك والمفتش المستر كرباين فقط ومن المصريين اليوزباشا محمد شريف مأمور

وابراهيم ناصف نائب مأمور وقسطنطين أفندى سعد السورى باشكاتب وجعل مركز المديرية فى مكان أنقاض مدينة اربجى الشهيرة .

كان أبى حينما أمضى الى السوق لأؤجر المزارعين يترك لى حمارى ويمشى برجليه فقلت له يوما لماذا تترك الحمار وتمشى برجليك ؟ قال لإنك تتأخر لتحضر الأجراء والغذاء فتحتاج لتختصر الزمن وتباشر عملهم . أما أنا فأقوم مبدرا فلا أحتاج الى تقصير زمن . فقلت له طيب هذا عذرك فى الصباح فما عذرك فى رجوعك راجلا فى المساء ، وما عذرى لمن يرانى راكبا ذهابا وايابا وأنت تمر عليه راجلا . فقال أما فى المساء فانك تتأخر لتدفع للمؤجرين وأنا راجع مبدرا أيضا أصل بيتى قبل الليل فقلت : ألا ترى انك عرضتنى لسبة الأدب واثرة النفس فيقول الناس فى ما شاءوا . فضحك وقال بس الناس هل يوجد من يجسر (يمنع أو يحبس) عنه لسانهم . قلت غير هذا أرفق بالفريقين عوض الله يركب وراءك على الحمار يوصلك البلاد ويرجعه لى وكذلك مساء . فعملنا بذلك أنظر للوالد مع ولده وأبلغ من هذا انى لما رأيته يمنعنى من العمل وقت الحر ، صرت أعزم عليه ليرقد تحت شجرة فى البلاد وأجلس بعيدا عنه ولما أظنه نام أقوم فى الظهيرة أحش بالملود فيأتينى ويأخذه من يدى ويرمى به فى الأرض فأجلس فأرجع للحش كلما تقلب ظنى انه نام ، فجاءنى أخيرا منزعجا واستلم منى الملود وقال لى يا ولدى أنت عالم وتاجر وصانع ، أترك الحش . « الحش موشورة حق العانى والعورة » ، وكسر عود الملود الذى كنت أحش به ، فما عدت ثانية أحش الا فى وقت البرودة . ومن العجيب انى لم أشعر بالحر ولا بالفتور الذى يحس والدى لى به وذلك لقوة الدافع النفسانى عندى . بعد ما انتهينا من الحش قسم السوق برفاعة بواسطة المأمور عبد العزيز أفندى مجدى الذى كان مهندسا ماهرا ولكنه كان صلبا لا يحول عن رأيه . طلبنا منه أن يجعله شرق الخور ليتجنب وضعه على المقابر . فلم يأبه بطلبنا ولما قلت له لا يجوز وضع بناء على المقابر وا نالقبر حبس على صاحبه فقال لى وهو يضحك مستنكرا قولى : سيدنا الحسين والسيدة زينب وكل آل البيت بمصر كان كل منهم فى جبانة تسمى باسمه والآن لم يبق الا قبره ؟

وكان قد غضب على مرة لمقالة مسخوها وبلغوه اياها ، وكان عنده مرة الشيخان محمد عمر البنا والتاى سعيد فجاءت سيرتى قدمنى لهما فعارضاه .

وأخيرا طلباني فلما دخلت عليهم قال لى الشيخ البنا حضرة المأمور زعلان منك • فقلت أعوذ برضـاه من غضبه فتبسم وقال لى أنت قلت المأمور لا يقـدر يشتمنى ولا يؤذينى ولا يقصدنى بسوء ولا يظلمنى • قلت نعم ولكنى رددت على من رماك بذلك وعللت لكل واحدة علتها حينما قال مخوفا لى بطشـك ونسبك للقسوة والظلم • قلت بماذا قال يظلمك • قلت لا فعدله يمنعه ، قال يسبك قلت لا عقله يمنعه قال يقصدك بالسوء قلت لا شغله يمنعـه ، فرقص الشيخ البنا ، وقال ألم أقل يا حضرة المأمور الرجل عاقل لا يتطرق على لسانه ما وصلك هذا مدح لم أسمع بمثله ، شهادة بالعدل والعقل والشغل بما يعنى • فأمرنى بالجلوس ، فجلست ولم يسيئنى بعدها أبدا (الا بعـدما عارضته فى قضية أحمد ولد الفكى محمد كما يأتى فى مكانه) حينما قسم لنا السوق ولم يكن بيدى نقود كافية لبناء دكاكين أجرت أربعة عبيد مع رفيقى وأجرت رجلا يدعى سالم الحاج محمد بناء جالوس ماهرا أمينا صادقا مخلصا وصرت أضرب فى اليوم ثمانمائة طوبة بيدى فى الصباح خمسمائة وفى العصر ثلثمائة أو أحمل العربية المحملة طوبا مع أحد عبيدى وصرت أتعهد للناس بناء دكاكينهم لأجـد ربحا أبنى به دكاكينى العشرة بخلاف سدس فى الوكالة ومن ربحى هذا وما ربحته من سالم البناء بنيت به وفى أحد الدكاكين كنت أشد المونة للبناء كعادة البناء القديم وكان البناء بدأ يضع حباكة الطوف الأخـير الكرنيش والبرابيت وطبعا ان الطوبات عند الركن تكون زائدة قليلا للخـارج فنسيتها وحملت عليها فمالت بى فلما بدأت أسقط على ظهرى خطر ببالى أن أقفز لأعتدل حتى أصل الأرض برجلى فقفزت فعلا فى الحال نحو الحائط ووقفت على رجـلى فنفذت هذه الحركة ولكننى لم أستطع أن أنفذ الحركة الثانية وهى بمجرد لمس رجلى للأرض أميل الى جهة أخرى لئـلا يقع الطوب الذى سيتبعنى مما مال للوقوع فوقعت الطوبات على ظهرى وان كانت آلمتنى ولكنها أخف من وقوعى على ظهرى من علو يكون أكثر من أربعة أمتار تأمل هذا الخـاطر السريع فى لوقت الحرج الضيق وكيف نفذ بلطف الله تعالى •

مات الحسين كما تقدم وعلقت أمه بحبل فكبر أملنـا فى انا نرزق ولدا يخفف لوعة الوالدة ويلئم جرح الوالد وفى ليلة عشرين رجب نحو نصف الليل والقمر بدر أخذ والدة الحسين الطلق وأنا صاح أنتظر خلاصهـا فزغاريد

النساء فاذا خلصت بسلام والنساء سكوت وقد بهتن لخيبة أملهن فجاءتنى السهوة وقالت قم شجع زوجتك وأمها فقد بهتت كمن صبت عليه المطر فقلت وأنا صبت على المطر مثلهن فأخبرت والدى الذى جاءنى وقال لى : انت عالم فتغضب ان رزقك الله بنتا فقمت لزوجتى وقلت لها سرنى خلاصك وابنتك ولد ذكر لأنها ستكون حصانا مثلك فلما ذهبت للسوق لأشترى البهائم فكلما رأيت خروفا صغيرا فحينما أصله أجده كبيرا لا يوجد عندى ثمنه عكس تسمية آمنة التى وضعت فى ٢٠ رجب سنة ١٣١٤ وما زلت أضعف أملى فى الضأن حتى انتهيت الى شراء عنز سميتها بها فلما سماها أبوها يوسف السارة قالت السهوة (سرت من ؟ أبوها أو أمها الاثنين حزنانين لها لأنهما ينتظران ولدا) فالحمد لله قد جاءت حصانا رزانا .

الحكومة تفرض ضرائب غير مألوفة :

فى بعض الليالى طلبنى الشيخ عبد الله عوض الكريم فتبعت رسوله حيث وجدته وشقيقه الشيخ محمد والشيخ حمد والشيخ محمد عمر البنا وكثير من أعيان رفاعة فأخبرنى متكلمهم أن ...... قد اغتر بكونه عين شيخا للبلد وبمحبة المأمور له وقد ذكر أهل البلد بسوء وقد اجتمعنا هنا لنقسم اليمين على هذا المصحف (وأشار للمصحف موضوعا على كرسى) على أن نسعى لعزله من هذه الوظيفة ولو نضحى فى عزله بأولادنا وأموالنا فقلت هل عنده خبر بقصدكم هذا قالوا لا قلت ارسلونى له لآخذ الشيخ موسى يعقوب صهره معى وأتعهد لكم آتيكم منه بطلبه الاستعفاء فتبلغون قصدكم منه بلا تعب فأنكروا على وسفهوا رأيى وبدءوا يحلفون حتى وصلنى الدور فوضعت يدى على المصحف وقلت أقسم بالله اذا صح قولكم هذا .... ولم يتخلف واحد منكم لاستمريت معكم فى الاقدام حتى يعزل من مشيخة البلد ولا أحمل له عداء بعد العزل اما اذا تخلف واحد وظهر ضعف فى الرواية فانى محلل من اليمين وفى الحال ابرزوا طلبا للمأمور محكى فيه السبب ومطلوب فيه عزله من مشيخة بلدة رفاعة فامضى فيه جميع الجالسين وفى الغد أوصلوه للمأمور ولم أكن معهم لشغلى بالبناء فلما رجع محجوب خليل وكان معهم أخبرنى ان المأمور سأل

المدعى عليه فأنكر وقال للمأمور ليحضروا شاهدا غيرهم فقال له المأمور اذا كثر الخصوم يعتبر منهم البعض شهودا فحفظت هذه الجملة للدفاع بها وفى تلك الليلة أخبر المأمور بأن سعادة لويز باشا مدير المديرية سيزور رفاعة يوم الأحد المقبل فعمل مكتبا لهذه القضية بالجمعة فجلس على كرسيه واصطف الناس أمامه صفا وكتب على العرضحال بالقلم الأحمر بخط كبير مبينا ان هذه القضية مزورة انشاء الله يجازى مقدموها جزاء يكون زجرا لهم وعبرة لغيرهم ثم سأل وهو معبس ادريس عمر البنا هل عندك شكوى من .... غير هذه ؟ فقال لا ثم عثمان ود اسيد ثم سالم عبدالأمين حتى وصل أحمد أبو قرين فقال له أنا من أهل حلة أبيد وجئت للسوق فوجدت جمعية وقفت عليها فسمعت .... وهو مغضب يقول أنا لا أسأل فى سكان رفاعة هم كلهم .... الخ . فسكت عنه وسأل من بعده حتى وصل محمد سليمان المحسى وهو يقول لكل واحد : هل عندك شكوى غير هذه ؟ فقال له محمد سليمان : نعم هو قال لحضرتك ان بنت محمد سليمان زوجة المهدى ممتنعة عن الزواج فيجب أن نكرهها لتتزوج فغضب المأمور وقال له : يا راجل أنا سفيه فقال محمد سليمان حاشاك لو كنت سفيها لوافقته ثم سأل من بعده الى أن وصل عبد الله منصور هل عندك شكوى الخ. قال نعم انه أخذ أربعة خرفان رشوة من أبى لكيلك قال المأمور أين أخذها قال له فى ظل منزلك الشرقى قال المأمور ولأى سبب جئت منزلى قال عبدالله أنا جارك فسكت وسأل حتى وصل الشيخ البنا الذى كان قبلى مباشرة فقال المأمور بصوت التهديد أنا عارف يا شيخ البنا انكم اجتمعتم وحلفتم الكتاب على .... فى هذه القضية المزورة لأجل خاطر ناس دفعوكم لها وانكم ظانون انه يبلغنى عنكم سيآتكم وانكم حاسدوه على وظيفته ولكنى سأقف فيها بتحقيق دقيق يظهر الحقيقة فيعاقب المحرضون كما يستحقون قال الشيخ البنا للمأمور نعم نحن أقسمنا اليمين ولكن القضية واقعة طبق المكتوب قال المأمور طيب نشوف فلما سألنى وكنت آخر الناس فيما يليه قلت له يا حضرة المأمور ان .... وطنى برفاعة كالمولود بها كل صغير يناديه يا عمى .... انى أرى أن هذه القضية ثابتة عليه فنهرنى قائلا : لكن مافيش شهود قلت له قد أدى أحمد أبو قرين شهادته . قال شاهد واحد غير كافى قلت اذا كثر الخصوم يعتبر منهم البعض شهودا قال بحدة انت قرأت

القانون قلت حضرتك صرحت بهذا بالأمس فبلع ريقه وقلب الورقة التى بها الكتابة بالقلم الأحمر وسكت قليلا ثم قال ما أظن هذه القضية لها أصل من الصحة فبادرته بقولى ان حضرة المأمور قال نحن موزوزون من أناس نخشاهم نحن لا نأكل فى قدح أحد ولا تتصرف من جيبه والعبيد الآن عرفوا حريتهم بالحكومة واما قول حضرتك هو يرفع لك أخبارنا حضرتك لا تعتمدها الا بتحقيق فلا خوف علينا وقول حضرتك أنا حاسدوه على وظيفته فهل نحسده على الجرى بدون مرتب فحضرتك الأحسن انه يستعفى وحضرتك تستطيع أن تعينه فى وظيفة تصلحه خير من هذه فالتفت اليه قائلا : أتستعفى قال نعم هم لو طلبوا منى الاستعفاء دون شكوى لاستعفيت وقدم الاستعفاء فى الحال فمزق المأمور الطلب ثم قال سعادة المدير يحضر برفاعة بعد يومين ولا بد من تعيين شيخ لمدينة رفاعة يكون فى مرافقته لما يطلبه فقال الشيخ عبد الله الذى كان جالسا على الأرض بجانب كرسيه تعين محمد حسان قال المأمور لا ينفع قال الشيخ تعين عوض الكريم ولدى قال هو عمدة ونافع فى عموديته قال الشيخ أنا أكون شيخ رفاعة قال المأمور وتتنازل عن وكالة النظاره قال الشيخ عبد الله تنازلت فقبل تعيينه . ولما جاء لويز باشا ونزلنا لمقابلته بالبحر قال المأمور الشيخ عبد الله أبو سن شيخ رفاعة أمشى أمام سعادة المدير فركب الشيخ عبد الله حماره وتقدم المدير فحنق علىّ المأمور مع انى أنقذت موقفه الحرج .

فى هذه السنة حصلوا منا الضرائب القطعان والعشور ثم ردت لنا من الخزينة لكل أحد ما أخذ منه وفى هذه السنة ابتدىء وضع الخفر على المنازل بواسطة لجنة كنت فيها رئيس حارتنا فعملت الكشف بواسطة ثمانية أنفار من الذين يعرفون حالة الناس أكثر منى لغيابى عن رفاعة نحو خمسة عشر سنة وما جد فيها من الغرباء بسبب مجاعة سنتى ٦ و ٧ فكتبت كشفا بحبر تفتة حمراء وبخطى وختمته لكن أحمد أفندى الفكى ونائب المأمور غيروه كغيره بزيادة من فئات الأشخاص وعرضاه على المأمور الذى صار كلما اشتكى له واحد من حارتنا يضيف على اسمى ما يدعيه زيادة عن طاقته وفى آخر مرة كتب لى المأمور على طلب أحدهم عبارة « فدنى يا بابكر على هذا » أخذت هذا الطلب وذهبت

للمأمور بمكتبه فطلبت منه كشف حارتنا فأبرز لى الكشف بخط النائب فقلت هذا الكشف ملعوب فيه فنهرني وقال انت تتكلم بلا عقل فقلت لا يا حضرة المأمور ان من لا عقل له اذا وقف أمامك يعقل وانى أذكرك اني حينما قدمت لك كشفي بيدى قلت لى كشفك ناقص عن الثلاث جنيهات حصته ٨٧ قرش وغيرك كذلك من أين تتم الـ ١٢ قرش قلت من السوق قلت حضرتك تعرف تبحث عن تمام هذا •

بعد ما أتممت بناء السوق توجهت لأم درمان ومعى موسى خالد وموسى الشامابى بعد تسعة شهور غيبتهـا عن زوجتى التى كانت بأم درمان وكنت لا أملك درهما فلما مررنا بالكاملين خرجنا من السفينة لندركها بحلة ولد راوه وقصدنا الطبيب شبيكة الذى استلفت منه جنيها أخبرنى أخيرا انه جسب نقوده فوجدها ناقصة ريالا فصار يجرى وراءنا يسألنا عنه لعله يكون زائدا فى الجنيه سلفتنا ولما يتعب من الجرى يقف ويقول لو ان بابكر يجده زائدا يخبرنى عنه قال ثم ارجع وأقول أضيع ريالى بالظن ثم أجـرى حتى أتعب أكثر من الأولى وهكذا حتى بعدتم عنى فرجعت مرغما وصلنا حلة ولد راوه فوجدنا سـوقها عامرا اشترينا صفيحة بقرشين وملأتها مسلى بخمسة وستين قرشـا وحفظت الباقى فلما وصلنا أم درمان بعت منها بقدر قيمتها فأكملت الجنيه وفتقت لحام الصفيحة عند حد باقى السمن ثم أخذتها ومضيت لمنزلى والموسيان معى فقلت لزوجتى جئنا لكم بهذه الصفيحة التى انفتقت ولم يبق من سمنها الا هذا القليل وهذا الجنيه والغلال عندكم فلما يفرغ الجنيه قولى لى سـافر لأنى لا أملك غيره وصرت أركب حمارى وأذهب للسوق وأترك الموسيين بالمنزل فاذا رجعت من السوق وجدتهما موجودين مع علمهما انى غائب عن زوجتى التى لم تتجاوز العشرين سنة تسعة شهور كاملة هذه هى الثقالة التى أكثر مما ذكرها الله تعالى بقوله فاذا طعمتم فانتشروا الخ • وبعد أن نفذ الجنيه وصرنا نأتدم بالماء أخبرتنى زوجتى يوما ان موسى أعطاها خمسة قروش للملاح فقلت لم قبلتيها منه ؟ قالت: قال لى حالتنا واخده قلت اليوم أقضى معه هذه الليـلة فاضطربت وردت له الخمسة فلما لقينى قال لى : ياولد لأى سبب أرجعت الخمسـة قروش فقلت

واليوم تخرج من هذا البيت لأني رجوت حسن خاطر أخلي لكم دهليزه وفعلا رحلا فيه ثم سافروا .

الصديقان المهدي أحمد وحسن عثمان :

أما أنا فعدت أذهب للسوق فأتواجد مع أصدقائي التجار القدامى وحينما يأتي أوان الغداء أتهرب منهم وأرجع اليهم بعده فأقيل جائعا ففي آخر يوم من الشهر كنت مع المهدي أحمد فلما أراد أن يقفل دكانه أعطاني خمسة وثلاثين قرشا قلت ماهذا يا مهدي قال تغيرون بها الملاح قلت وحينما تنتهي قال الله موجود قلت الآن أليس الله موجودا وغضبت حتى اضطررت أن أقول له (ما ليس من عاداتي أمن باحسان) يا المهدي حينما أخلي دكانك حمد الكردي ألم أقسم لك بضاعة دكاني في ساعتك وصرت تبيع وتدفع لي فاذا وقفت حركتي الآن وسارت حركتك أليس من شرط الاخوة أن تحركني تجاريا بدل أن تعودني قبول الاحسان حتى اني كلما رأيت أحدا أدخل يده في جيبه أظن انه سيعطيني دراهم فأصبح يالمهدي لا أخلاق ولا أرزاق كلا كلا وضربت على يده فقال لي شريكي محمود المكي لا يرضى أن نخالف الشروط المأخوذة علينا من شريكنا عبدالمجيد حسن غريب ثم قال لي فهل ترضى أن تكون سمسارا فقلت أرضى أن أكون خفيرا وفاعلا ولا أرضى أن أضع يدي تحت يد بدون استحقاق قال لي احضر غدا فجئته ومعي بابكر اسحق فقال لنا الحقو السماسرة السيد أحمد ومن معه بفريق حمر فلحقناهم ودخلنا في بيعة ريش ربحنا منها كل واحد سبعة وخمسين قرشا فلما مد لي نصيبي قلت له هذا هو الحلال لا ذاك يا المهدي فامسك بفمي لأنه كان كثير الحياء وأنا كثير الصراحة فخاف أن أقص القصة فيلام على فعلته معي وما زلنا أنا وبابكر اسحق نسمسر لهما في الريش والسن وقبل ذلك كنت عرضت نفسي على بشير عامر طلبت منه أن يجعلني خفيرا بالموردة أرحل الصمغ والبضاعة وأعمل الحساب لما يصرف يوميا عليها فرفض بتاتا قائلا انت تريد أن ترتفع علي حسابي أجعلك خفيرا بجنيهين فينظر غيري ما تستحقه بمهارتك من الراتب فيزاحمني فيك فيكون نصيبي منك السبة بين اخواني التجار الذين يقولون ان بشير عامر الذي يعرف مقدرة بابكر في التجارة وأعان

عليه الدهر حينما خانه بأن جعله خفيرا امش يا سيدى أقفز على كتف غيرى .

كنت أرى من ابراهيم خاطر حركة اشمئزاز من وجودى بمنزله فأعرض على زوجتى الرحول منهم فتقول لى ان والدى لا يرضى بنقلى من بيته وان زمن اقامتك بأم درمان قليل فلا تحرجه فأوافقها رغم شعورى باشمئزازه حتى أرسل كتابا يطلب فيه منى اخلائى منزله فخبأت الخطاب وعرضت عليها طلبى نقلها لبيت آخر فكررت لى عبارتها الأولى فأبرزت لها الخطاب فسقط فى يدها وجرت دموعها فكتبت فى الحال خطابا للشيخ محمد الحاج سليمان عساه يخلى لى غرفة فى منزله ويرسل لى ما عنده من الأولاد ليساعدوا جماعتى فى نقل عفشنا فارسلهم ووضع عفشى وسط سور الحريم حتى تكامل وحضرت بنفسى فقال لى أى المنازل تريد فأخبرته الغرفة التى على الباب فقال لزوجته يا بشرية انقلوا عفشكم لغرفة أخرى فحلفت عليه أن يتركهم وأنا أخذت غرفة شمال الباب فسكنتها حتى سافرت

حلت سنة ١٣١٨ هـ ــ ١٩٠٠ م وهى ميمونة فيها علقت أم أحمد بأحمد .

ففى يوم كنت مع صديقى حسن أفندى عثمان ولما قرب وقت الغداء تهربت منه كعادتى فلما رجعت له فى العصر قال لى أمش معى للبيت فانك لم تزر أولادى منذ سقوط أم درمان فذهبت معه وصار يمنعنى القيام حتى جيىء بالعشاء فقال لى انزل اتعش قلت لا آكل الآن قال والله تنزل فحلفت بالطلاق لا آكل فتأثر جدا وبعد أن فرغوا من الأكل قام معى مودعا فلما بعدنا عاتبنى على تهربى فى السوق وحلفى هنا وقال هل لذلك سبب قلت نعم يا صديقى أنا مؤمن بكرمك العمومى والخصوصى لى ولكنى لى خادمة تأكل بالماء فلم تدخل الحرية وزوجة تأكل بالماء لم تطلب الطلاق وطفل يأكل بالماء لم يبك ولم يأنف منه فلا يجوز لى أن آكل الطعام الدسم وأتجشع لزوجتى فى صدرها لذلك أفضل ان أصلهم جائعا آكل بشهية مما يأكلون فيطمئنون انى مثلهم فيواصلون رضاهم بحالنا هذا الى أن يفتح الله علينا فطأطأ حسن رأسه حينما سمع قولى هذا ثم رفع رأسه وقال لى حقك علينا ورجع متأثرا فلما أصبحت وذهبت للسوق كعادتى وجدت حسن أفندى عثمان عمل لى كشف من البضاعة المختلفة بمبلغ ثلاثمائة وسبعين جنيها بالشركة أخذتها وذهبت لرفاعة بالبضاعة لأصرفها وأذهب للدويم فكردفان لمشترى الصمغ فلما وصلت رفاعة وجدت الكثير من

الناس الكبار يتطلبون المشترى بالسلفة وبعضهم يتشوق للهدية عملت على باب دكاني يافطة كتبت عليها (المتصرف فى مال غيره لا يحمد فى سيره) بخط كبير واضح فاذا جاءني أحد يأمل هدية أو دينا قلت اقرأ اليافطة فان لم يقتنع اشرح له معناها فأن لم يقتنع اقتنعت باشعبيته أو عباطته فلا أبالى به حتى صرفت البضاعة كلها وحولت قيمتها ليوسف وبابكر بالعقيله ولم أترك قرشا واحدا منها دينا .

دخلت سنة ١٣١٨ هـ - ١٩٠١م فسافرت للدويم جعلته مركزا ويوسف بدرى وبابكر البشير وعمى على شكاك بالعقيله بكردفان وكان معى بابكر حاج الفكى بجماله اشتغلنا وصرفت كل الصمغ الذى يرد منهم أو أشتريه بالدويم أحوله لأم درمان برسم شركة ناتان فورد لى خطاب من يوسف فى العقيلة ومعه خطاب لصاحبه البدوى الشعيث الذى كان غائبا بمعتوق ففتحته يطلب منه ثمنه دخان ودفترا أمريكيا فاشتريتهما له وقلت للجمال أخبره انى الذى اشتريتهما له لغياب صاحبه وما كنت أعلم أن يوسف يشرب الدخان قبلها فلما جاء أم درمان زارنى فى منزلى ببيت المال صباح وصوله وقال لى يا بابكر انت تسمح لى بأن أصرف مالك فى اللهو ومعصية الله حتى انك تشترى لى الدخان بنفسك هذه التمنة والدفتر اللتين اشتريتهما لى فحرقهما وقال تبت لله من شراب الدخان ومن كل ما يعصى به الله غيره .

وفى شهر ابريل سنة ١٩٠١ كتبت تلغرافا للشركة أسألهم ثمن الصمغ بأم درمان حينما رأيت أن الوارد يزداد فرد على أن الصمغ ١٤٥ قرش فقلت يكلفنا ١٤٦ قرش بيعوه فوضع عليه ماركة الشركة الخواجة كاسترو وكيل الشركة وحوله من المورده لمخازنهم فلما أتيت أم درمان وتأكدت من تحويل الصمغ ووضع ماركتهم عليه اعتمدت مشتراهم لصمغنا بسعر ١٤٥ قرش عملت حسابى على ذلك فلما جئت للحساب وصار الصمغ ١١٩ قرش أخبرنى الخواجة كاسترو أن صمغى موجود لحسابى فلما كنت لى الأمل فى الشغل معهم باستمرار لم أدقق معه قلت مع طول الزمن ستسدد الخسارة ونبتدىء فى الربح ولكنى حافظت على نسخة تلغرافى وتلغراف الشركة بالرد بسعر ١٤٥ قرش للاحتياط لما عساه أن يكون بعت الصمغ ووردت قيمته بسعر ١١٩ قرش وبعمل الحساب . صارت الخسارة مائة وسبع جنيهات فطالبنى

بدفعها حتى يقبلنى شريكا للمستقبل مع انه يعلم انى لا أستطيع دفعها ثم بلغني أكيدا أن علاقته مع حسن أفندى عثمان فيها فتور وكان متكبرا متعجرفا لا يستطيع أحد من شركائه مهما كانت سنه أو مكانته من أن يذكره باسمه أمامه فلما رأيت منه ذلك أغتبته مع عمي يوسف سليمان بأن هذا الخواجة أما أن يكون مؤجرا فى هذه الشركة وأما انه سىء ادارة لأن التاجر من أولى صفاته التواضع وحسن المعاملة فتنقل قولى هذا الى أن وصله فبلغنى انه قال أما كان الأحسن لبابكر أن يصرف فكره هذا فى شىء ينتفع فيه وبعدها قلب لى ظهر المجنه ثم وصلنى فى انه مجتهد فى أن يدخلنى السجن ان لم أدفع الـ ١٠٧ جنيها فاستأذنته فى أن أذهب الى رفاعة فلم يأذن فبقيت فى أم درمان شهرين (ملازم الفروة[1]) بعد ذلك حررت له صورة شكوى للحكومة وأعلمته انى أطالبه بخسارة الصمغ وضمنتها صورة التلغرافات المتبادلة بخصوص الصمغ كما سبق فطلبنى فلما قابلته قال لى تشكونى للحكومة يا بابكر قلت له انت تعمل نفسك حكومة لك سجن خاص يا كاسترو فاضطرب حينما سمع اسمه مجردا عن لقب التعظيم الذى اعتاد سماعه من الجميع ثم قال لى بصورة الاستغراب ما هذا يا بابكر قلت له أن ابن آدم لما ييأس تظهر لآمته يا كاسترو فقال انت اشتريت من مالنا حمارا وعملت لزوجتك ذهبا قلت كذب من بلغك ان حماري لكل من يعرفنى انه عندى من زمن المهدية ونسائى فى شركتك تجردن من حلى المهدية ولك أن تبحث فتقتنع وعلى كل حال أنا أنذرك انى مسافر رفاعة وأرجع منها فى الميعاد المعين لسماع القضية قال هل حسن عثمان يشتغل معك بالفصل أو بالشراكة قلت أنت الذى أعطيتنى المبلغ الاخير نقدا بالشراكة وهو الذى حصلت فيه الخسارة التى أنت سببها طلب محمد السيد باشكاتب المحل وقال هل نحن قيدنا المبلغ الأخير على بابكر شراكة أو فصلا فضحكت فاستشاط غضبا وقال لم تضحك ؟ قلت أضحكنى ان المبلغ النقد ذهب يسأل عنه شراكة أو فصلا فتنبه لغلطته وقال لى أترك الشكوى وامش لرفاعة فبع الحمار وحول لنا ثمنه قلت جميل وبعد ثمن الحمار قال نؤجلك فى دفع الباقى أقساطا سلمت وقمت فأرسل محمد أفندى السيد يفهم ما انطويت عليه فقلت له

---

(١) اصطلاح يستعمل فى المهدية كناية على تحديد الاقامة بالحضور للمسجد فى جنب رقيب .

. يريد أن أدفع له ثمن الحمار فيعتبره قسطا أولا فيثبت بذلك أن الخسارة دين على فأخبره انى يمكن احترفت التجارة قبله فليتقدم لشكوتى ليسجننى فينظر ما الذى يحصل وسافرت •

وفى أثناء هذه الضائقة نظمت بعض أبيات من الشعر أتسلى وأتعزى بها فقلت فيها :

« حمدنا السرى بأحمد »

فى يوم ١٦ مايو سنة ١٩٠١ الموافق أول صفر سنة ١٣١٩هـ ورد لى تلغراف بوضع ابنى أحمد الذى كتبت تلغراف بتسميته علم الايمان وفى هذه الأيام سجن تاجر من التجار الوطنيين الكبار بسبب تلاعبه مع •••• الأفندى كاتب السوق فرأيته حاملا الفنطاس يرش لنا أمام الدكاكين حلفت على المصحف الشريف وبطلاق الثلاثة من كل امرأة تحل لى انى فى هذه الحكومة لا آخذ رشوة ولا أعطى رشوة وثابرت على ذلك على انى كنت فى المهدية ماهرا فى اعطاء حكامها الرشوة مهما عف أحدهم عنها فمن رشى عمى •••• بأم درمان وعمى ••• ببربر انه ماهر فى الرشوة .

وصلت رفاعة وقابلت المأمور عبد العزيز مجدى وأطلعته على كل الأوراق فقال لى لا تعطه قرشا واحدا قلت أنا أخاف أن يشكونى قال المأمور اذا شكاك آنا أحول القضية هنا وأدافع عنك فلم أعطه شيئا ثم فكرت فى بناء بيتى الحالى برفاعة اشتريت بئر محمد صكمادى من ولده وزوجته بـ ١ جنيه و ٣٠٠ مليم وربع زراق وأعطانى المأمور عليها مساحة شرقها فصارت كل المساحة ٧٧٨٤ مترا ولم يكن عندى غير عشر جنيهات فشققت أساس السور وبيت حفصة بمخزنه والحاصل ومنزل الحسنى ومنزل والدى والمطبخ والديوان (قير قيرة) بمخزنه فقال لى والدى يا بابكر نحن كنا نبنى المربعة الواحدة فى ثلاث سنوات الأولى الى العتبة والثانية الى السقف وفى السنة الثالثة حتى نسقفها أنت تفتح أساس حوش وست مربعات وما عندك غير مائة ريال قلت ان شاء الله ربنا يتمها كما عودنى تعالى فأجرت ثلاثة عبيد مع عبيدى الثلاثة وكنت قد أخبرت

سالم الحاج محمد البناء ينتظرنى برفاعة وستأتى سيرته كاملة فشرعنا نبنى حتى وصلنا العتب الأعلى نزلت البحر أسأل عن الأعتاب عند عبد الله الحورى النشار فقال لى العتبة للمنزل الواحد ثمانية عشر قرشا قلت : اجعلها باثنتى عشر قرشا لأجلى فأبى فقلت الأحسن لك أن توافقنى والا فانى أقيم هنا وأضاربك قال اصنع ما شئت فجلست فى خشبة أفكر فيما أصنع فاذا جماعة من حلة ود أبشر بحرى الكاملين رباطاب عندهم ثلاثة أطواف من خشب السدر وطفاحها من الدبكر أوقفوها بالشاطىء ومروا على فحيونى فاذا هم ممن أعرفهم من صرص قالوا نحن حطبنا هذا غير مرخص وفى مدنى يصادرونه وفى الكاملين أيضا يصادرونه ثم قالوا نأتيك برفاعة لتعمل لنا مساعدة فى بيعه قلت أخرجوه من البحر فأخرجوه وصفوا رصاص السدر وحده وطفاح الدبكر وحده وعندهم مرق مبلط تركوه فى الماء فى الحجرة فاشتريته منهم بواقع الطوف مائة وأربعين قرشا كان عندى ١٤ قرش قدمتها لهم وقلت امضوا الى أولادكم لتعيدوا معهم ويرجع أحدكم لى أعطيه باقى الحساب ففعلوا فدعوتهم للغداء فأجابوا دعوتى. طلعوا السوق وأنا مررت على الخشب عزلت منه ما يصلح أن يكون عتبة فجمعت منه كل أعتابى وضممت لها ثمانية وعشرين رصاصة من أجودها للديوان وأرسلت الجميع لبيتى وجلست فى مكانى جاء على الحاج طه ومعه على بخيت البطحانى فرأوا المرق المبلط قالوا هذا (التوريق) لمن قلت لى قال على الحاج طه نشتريه منك لعلى بخيت بثمانية ريالات قلت يفتح الله قال على الطلاق لا يزيدك على الاثنى عشر ريالا قلت هاتها فدفعها لى ولو لم يقل التوريق لما انتبهت مطامعى فيه لهذا الحد ثم جاء محمد شريف مأمور أربجى (وقتذاك) والذى قتله الحلاوين فرأى دبكر الطفاح قال لمن هذا قلت لى قال اشتريته منك قلت ما تريد به قال أبنى عليه كشاشات قلت يمكن يسوس قال أنا جربته فاشتراه منى بمائة وستون قرشا دفعها فى الحال فصار عندى باقى نقود الطوف فسمع الشيخان محمد عمر البنا وسالم عبد الأمين فجاءونى فى البحر وقاسمونى الباقى بسعر الجميع بعد أن أخبرتهم بما بعته وما حولته فدفعوا لى مائتين وثمانين قرشا أخرى دفعتها لوالدى ليصرف منها وأقمت بالبحر تاجرا فى الخشب حتى أتممت منازلى من أرباحى رغم ترجى عبد الله

الحورى لى بأن أسكن بيتى ويجعل لى ثلث ما يربح فلما قضيت منـــازلى وتمعنت فى علو الديوان وجمال سقفه زارنى فيه الشيخ ادريس البنا مرة فلما نظر سقفه قال والله العبيليج جسيل جدا ولكنـه يبكى ويقول يأكلون فى (أم شعيفة) « وآى » يأكلون فى الخضرة تراوحا (وآى) يأكلون فى بالماء • اشارة لفقرنا ثم قال انتَ تبنى ونحن نقول لا يستطيع تمام كل هذا فيعجز منهونشتريه منه بتراب الفلوس فلما أتممتها قلنا يأتى السيل يرميها فلما حولت المجـــرى وسلمت قلنا تأتى شركة ناتان وتدللها نشتريها رخيصة فنجوت من كل هـذا بشيطنتك فما بقى لنا الا أن تحسدك قلت أما سمعت المثل الحاسد ناره تأكله فضحك وودعنا • حضر يوسف أخى من كركوج بمـركب بها سمسم وأدره بباقى مبلغ شركة ناتان الذى سافر به لكركوج بعد أن تغدينا مع رجال مركبه نزلت معه للبحر أودعه قال لى فى الطريق أنا أذهب للحجاز أحج وأجاور فيـه قلت وزوجتك قال انى أطلقها قلت وولدك وأبيك قال ولدى أنا لا يد لى فيـه الا وضعه فى بطن أمه فأنت القائم بأمره وأمر أبى فقلت انتظر بأم درمان حتى آتيك فلما وصلت أم درمان زرته فى بيته فعلمت انه خرج بالركوة فلما لم يأت فى الوقت الذى يعود فيه مثله عادة تتبعت أثره • فوجدته فى خربة يسـبح فأخذته وجئت به الى منزله فعلمت منه أنه تعبد باسمأعطيه هو وصهره أبو زيد من رجل صالح قلت له يا يوسف هل عندك أحد يشفق عليك أو يحتاج لك أكثر منى ومن الرسالة زوجتك قال لا قلت نحن خير لنا لعبك ولهوك الذى كنت فيه وارجع له واترك الأسماء فانها تدعو الى الجنون وكثير من النـــاس الذين يستعلمونها تذهب بحياتهم أما بالموت أو بالخبل فتركها واستمر فيها أبو زيد الذى جذبته فصار يرى خيالات أدت به أن يقتل خادمة قتل بها شنقا •

لم أخرج من أم درمان حتى جعلت ليوسف شركته مع ناس كوركجيـان بواسطة المهدى أحمد وشهادته فينا لتكون له شغلا ان لم يجد منهـا ربحا لما اتفقنا على الأثمان والأنواع ورأينا البضاعة التى لولا احتياجى فى صرف يوسف لناحية عمل ما كنت أقبلها لرداءة صنفها وبينما نحن نستلمهـا من الضحى الى العصر جاء الخواجة نظاريت فرمى لحماره قشا من النجيلة وكان بجيبه نقـود ارتمت فى الأرض فلما خرجنا مررنا على مربط الحمار فرأيت ريالا كبيرا ورأى يوسف غيره حتى جمعناها نحو مائتين وخمسين قرشا فقبضتها بيـدى وسرنا

لنتفاوض مع نظريت فى النفر للدويم وما يلزم له حتى وصلناه فقلت له كانت معك فلوس قال نعم مائتين وخمسين قرشا ولمس جيبه فمـــددتها له قال أين وجدتموها ؟ قلت بمربط الحمار قال حسن الخدام رآكم قلت لا قال والله أنتم ناس طيبون فضحكنا عليه وخرجنا منه وفى غد سافر يوسف للدويم فبعـــد الوداع قلت له لا ترسل لنا شيئا حتى تكون لك رأس مال ولا ترسل لأولادك أكثر من جنيهين فى الشهر ورجعت منه ٠

((يتجه تفكيرى عن التجارة الى التعليم))

وفى غد قمت لرفاعة بوصولها أخبرنى حضرة المأمور عبد العزيز مجدى ان المدير بلوت بك نشر اعلانا لكل مأمورى مديرية الجزيرة بأنه تبرع من نفسه بمبلغ خمسين جنيها لبناء مدرسة بمديريته فالمأمور الذى يستطيع أن يؤثر على أهالى مركزه يقررها له ولى أمل أن تكون برفاعة فساعدنا فى اظهار رغبـــة الأهالى فوعدته بذلك وصرت أفكر فيما أبدأ به من العمل حتى لا أصـــدم فى باكورتى بالفشل فرأيت انى لو تحلصت على موافقة الشيخ عبد الله عــوض الكريم أبى سن أنجح فى تأثيرى على غيره وكان الشيخ عبد الله يرغب فى تعيينه وكيل ناظر الشكرية رسميا والشيخ على الهد أخوه هو الوكيل الرســـمى آنذاك فقلت للشيخ عبد الله ان المدير يرغب فى فتح مدرسة بمـــدينة رفاعة والمأمور له رغبة أكيدة فى اتمام رغبة المدير وأمل الحكومة فى تعليم النـــاس كبير جدا فمن يساعدهم فى بدايته حالا وفى تشجيع نشره مالا يكون محبــوبا عندهم فيعولون عليه فى استعانتهم فى وظائف البلاد فانى أرى انك لو أظهرت رضاءك بالمدرسة ببلدك ودعوت غيرك من أولادك الذين أنا منهم لما يخـالفك منا أحد فتحفظ لك هذه اليد عند كل الحكومة وهذا أقرب طريق لثقة الحكام بك ومعرفتهم لك المعرفة الحقة فقابل كلامى هذا بسرور وأمل عظيمين فكتب ولده عبد الله فى أول الكشف فأخبرت المأمور بموافقة الشيخ عبد الله عـــلى المدرسة وانه كتب ولده عبد الله فارتاح جدا وطلب الشيخ عبد الله الذى كان بينهما سوء الفهم مستحكما فسأله فأجابه بما طمأنه على نجاح مهمتــه وأراه عظيم رغبته فى تعليم مواطنيه ففى غد جمع المأمور النـــاس وفاتحهم فى فتح

المدرسة برفاعة اذا رغبوا رغبة خالية من الخـــوف والمجاملة فأجابه الشيخ عبد الله وتكلمت بعده بفائدة التعليم وتكلم بعدى الشيخ محمد عمر البنـا الذى بالغ فى اطراء التعليم وكتب أسماء ابنه عبد الله وأبناء أخيه على وعمـر وعبد الله فكتب فى المجلس ثمانية وعشرون تلميذا فأرسل حضرة المأمور الذى سر جدا وأرسل الكشف لمدير أربجى فقرر المدرسة لمركز رفاعة دون المراكز •
فبنيت غرفة واحدة طولها ١٦ مترا وعرضها ٨ أمتار وبها عموذان يقسمانهـا الى ثلاثة أقسام وفى غربها مسطبة بعرضها وامتـداها مائة وأربعين سنتيمترا لوضع تختة التباشير عليها كنت كثيرا ما أسهر مع المأمور ونائبه ونبحث فى علم الحساب كنت أحضر الجواب شفهيا بالطريقة التجارية وهما يكتبان بالقـواعد فيطابق جوابهما جوابى ولكن حينما أسأل كيف جئت بهذا الجواب من طريقة القواعد لا أستطيع أن أجاوب جوابا مفصلا فلما تم بناء المدرسة كتب حضرة المأمور اعلانا أوضح فيه شروط المعـلم التى تؤهله ليكون ناظرا للمدرسة ليشتغل فيها بمفرده فقدم الشيخ أحمد يوسف نعمة والشيخ محمد عثمان على العمرابى وفى ليلة سهرت فيها مع حضرة المأمور عرض علـى تعيينى ناظرا اذا كنت أوفى باقي الشروط مع علمى بالحساب بمرتب بدائى قدره ثلاث جنيهات أو ثلاث جنيهات ونصف فقبلت وراجعت حفظى للقرآن الشريف ففى أقل من أسبوع راجعت بحفظ جيد وكنت أتمنى أن يتأخر امتحانى الى أن أراجعـه جميعه ولكنى طلبت الى الامتحان بأربجى التى كانت عاصمة مديرية الجزيرة فى ذلك الوقت امتحننى قسطنطين أفندى سعد باشكاتب المـديرية وكان رغم مسيحيته يحفظ الكثير من القرآن الشريف امتحننى فى القواعد الأربعة تمازين بلا مسائل وموضوعا انشائيا خيرنى فى اختياره فأتذكر إنى كتبت خطابا للشيخ التاى سعيد طلبت منه مشترى كمية عينتها من الغلال مع رسول بيده مقدار من النقدية تحت الحساب مع التكرم باخبارى بما بقى على مضافا اليه أجرة الترحيل وامتحانى فى القرآن الكريم فى جملة من الصور ويطلب منى اعـراب بعض الآيات وكان ممسكا المصحف الشريف بيده فآخر ما قرأت منه « لن تنـالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » فلما وصلت « ولله على النـاس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » قال كيف تعرب من استطاع قلت من بدل من النـاس قال صدق الله العظيم يكفى وكتب بلياقتى وطلب تعيينى فعينت ولكن بجنيهين

فغضب المأمور واجتهد فى الزيادة فلم يجب وأبدى أسفه فقلت الواجب على أن أعلم فى بلدى بلا أجرة فلا تحزن فلما بقى أسبوع من فتح المدرسة طلبت من المأمور أن يكتب لى للخرطوم لأتمرن باحدى المدارس قال لى المأمور الوقت قصير وأنا أرشدك لطريقة التعليم قلت ربما تقول لى شيئا لا أفهمه أو أنفذه جيدا فتفهم انى بليد وتلصق هذه الفكرة فى رأيك فتضر بمستقبلى فأنا أصمم أن أصل الى الخرطوم لأرى العمل بعينى من حيث أدواته وآلاته واستعمالها وأرجع مساء الجمعة ١٣ فبراير وأفتح المدرسة يوم السبت ١٤ فبراير ان شاء الله فقال لى بخاطرك ٠

« ثلاثة أيام تدريب بالكلية »

ركبت حمارى مساء الخميس بت بالهلالية ولما دخلت الكاملين عزم على عبد الله الحسن صديقى فأخرنى فبت الجمعة معه وأسحرت بالسبت حيث بت بالسبيل ودخلت الخرطوم نحو الساعة ٨ صباحا ربطت حمارى عنــد باب المدرسة التى كان ناظرها المرحوم ابراهيم أفنـدى كامل الكامل بحق ودخلت عليهم فسلمته خطاب المأمور بأنى امتحنت وأرسلت للتمرين وكان خط الكاتب (هكذا امتحنى وأرسل) فقرئت امتحنه وارسله فجمع لى الشيخ عليش والشيخ أبا المجد وحسن أفندى سالم وقال لهم امتحنوا الشيخ بتاع رفاعة فقلت له هل هذا انصاف يأتيكم شخص مسافرا منذ يومين فبدلا من أن تقدموا له ماء أو طعاما تبتدءونه بالامتحان فضحك رحمه الله وقال هــذا امتحــان لنا أتركوه فأحضروا لى فطور وقهوة وبعد فراغى قلت له أنا سبق امتحنونى وعينوا ماهيتى وأنا الذى طلبت التمرين فى باقى أيام الاسبوع فراجع الكتابة وكتب بها لهداية بك بالكلية الذى رد بتخييرى فى التمرين بأم درمان أو فى الخرطوم فأخـذت الخرطوم مخافة أن أشتغل ببيتى وابنى أحمد عن التمرين فقال لى ابراهيم أفندى أدخل أى فصل شئت فأول دخولى كان فى حصة حساب بالسنة الثانية لما دخلت ورأيت تختة الطباشير ولم أرها قبل ذلك قلت ما يراد بها ليت شعرى ثم دخل المعلم وقال لأحدهم اطلع التختة فقام التلميذ فقال المعلم أمسك الطباشيرة بيدك اليمنى والبشاورة بيدك اليسرى فأخرجت مذكرتى وكتبت فيها هذه الأشـياء

وطريقة استعمالها ثم قال له أكتب واملاه أعدادا على الجمع فعرفت الغرض والاستعمال وكتبته ثم انتقلت للشيخ عليش فى العربى والاملاء وسجلت ما رأيته من مادة وطريقة وآلة (مسطرة وكراس) قضيت كل يومى الدراسى ولم أصل أم درمان نمت بحمارى بسوق الخرطوم وعند خروجى سألت عن الميعاد للدخول فقيل لى موعد الجمباز الساعة ٦ و ٣٠ دقيقة صباحا ودخول الفصول ثمانية فجئت للطابور وقفت فى الصف مع التلاميذ فغلطت مرتين وفى الثالثة قبض الصول على لحيتى وهزها بعنف فغضب ابراهيم أفندى وانتهره فقلت له أتركه يا سيدى أنا طالب علم وكلما جهل الانسان فنا فهو صبى فيه فدعا لى بخير وقال نعم أنت طالب علم بحق ولكن قف خارج الصف وأنظر لحركاتهم حتى تميزها فادخل الطابور معهم عملت بنصيحته وزدت أن كتبت أصوات النداء ومعانيها بجانبها ورسمت الاتجاهات لكل صغدن وصلدن ويرنه وزنهار الى آخره حتى (سلام أل) ثم ضرب الجرس للدخول فوقفت مع التلاميذ وأديت الحركات معهم وقضيت يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء كانت وقفة عيد الأضحى فعبرت النيل لأم درمان حيث قضيت العيد بمنزلى واجتمعت بصديقى الحميم الشيخ محمد أحمد فضل حيث كان مدرسا بكتاب أم درمان الذى بدىء بدكانى السيد العوضى بالجزء الغربى الجنوبى لبناء مدرسة أم درمان الحالية واسترشدته فيما يجب أن أعامل به رؤسائى وكيف أتوصل الى النجاح فى عملى الجديد فسمح لى بشرح كل ما سألته عنه باخلاص ولكنى لما جئت لهداية بك المصرى الذى خدم السودان باخلاص عظيم وهمة عالية واخلاص لا يشوبه ما يشوبه فى عمله ومعاملته أحمد هدايت مدير الكلية وقتذاك نصحنى بتركى الاستمرار فى تعلم اللغة الانجليزية التى كنت بدأت تعلمها فى أول الفتوح وأنا تاجر بالدويم وأبذال جهدى فى توسيع معلوماتى فى العربى فعملت بنصحه ويوم الجمعة فى أول معدية عديت فمررت على ابراهيم أفندى كامل فى منزله فوجدت معه جماعة أتذكر منهم حسن بك أحمد وسماحه أفندى فلما ودعته قال لى الى أين قلت لرفاعة لأفتح المدرسة غدا قال لى عرفت أى شىء فى يومين تفتح به المدرسة قلت كان رجلان أبناء خالتين أحدهما عالم والثانى شيخ طريقة فقال العالم لشيخ الطريقة ضللتم الناس وجهلتموهم كيف

يعرفوا الله ويعبدوه فقال له شيخ الطريقـــة يا أخى نحن نهلفهم لكم وأنتم ملسوهم فطلبوا منى شرح العبارة فشرحتها لهم فضحكوا وودعونى فركبت وفى المغرب أنا فى الكاملين عديت بالشرق وصلت أهلى بعد الساعة ١٢ مساء فعرفونى أن حضرة المأمور أرسل لآباء الأولاد يبكرون على المدرسة ليبــاشر تعليمهم بنفسه لحينما أحضر أنا من الخرطوم فلما جاء للمدرسة بعد الســاعة ٨ وجدنى بالمدرسة وأمرت التلاميذ بسلام أل فوقفوا وأدوا له تحيــة التعظيم فضحك سرورا .

« القلوب ثلاثة ـ هكذا بدأت مدرسا فى فبراير سنة ١٩٠٣ »

وفى الحال شرعت بقولى لهم اسمعوا يا أولادى القلوب ثلاثة قلب البليد وهو معكوس الوضع فمه لتحت فكل الكلام يمر عليه كما يمر الماء على الزير المقلوب الثانى قلب اللعوب معتدل ولكنه مقدود من فوق ومقدود من تحت يدخل الكلام فيه ويخرج وقلب النبيه فمه أعلى ومقفول من تحت يدخل فيــه الكلام فيحفظه ومتى احتاج اليه صاحبه يجده محفوظا فينتفع به من كان يحب أن يكون قلبه قلب اللعوب فليرفع اصبعه (لا زافع) من يريد أن يكون قلبه قلب النبيه فليرفع اصبعه (الكل رفعوا) اذا كلنا حفظنا ما قيل لنــا نعم نعم حفظناه لأى سبب ؟ لننتفع به عند الحاجة . ومن لم ينتفع به ماذا تســمونه ؟ مهمل بليد فضحك المأمور وقال لهم أنا شاهد ثم افتتحت المدرسة بسورة الفاتحة ثم قلت لهم أن أولاد المصريين بالخرطوم يضحكون على أولاد السودانيين فى مخرج القاف والغين وأنا عملت لكم بيتا فيه ستة قافات وأربع غينات فلنحفظه الآن ونوكل بعضنا على القاف وبعضنا على الغين من يغلط فى أحــدهما نرفع اصبعنا :.

قولى يقلقل القاف قلقلة	وغيرى يغير الغين تغييرا

وكررناها حتى حفظناه صحيحا وحرصنا جدا على المخرجين حتى صارا كالطبيعيين لهم بحيث مخرج الغين يقرب من مخرج الخاء ومخرج القــاف من مخرج الكاف بنظرية فيهما وقد أحضرت معى كتبا من الخرطوم فى الجغرافيا والاملاء والحساب وصرت أقرؤها بالليل وأختصرها وأنظم الدرس الذى أريد تحضيره نظما منقحا وأحفظه حتى أنام قد يمكث معى هذا العمل لانجازه نحو

ثلاث ساعات • أخذ على شرطا كتابيا الا أطالب بمساعد فلمـا رأيت ضرورة المساعد صرت أدعو الناس الى الحاق أولادهم بالمدرسة حتى صار العدد اثنين وأربعين تلميذا من ثمانية وعشرين • كتبت للمأمور طلبا بتعيين مساعد فرد على يذكرني بالشرط بعدم طلبى مساعدا فرددت على حضرته كتابيا بأن عددالتلامذة ازداد خمسين فى المائة ولا يخفاكم اضطراب التعليم ان لم يكن تعذره فى أولاد مستجدين مختلفين فى أعمارهم ومعلوماتهم وأفكارهم فاما أن نرجع العدد الى ما كان عند فتح المدرسة وقبول الشرط واما تصادقون على تعيين المســاعد فأرسل ردى هذا لسعادة المدير الذى جاء للمدرسة وقال لى لا توجد عنـدنا ميزانية للمساعد قلت أنا أفرض على آباء التلاميذ المستجدين رسوم تعليم قال المدير لكني أعلنت ان التعليم مجانا قلت أنا أضمن ألا تصلك شكوى من أحد لأن الولد لا نطالبه بأكثر من ثلاثة قروش فى الشهر ووالده لا يخالفنى فيها لأنى قرأت معه القرآن وكبرنا معا فقال لى انت من سكان رفاعة قديما قلت نعم فلم يصادق ولم يمانع بل خرج بالصمت عن لا و نعم فرجحت جانب الرضا وفرضت على كل ولد مستجد ٣ قروش • حضرة المأمور أراد محجوب محمد عثمـان كرجاء والده وأنا رغبت تعيين الشيخ عبد اللطيف أحمد فتغلب طبعا رأى المأمور ولكن محجوبا لم يبق طويلا لاهماله وانه يطالب الأولاد الصغار باعطائه نقودا يشترى منها بتاوا (أرغفة دره) يأكله فى الفصل فجاء المأمور بغتـة فوجـده ملتفتا ناحية يأكل بتاوا بدقه فقال لى احضر غيره فأرسلت للشيخ عبد اللطيف وتعين بعدى بثلاثة أسابيع كنا نعطيه ٣٢٩ قرشا من ايراد الأولاد والباقى للمـاء للشرب • فتحت المدرسة يوم ١٤ فبراير سنة ١٩٠٣ م الموافق ١٣ الحجة ١٣٢١هـ سار التعليم باجتهاد غير اعتيادى كنا ندخل الفصول الساعة ٨ صباحا ونفسح التلاميذ الساعة ١٢ ليتغدوا ويرجعوا الساعة ٣٫٣٠ الى الساعة ٥٫١٥ نخرج الى الألعاب الى الغروب. نأخذالكبار للمنزل نذاكر الى الساعة ٩ غالبا فيبرحون لمنازلهم وأشرع فى المذاكرة غالبا الى الساعة ١٢ لتحضير دروسى ونظمها وحفظها فنظمت الجغرافيا بحسب البروجرام وقتذاك وبعض قواعد الحساب وكل قواعد الاملاء فمما أحفظه من نظم الجغرافيا للجهات :

اما الجهـــات فى اصطلاح للنخرط

شــــمالها أعــــلى اذا ما علقت

وان تدلت فليكن اماما
جنوبا نحو صدرك التزاما
والشرق من يمين ناظر بدا
والغرب من شماله قل ابدا

مديريات السودان :

لحلفا وأحمر دنقلا كسلا بربر
وخرطوم والنيلين قل كردفاننا
وسنار أعالى والجبال ومنقلا
وبحر غزال ثم دارفور حدنا

المراكز والبلدان المهمة وموقعها بخطوط الطول والعرض وموقعها
مديرية حلفا — ومديرية دنقلا :

أدندان حلفا كوشه دلقو لحلفة
وارقو وأردى خندق الدبة منحنا
(يحال)كورتى مروى الكرسى برقل لدنقلا
أبو حمد ملقى الخطوط به مثنا

مديرية بربر :

رباطاب بربر أتبره ملتقى بهما
خطوط حديد دامر الكرسى باعتنا

الخرطوم :

بشندى فتمم بربرا ثم جبيله
وخرطوم بحرى والأساس به يعنا
وتوتى وأم درمان أعنى برسمها
وموضع حرب زال عنابه العنا

النيل الأزرق :

لازرق نيـــل كاملين وقبلهـــا
أبو دليق شرقا للبوادى به السـكنا
حصاحيصة سلم رفاعة شرقهـــا
وود مدنى الكرسى مناقلهـا الأدنى

مديرية سنار :

لسنار سنار وسنجة كرسـها
ودندر شرقا أب نعـامة اتقنـا
رصيرص فاز وغلى الختـام وغرباً
لسودا وكرمك منها شرق جنوبنا

مديرية كسلا :

لخرطوم كسـلا عرضـا لطولهـا
يجول لقـلابات وهى حـدودنا
قضـارف يتهل والمفـازة منحنى

النيل الأبيض :

لا بيض نيـل فالقطينـة وكرسـه
دويم وكوه كوستى أبو جمعة بنـا
به كبرى خط الغرب سردار ونجت
فطوبى لك العمران يا كوستى والهنا

كردفان :

بجى فكرسى كردفان أبيـض
وبأره وأم دم أم روابة شرقنـا
أبو زبد ثم النهـود أضيـة
ثلاثتهـا غربا تميـل جنوبنـا

الجبـــال :

تلودى بلن ين ثم تقلى وتنـــدك
يلن ليرى تندك لا أين كفـــديرنا
بأى كطن كادوقلى عرض دلنج بيى
رشاد وعباسية حذ لشرق جبـــالنا

دارفور :

ودارفور بعـــد لم تقسم سياسيا
وفاشر كرسـيها بجى كهن بنـــا
له عبد الرحمن الرشـــيد بوادى
بتندلتى يسمى ثالث عشر قرنـــا

أعالى النيل :

أعاليه رنك ثم ملوط وكرســـه
كدوك وتوفيقا وسـوباط ألن لنـــا
عليّـه أبونج وجمبيـــلا شرقه
بأرض أحابيش لســوق تجـارنا .

منقــلا :

لمنقــلا بور روق فديت شرقه
وعالياب غربا منجلا الكرس أتقنـــا
ولادو بهذا العـــام ضمت لمنقـــلا
بمـوت ليوبولد فأبت لحكمنـــا
مراكزه رجاف كاجكاجـــو دوفلى
ولوكاويى فاحفظنها

بحر الغزال :

لبحـر غزال واو خـــكز ومشرع
وتونج وورومبيك شامبى شرق مقولنا

مقولو بلو وضعـاوكفكنج كدوطن

وحفرة نحاس كن وطن حد فورنا

وراجنـــا وكفكنـــج وديم زبير

نحاس لحد دارفور غرب شـــمالنا

((ومن نظم الحساب للمضاعف البسيط)) :

مضاعف المداخــــلات الأكبر

مشترك لهــــا يكون الأصفـــــر

ممـــاثلاث واحــــد منهــــا كفى

وذو اشتراك باختصار قــــد وفى

وذو تخـــالف يكن بالحاصــــــل

من ضربها فى بعضها فى الحاصــــل

((وفى قواعد الاملاء منظومة كاملة مستعملة للآن كذلك)) :

وكل كلمــــة تكون مـــن حـــرف

وأل ونا عن وصلهـــــا لا تنحـــرف

وان تزد ففصــــلها قــــد عينــوا

الا الذى لحكمــــه قــــد بينــوا

ممـــــا أضيف لاذ من الظــــروف

ثلثمــائة عــند الى الألوف

واسم واسم ركبـــا ومزجـــا

ومـــا بمن ومـــا بوصــــل أدرجا

توصــــل أن لمصـــدر ان علمت

فى فصلهــــا النصب بلا ان نفيت

واستفهمن بشرط وصــــل وأعجبن

لنكرة الأســـماء خمس فافهمن

ونفى كاف زائد مهيـــأ
ومصدر الحروف فافهم تهنـــأ

ووصلهـــا موصـــولة أو نكرة
بمن وعن مـــن غير نون أخـبرا

كـــذاك فى وحقهـــا ان نكـرت
بنعم اذ ما عينهـــا قـــد كسرت

ووصلهـــا مستفهما بحرف جـــر
أو مقتض مع حذف ألفهـــا استقر

زائدة بالجـــار والمضـــاف
ظرف وشرط سى مـــع خـــلاف

وان تهيىء (رب) أوصلها بهـــا
كل ومثـــل مصـــدرية لهـــا

وكافة بكل عامـــل يكف
مـــع رفـــع أو نصـــب يؤتلفه

باب الهمزة ((قواعد الاملاء))

اذا أتتـــك أولا فى كلمـــة
فألفا تكون مهمـــا كانت

ان أخا أولئـــك الـــذين عـــم
تصديرها بغير أهـــل يلتزم

وان تكن من الحـــروف آخـــرا
كشكلة المتبوع حرفا صـــورا

كيقرأ المنشىء درســـا يمرؤ
واستخرجت مـــن كلهـــا التبـــوء

وان أتت من بعـــد حرف ســـاكن
فأولهـــا الأصـــل ولا تداهن

كجـــاء دفء واستضىء وضـــوءا
لا الـــذى فى نصـــبه كشـــيئا

ووسط تكتب مما قبلها
مفتوحة ساكنة مثالها
سألته سؤال هذه الفئة
كمؤمن أو جئته فى مأمنه
مضمومة مكسورة ان وسطت
حقيقة من شكلها قد كتبت
وهمزة فى وسط قد كسرت
أو يكسرن ما قبلها يا أبدلت
أو يسكنن ما قبلها مصححا
تبدل مثل شكلها مستوضحا
كاسأله أين ملؤه من ملئنا
ورؤف رئيسنا بحالنا
مضمومة فى وسط لم يكسرن
ما قبلها واوادواما تبدلن
وهمزة من قبل واو مدها
سطرية فى عرفهم تكتبها
عدا يؤوس ويؤول ومؤول
مؤونة شؤون قوم وتؤول
يؤوب ما السؤول لح وتؤوم
وأين تكتب وعاشر لؤوم

((با ب الالف اللينه))

لو ألف اكتبن ان فتحت
وبعد واو ابدلن ان كسرت
وبعد ياء تكتبن جميعها
واصطلحوا بنبرة لوضعها
وكل همز بين مدين كتب
جاءا بيوء لا كجائينا نصب

وألف من كلمة بأربع
من الحروف أو تزد ياء ضع
ماض ثلاث ان بهمز افتتح
أو واو أو توسطا ياء يصح
واسم ثلاثى ان يضم أوله
أو يكسرن يا جوازا اجعله
فتعرف اسما حيثما حولته
وماضيا مضارعا أولته

للأعجمى وكل ما بينا
يكتب ألفا غير ما استثنينا
بخارى كسرى عيسى موسى اعتبر
للأعجمى كذاك متى واقتصر
الى بلى حتى على للأحرف
انى متى لدى الألى اسما أعرف

تحذف من الحروف سبع جمعها
فى (انت مولاى) وخذ ترتيبها
فهمزة للقطع فى أمر أكل
والوصل فى ماض ومصدر وأل

كافتراء انطلقت فارتدع
وخذ طريقا للصواب يتبع
وهمز أين بعديا أو قد نسب
حقا ولم يفصل وفى سطر كتب

وألف من بعد همزة الألف
اذ غير ما للكراهة حذف
كأخذ مكافآت آدم
لا قرأ أو المد عوض يعلم

وألف من قبل همز والعلم
مشهد كامل أجزا اعلم
وحذف ال من اسم قد عرف بها
وبين لامين أتى وقوعها
واو داود لكثرة حذف
طاوس لا كينوون ردف
كذا اذا من قبل ياء أسكنا
أبدل يا وادغم أصبت الحسنا
وألف ما خلاف هانة ها هنا
هذاك هاؤم احذفن كهأنا
والواو فى عمرو اذا لم ينصب
أو لا اشاره أو لو للصاحب
وألف فى مائة والجمع
فى الشعر للاطلاق زيد واستمع
وهاء سكت فى لفيف فرقا
وناقص فتح لمبنى ألحقا
والتاء آخر الاسم اذا ما حركت
ويفتحن ما قبلها ها أبدلت
مع ألف مقصورة نحو صلاة
أو جمع منقوص القضاة والولاة

قواعد النحو عدلت منظومة العمريطية باختصار وزيادة كثيرة حتى غيرت بعض الأبواب بالمرة وحملت التلاميذ على حفظ هذه المنظومة :

الفاعل الذى كمرفوعى أتى — زيد منيرا وجهه نعم الفتى
وواجب فى الفعل أن يجردا — اذا لجمع أو مثن أسندا
والتاء أوصلها بفعل قد يلى — تأنيث حر أو ضمير الفاعل
وقد يبيح الفصل ترك التاء فى — نحو أتى القاضى بنت الواقف

وجوزن لفاعل قد كسرا ... أو لمجاز أو لفصل قد جرى
للعلم والجهل كذا للخوف ... قد حكموا لفاعل بالحذف
وباب مفعول به أو ظرف ... أو مصدر أو ما يجر بالحرف
وأول الفعل هنا دوما يضم ... وكسر قبل لام ماضى يلتزم
وافتحه فى مضارع كيعلم ... واسترضى القاضى وسيق المجرم
وأجوف تبدل ياء عينه ... والثانى من مبدوء تاء ضمه
وما بدا بهمز وصل اضممن ... ثالثه مع أول كأتمن
مضعف فك والعين دغم ... مضارع الفعل الفه علم
المبتدا اسم رفعه مؤيد ... محدث عنه بما قد يسند
وجملة وشبهها عن مبتدا ... أخبر ، وسم ما يطابق مفردا
والمبتدا أو خبر ، قد يحذف ... ان كان قبل جاء ، يعرف
وخبر لمبتدا قد يسبقن ... اذ عند ذى تذكيره يسوغن
نكرة تقبل ال ولم تجد ... كفرقة حرية تسعى بجد
كأحمد مقترن بى وهما ... قائمتان والكرام عظما
وانت عندى والغنى بدارى ... وابنى قرا وذا أبوه قارى
أفرادا أو تعظيما أو ضد جهل ... تعريفها اضافة أو حرف ال
ان جمع مفرد لعاقل سلم ... أو صفة نظيرها بالتا ختم
فارفع بواو وبيا اجرر وانصب ... كأحمدون كاملو التأدب
ومثل زيد وبه عشرون ... وبابه الحق والأهلون
ترفع كان المبتدا اسما والخبر ... تنصبه ككان زيد ذا نظر
ككان ظل بات أمس أصبحا ... أضحى وصار ليس زال برحا
فتىء وأنفك وهذى الأربعة ... لشبه نفى أو لنفى متبعة
فتىء وأنفك وزال مع برح ... من بعد نفى أو لشبه يتضح
تمنع ما زائدة « ان » من العمل ... لا ليت واختصاصها باسم عطل
وكل ما صرفته مما سبق ... من مصدر وغيره به التحق
ككن صديقا لا تكن مجافيا ... وانظر لكونى مصحبا معافيا
كذاك دام بعد « ما الظرفية » ... وهى التى تكون مصدرية
أصبح أضحى بات ثم أمسى ... وظل توقيت ونفى ليسا

حول بصار واستمرار الأربع ... مناسب كدام لزمن أتبع
للقرب كاد كرب واخلو لقا ... وللرجا عسى حرى وأوشكا
وللشروع طفق وجعلا ... انشا وهب أخذ وأقبلا
وشرع وقام ثم علقا ... فحرف ال بفعلها لن يعلقا
وأكدوا المعنى بأن أنا ... وليت تبدى قصد ما تمنى
(ان أن ليت لكن لعل ... كأن عكس ما لكان من عمل)
كان للتشبيه فى المحاكى ... واستعملوا لكن لاستدراك
ولترج وتوقع لعل ... كقولهم لعل محبوبى وصل
(همز أن افتح لسد مصدر ... مسدها وفى سوى ذاك أكسر)
ان ذكرت بالقول أو بعدالا ... أو وقعت من الكلام أولا
وحكم « لا » كحكم ان فى العمل ... فانصب بها منكرا بها اتصل
وعند أفراد اسمها الزم البنا ... منفتحا كلا صديق عندنا
وخبرا ان يعلمن احذفه ... « لذا نبيه » قلت لا شك له
لا سيما فالاسم « سى » وسم ما ... موصولة زائدة أو مبهمة
والاسم بعد « ما » اذا نكرته ... فارفعه أو فانصبه أو فجره
وعرفنه خبرا للمبتدا ... أو جره و « ما » تكون زائدة
يبنى من الأسماء استفهامها ... شرط ضمير مبهم موصولها
وكل حرف ثم فعل ما خلا ... مضارعا من كل نون قد خلا
أنا ونحن أنت انت انتما ... اتن انتم وهو وهى هم هما
وهن أيضا والجميع اثنا عشر ... ضمائر الفصل لرفع استقر
وقمت قمنا قمت قمت قمتما ... قمتن قمتم قام قامت قاما
وقاموا وقمنا والجميع اثنا عشر ... ضمائر الوصل لرفع استقر
وليته يعرفنى بنصبها ... وكقيامى بكم لجرها
اياى للنصب من المنفصل ... لا جر الفروع الخط وأكمل
اشارة خلاف ما أشير له ... والاسم نعت بعده أو بدله
(بذا لمفرد مذكر أشر ... بذى وذه تى تاعلى الانثى اختصر)
والأصل فى عامله ان يذكرا ... لكى يجد فى حذفه أن يظهرا
ما يقع الفعل عليه سمه ... مفعولا به واقرنه عند فعله

وقد يعد من كعلم اتقنا ... لقصره ويحذفن كما هنا
فلازم بفاعل قد اكتفى ... أوما معديه يكون حرفا
فعد بالهمز والتضعيف ... والف وفاعل مع تكييف
كظن طال حسب وزعما ... وجعل عدها هب فافهما
رأى ووجد درى تعللا ... وتخذ اتخذه واترك خولا
الاغراء تنبيه المخاطب الى ... محمود أمر مطلقا ليفعلا
تحذير تنبيه المخاطب الى ... مكروه أمر مطلقا ليغفلا
ومطلق يذكر بعد فعله ... من لفظه مؤكد لفعله
وقد يبين عددا أو نوعه ... كقم قياما واجمعن جمعه
ينوب عنه عدد اشارته ... ونوعه كالقهقرى وآلته
مرادف ضميره أو صفته ... كل وبعض قد تليه صيغته
وما لتوكيد فوحد أبدا ... وثن واجمع غيره وأفردا
والمصدر انصب ان أتى بيانا ... لعلة الفعل الذى قد كانا
وشرطه اتحاده مع فاعله ... فيما له من وقته وفاعله
والنصب بالفعل الذى به جرى ... كسرت ميلا واعتكفت أشهرا
أو ليلة أو يوما أو سنينا ... أو مدة أو جمعة أو حينا
أو ليلة الاثنين أو يوم الأحد ... أو صم غدا أو سرمدا أو الأبد
واسم المكان نحو سر أمامه ... أو خلفه وراءه قدامه
هناك ثم فرسخا بريدا ... وها هنا قف موقفا سديدا
(ينصب بعد واو مفعول معه ... فى نحو سيرى والطريق مسرعه)
ويجب النصب اذا الثانى يصح ... تشريكه فى الفعل معنى لا يصح
واعطف لفعل لا يجى بالواحد ... كاختصما واصطدما بالشاهد
وان على ضمير رفع متصل ... عطفت ، فافصل بالضمير المنفصل
فانصبه بالفعل الذى به اصطحب ... أو شبه فعل كاستوى الماء والخشب
وكالأمير قادم والعسكرا ... ونحو سرت والأمير للقرى
من المضاف لحذف التنوينا ... أو نون اعراب كطور سينا
تفيد تعريفا وتخصيصا ووصف ... للملك أو للجنس أوقد للظرف
أو بالذى له أضيف الثانى ... كزيد الضارب رأس الجانى

ووصف ال بذا المضـاف مقتصر ... أو وصلت بالثانى كالتجعد الشـعر
النعت وصـف مشـعر بالمدح ... بحق أو بسبب أو قدح
يطـابقن منعوته فى أربع ... من شرة ان جا حقيقيـا وقـع
فى الجمع والاعراب والتـذكير ... أو ضد أو تعريف أو تنكير
بالسببى ارفـع مظهـرا وأفـرد ... وان أتى المنعوت غير مفرد
واجعـله فى التأنيث والتـذكير ... مطابقـا للمظهـر المذكور
مثـاله قـد جاء حرتان ... منطلـق زوجاهمـا العبـدان
وجملة وشبهها يأتى النعت ... ان نكـر المنعـوت تأويلا ثبت
العطف فى الأسـماء والأفعـال ... لنسق بالحـروف واتد سـال
بالواو والفا أو وام وثم ... حتى وبل ولا لـكن أما
الواو للجمع وينبنى بفـا ... كثم للتعقيب مع شرط وفى
خـير بأو عين بأم اضرب بيـل ... لكن للاستدراك لا نفى حصـل
أما كأو اذا لمثـله ردف ... حتى لغـاية اذا البعض عطف
وان على ضمير رفع متصـل ... عطفت فافصل بالضمير المنفصـل
توكيـد اسم تابع ليرفعـا ... مطابقـا سهوا به قد رفعـا
للفظى تكرار ومعنوى بكل ... نفسى وعين وجميع كلنا نقـل
كلا وعامة كجـاء النـاس ... عامتهم بدا لهم اينـاس
وان تؤكد لضمير متصـل ... أعدته فى جمـلة أو منفصـل
وارد فى المعنـوى بمطابق ... كقمت انت نفسـك بالسـابق
متصلا تنصبه أو تجـره ... كقل وقاك نفسـك ذا شره
اذا اسـم أو فعـل لمثـله تلا ... والحكم للثـانى وعن عطف خـلا
فاجعـله فى اعرابه كالأول ... ملقبـا له بوصـف البـدل
كل مطابق وبعض واشتمال ... وعائد بالتاليين ذو اتصـال
وجـر بالفتحة مالا ينصرف ... مما بوصف الفعل صـار يتصـف
بأن يجـوز الاسـم علتين ... أو علة تغنى عن اثنتـين
فألف التـأنيث أغنت وحـدها ... وصيغة الجمـع الذى قد انتهى
ميزان وحمـراء وحبلى للألف ... فواعل مفاعيـل لجمعهـا ألف
والعلتان الوصف مـع عـدل عرف ... أو وزن فعـل أو بنـون وألف

وهذه الثلاث تمنع الألف فأن يضف أو يأت بعد ال صرف

انصب بعشر وهي أن ولن وكي كذا اذا ان صدرت ولام كي

ولام جحد وكذا حتى وأو والواو والفاء في جواب وعنوا

له جوابا بعد نفي أو طلب كلازم علما وتترك التعب

بلم ولما لام أمر أو نهي اجزم مضارعا كلا تحفل به

كذاك ان وما ومن واذ ما أي متى ايان أين مهما

وحيثما وكيفما وأنى كأن يقم زيد وعمرو قمنا

واجزم بأن وما بها قد ألحقا فعلين لفظا أو محلا مطلقا

ما استثنت الا مع تمام موجب انصب وبعد النفي أبدل وانصب

هذا اذا استثنيته متصلا منقطع انصب مطلقا لا تبدلا

وان يكن من ناقص فالا قد الغيت والعامل استقلا

غير سوى سوى كالا معنى اعرابها يكون كالمستثنى

حاشا على ومثلها أيضا خلا أجرر بها أسما أو أنصب فعلا

الحال وصف ذو انتصاب آت مبين لمبهم الهيئات

وانما يؤتى به مؤخرا وهكذا يؤتى به منكرا

وصاحب الحال الذى تقررا معرف وقد يجى منكرا

كجاء زيد راكبا ملفوفا وقد ضربت عبده مكتوفا

وجملة أو شبهها واربطهما بواو أو بمضمر أو بهما

مميز وزن مساحة عدد كيل فهذا باسم ملفوظ ورد

فانصب لتمييز وجره بمن أو بمضاف كالف مائة ركن

فنسبة تمييزها انصب أبدا عن فاعل مفعول أو عن مبتدا

كحسن الطاووس شكلا ونظم القائد الجند صفوفا ملتزم

وعدد بعطف أو قد ركبا أفراد تمييز ونصب وجبا

مضاف أو شبه له أو نكره لا تقصدن بنصبها مسطره

ونكرة تقصدها ثم العلم فابن على ما يرفعن كيا حرم

بآى همز آ أيا ثم هيا ناد واندبن بواو واستغث بيا

هناك أسلوب تعجب يصح بلفظ مستغاث واللام فتح

وآخر المندوب زد الفاوها كوا غلاماه وسكنن لها

وقع فى يدى من كتب الحساب كتاب المستر براين المستعمل فى المعارف فى تلك الآونة وهو مترجم صعب العبارة وكراس للتلميذ طه زكى وكان بطريقة حل المسائل التفصيلية الشرح قبل العمل كقولهم لحل هذه المسألة هو أن تعمل كذا أو كذا بشرح طريقة ما يعمل ثم يجرى العمل كما شرح • علمت نفسى الحساب للسنة الرابعة ابتدائى من كتاب المستر براين الصعب العبارة ومما أذكره أنى قرأت فيه عبارة «بين أى مربعين كذا وكذا يساويان مربع العدد هذا» قبل أن يقول تربيع العدد ضربه فى نفسه فصرت أجرب حتى نمت على البرش فرأيت فى منامى أن أقول ٣×٣ = ٩ ، ٤×٤ = ١٦ ، ٩+١٦ = ٢٥ ، ٥×٥ = ٢٥ فصحوت من نومى وحللت المسألة .

فى آخر نوفمبر سنة ١٩٠٣ م جاءنى طلب من شركة ناثان فى قضية مدنية بالغلط وعين لى الميعاد للجلسة فى أوائل ديسمبر وكان سعادة المدير ديكنسون باشا صدفة برفاعة فطلبت منـــه أن يكتب للكلية بقبولى للتمرين اذا تعطلت القضية فقال لى سعادته كيف تتمرن وانت مطلوب لقضية فقلت انى أظن انى أفرغ منها فى مدة وجيزة فقال لى حينما انك تفرغ ارجع لمدرستك فقلت ربما تتأخر لشهادة أو مثلها فكتب لى للكلية التى تمرنت بهـا فى شهر ديسمبر كله بقسم المعلمين والقضاة فانتفعت كثيرا خصوصا من القاء عبد الرءوف سلام رآنى سالم رئيس الفراشين آكل افطارى تحت دومة فى شارع الشاطىء فأرانى غرفة مخزن لآكل فيها بدلا من أكلى تحت الدومة التى فى شارع الشاطىء • وفى يوم رآنى الشيخ محمد نور آكل سمكا برغيف فأخذنى لغرفة المعلمين فتغديت معه وعندما عرفنى المعلمون انى آكل على حسابى أخـذوا يدعوننى فبعد الشيخ نور الشيخ القمراوى للعشاء حيث وجدت بمنزله عبد الله النجومى ومعـــه سودانى بت معه ليلة وشهدته يتعلم منهما الانجليزى على صغرهما ثم الشيخ حسين عمر ثم الشيخ ماضى وكلهم أبيت معهم اما الشيخ نور فتغديت معـــه مرات ذلك بعد أن انتقلت من برى لبعد المسافة •

فى آخر يونية سنة ١٩٠٣م سامحت المدرسة للعطلة الصيفيـة على عدد الـ ٤٢ تلميذ فعملنا رواية فى ميدان المولد النبوى شخصها التلاميذ فلما افتتحت المدرسة فى شهر سبتمبر ألحق بها ٢٣ تلميذا مستجدين فعين الشيخ عبد الغفار مدرسا ثالثا قرر له ثمانون قرشا شهريا كخفير فلما انتهت سنة ١٩٠٣ التى كان

بها المأمور عبد العزيز مجدى ينتظر أن يكون مرتبى الشهرى ٣٠١/٢ جنيه الى ٣ جنيه شهريا الذى نقل من أول يناير سنة ١٩٠٤ أركان حرب للمدير اشتدت دهشته حينما رأى أن مرتبى رجع الى جنيه واحد لأ ن المدير القديم بلوت بك نقل وعين بدلا عنه ديكنسون بك الذى كان نائب مدير . أخذت يناير وفبراير مرتبى جنيه واحد وحينما سمع يوسف أخى بذلك أرسل لى خطابا يدعونى فيه الى ترك المدرسة والذهاب الى الدويم لأن التجارة رابحة جدا وانه أجر لى دكان قبالة دكانه بمبلغ ١٨ جنيه فى السنة وقد دفع كل الأجرة السنوية مقدما وحجزه لى . وفى يوم ١٣ مارس حضر المدير الجديد وبدأ بالمدرسة قبل المركز كعادة كل الحكام بذلك وبمعيته أركان حربه عبد العزيز أفندى الذى رقى الى رتبة صاغ فأعلننى سعادة المدير بحضرة المأمور القديم والمأمور الجديد محمد أفندى حلمى ان المدير السابق وضع عشرة جنيهات من نفسه مع جنيه خصوصى لك من الخفر . وقد فرغت جنيهات المدير ، اما أنا فلا أحب أن أضع لك من نفسى شيئا وأصبح مرتبك جنيها واحدا ولك الخيار فى أن تترك المدرسة أو تبقى بها مع العلم ان لا أمل فى زيادة مرتبك أكثر من الجنيه الواحد ، فأطرقت أمام هذا النبأ المحزن ولكنى نظرت الى بلادى العارية عن التجارة والزراعة والصناعة والى أولادى الذين صدمهم الخبر المؤيس كما صدمنى فصاروا ينتظرون جوابى بهلع ، ففكرت فى أن الحكومة جديدة فى البلاد وتحتاج الى مستخدمين صغار فى معلوماتهم ورواتبهم لتربيهم كما تشاء وتساعد ميزانية البلاد الفقيرة . وتذكرت شيخنا الفقيه أحمد الكراس الذى تقدم ذكره ، كان يأخذ ريالا فى الشهر من حاج أحمد السيد ويعلمنا فى مكان مدرستنا الحالية وهو غريب وأخيرا ترك الريال وتبرع بتعليمنا مجانا فلماذا لا أضحى مثله وأتمم عملى لوطنى فرفعت رأسى قائلا للمدير انى أستمر فى عملى فأفرد سبابته وقال لى واحد جنيه فأفردت سبابتى مثله وقلت له استمر بجنيه واحد. فلما أراد الخروج قال لى محمد أفندى حلمى أشكر سعادة المدير ، قلت على أى شىء أشكره وكنت أظنه لا يفهم ، ولكنه نظرنى وتبسم . فلما فتش المدير المركز رجع ليفتش المدرسة فأمر بالمطالعة ، وصار يدور فى التخت مع كل قارىء من التلاميذ ويسأله عن المكان الذى يقرأ فيه وعن معنى ما يقرأ ثم كتب على التختة مسألة حساب على المشترك الأعظم وكتابة سعادته بالعربى بطيئة فهو

يكتب ونحن نحل فيها عقليا . فلما أتم الكتابة رفع التلاميـــذ أيديهم ؟ قلت للجواب قال لى انت عرفت الجواب قلت نعم . قال كم الجواب قلت كـذا . فسأل أحد التلاميذ فأجاب مثلى ، فأمر عبد العزيز أفنـدى مجدى أن يكتب غيرها . وقال لى : مر أحدهم ليحلها أمامى بالطباشير . فأمرت شبيكة . فلما نهض على المصطبة ضرب كرسى المدير حتى وقف سعادته ومشى شبيكة للتختة فحل المسألة بأسرع مما يمكن . فقال عبد العزيز أفندى اسمعونا محفوظاتكم. فقرأ لطفى ثم البنا . وخرج المدير وأمرنى بصحبتهم للضابطية . ولما وصلنـا أخرج من جيبه جنيهين أفرنكى ومعهما قطعة من ذات الخمسة قروش ملفوفات فى ورقة وقال لى هذا فرق المرتب جنيهين عن يناير وفبراير الماضيين . وقـد وضعت عشر جنيهات فى الخزنة لتأخذ كل شهر جنيهين وسـأكتب للخرطوم ليعتبروا مرتبك ثلاث جنيهـات ونصف أو ثلاثة على الأقل ، فان صـدقوا أنا أستلم كل نقودى اثنى عشر جنيها وان لم يصدقوا فمن أول يناير سنة ١٩٠٤ بلا شك يكون مرتبك ثلاث جنيهات ونصف فشكرته ووقفت فقال عندك طلب قلت نعم أريد أن تكتب للمعارف أن تضم المدرسة لمصلحتهـا . قال المديرية بطالة قلت لا ولكن التعليم يحتاج للكتب والأدوات . وأنا مرتبى صغير لا يمر على شهر لم أصرف منه عشرين الى أربعين قرشا فى الأدوات حتى جعلت كرة القدم من شعر وصابون وصمغ وجعلت الكرة الأرضية من قرعة . فقال سعادته ممكن أراهما ، فأرسل حلمى أفندى من جاء بهما ، فضرب كرة القدم فى الأرض فارتفعت فعلا ارتفاعا قليلا ولكنها خفيفة لرجل الولد ونظـر القرعة فقال لى كيف تعلمهم بها فحللت الرباط فانطلقت فلقتين متصـلتين بالرباط الخـلفى ووضعتهـا أمامه على الترابيزة وقلت أهم ما ينتفعون بها ان يعلموا ان الأرض كروية وان الجزء اليابس من آسيا عند بوغاز بهرنج بعد الانقلاب يتبع امريكا الشمالية . فاذا لم يروا هذا محسوسا لا يمكن أن يتصوروه . فأعجب بذلك وكتب فى الحال ثلاث جوابات وأنا واقف وقال لى أنا كتبت هذا للمعـارف كطلبك وهذا لديفس براين ليرسل لك ثلاث كفرات وتسعة أنبوبات وهـذا الثالث لاسطنبول ليأتوكم بخرط جميـع الأرض بالعربى وانى مسرور لعملك بالمدرسة فى هذه المدة الوجيزة وسألعب معكم كرة القدم عصر اليـوم ولعب معنا فعلا . ولعدم الجزم أمرت بلعب التلاميذ حفيانين . وفعلا استمر هـذا

بمدرسة رفاعة الى آخر سنة ١٩١٨م وكل هذا يترجم لى عبد العزيز أفنـدى مجدى أركان حـربه مأمورنا الذى سبق أن فتح المدرسـة دون كل المآمير كما تقدم .

أصبح لى مثبطان هما شيخاى الفقيه يوسف نعمة وشيخنا حاج أحمـد حسين الشهير بتور ياسين . ولما لم يكن فى استطاعتى مقاومتهما سواء بشكوى أو غيرها لاعتقاد الناس الأعمى فيهما عمدت الى الحيلة فأكثرت من زيارتهما والتأدب لهما ثم على ضيق مرتبى رتبت للفقيه يوسف فقيه البلد راسين سكر ودستين شمع ورطلين بن قهوة شهريا ولتور ياسين عابد البلد وصوفيها واحد من كل نوع شهريا وبذلك حصلت على اخفاء تصريحهما العلنى بذم المدرسـة وتدرجت حتى أخذت عبد الرحيم يوسف نعمة لقسم العرفاء ومحمد حمد نصر من أخص المعتقدين فى تور ياسين بمشورته تلميذا للكتاب ثم التزما السكوت.

طلب المدير الشيخ عبـد الله أبو سن وعرض عليه وضـع ضريبة بسيطة للتعليم ورفض بتاتا . فرجـع المدير غير راض ، فأخبرنى المأمور حلمى بذلك فمضيت لعمى الشيخ عبد الله وقلت له اذا جاء الخريف فكم أردبا تحصل من مزارعك فقال خمسمائة أردب . فقلت عشورها خمسون أردبا وأردب العشور ضريبة التعليم منه نصف قرش يا عمى عبد الله لأجل توفر ٢٥ قرش فى السـنة تحرمنا من ارتفاع مرتبنا ونحن أولادك فان الفدان قرشان وقنطار القطن قرش واحد هذه لا فائدة فيها لأن الفدادين قليلة والقطن معدوم . فقال لى الضريبة لرواتبكم قلت نعم يا أبى . قال رضيت فأخرجت الطلب الذى كتبته استعدادا ليوقع عليه هو وسكان مركز رفاعة بالرضـا بتقرير ضريبـة التعليم وقلت له أمض هنا . فأمضاه بخطه وختمه بخاتمه . فلما أوصلته المأمور سر جدا وزاره فى منزله وطلب منه أن يوقع عليه من الأعيان بمدينة رفاعة والعمد والمشـايخ بالمركز . فوقعوا عليه وأرسله للمدير الذى جاء لرفاعة من الكاملين لهذا الغرض وقرر ضريبة التعليم من أول سنة ١٩٠٥ فبهذا أكون السبب الأول فى الوصول لضريبة التعليم التى عمت السودان كله فى وقت من الأوقات ، ففى اكتوبر ١٩٠٤ أعنى بعد سنة دراسية وأربعة أشهر انتخب من مدرسة رفاعة التلاميذ محمـد لطفى وبابكر التاى ومحمود الجزولى الحق لطفى بقسم المعلمين العالى والباقيان للابتدائى فتوقف السير كرى فى قبول محمد لطفى لقصر قامته فألححت عليـه

فى قبوله فأشار الى محمود الجزولى فقال أنا أريد كهذا قلت ان لطفى أكبر منه فى العمر وأحسن منه فى الدروس فقال لكنه قصير فقلت : هو خلق نفسه ؟ فضحك سعادته ثم قال لى : هو فى الكلية يحسن سمعة المدرسة قلت نعم فأخذه كما أتذكر ان ... عم ... فى أوائل ١٩٠٤ قدم طلبا لمحمد حلمى باسم ... يطلب فيه تعيينه كاتبا بالخفر بمرتب ١٢٠ قرشا وانه يتيم وله أخوان صغار فعلمت ان هذه مكيدة من عمه ليحول بينه وبين ما يستحق من المركز الذى أعده الله له باستعداد تكوينه وليأخذ عمه من هذا المرتب جانبا أو نصيب الأسد فطلبت من المأمور فى الحال لغو هذا الطلب وعبرت له عن آمالى فيه للبلاد ولأخوانه الأيتام فمزق العرضحال أمامى ولما جاءه عمه قال له ان بابكر عرفنى عن هذا الولد واستعداده وانك تريد أن تنتفع منه حالا وتضيعه مآلا فاذا عرضت على بشأنه مرة أخرى أضعك فى السجن فالحمد لله حيث خلصته من عمه وقد حقق أمالى فى خدمته للبلاد وان لم أجد منه ما أملته فيه حيث قلت مرة لأخوانه بالفصل ان أكبركم أملا عندى لينفعنى ... فقام ... وقال أنا أنفعك أكثر منه ولكن الله تعالى تولى وكافأنى عنهم فلم يحوجنى لأحد حتى أولادى من صلبى .

قلت فعلا جاءتنا الكور والخرط ثم جاءنا ابراهيم أفندى كامل الذى كان ناظرا بمدرسة الخرطوم الذى سبق تمرينى عند حضرته جاءنا على جمل سرجه حوية ولم يكن معه خادم غير الجمال فنزل بمنزلى أسبوعا كاملا ليفتش على شخصيا فى المدرسة دون غيرى فكنا نصلى الصبح فى الجامع وكثيرا ما رأيته يتهجد سحرا كثيرا ماسبقنى للجامع فلما انتهى التفتيش وعزم على السفر ركبت حمارى وتقدمت معه مودعا فلما أراد أن يعزم على بالرجوع أناخ جمله وبعد التوديع قال لى رحمه الله هل لا تسألنى عما كتبته عنك قلت لا يجوز لى أن أسألك قال لسوء ظنك بى قلت كيف أسيء الظن فيك وقد رأيتك بعينى تتهجد وتسبقنى للمسجد بصلاة الصبح قال ولماذا لا تسألنى قلت اذا كنت أحسنت عملا فما مثلك من يغير ذمته واذا كنت مسيئا فى عملى فالمصلحة التى أوفدتك لى هى أولى بالنصيحة لها ولا أكلفك أن تخدمنى بذمتك رأيته قد اهتز ارتياحا لكلامى الصريح وقال من كان يفكر فى مثل هذه الأفكار يصارح بما قيل

غنه ــ أنا كتبت لك أن تقرر ماهيتك أربع جنيهات من أول ابريل ويعتبر ولك مطلوبا اعتمد ذلك قلت يا سيدى وجود الأدوات بالمدرسة أهم عندى من مرتبى قال بصوت المؤكد أنا أرسل لك أدوات مدرســـة ابتدائية يا سيدى فشكرته وودعته وأوجد عندى ثقة عظمى فى شيئين من حيث الفضل والدين رحمه الله رحمة واسعة وعوضه الجنة فى شبابه الغض لأنه توفى فى ابريل ١٩٠٨ ــ ربيع أول ١٣٢٦ وعمره ثلاثون سنة فقط وخلف أربع بنات وولدا واحـدا وقد فاجأنى بموته أخى محمد النور الكاتب بمحكمـة رفاعة الشرعية ونحن بميـدان المولد بقوله لى هوى زولكم مات قلت من قال ابراهيم كامل المفتش فصفقت تقريبا لوقع الخبر على لحرمان بلدتنا من رجل مخلص فى عملة عالم فى مادته معلما لغيره وأقول بحق أنه لم يخلفه من هو فى كفاءته من أبناء جنسه .

الشناء قسم للمساحين بكتاب رفاعة :

جاءت الأدوات كما قال وفى أكتوبر سنة ١٩٠٤ عينوا لنا محمد أفندى منير رفعت مدرسا ليعطى تلاميذ الفرقة الثانية مســاحة . فى سنة ١٩٠٥ فى يوليو زرت المديرية بالكاملين فأخبرنى الصراف عبد السلام أفندى أن اسمى ذكر فى تقرير المديرية وعرضه على فقرأت منه فيه هذه الجملة المدرسة الوحيدة بالمديرية هى مدرسة رفاعة وانى مرتاح جدا لأعمال ناظرها الشيخ بابكر بدرى قلنا فى أول سنة ١٩٠٤ نقل عبد العزيز أفندى أركان حرب للمدير وخلفه محمد أفندى حلمى صديق المدرسة وعمادها بنى لها فى سنة ١٩٠٥ أربعة غرف اثنتان عنـد الباب واثنتان احداهما شرق الغرفة الكبيرة والأخرى غربها وعلى الجميع فرندة قبلية وبنى بالسوق صف دكاكين أوقافا للجامع باسمه فلما جاء حيدر أفنـدى رستم سعى فى جعلها حكومة زاعما ان المبلغ الذى بنيت به هــذه الدكاكين حكومة وان المأمور سلفه زرع قطنا بواسطة المساجين فباعه وبنى بثمنه الدكان فجـاء المدير وحضرت أنا والشيخ الأمين أبو سن أمامه وجادلنـا بأن الوقف لا يباع ولا ينقل فلم يسمع . فى أكتوبر سنة ١٩٠٥ تعين من مدرســة المساحين ابراهيم حسنى ومصطفى أخوه ومحمد حامد القاضى وعمر عبد اللطيف وتميمى وعثمان خليل مساحين بالجزيرة مع المستر ثلتن اما شبيكة وعبد المجيد على طه

فقد ألحقا بالمدارس بالكلية بقسم المعلمين وعمر السيمت وعبـد الله أبو سن للابتدائي ومن تلك السنة الي سنة ١٩١٨ حيث عينت مفتشا بالمعـارف فى ١٣ فبراير سنة ١٩١٩ لم تمر سنة لم تصل الكلية منها رسالة من المدرسة حتي قال لي جناب المستر سمسون فى سنة ١٩١٣ حيث أخذت احدي عشر ولدا رسالة للكلية قال لى يا شيخ بابكر الكلية ما فتحت لتلاميذ رفاعة بل مفتـوحة لكل أولاد السودان فتأثرت نفسى لأقول له تقصد انى لا آتى برسالة منهم للكليـة بعد الآن وفى الحال نبهني عقلى لأنه اذا قال لى نعم انسدت الكلية فى وجـه أولادى قلت لجنابه كل أولاد السودان أولادى فأنا أحضر عددا كبـيرا ممن يستحقون الإلتحاق بالكلية من رفاعة فاذا طالب كل البلد بحقه فى الكلية أرجع بمـ يبقى منهم واذا تأخر بلد عن ارسال أبنائه وكانت هنـــاك محلات شاغرة فالأحسن أن تبقى شاغرة أو تسد من رفاعة قلت على هذا المبدأ احضر تلاميذى يا سـعادة المـدير قال حسـنا عملت ومن العجيب أنه لم يرجـع غير ٠٠٠ لتسكله الحقير وقتذاك قلت تعين محمد أفندى منير رفعت مدرسنا للمســاحة فرحبنا به وأسكنته فى أنظف غرفة فى منزلى وصرت أتعلم المساحة مع التلامذة فوشى اليه الخواجة جورجى كلميتا نوس لمنير بأن بابكر ذكى جدا! واذا تركته يتعلم المساحة يفهمها حالا والمصلحة تستغنى به عنك فرحل من منزلى وقلب لى ظهر المجن وصار يغرى التلاميـذ بعدم اطلاعى وطعن لهم فى معلوماتى فلما لم يوافقوه على صار يضربهم بلا عداد وبأى آلة ولو تكون محـــددة حتى قال شبيكة وغيره من التلاميذ انهم مصممون اذا ضربهم مرة أخـــرى يضربونه فحذرتهم من ذلك وكان كل مساء خميس يتوجه لاربجى لأن جنـاب المأمور محمد شريف متزوج قريبته والبوستة تأتى يوم الجمعـــة لرفاعة فأرسلها مع الفراش داخل ظرف من ظروف وضعها هو عندى لهذا الغرض وفى يوم جمعـة توفى المرحوم ادريس محمد عمر البنا وأنا مشيع للجنـــازة جاءتنى البوستة فجمعت جواباته وقطعت ورقة من مذكرتى وكتبت عددها والجهـات الواردة منها وأرسلتها له مع الفراش عارية عن الظرف فجاء صبـاح السبت وقال لى أمام التلاميذ (لأننا كلنا فى غرفة واحدة) قال : لأى سبب ترسل لى خطاباتى عارية عن الظرف • شرعت أعتـذر له فقاطعنى قائلا انكم سـودانيون كلاب صدق محمد أفندى شريف حيث قال لى عاملهم معـاملة الكلاب قلت اذا قال

شريف ذلك وأنتم معاشر المصريين بالسودان ما تعرفون أخلاق السوداني الذي لا يأتي بالضغط ولا يلين للشدة فقال لي كلكم عبيد فقلت له بعد أن ضحكت أنا أحسب الى عشرين جد في نسبي وانت لا تزيد على ما أعرفه منير حسين رفعت قل لي بالله رفعت ابن من فاغتاظ وقال لي (أصبعك على أنفك أكسرهو لك) قلت انت صغير • وضيف سامحتك فخرج من الفصل ومشى للضابطية قابل المأمور حيدر أفندي رستم وحكى له ما جرى فغلطه • فخرج ومشى لشريف أفندي باربجي فجاء به عصرا لحيدر أفندي في منزله وطلب شريف من حيدر أن يكتب للمعارف بأني أحرض الأولاد على ضرب منير أفندي واني مضيق عليه في الأعمال والمعاملة واستدلوا بكتاب كتبته للمأمور حيدر بهذه الأسئلة .

هل للمعلم الحق الخروج من المدرسة بدون اذن الناظر ؟

هل يجوز للمدرس أن يضرب التلميذ بأي آلة وأي عدد ولأي ذنب بدرجة واحدة أم يحدد الآلة والعدد لكل واحد الخ ، فقال حيدر أفندي لشريف : ناظر المدرسة رجل طيب وله عائلته فاذا صحت كتابتنا فيه أو نقل أو خفض كذلك تتعب عائلته فيقول له شريف والنبي تكتب أخبرني بذلك خدام حيدر أفندي رستم الذي كان معهم وان الكتابة كتبت ووضعها شريف بيده في البوستة فشكرته واحترست •

وفي يوم ١٩٠٦/٢/٤ جاءني المستر كروفورت نائب مدير المعارف للفصل في هذه القضية وكان قبل ذلك جاءني السير كري وأوقف منير وسألني قائلا هل يسمع أمرك ؟ قلت نعم : قال يشتغل كويس ؟ فقلت لا عيب فيه الا كثرة الشغل فترجم كامل أفندي معنى هذه الجملة فتركني وذهب فلما جاء المستر كروفورت مر على حيدر أفندي رستم وجاء به معه فأول سؤال قال لي من قال لك انك ناظر على منير أفندي ؟ قلت انت الذي قلت لي • قال عندك أمر قلت نعم يا شيخ محمد عبد النور جئني بأمر مدير المعارف بتعيين منير أفندي فلما رآه أمرا صريحا ومختوما بامضائه شخصيا قال لي ما الذي حصل بينكم ؟ فقلت لم يحصل شيء • فرفع رأسه للمأمور الذي كرر ماكتب به • فقلت هل حصل شيء من ذلك فقال لا ولكن خوفا من حصوله ، أنا كتبت للمعارف ليكون لديها علم بذلك • فقلت يا حضرة المأمور أنت رجل من أعقل الناس تحرك مدير المعارف من مكتبه لأمر خيالي • وهل رأيت جزاء على نية الاساءة قبل أن تحصل وان يعترف بها صاحبها أو سمعت عنه بشهادة ؟ سكت المأمور فقال له

سعادة المستر كروفورت تفضل حضرة المأمور وبقيت مع سعادته وحدى فقال لى انت مكار . فغضبت وقلت ايه أنا مكار ؟ فقال لى اما قال الله تعالى فى القرآن « ومكرو ومكر الله » فقلت نعم هذا بمعنى القوة لا حيلة السوء . فقال المأمور يحركنى من الخرطوم بلا سبب : فقلت اما تحديته أمام سعادتك هل استطاع أن يقول شيئا : فقال لك الحق فقلت الحق على مصلحة المعارف شاب صغير نشأ فى القاهرة فى سرايه ودرس فى سرايه وعينته المعارف فى بلده كرفاعة ومدرسة ذات غرفة واحدة مع ناظر مرتبه أربع جنيهات وهو مرتبه احد عشر جنيها وهو عالم بشهادة والناظر لا شهادة له فضحك وقال لى هـذه الحركة تحرمك من العلاوة فقلت فى ذلك الوقت ترون منى مالا تأملون . فضحك وقال علاوتك فى الطريق . فقلت أنا طلبت من سعادة المدير مدرسة بنات فى سنة ١٩٠٤ فضربنى على كتفي وقال لى انك مجنون ثم طلبتها فى سنة ١٩٠٥ فلم يجبنى واليوم أكرر الطلب معلنا فيه لسعادتك وأخبرك أن ببيتى احد عشر بنتا تستحق التعليم وأنا ابن المعارف اذا كانت المصلحة لا تساعدنى بذلك أرانى مظلوما منها . ثم قلت له اعطونى عشر جنيهات أبنى بها غرفة وأفتح بها مدرسة البنـات ، اذا صحت نستمر وان لم تصح نجعلها غرفة للفراشين سأل بعدها كامل أفندى وحيـدر وقال لهما تريانها تنفع فقالوا لا تنفع بلفظ واحد فقلت : أنا وطنى أعرف بلدى أكثر من حضرتيهما وبمنزلى احد عشر بنتا صالحة للتعليم ولى فى البـلد نفوذ الوطنية وثقتها فأكد كلامه الأول لى بأنه بوصوله للخرطوم يرسـل لى العشرة جنيهات لبناء الغرفة للتجربة فسافر فلما وصل الخرطوم وقفت الحركة بأن أرسل لى السير كرى كتابا خصوصيا يقول فيه انه لا يمكنه فتح مدرسة بنات بالمدرسة رغم الحاحى فيها ولكن اذا كنت أفتحها فى بيتى الخاص باسمى الخـاص على حسابى الخاص لا مانع عنده .

توجـه يوسف أخى للدويم ولم أزره الا فى عطلة سنة ١٩٠٥ لآنس به وأنظر حساباته لأنى أشفق عليه من غش الخواجات لضعفه فى الحسابات مكثت معه شهرين راجعت حساباته بجوابات الرسائل ومتى وجدت رسالة لا جواب لها من أم درمان أو لأم درمان أطلب صورة الجواب فلقيت غلطا كثيرا خصوصا فى الرسائل المرسلة منه لمحلهم فلا يردون بوصولها ثم ان الصمغ يباع أو غيره فلا يعطون كشفا بالوزن والقيمة ففى ظرف الشهرين أوضحت الحساب فبعد

أن كانوا يطلبونه نحو مائة واثنين وأربعين جنيها صار يطلبهم ثمانيـة وسبعين جنيها . بيكشت بدكانهم بأم درمان اثنتى عشر يوما أثبت حســـــاباته بخطى بدفاترهم وتركتها بدفتر خاص يكون الأساس للمستقبل وأخـــذت معى من الدويم إبراهيم مالك الذى كان عمره إذ ذاك ١٤ سنة وله معلومات وذكاء مفرط فألحق بالسنة الثانية ما يعادل الثالثة الآن . وفى سنة ١٩٠٨ ألحق بالكلية كما سيأتى . كانت تخت جلوس التلاميذ من النوع الطويل الذى عمله عبد العزيز أفندى مجدى مشكورا وفى أكتوبر سنة ١٩٠٥ برجوعى من الدويم مررت على المعارف فأخذت معى تختا ذات درجين وكثـيرا من الأدوات فى مركب شراعى وبمرورى على البشاقره أنزل معى الشيخ حسن ولد عامر ولديه بابكر وعثمان وبمرورى على حلة ود راوه أنزل معى حسين رحمة الله ولده محمد كما أنزل محمد ولده على صاروا داخلية بمنزلى وكنا نأخذ عن الولد ثلاثين قرشـــا فى الشهر ثم انضم اليهم محمد نور عثمان المصوعى والطيب العباس بدر الذى لم يكن والده يدفع لنا مرتب الثلاثين قرشا ولكنى لما مررت عليه بأم ضبان من مرورى للدويم بمعيتى ابراهيم مالك بتنا بمنزله وعندما أردت توديعه دفع لى خمس جنيهات ذهب قلت له لم هذا قال مصاريف ابنى عندك قلت هى جنيهان فقط أخذتها ورددت له الباقى فغضب جدا وألح على بأخذها فرفضت وقلت لماذا ألا ترانى أهلا لتحمل منة أكل ولدك عندى وتطلب منى قبول احســـانك فخجل وتركنى ومدحنى بقصيدة ولكنى ضيعتها ولم أحفظها غيبا .

فى يناير سنة ١٩٠٦ مرض أحمد بدرى بحمى شديدة وطحـــال فمضيت أشترى زجاجة خل فلما جئت بها قبـــالة دكان أبو القاسم دفع السيد سمعت صوتا عاليا جهة منزلى فخانتنى أعصابى وجلست على الأرض وهى المرة الثانية التى تخوننى فيها أعصابى قسرا من وعى فتشجعت ومشيت ولما وصلنا ســـوق البهائم وجدت الأصوات تنبعث منه ومنزلنا هادىء فشكرت الله تعالى ووصلت ومسحته بالخل وبعد يومين أرسلته لمدنى بوالدته وعمته السهوه لتكونا بمنزل مصطفى أفندى الطاهر ولحقتهما بعد أخذ الاذن من المستر كروفورت فى أوائل فبراير فوجدته لا يعى شيئا فأخذته للاسبتالية على جمـــال فلما قابلت السجن بمدنى رأيت محمد أحمد الغرقان مربوطا بجنزير من عنقه فى عود فمررت عليه وللحظ وجدت حارسه مرسال يونس فاستأذنته فى السلام على محمد أحمـــد

وأيته ولدي أحمد فقال لى هات خمس قروش اعطيته اياها فقــال لا تشفق عليه سيطيب فلما وصلت الاسبتالية قبل ميعاد الأطباء وضعت أحمد ابنى على كرويه وجلست بجانبه فجاء الطبيب البكباشي محمود نصيف الذى كان يسلم خلفه لنقله فلما لمس أحمد وقلبه لزه بعنف والتفت على غضبان وقال لى هــل هذا ينفع فنظرته نظرة احتقار لبذاءته هل مثل هذا الطبيب المسلم يقول لوالد ابنه مريض خطر مثل هذا القول فدخل مكتبه ثم جاء بعده البكباشى الدكتور طحان السوري الذي سيخلفه فلما رأى أحمد وقلبه ظهرا وبطنا ووضع عليــه سماعته قال لى لو أجرته اسبوعا ما كان ينفع فرد عليــه الدكتــور نصيف من داخل الغرفة والآن ينفع ؟ قال طحان ينفع قال له نفعه يا سيدى نفعه فدخل الدكتور طحان الغرفة وجاء بزجاجة أدخل فيها فرشة صغيرة امتلأت الفرشة بما فيها من الدواء فمسح بها كليتيه ثم قال لى هذا الولد شرب خمرة قلت الخمرة فى بيتنا لا توجد ولا عند رفيقنا قال لى مؤكدا أنه شرب خمرة أثرت على طحاله لا يأكل شيئا قلت أصله لا يأكل قال جئنى به الساعة ٩ صباح غد فلما وصلت والدته قلت لها ان الدكتور قال ان أحمد شرب خمرا مرض منه فضحكت فقلت أشربه ؟ قالت نعم ثم قالت ان بعض النساء عرفننى ان لا شىء ينفع ود الورده (الطحال) الا الخمر فجئنا له بفنجان ملآن فسقيناه اياه . فلما قمت به صباح غد للاسبتالية يعى ويتكلم فاذا مررنا بشجرة أقول له ما هذه الشجرة يخبرنى بنوعها حتى مررنا على الشيخ محمد أحمد فندهنى قائلا : هات خمس قروش ناولته اياها ومشيت فلما وصلت الاسبتالية جاء الدكتور محمود ناصف أولا فقلب أحمد وقال سبحان من يحيى العظام وهى رميم ثم جاء الدكتور طحــان بعــده فلما لمســه نادى بناصف وقال رأيتــه بينفع . جاء طحــان بالفرشــة والزجاجة فمسحه كالأمس وقال بعد سبعة أيام أعده الى فقلت اجازتى انتهت وأنا جئت من رفاعة فأعطانى دواء فى زجاجة وقال لى لا يأكل الا مرق الحمــام وبعد الأسبوع اذا لم يتم شفاؤه ارسل لى هذه الزجاجة وحافظ على ورقتهــا لا تنقلع منها فسافرنا وتم بحمد الله شفاؤه فمن بطل القصة : نصيف أو طحان أم محمد أحمد « الفرقان » ؟

فى سنة ١٩٠٦ عند رجوعى من الدويم أراد عمى مالك أن يحجـز ولده ابراهيم معه ليكون كاتبـا له على قوله ولكنى لما رأيت فى ابراهيم من الذكاء والنباهة وما أرجوه منه وله فى المستقبل لم أوافقه •

انشاء قسم للعرفاء برفاعة :

بمرورى على المعارف أخبرت انه تقرر فتح قسم للعرفاء برفاعة من أول اكتوبر كما تقرر نقل الشيخ المرضى كريم الدين ناظرا لكتاب المسلمية وعرض على أسماء متخرجى تلك السنة من قسم المعلمين لأختار منهم واحـدا فاخترت الشيخ شفيق عمر الأزهرى فنظر هدايت بك للمستر كروفورت وضحـكا من اختيارى وعين لى فعلا وهو أول متخرج متمم المعلمين عين برفاعة ولم تنقطع هذه العادة حتى فارقت المدرسة سنة ١٩١٩ حيث كان بها الشيخ عباس العبيد ففى أول اكتوبر من سنة ١٩٠٦ فتح قسم العرفاء وكان به حسن عبد النور : محجوب الخليفة : الفاضل دفع السيد : الطيب جبوره : عبد الرحيم الفقيـه يوسف : شيخ ادريس الحبر من العيلفون : محمدعلى دفع الله من أبى عشر : أحمد حسين من الخرطوم : حسن أمين من فداسى : محمـد الأمين القرشى من الحلاوين . المعلمون فيه أنا والشيخ شفيق والشيخ اما الشيخ مصطفى المهدى فكان يعطى ثالثة وهى الأخيرة فى الكتاب العربى فمرة حصلت مشكلة بينه وبين التلميذ ابراهيم مالك كان الأستاذ يمليهم من كراسـه الذى كتبه وهو تلميذ بثالثة معلمين بالكلية فى الأدبيات فأملاهم ان لبيد بن ربيعـه «مخضرمات» فقال ابراهيم ما معنى مخضرمات فقال له الأستاذ أسكت فاكتب يا قبيح فقال ابراهيم أنا قد تعودت انى لا أكتب الا ما أفهم معناه فدخلت عليهم وأخذت كراس الأستاذ من يده ووضعت الميم بين الراء وميم الألف فصـارت مخضرم مات فقرأها عليهم فقال ابراهيم ما معنى مخضرم جئتـه فقلت له الذى عمر فى الجاهلية والاسلام ومن ذلك الحين صار الأستاذ لا يملى درسا الا بعد أن يعرضه على اما صاحبنا شفيق فقد حقق لى ضحك من ضحكوا لا تتخابى له سامحه الله •

فى هذه السنة أخرج والد تلميذ نبيه جدا ولده من المدرسة وأدخله فى مقاة[1] فلقيت الولد فى ظهر ساقيه محمد أحمـــد عيسى حاملا قليبة[2] « عذره » ما روق على حمار فقلت قف ما هذا قال والدى أخرجنى من المدرسة وأدخلنى مقاة وأدمعت عيناه فرميت القليبة وضربت الحمار وأخذت الولد للسوق كسوته وأرجعته للمدرسة وقد نجح نجاحا باهرا وأصبح من رجال التعليم الاختصاصيين فيه وترقى لأكبر وظيفة فى آخر سبتمبر سنة ١٩٠٦ جيئنا الى مدنى بمعية الشيخ أحمد الأمين الذى نقل من ابتدائى بربر ليكون ناظرا لمدرسة مدنى التى رفعت من كتاب الى ابتدائى فى سنة ١٩٠٧ قال له المدير ديكنســون باشا ألا توافق أن يلبس تلاميذكم جلاليب كتلاميذ رفاعه قال الشيخ أحمد مدرسة رفاعة كتاب وهذه ابتدائى فأخبرنى الأستاذ ان المدير رد عليه بقوله هى أحسن من مدرستك

فى هذه السنة أرجعت مدرسة المساحة تلاميذ رفاعة الذين كانت أخذتهم مساحين مع المستر بلتن فلما جاء المدير الى رفاعة ذهبت لمقابلته بخصـــوصهم فقال لى خادمه ان سعادته نائم فقلت له أيقظه فأيقظه فجاءنى ســعادته يدعك عينيه بمنديله وقال ماذا تريد قلت المدرسة امكن تقفل قال لأى سبب قلت اذا لم يرجع الأولاد لوظيفتهم فالناس يخرجون أولادهم منها فقال مصلحة المساحة قالت هم صغار فقلت هى لم تعينهم الا بعد أن عاينتهم فقال لى : نعم؟ كالمستفهم فقلت هى رأتهم قبل أن تعينهم قال صحيح أنا رايح الخرطوم فبعودتى أمر عليك هنا وأخبرك بما يتم فلما رجع قال المصلحة عملت مركز تمرين لكل المســاحين بالخرطوم بحرى ويمكن قبول الأولاد معهم لمدة سنتين والمساحين الكبار لمدة سنة فاخبر آباءهم يرسلوهم للخرطوم بحرى فلم يمشى منهم الا عمر عبداللطيف الذى لم يزل مساحا كبيرا اما محمد كامل فانى أردت أن أعينه معلما بمدرسة رفاعة ولكن حصل مانع أخره وكلما أردت تعيينه لرغبته واتقانه مادة الحساب يحصل منه مانع حصين يمنعنى تنفيذ غرضى له الى أن قمت من رفاعة .

---

١ ــ المقاة فى اصطلاح أهل السودان هى الجــزء الذى نزل عنـــه ماء الفيضان وزرع بطيخا

٢ ــ القليبـــه هى جرابه من الخوص يوضع على ظهر الدابه ويملأ بما يراد حمله

تفكيري في انشاء مدرسة البنات :

لما أخذت خطاب السير كرى بخصوص مدرسة البنات أخذت أجبذ للناس تعليم البنات تعليما حديثا لتتمكن البنت من ادارة بيتها ادارة تغرى المتعلمين من بني جنسها (أقاربها أو مواطنوها) بزواجها حتى لا يتسرب المتعلمون لزواج الأجنبيات فتنعكس نتيجة أتعابنا فى تعليم أبنائنا فينكر الناس على كل الانكار مما يدعو غيرى الى اليأس ولكنى لما كنت أعلم ان من أخلاق العامة قصر النظر والتقليد بعد ظهور النتيجة أخذت أبحث عن المرأة التى تكون حاصلة على التطريز والفصالة والخياطة بشرط أن تكون من مدينة رفاعة لفائدتين ، الأولى انها رخيصة المرتب والثانية تكون داعية للمدرسة ولو فى فريقها وجيرانها ومن أقاربها وأفضل من ذلك ان الناس يعرفون عفافها فلا يطعنون فيها سوءا وصرت أذكر ضرورة تعليم البنات وانه لازم فى كل مجتمع لعلنى أستهوى بعض السامعين وكثيرا ما كان يبلغنى عن بعض السفلة انى أريد أن أتقرب للانجليز ببناتى وبناتهم ولكن كل هذا لم يثبط ولم يقل من عزمى لتحقيقى من شرف مطلوبى .

وفى بعض الأيام جاءنى أحد أصدقائى القضاة الشرعيين ناصحا لى بأن أترك هذا المشروع ولا أطرقه قائلا لأن الحكومة ما شجعتك عليه وأعداؤك وجدوه وسيلة لتحقير عملك وسوء نيتك للبلد ضحكت وقلت له جزاك الله خيرا فقط اسمح لى أعرف رأيك الشخصى فى نتيجة مشروعى اذا تم بتوفيق الله تعالى هل ينفع البلد أو يضرها قال نفعه عظيم جدا قلت اذا يا صديقى (من يعرف المطلوب يحقر ما بذل) وانك من أقرب الناس لى وأعرفهم بأحوالى لولا فائدتى للبلد هل هناك سبب يضطرنى للبقاء معلما قال : لا والله اجتهد والله أسأله أن يعينك وأخذ يدافع عنى فى المجالس كلما جاء لرفاعه باجازة (لنا رجعة مطولة لمدرسة البنات سنة ١٩٠٧)

كنا نعطى أولاد المسيحيين بالمدرسة أجزاء القرآن العظيم ونحفظهم كما تحفظ التلاميذ المسلمين وفى يوم من الأيام دعانى الخواجه جورجى كلميتانوس الذى له ثلاثة أولاد بالمدرسة وفى أثناء وجودى بمنزله خرجت بالابريق فوجدت

ورقتين من جزء عم مستعملين لنظافة الدبر فأدخلتهما فى جيبى بقذارتهما كما هى وفى الغد طلبت من ولديه الكبيرين جزءيهما فوجدتهما ناقصتين كثيرا فأخذتهما فى دزجى ومعهما الورقتين المستعملتين وأمرت باخراجهما فى وقت حصتى القرآن والديانة وجرى العمل بذلك حتى زار المدرسة ابراهيم أفندى كامل للتفتيش فلما رآهما حضرته سألنى لماذا يخرجان فأطلعت حضرته على الجزءين والورقتين فاضطرب بدنه وزرفت عيناه بالدموع وقال لى حسنا عملت وانى سأعمم ذلك فى كل المدارس فتكون هذه من أولياتى .

فى هذه السنة جاء الشيخ عبد الله هاشم قاضيا لرفاعة فالتصق بالمأمور خيذر التصاقة الصديقين وأراد ألا يظهر أحد من مستخدمى المركز السودانيين معه وبما انى أعرفه منذ صغره ومدة تجارته بالدويم لم تطمئن نفسى للخضوع لفضيلته وعملت بالمثل القائل (من رآك صغيرا لم يوقرك كبيرا) ولكن لعدم العلاقة بين مصلحتنا شرع يحرض المأمور الذى يكثر من زيارة المدرسة وبدأ يناقشنى بواسطة اليوزباشى توفيق أفندى حلمى نائب المأمور فلما جاءنا السير كرى طلبت منه أمرا باستقلال المدرســـة عن المركز فرفض طلبى فقلت : اذا لا يمكن استقلالنا كليا فتجعل سعادتك لائحة تحدد لنا ما علينا وما لنا فنيـــا واداريا وكنت محضرا قانونا كلائحة لأعرضه على سعادته فلما عرضته عليـــه سلمه ابراهيم أفندى كامل الذى صادق على الكثـــير من مواده فلما ترجمـــه لسعادته أمرنى بارسال نسخة منه واستعمال ما صودق عليه فعلا طلبت منه ان يمضى على المواد المتفق عليها ونسختها فى الحال فوقع عليها وأرسلت للمعارف نسخة كأمره فكانت كأساس للائحة الأولى .

عملت عشاء لشيخنا الفقيه محمد الأمين الضرير ودعوت بعض المستخدمين وأذكر منهم من الوطنيين الشيخ أحمد الفقيه يوسف نعمه ولما فرغت من الطعام لعقت أصابعى فقال لى منير أفندى لعق الأصابع ليس من التمدن فقلت له كان صلى الله عليه وسلم يلعق أصابعه حتى تحمر وهو مخالف لتمدنكم ويخصف نعله ويرقع ثوبه ويخدم فى مهنة أهله كل هذا مخالف لتمدنكم فنشر عنى بعض الحاضرين انى قلت ان النبى (صلعم) غير متمدن . وقبل هذا فى مأتم لأولاد أبى سنن . كان الشيخ محمد عثمان الغمرابى يقرأ فى سورة ابراهيم ومن جملة ما قرأ آية (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة) الخ : قلت دستور يا أستاذ

لأوقفه من القراءة اذا كانت توجد رواية برفع « كلمة » بالرفع « وطيبه » نعت لها يسوغها للابتداء ويكون المثل جملة كقوله تعالى « ان الذين يدعون من دون الله لم يخلقوا ذبابا» الا تقبل فى صناعة الاعراب فقال تقبل ثم جاء ذكر أرم ذات العماد فقال يسن عبد الحكم مدينة أتم وضعها الملوك فقلت : بن خلدون قال فى مقدمته هذا من باب الخرافة فلعن يس بن خلدون ووبخنى ٠

لا أدرى ان قلت « لو ان الله تعالى قال كلمة بالرّفع لكان أولى وان أرم مدينة خرافة» وضمت على ان قلت ان النبى صلى الله عليه وسلم غير متمدين ونشر هذا عنى التيجانى أحمد يوسف ويس عبد الحكم حتى وصـــل الخبر أم درمان وكنت فى ضمم عنه لم يبلغنى من أحد فأكد لى المثل القـائل الكلام يصل عند صاحبه ويقف ٠

ففى فبراير سنة ١٩٠٦ زرت عمى عبد الاه أبى سن بالحديبة فسلم على بفتور بخلاف عادته وبعد قليل حكى لى ما سمعه عنى فبهت لهول ما أصابنى وألح على فى معرفته السبب الذى دعانى لذلك فأعملت ذاكرتى حتى تذكرت حكاية التمدن وحكيت له حقيقتها كما هى واستشهدت بالفقيه محمد الضرير ثم استشهدت على الثانية بعمى حسان أبو سن وفى أثناء ذلك دخل علينـا عمى الشيخ عبد الله أبو سن ناقل التهمة عنى فسأله الشيخ عبـد الاه قائلا أما قال بابكر كذا وكذا حاكيا ما بلغه اياه عنى قالى نعم حصل هذا منه قلت هل سمعته منى ؟ قال لى سمعته عنك متواترا قلت لو دعوتنى لمنزلك هل كنت أجيبك أو أمتنع قال تجيبنى قلت لماذا لا تدعونى وتسألنى قبل أن تنقل عنى مالم يحصل منى ؟ قال غلطت قال عمى عبد الاه ها أنا أنزل الى رفاعه غدا نجعــل مجلسنا عند يوسف نعمه فقلت أحسن بعد رجوعى من مدنى وعندما رجعت شـــكل المجلس عند الفقيه يوسف فجعل الشيخ عبد الله هاشم يقول : تب لله واستغفر لذنبك قلت له بغلظة لو عصوت الله أنا تنتظر منى أتوب على يدك قم من هذا المجلس يا حاسد أخوانه فقام سامحه الله وحضر حسان أبو سن فشهد كمــا قلت تماما ثم أخرج الفقيه يوسف تفسير الصاوى على الجلالين فقرأ تفسير أرم فقال أرم أبو قبيله جد عاد الى أن قال ويقال انها مدينة الخ وصرح ان هذا من باب الخرافة فقال الشيخ عبد الاه للشيخ عبد الله عوض الكريم أبو سن شن قولك فقال لى الشيخ عبد الله هاشم الأحسن انك تتوب قلت له أنا لو أذنبت

حقيقة لا أتوب لقولك فصمت ثم قال الشيخ عبد الله عوض الكريم الاثنان نجا منهما بقيت الثالثة فتوجهنا للفقيه الأمين بخلوته فكان رده أن جكى الحكاية كما قلتها بأصلها تماما وقال للشيخ عبد الله عوض الكريم اذا أتى أبو بكر بما نسب اليه فهل تراني أسكت وانتشر القول وتفشى حتى انى لما جئت أم درمان صرت كلما قابلت أحدا ممن أعرفهم يسألني عن القصة وانى ارتددت صحيحا حتى لقيني الشيخ عبد الرحمن الفقيه الأمين الذى قال لى غلطتك انك تتكلم كلام الخاصة فى مجالس العامة وبالبحث وجدت هذه الرواية فى تفسير الصاوى ٠

فكاهة :

فى أثناء سنة ١٩٠٦ لمناسبة لا أذكرها عملت عشاء ودعوت له المأمور حيدر أفندى رسم وكبار مستخدمى مركزه حتى قدم الطعام وهو فته برز ولحم فكشف غطاءه حيدر أفندى رستم ونظر ى شذرا مستقلا الطعام فعرفت منه ذلك فقلت له ولمن معه بسرعة الهدهد دعا سيدنا سليمان وجيشه على جراده فحضراتكم لستم أشرف من سيدنا سليمان وأنا لست أحقر من الهدهد وطعامى ليس أقل من جراده كلوا باسم الله فرفع حيدر أفندى رأسه قائلا لى : أيو يا سيدى ادع الناس وتشبعهم خطبا ، فضحك الجميع وأكلوا بشهية ٠

دخلت سنة ١٩٠٧ وجددت نشاطى لأبرز مدرسة البنات برفاعه ولما كانت هى الأولى من نوعها فى التعليم المدنى للبنات فمن الطبيعى أن يلقى منفذه من الصعوبات ما يلقاه المجددون قلت التعليم المدنى لأن التعليم الدينى للمرأة السودانية يرجع تاريخ المعروف منه الى ثلثمائة وعشرين سنة اذ الذين علمتهم وجعلت أدفع معارضى بالاقتداء بهم ثمانية أولهم والد أولاد جابر الأربعة ثم الشيخ ولد أبى صنفيه والشيخ الجعيل الولى والقاضى عربى بكردفان والسيد محمد عثمان الميرغنى والحاج عطوه والفقيه محمد المبارك جد الشيخ أبو القاسم هاشم لوالدته والفقيه الأمين الضرير والمهدى عليه السلام كلهم علموا بناتهم أو أمروا بتعليم بنات غيرهم وأخصهم بذلك السيد محمد عثمان الميرغنى الأكبر

الذى أمر بفتح الكتاتيب ليتعلم البنات القرآن بتنواكن وقد رأيت كتاتيبهن فى سنة ١٣١٠ هجرية .

تحت اسمك الخاص وعلى حسابك الخاص
هكذا فتحت مدرسة البنات

نزولا على رأى المستر كرى بدأت بأن أجرت منزلا يلتصق بمنزلى ب ٣٥ قرشا وخادمة تجلب الماء لشرب التلميذات ب ١٥ قرش وانتخبت امرأة من سكان رفاعه ـ تدعى نفيسة بنت المكاوى على أن أعطيها جنيها واحـدا شهريا وأعطيتها خمسين قرشا مرة فى السنة لتجعلها رأس مال المواد المصنوعات من تطريز وطواقى وكل المصنوعات تبيعها لنفسها وفتحت المدرسة على ١٧ سبع عشر بنتا من بيتى تسع بنات والباقيات من سكان رفاعه أما العربى والحساب والقرآن والديانة أعطيها بنفسى فبدأت أعلمهن كل الحروف فما أمكن لأنى علمتهن أولا الى حرف الزاى ثم الى حرف القاف ولما أتممتهـا لهن نسين الاحدى عشر حرفا الأولى نسيا تاما والبنت منهن اذا انتهرت تبكى مقـدار نصف الساعة حيث لا سابقة لهن بمسك القلم أو الطباشير فكنت أمسك يدها وأكتب بها ولم أشم رائحتها ولا أحس لين بدنها وكثيرا ما أقول للبنت فهمت بالتاء المفتوحة ضمير المخاطب الذكر فعملت فكرى فى طريقة سهلة يستطعن قبولها فبعد جهد اهتديت الى كراستى الجديدة التى عملتها لهن وبهـا علمتهن وهى ب ت ث ح خ ر هذه الستة حروف التى يوافق اسمها صوتها مع الفتحة وركبت منها أربع عشر كلمةهى: ب ت ر ـ ت ر ب ـ حب ر ـ ر ح ب ـ خ ب ر ـ خ ر ب ـ ب خ ر ـ ث ر ب ـ ب ث ر ـ ب ر خ ـ ث ب ت ـ ب ح ث ـ خ ب ث ـ ر ب ت • ثم آ هذا ألف وفى راسه فتحه ينطق أو ج وفتحه ينطق جَ و دَ وفتحه ينطق دَ ـ هذا درس

أَثَرَ — أَجَرَ — أَدَبَ — أَرَخَ — أَدَرَ — جَاَرَ — ثَاَرَ — ارج — بدا — ب ج ر — رجب — ثاب — ج ح ر •

لا يُسْأَلْ الأولادَ أو البناتَ عن معنى الكلمات فى هذه الدروس .

الدرس الثالث :

ذَ ذال وفتحه ينطق ذ ويمد فيه اللسان بين الأسنان مثل الثاء .

حكاية :

كان تلميذ بليد المعلم يقول له قول ذ وانت تمد لسانك فيقول ذا ثم يمد لسانه خارج أسنانه بعد أن ينطق بالذال فغضب منه المعلم ويوبخه وباقى التلاميذ يضحكون عليه فيستاء مرتين من توبيخ المعلم وضحك الأولاد ز زين وفتحه تنطق زين ولا يمد منها اللسان ولكن تضغط فيها الأسنان من الفكين

قلن : آز — آ زه — ب ر ز — زب ر — جَبَ ذَ — جَ ذَ بَ

ز ر ا — ر ز ا — ذ اب — ب د ا — ب ر ذ — اخَذ — حرز —

جب ذ — جذر .

فلما أتقن هذه الكلمات بسهولة أعطيتهن السين والشين فقط مع حركة الفتحة وكلمات أدخل فيها هذين الحرفين وأتمها من الحروف السابقة وهكذا الى أن أكملت الحروف الهجائية بالفتحة فقط ثم باقى الحركات واحدة بعد واحده ثم السكون الذى فسح لنا مجال الكلمة من أربع مقاطع . اذكر انه لما تعلمن يكتبن على الاحد عشر حرفا الى الزاى كلمات بسرعة والحساب الى ٩٩ ويجمعن ويطرحن .

زارنا سعادة المدير ديكنسون باشا مدير النيل الأزرق فسر جدا ولم يلاحظ سعادته انهن يكتبن كلمات على حروف قليلة فكتب فى الحال لسعادة السير كرى يخبره بأن تلميذات بنات رفاعه يكتبن كلمات ويجمعن أعدادمركبة وذلك فى شهر ابريل سنة ١٩٠٧ فكتب الىّ السير كرى بذلك ثم حضر بنفسه فى شهر د يسمبر من تلك السنة وبعدما فتش مدرسة الأولاد قال لى هل ممكن أزور مدرسة البنات قلت سأكتب لولاة الأمور اذا وافقوا لا مانع عندى وانى واثق بموافقتهم لكى أظهر لسعادته انى محافظ على سمعة المدرسة الوحيدة من

نوعها وفتذاك لأنه كثيرا ما كان يكرر لى كلمة « احترس » بالانجليزية فوافق وكتبت لولاة أمورهن هكذا :

(حضرة فلان بن فلان :

سعادة مدير المعارف يرغب زيارة مدرسة البنات فاذا كان لديك مانع اكتبه على ظهر هذه الورقة واذا كنت موافقا فقابلنا بالمدرسة الساعة ٥ مساء ولكم الشكر

الامضاء)

لم يتخلف واحد منهم فلما اجتمعنا بالمدرسة وبصحبة سعادته مأمور المركز والمرحوم الثقه الكامل محمد أفندى ابراهيم كامل المفتش بالمعارف فأخذ سعادة السير كرى يسلم على آباء التلميذات واحدا واحدا ويقول لكل واحد منهم انت علشان ايه جبت بنتك لمدرسة البنات ؟ يرد عليه : جئت بها رغبة فى التعليم عند بابكر بدرى • يقول للواحد اذا نقلت بابكر بدرى تعمل ايه يرد على سعادته بحماس آخذ ابنتى من المدرسة وبعد ذلك دخل فصل البنات فقرأن وكتبن فى الدروس العلمية ثم انتقلوا الى غرفة الأعمال اليدوية فرأى التطريز وخياطة الطواقى وقد كانت المعلمة أعدت له طاقية جميلة قدمتها له هدية فتقبلها وشكرها ثم سألنى : شيخ بابكر كم صرفت لليوم على مدرسة البنات ؟ قلت أربعة عشر جنيها عن التسعة شهور الدراسية لأننا فى شهور الاجازة لا ندفع أجرة البيت ولا ماهية المعلمة فقطع ورقة من نوتته باسترداد ما صرفته من خزينة المركز ثم قال لى هل يلزمك شىء للمدرسة قلت نعم فقرر لنا أربعة جنيهات مرتب شهرى لمدرسة ذات كفاءة تسمى ست أبوها مصطفى اتفقت معها وستحضر من مدنى فى أول يناير فكتب التصديق ثم قال لى ماذا قلت جنيها شهريا لفراشة تحضر البنت المتأخرة أو المتغيبة من بيتها قال الفراشان لا يقضيان لك قلت الفراش الرجل لا يصلح لاحضار البنت فصدق بذلك قال خلاص قلت اطلب مائتين وثلاثين جنيها لبناء مدرسة خاصة للبنات بلصق مدرسة الأولاد ليقرب المكان للتعليم والملاحظة قال لى حضرة المأمور كيف تلاحظها وبينكما سور ؟ قلت له : سور له باب باطنه فية البنات وظاهره فيه الأولاد ومفتاحه فى جيبى أدخل منه أنا ومن أسمح له قال غير كاف لأن التلاميذ

والتلميذات يجتمعون فى الطريق قلت لا يمكن لأنى أخالف بين وقتيهما وقت دخول الأولاد قبل البنات وخروج البنـات قبل خروج الأولاد بحيث يكون الأولاد فى الدخول والخروج داخل الفصول وفى الفسح أيضا فوافق السـير كرى وظهر فى وجهه الارتياح وأخبرنى المرحوم كامل أفندى ان سعادة المدير أخبره انه مسرور من سرعة اجابتى وحسن النظام الذى أجزته وبه عملت فعلا ونفذ كل طلباتى لمدرسة البنات فلما وصلنا مدرسة الأولاد قال لى السير كرى بعد أن عرض على الطاقية المهداة له كم تساوى هذه قلت خمسة عشر قرشا قال لى كم يوم تخلصها البنت ؟ قلت ان أسرعت تخلصهـا فى عشرة أيام قال يعنى يومها قرش ونصف ؟ ثم قال لى « الناس كلهم ذكر وأنثى فالأنثى لا تلبس هذه ثم الذكور ثلاثة : رجل وفتى وولد صغير فالرجل والولد الصغير لا يلبس ثم الفتى غنى وفقير فالفقير لا يستطيع ثمنها ثم الغنى سفيه وعاقل من الفتيـان فالعاقل لا يلبسها فانظر كم من الناس يلبسون هذه الطاقية أترك شغل الطاقية وشغل البنات التفصيل قميص لباس جلابية المرأة تلبس الرجل يلبس كل الناس يلبس « هذه الفاظة » فتركت عمل الطواقى وأبدلناه بالتفصيل أنظـر هـذا التفضيل من نوع النشر والى هذا البرهان المقنع المحسوس وذلك لأن السـير كرى كان معلما بالمحسوسات ولذا نجح فى عمله نجاحا باهرا فى وقت قصـير جدا نجاحا لا يدركه الا من جرب التأسيس وصعوبته وخصوصا لمن تعترضه عقبات الانتقال من المعروف المألوف بضده ولمن يصادم مشروعه اختلاف العقائد والعوائد المتأصلة الموروثة وبالأخص مسألة التعليم التى لا سـلطة تتقيد به للقائمين بأمرها ضد عدوين عنودين أهل الطرق للعقائد ورؤساء القبائل للعوائد وعلى الأخص فى الزمن الأول (وسأعقد فصلا خاصا لأعمال السـير كرى وما قدمه للسودان من خدمة وما اعترضه من صعوبات ان شاء الله) فى هذه الزيارة قال لى السـير كرى بلغنى ان أولادك وضيوفك كثيرون ومرتبك صـغير فقلت له أبدا أنا مبسـوط فى عيشتى فسكت ثم قال لى مداعبـا انت يا بابكر النظار كلهم يقدمون شكاوى من المدرسين أو من السكان فأنت لا تقـدم شكوى أبدا

قلت له : (وأنا ممسـكا أصبعى الخنصر) يا سـعادة المدير عملى

بالنسبة لعملك كأنملتي هذه بالنسبة لبدني ألا ترى لي أملا لأريحك فيه . اذا لا بارك الله في .

فضحك وضربني على كتفي وقال : يس يس .

في هذه السنة جعلت ألح على السير كري باستقلال المدرسة لأن الشيخ عبد الله هاشم وحيدر أفندي الرجل العاقل أتعباني وأذكر من الجاحي عليه قلت لسعادته وكيل التلغراف والقاضي الشرعي وحتى ملاحظ الغابات مستقلون فلأي سبب سعادتك تربطنا مع المركز فهل ترى أن ناظر الكتاب أقل كفاءة من ملاحظ الغابات .

ووكيل التلغراف رد على بقوله : بعد مدة وجيزة كلكم تكونون تحت المفتش حتى المأمور

قلت : أتركنا نكون مستقلين مثلهم حتى يأتي الزمن الذي تعنيه سعادتك. فضحك وقال لي : لا لا أنا لا أرفع زولي بعدين يقع ينكسر . أتركه في مكانه مستريحا . ولكنه كما أعتقد أوصى المأمور أو المفتش والله أعلم لأن الحالة هدأت من ناحية المركز الذي دارت بيني وبينه مكاتبات بخصوص أشغال مدرسة البنات التي تبيعها المعلمة علنا بالسوق وتستلم قيمتها كالاتفاق كما سبق فلما رأى القاضي هدوءنا من ناحية المركز أخذ يحرض المعلمين وانفرد بالشيخين محمد المرضي كريم الدين والبدوي المبارك فأخافهم مني لدرجة أنه كان يزورهما في بيتهما ويقول لهما ، والله العظيم الذي يضربه منكما يوصله الجيره (وهذا مثل سائر) وهما يتلوان استغاثة الشيخ ابراهيم عبد الدافع التي منها هذا البيت :

يا سيدي يا حسن السريره

أما رعيتم سيدي للجيره

ثم يقولان بصوت واحد : ود بدري جننا جننا . وهو أي القاضي يقول لهما هيا هيا والله البضربه يوصله الجيره (وهي الطبقة السفلى من الأرض) .

وبعد قليل نقل الشيخ المرضي الى الكاملين فصار يكاتبني معتذرا بأنه ظالم لي وليته بقي معي أما الشيخ البدوي وقد تمكن منه سوء الفهم بدرجة أني دخلت عليه مرة في ثانية أولية فوجدته يعطيهم قواعد الاملاء بطريقة بعيدة ومعقدة فطلبته بعد الحصة في المكتب وعرضت عليه طريقتنا المختصرة الواضحة

فاشمأز وقال لى : أنا جيت معلماً لا متعلما فتركته وتناولت كراسة بعض التلاميذ المصححة بعلامته فوجدت فيها أغلاط كثيرة وضعت على كلماتها خطا من أعلى الكلمة ثم طلبته وقلت له يا شيخ البدوى هذا الغلط بهذا الكراس اما ناشىء عن جهل فيجب أن تحقق واما عن اهمال فيجب أن تنتبه وتدقق • فقال لى بعدم اكتراث لا عن هذا ولا عن ذاك فكتبت له سؤالا رسميا فأجاب بما قال فحفظت اجابته والكراسة المغلوطة وقلت له تفضل حضرتك الى أن يأتى أول مفتش أعرضها عليه •

فزار المدرسة السبكى أفندى وكان غاضبا على الشيخ البدوى فوجده فى ثانية ووجد أحد التلاميذ يقرأ فى قصيدة السموأل فقال له : يا شيخ بدوى عرفتهم من السموأل ولا أنت نفسك مش عارفه • فقلت للسبكى كيف لا يعرف السموأل بن عاديا العربى الصميم الاسرائيلى صاحب جبل الأبلق الفرد فقال لى السبكى : اديك يا سيدى حكيت له فليكرر قولك • ثم قام التلميذ يعقوب حسنى وقرأ خطبة لسيدنا معاوية بن أبى سفيان فسأل السبكى التلميذ ن معاوية • فقال له معاوية حجام النبى فالتفت للشيخ البدوى وقال له ياسيدى بدلا من أن تقول لهم ابن عمه أو صهره أو كاتب وحيه تقول لهم حجامه • فخرجت من الفصل وأشرت للسبكى أفندى ليأتينى • فلما جاءنى قلت له يا جناب المفتش أن الشيخ البدوى يتلو كتاب الله كل ليلة فتجنب أذاه وأنت والد أطفال • قال لى السبكى بذمتك هو يحفظ القرآن ؟ قلت : نعم ويتلوه كل ليلة • فلم يغلظ عليه بعدها • ولما أكمل التفتيش طلبت منه نقل البدوى للخرطوم ليكون قريبا من أهله قال لى : انقله بشرط ألا يصلك خلفه الا فى أول السنة الجديدة • رضيت بذلك وبعد أن كتب بالنقل قال لى لماذا تطلب نقله دون خلف قلت مرتبه صغير وله زوجة وأولاد ووالدة وأخت أيم بقبة خوجلى ليجتمع معهم ويوحدوا معيشتهم • شكرنى السبكى ـــ بعد سفره فى أيام المولد وكانت لنا خيمة خاصة بالمدرسة بميدان المولد يلقى فيها التلاميذ محفوظاتهم فيسمع آباؤهم القاءهم حفظا وجرأة وكان على كل معلم يوما يحرسها من الساعة ٦ الى الساعة ٨ موعد اجتماع الناس ليحفظ النظام ويحرس الأدوات فلما كان يوم البدوى تأكدت أنه لم يأت فحضرت بنفسى وبعد ساعة حضر البدوى فقلت له تأخرت • فكان رده لى نعم أتأخرت هل هذا عمل رسمى تناقشنى فيه • سكت قليلا ثم قلت له يا أستاذ

هل تطلب منى خدمة أقدمها لك • قال لا أطلب منك خدمة ولا أسمح لك أن تتهكم على • قلت أنا مستعد أخدمك لله تعالى لأنك تحفظ القرآن ومن ذرية الشيخ خوجلى • وراتبك قليل جدا بالنسبة لعائلتك قال : خدمتى أن تنقلنى الخرطوم • قلت : نقلتك يا سيدى • فغضب وقال : قلت لك لا تتهكم على • أخرجت له جواب نقله فلما قرأه دمعت عيناه وقبل رأسى وقال لى وهـو باك أنت مظلوم منا ونحن لئام فى سوء ظننا بك والله يجازى من كان موقعا بيننـا بعمله لأنه أحرمنا من الاستفادة من تجاربك ثم قال : ومتى أسافر ؟ قلت : غدا قال : ومن يخلفنى ؟ قلت : لا خلف لك الا فى أول سنة ١٩١١ قال ومن يقـوم بعملى ؟ قلت : تحملت به أنا • فقام وقبل رأسى مرة أخرى وسخط على نفسه وفى الصباح كتبت له للشيخ محمد أحمد فضل يعفيه الحصـة الأولى كل يوم ليتمكن من الفطور مع أولاده ويرجع يتغدى معهم وأخرجت له الكراسة التى كان يظن أنى أطلعت السبكى أفندى عليها وسلمته اياها وعرفتـه أنه لم يرها أحد وأطلعته على جوابى للشيخ محمد أحمد فضل فول عنى بين حـزن على فراقى وفرح باجتماعه بأولاده وسيأتى باقى الحديث عنه سنة ١٩٢٠

فى هذه السنة تعهد يونانى بتوريد الحجر لتحديد أطيان الجزيرةلمتلكيها حتى اذا محيت الجسور تكون محفوظة بالحجارة التى توضع فى الزواياالأربعة فخصص المتعهد بمدنى جزءا من العهـدة للخواجه جورجى كلمتيانوس المقيم برفاعه فجئته يوما لأحصل منه أجرة دكانى الذى كان ساكنا بهوفىأثناء الحديث جرى ذكر الشيخ عوض الكريم عبد الله أبو سن فهاج جورجى وقال الولد ده لا يريد أن يسكت حتى نضبعه فى السجن • فقلت : أنت تضع عوض الكريم فى السجن ؟ قال : نعم • قلت الآن أخبره أنا بقولك هـذا • وذهبت توا لعوض الكريم فلما أخبرته كان رده شنسيل أى ماذا أصنع له وفى ظهره المأمور يشرب معه كل ليلة فقلت له أنت ما تستطيع تجمع الجمال وتورد الحجر للحكومة بدلا عن جورجى قال هل يمكن تحويل التعهـد لنا • قلت ممكن تحويل مأمورية جمع الجمال وصرف قيمتها لأهلها بواسطتكم وجمالكم هى التى تنقل الحجر الآن وأهلها دافعوا الضرائب أما جورجى فلا قيمـة له بالنسبة لكم اذا طلبتم ذلك قال أخبر الشيخ بذلك أى والده فأخبرت الشيخ عبد الله وشجعته فذهب الى المستر منكريف مفتش رفاعة وقتئذ فأمره بتقديم طلب ووصى عليه لسعادة

اللواء دبكنسون باشا الذى سر سرورا عظيما وصدق له بتوريد لصنف جميع الحجر بواسطة جمال الشـكرية وخاصمنى جورجى لا سبب غير أنى محب لوطنى •

كان حيدر أفندى رستم جالسا فى دكان أولاد الدابى يرانى حينما كنت مرافقا للشيخ موسى يعقوب الذى غضب منى ولزنى حتى وقعت على وجهى فى الأرض وامتلأ فمى بالتراب وتركنى مصروعا ومشى فى سبيله فجـاء حيـدر أفندى فزعا ليرفعنى ولكنى نهضت ولقيته قبل أن يصلنى قال لى حيدر أفندى انى رأيت ما فعله بك موسى يعقوب قدم لى شكوى غدا لاعاقبه عقابا صارما ضحكت وأنا أغسل فمى من التراب والدم ثم قلت له ان موسى اذا كان يعلم أنى أشكوه لا يجرأ على بفعل ذلك • وأنا ان شكوته لك لا أستطيع الاقامـة برفاعة ولكن هل تعلم حضرتك سبب غضبه منى • قال لا • قلت طلبت منـه ولده البشير الذى بثالثة كتاب لألحقه بكلية غردون ليساعده اذا كبر أو ليعيش كأخوانه المستخدمين من أولاد رفاعة ويلتقى بباقى أولاده الكبار فى خدمتك بخصوصية زراعة وتجارة فأبى وأنا أتبعه وألح عليه فى اجابة طلبى لنفع الولد قال لى حيدر أفندى الآن تقدم شكوى ضده • قلت مستحيل • قال ولا أنت ساخط عليه • قلت أبدا والله ولكنى ساخط لتضحيته للولد • فقال وهو يهز رأسه عجبا هذه أخلاق ملائكة •

كان المرحوم ابراهيم أفندى الكامل فى معلوماته وفى أعماله وفى معاملاته مع الخالق والخلق أقول هذا بعد تجارب حقيقية كان رحمة الله تعالى عليه كثير الأسفار وكانت بيننا صداقة رفعت الكلفة بيننـا وأحلت بدلهـا الألفة وكان يوصينى أن أرسل لأولاده فى الخرطوم كـل ما يطلبونه مما يلزم للحضر من البادية كالمسلى والبيض والبطيخ على حسابه وحينما يصل الخرطوم أو يأتينا برفاعه أقدم له حسابه فيدفعه لى مع شكرى على ما قدمته من الخدمة • ففى شهر مايو فى هذه السنة جاء لرفاعة ودخل المدرسة دون اخبارى كعادته وكنت فى تلك الحصة بالسنة الثانية أعطيهم الكسور الاعتيادية لأول درس فيها برسوم وجسوم من رغيفان وليمون أقسمها أجزاء مختلفة وجنابه جالسا بين التلاميذ خالعا طربوشيه عن رأسه فلما ضرب الجرس وانقضى الدرس قلت للتلاميذ قياما لأخرجهم للفسحة رأيته جالسا فلما تكامل خروج التلاميذ تقدمت له فصافحته

كعادتي وقلت جئتنا هجوما على خلاف العادة ؟ كان جوابه لى وهـو عابس (عبوسا ظننته من وعثاء السفر أو الضجر) قال لى التفتيش يقتضى ذلك بقلقلة القاف المضخمة ... خرجنا ونحن نقصد حجرة الناظر سـألنى فى الطريق أين حسابى ؟ أخرجت له مذكراتى وناولته اياها فاتحا حسابه فلما نظر مجموعه قال لى لا لا يمكن أن يكون هذا حسابى . وقفت واجمـا وداخلنى من الغضب ما الله عالم به قلت بحدة تقصد أنه أكثر من حسابك أم أقل قال بلى حسـابى يكون أكثر من ذلك بكثير . كنا وصلنا مكتب الناظر وجلس هو على الكرسى ووقفت أمامه ثم قلت له بحده أنت مرتبك ثلاثون جنيها ومرتبى ست جنيهـات أتظننى أنى أخدم الثلاثون بالسـتة اذا لا بارك الله فى أن عملت هـذا على أن مرتبى خمس مرتبك وعائلتى أنت تعرفها جيدا ضعفى عائلتـك . من فضلك امسخ هـذا من عقلك وتكلم غيره . فأطرق قليـلا ثم قال لى بكم القرش فى البيض ؟ قلت اثنتا عشر بيضة فقال بكم رطل المسـلى ؟ قلت ان رجـلا يدعى أحمد محمدعلى طلبمنى مبلغا يشترى به المسلى من الخارج ويجعـل نصفى ونصفه له فلما جاء المسلى صادف طلب أولادك فأرسلته لهم وهو صفيحتـان بهما أثنتان وسبعون رطلا يكلف الرطل ثلاثة عشر مليمـا فلمـا جاءنى حولته لكم بقيمته . أطرق مليا ثم رفع رأسه ساحبا عينيه وقال لى أنت قلت بعد الآن لا آمن ابراهيم كامل على نفسى لأنك أصبحت تتهم اخلاصه لك بصفته مصريا هنا . ضحكت قهقهة فاستشاط غضبا واحمرت عيناه خلاف ما كنت أعهده فيه وأعرفه به قلت اسمع أنا لا أقول هذا القول لسببين الأول تلوت قوله تعـالى (لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) وأنا مؤمن بها والثانى أنا رأيتك بعينى تتهجد بالصلاة والتلاوة ليلا أنا أعتبر نفسى غرسك ولا أظن من يقيم الليل وهو من أولاد الشيخ الجنيد يقطع غصنا غرسه وتعهده بعدما أثمر هذا ما أعتقـده فيك فان كنت تعرفه من نفسك غير هذا فأفعل ما شئت أنا لا أبالى بالمخـلوقين مادمت مؤمنا بالخالق حينما سمع قولى هذا وأدرك نبرات صـوتى التى تدل عن ان الكلام صادر عن وحى صادق انتصب قائما ودموعه تنصبب وجبهته وخـده يرتجفان ثم قال لى بصوت متهجد خشوعا واستكانة هذا كلام عليه نور اجلس انت أصدق ممن بلغنى ثم تجاوز الترابيزة حتى وصلنى وعانقنى ودفع لى الحساب

وطلب منى نذهب للسوق فلما وصلنا سوق البطيخ أشار الى أكبر بطيخة وقال لصاحبها بكم هذه قال بأربعة عشر مليما ثم مر على أهل المسلى وقال بكم الرطل قيل بقرشين ونصف فقال لى اتتم تعيشون فى رغد فقلت شاركناكم ولم تشاركونا فضحك • كان متواضعا رحيما رحمه الله •

فى اكتوبر من هذه السنة فتحنا فصلا ثانيا للعرفاء ومن ضمنه تلاميذ كتاب رفاعة الكبار الذين تتجاوز أعمارهم ست عشر سنة وقد أخذت من بينهم يوسف شريف مساعدة لجده لأمه الرجل الصالح محمد مكاوى الذى كان معه بمنزله مع والدته المطلقة من والده والتى رجعها له ابنها اليوزباشا يوسف شريف بعد ما تخرج من الحربية ضابطا

سبق أن قلت ان ماهيات المعلمين تؤخذ من ايرادات التلاميذ الى أن زار المدرسة السير كرى فى أواخر ١٩٠٧ طلبت منه أن يقرر لهم ماهيات فقرر للشيخ عبد الغفار والشيخ عبد اللطيف كل منهما جنيهين وللشيخ محمد عبد النور جنيه ونصف وفى آخر السنة طلبت مصلحة المعارف منى ترشيح أحد معلمى رفاعة ليكون ناظرا لمدرسة المناقل التى فتحت فى ذلك الوقت فرشحت الشيخ عبد الغفار فأعطى مرتبا قدره أربع جنيهات وعين ناظرا وهذا ما كان يستكبره على نفسه •

فى مارس من هذه السنة زارنا السير كرى وابراهيم أفندى كامل فبعد التفتيش قال السير كرى مرة أخرى علمت ان ضيوفك كثير وأولادك كثيرون ومرتبك صغير فقلت لسعادته مرتبى بالنسبة لأمثالى كبير فسكت ولما خلا بى المرحوم ابراهيم كامل قال لى أضعت فرصة ثمينة فأنا قد اتفقنا على جعل مرتبك احد عشر جنيها فقلت حضرتك الذى أضعتها على لأنك لو أخبرتنى قبل عرضها على لوافقته فقال لى لعدم رزقك نسيت المسألة بالمرة قلت ان الله هو الرازق فلو كتبه لى لتذكرت جنابك وأشكركما كثيرا •

دخلت سنة ١٩٠٨ فى هذه السنة ظهر تقرير للسير كرى ضمن تقرير حكومة السودان العام ذكر به تقدم كتاب رفاعة وجعلها مثالا للمدارس الأولية التى تستحق ستة فصول وذكر فى تقريره كثيرا من تاريخ حياتى •

فى أول هذه السنة عينا المعلمة ست أبوها مصطفى لمدرسة البنات

واحتفظنا بنفيسة فراشة فارتفعت المدرسة بجهـــدها واتقانها لفن التطـريز والتفصيل وضبط البنات وحسن الادارة فصرت أعتمد عليها قليلا حتى تم بناء المدرسة الجديدة للبنات ونقلت لها التلميذات . صارت المدرستان متصلتين كما تقدم وقلت زيارتى لها لكثرة أعمالي وثقتى في ست أبوها فعند ذاك فكرت فى من تنوبنى فى تعلم البنات العلوم النظرية أو يساعدنى على الأقل فأردت أن أعين الشيخ محمد عبد النور أو غيره حيث لا توجد امرأة تعرف القراءةوالكتابة ولكنى تذكرت تأكيد السير كرى احترس احترس . فجمعت كبار سكان رفاعة بعد أن أخذت رأيهم فرادى فى تعيين معلم من الوطنيين بالمدرســة لعلم القراءة والكتابة والديانة بمدرسة البنات فجلهم يبادرنى بأنه لا شأن له فى هذا الأمر لأنه لا بنت له بالمدرسة فأقول له أليست ابنتى بنتك ؟فينكسفويقول نعم فلما جمعتهم وعرضت عليهم الموضوع رفضوا بتاتا فتركتهم وأرسلت للدويم لامرأة أعرفها تقرأ وتكتب فلم توافق على الحضـــور فصرت أعلم بنفسى وأستعين ببعض البنات الكبيرات العاملات وفكرت فى أن نرشح معلمات من التلميذات الفقيرات لنرسل منهن لمدرسة البنات الانجليزية بالخـرطوم فلم نفلح فى ذلك الوقت لقلة معلومات البنات التى تؤهلهن لتلقى دروس أعلى ولتمسك أولياء أمورهن الشديد عادة متأصلة وعقيدة مصممة لا تسمحان بنقل البنت من وكرها لطلب العلم فأجهدت نفسى فوق طاقتهـا لأسير فى طريقى الوعر الذى اخترته لنفسى لوصول غرضى السامى(من يعرف المطلوب يحقر ما بذل) وما زاد الطين بله نقل حيدر أفندى رستم الذى وان كان مدفوعا لعدوانى فى الرسميات من مأمور المسلمية وقاضى رفاعة الا انه كان عاقلا . نقل حيـدر وخلفه محمـد أفندى شكرى المغرض المتصنع الذى لا يعرف له مبدأ ولا مذهب بوصـوله بارزنى بالعدوان كما يأتى . لمـا أشيع خبر نقـل حيدر أفندى مأمورا لمدنى اقترحت عليه أن يبدأ برفاعه سنة احتفال المولد المعمول بهـا عادة لتكون له أثرا يذكر بها فأرتاح لهذا الاقتراح وفى الحال طلب فريده ورق مسـطر وختم كل وجوهها بختم المركز وكتب فى أول صحيفة منها بعد ما سطرها خانات كتب اسمه خمسين قرشا وست قدحات فته بلحم وكان القاضى عبد الله جالسا معـه كعادته (كلما كان خاليا من خصمين) فكتب اسمه ثلاثين قرشا وكلفنى حيدر أفندى باتمام العمل حسبما أرى فشكلت لجنة من موسى يعقوب سر تجـار

رفاعة ومحمود المكى وسالم عبد الأمين وأنا رابعهم مررنا بالسوق فحصلنا نقودا وعروضا وكلما حصلنا مبلغا نسلمه محمود المكي الذى عين أمينا للصندوق واذا وجدنا نقدية زائدة عند الجرد نقيدها باسم عابر سبيل وبعد ما جمعنا ما استطعنا جمعه عينا لجنة أخرى للمنصرف لم يكن من أعضائها أحد من لجنة التحصيل قررت هذه اللجنة للجمعيات المركبة من المركز والتجار والمدرسة وأهل الطرق لكل هيئة ما يكفيها — فى هذا الوقت كان المأمور غائبا فى مأمورية وأظنها ملاحظة تحويل الحجر للجزيرة فما عاد الا قبل الليلة الأخيرة بليلتين فلما اجتمعنا بمحل المولد بعد أن حيا فحييته وهنأته بالسلامة شعرت أنه قابلنى بفتور وكان القاضى عن يمينه فلما جلست قال لى حيدر أفندى أرجع النقود التى حصلتها من الناس باسم المولد لأصحابها ولم يكن المأمور ولا القاضى قد دفع اكتتابه فاهتزت عاطفة الغضب فى حتى ظهر ذلك لكل الجالسين بخيمة المركز فسكت قليلا فكرر لى قوله فانفجرت وقلت للمأمور حضرتك لم تدفع لنا ولا فضيلة القاضى قرشا وهذا الاكتتاب دفع من رفاعة بلدى لا من مصر ولا من بربر (بلد القاضى) فحضرتك أصبح فى مكتبك فاذا أتاك أحد متظلما منى أو من أحد أعضاء اللجنة فى ذلك الوقت يكون لكلامك هذا قيمة رسمية أما قولك الآن لا قيمة له عندى حتى أعمل به فقال القاضى يا شيخ بابكر هذا المأمور قلت أنا عارفه كما أعرف من وشى بى عنده أسكت وأحفظ مركز الشرع فى هذا الملأ فقام المأمور وذهب لمنزله غاضبا لأنه رجل عاقل فلما نهينا قراءة المولد كالمعتاد وذهبنا لبيوتنا جاءنى محمد أفندى سوركتى والحاج محمود المكى وكلاهما صديق حميم وطلبا منى أن أذهب معهما لمنزل المأمور واستسمحه فيما بدر منى له فأقسمت بالله لا أذهب اليه وقلت لهما أنه هو الذى أساء الى ، أساء الى بمقابلة تعبيسه لبشاشتى وكونه يقرر على حكما قاسيا دون سؤال ولا جواب رغما عن عقله الراجح ولا شك أنه يراجع ماحصل ويحكم ضميره ويرجع باللائمة على نفسه وعلى من وشى له فلما أصبحنا طلبنى بالمكتب وجدت معه القاضى والطيب السواكنى قال لى المأمور أرجعت النقود لأربابها قلت أتاك أحد متظلما قال أرجعها بأمرى وان لم يتظلم أحد قلت له والله العظيم لو قطعت يدى من بدنى وصارت آلة موصلة لم تمد لأحد قرشا الا بشكوى فلا تتعب نفسك وأحكم بما شئت فطأطأ قليلا ثم قال كيف حصلت

هذا الاكتتاب وبأمر من أقدمت عليه قلت نعم هذا المعقول الذى يجب على أن أجيب عنه أما التحصيل فبلجنة منى وموسى يعقوب ومحمود المكى وبعد التحصيل انسحبت اللجنة الأولى وعينت لجنة جديدة من طه الفكى والخضر أسيد وعثمان النعيم ومحمد الضو للصرف أما بأمر من فبأمرك يا حضرة المأمور قال لم أتذكر أحضرت له الفريدة المروسة بخطه فلما رآها اعتذر عما قال ودفع اكتتابه فى الحال ودفعت القاضى الثلاثين قرشا بعد أن هددته بشطب اسمه من الكشف وبهذا انتهت •

من هفوات هذا المأمور العاقل انه جمع كل عمد المركز الثمانية والعشرين عمدة ليقدمهم للمستر منكريف بأنهم غير قائمين بواجبهم فاستشفعوا له بالشيخ عبد الله أبو سن والشيخ التاى سعيد ليقيلهم فى تقديمهم لجناب المفتش على أن يعدوه وعدا أكيدا أنهم يقومون بواجباتهم فى المستقبل فرفض وقدمهم كلهم للمفتش مرة واحدة ملأ بهم المكتب فلما نظرهم المفتش الذى لم يكن عنده خبر سأله ما هؤلاء ج هؤلاء عمد المركز أقدمهم لجنابك بصفتهم مهملين فى واجباتهم غير مساعدين المركز لا فى تحصيل الضرائب ولا فى تنفيذ القضايا ولا فى تقدير العشور والقطعان فطأطأ المفتش الكثير الحياء ثم رفع رأسه وقال له حضرتك كلهم بطال قال نعم جنابك ثم طأطأ رأسه وكرز سؤاله الأول فكرر المأمور جوابه وبعد ثلاث مرات وقف المستر منكريف قائما وقال للعمد تفضلوا ان شاء الله بعد الآن تريحون حضرة المأمور فى كل واجباتكم الرسمية فأجابوا بلسان واحد حاضر يا جناب المفتش وخرجوا فرحين وخرج حيدر أفندى مكتئبا فلما وصل مكتبه طلبه المستر منكريف بمفرده وقال له حيدر أفندى حضرتك تنفع عمدة قال لا قال اذا حينما تقدم لى كل العمد وأنا أطلب رفتهم بفرض انى أجاب (وهذا لا يمكن) هل لنا أن نخلفهم بغير نوعهم • اما كان الأليق بنا أن ننظر أكثرهم عجزا أو خيانة فيقدم اسمه لسعادة المدير نطلب رفته فيخاف الباقون ويقومون بواجبهم ويكون هذا تصرفا حسنا منا فاقتنع حضرة حيدر أفندى وصار يحكيها من غلطاته •

فى يوم ٢٣ ثلاثة وعشرين ابريل من هذه السنة كنت يوما بمنزلى بعد الغروب ومعى الشيخ عمر الأزهرى القاضى بالقضارف جاءنا أصغر خدامى

المستر منكريف مفتش المركز ورمى لى دكا وفوطا من مصنوعات مدرسة البنات وقال لى بعنف خذ أشغالك وأعطنى (فلوسى) وبالغ فى قلة الأدب فأخذت منه الأشغال وطردته من البيت وفى غد حملت الأشغال متوجها بها للمركز أقدمها للمستر منكريف وأحكى له ما حصل من خدامه فقابلنى المستر منكريف فى وسط الطريق ذاهبا للمدرسة وابتدرنى بالسؤال عما حصل منى لخدامه فحكيت له القصة كما حصلت مستشهدا بالشيخ عمر الأزهرى فقال لى لا ترد للخادم الأشغال ولا ثمنها وأنا أطرده من خدمتى وفعلا فصله ولم يقبل شفاعتى ولا تهديد بعض خدمه الكبار بأنهم ينفصلون بانفصاله أنظر لهذا العمل العظيم تبعا للحق وتنفيذا للعدل على أنى علمت أنه دفع له قيمة الأشغال وأجرته لآخر الشهر فمثل هذا الرجل العظيم يقتل فى نفس الشهر بسيف عبد القادر حبوبه فى حركته المشئومة وتفصيلها • انى اجتمعت بعبد القادر حبوبه فى أول ابريل سنة ١٩٠٥ بالكاملين مركز مديرية النيل الأزرق آنذاك لمعرفتى السابقة له حينما كنا معا بسرية النجومى بدنقلا وصرص فأخبرنى انه حضر ليدفع ضريبة محصوله من الغلال والقطن بالمديرية رأسا لتحمله من محمد شريف مأمور المسلمية لأنه ساعد أخاه حسانا حبوبه عليه بأن حكم له فى سنة ١٩٠٣ باستلام بلاده بالحلاوين بعد ما زرعها عبد القادر وحصد غلالها أو كاد يتم حصادها فقلت له لا تخاصم من اذا قال فعل واتبع أمره ثم قلت له الأفضل أن تشكوه للمفتش قال لى انه وجد المستر كربيان صغيرا فى سنه جديدا فى خبرته وأعان حسان شقيقه أمام حبوبه فنفذ الحكم بواسطة كربيان نفسه ولم يدر عبد القادر ان كربيان لو كان صغيرا فى سنه فهو كبير فى عقله غزير فى علمه ثم لمت عبد القادر على ما بلغنى عنه انه صار يروى المديح ويحمله عنه المادحين (الزمال) لانشاده ونصحت له فى انهم سيبددون ثروته ويتفرقون عنه فأظهر لى انه قبل نصيحتى وافترقنا ثم لم أجتمع به حتى يوم ٢٥ ابريل ١٩٠٨ بلغنا ان أحمد مساعد ناظر الحلاوين ومعه جماعة من كبارهم أخبروا المدير بأن عبد القادر حبوبه يخشى من قيامه بحركة عدائية للحكومة مصداقا لما قاله قبلهم أخوه لأبيه امام حبوبه فتوجه المأمور محمد شريف الذى تأكد من حصول جمعيات غير اعتيادية لدى عبد القادر وصار يراقب حركاته وهو بجنينة امام حبوبه بشاطىء النيل الغربى بينه وبين قرية التقر موطن عبد القادر مسافة أربع

عشر ميلا تقريبا وفى ضحى يوم ٢٨ ابريل كان المستر منكريف يلعب الكـرة بحصانه قبل ان يفطر وصله خبر بأن يتوجـه للحـلاوين للكشف على حركة عبد القادر .

سافر المستر منكريف لينظر الحركة بنفسه فلما وصل جنينة امام وجـد المأمور ومعه ناظر الحلاوين وبعض كبارهم فأمر أن يسير هو ومعـه المأمور وقليل من البوليس الذين كانوا معه لعبد القادر فى منزله وينصـح له فالذى بلغنا في غد اليوم ممن رجعوا من البوليس الذين كانوا فى صحبةالمسترمنكريف ان المأمور حذر المفتش من السير لعبد القادر الذى لديه جموع كثيرةومتحمسة للقتال لمن يصلها ممن له علاقة بالحكومة حتى ناظر الحلاوين وأتباعه فرد عليه المستر منكريف لنفاذ المحتوم أأنت ست ألست ضابطا ؟ فخضع المأمور وانقاد لحتفه فركب المفتش والمأمور جملين وركب معهما سبعة من البوليس بعيـدا بحيث لا يراهم عبد القادر وجماعته ودخل المفتش والمأمور منزل عبد القـادر الذى خبأ جماعته خلف غرفته المبنية من الجالوس (الطين) وأوصاهم انهم اذا سمعوه صفق يديه ينقضون على من معه من رجال الحكومة فيقتلونهم مهما كان نوعهم وعددهم فلما رأى عبد القادر المستر منكريف صافحه وقابله وأجلسـه على عنقريب فى ظل الغرفة خارجها فلما سأله المفتش عن سبب الجموع والحركة العدائية للحكومة بدأ عبد القـادر يقص على المفتش ظلامته بدرت من المأمور قولته (أنا الآن أوريك الاضطهاد وكيف يكون) فاستشاط عبد القادر غضبا وصفق يديه قائلا تقول تقول هذا بحضرة المفتش فهجم جماعته وبدءوا بقتل المأمور الذى كان يقول لهم أنا شريف من ذرية فاطمة ولكن (من يقـرأ ومن يسمع) فلما رأى المفتش ان المأمور قد قتل رفع قبعته وأشار بيده الى عنقـه وقال اضرب هنا ففعلوا كما أمروا وليتهم لم يفعلوا فى هذا الرجل الطيب بالمعنى ثم ركب اثنان منهم جملى المفتش والمأمور وأجروهما حول الصريف (السور من القصب) فلما رآهم البوليس الذى كانوا قد أوقفهم المفتش بعيدا رجعوا مسرعين خائفين حتى وصلوا ناظر الحلاوين ومن معه فعرفوهم ما جرى والناظر بدوره كتب للمدير بمدنى فجمع المدير من معه من الضباط والعساكر وأبرق المأمور بالكاملين محمد أفندى ياقوت ليجتمع بناظر الحلاوين حالا .

فى هذه السنة زار المدرسة يعقوب باشا ارتين الأرمنى وكيل المعارف المصرية فقابلته بكل التلاميذ على شاطىء النيل وكانت زيارته رسمية بأمر السير كرى وكتبنا له بيتين أو ثلاثة أبيات من الشعر ترحيبا له فى كل التخت الستة بالفصول كل تختة أبياتها غير أبيات غيرها وحادثنى فى تاريخ السودان وطلب منى أن أكتب كتابا بما سمعه منى مما يتصل به من الحوادث وزمنها ووعدنى أنه سيطبع منه عشرة آلاف نسخة يرسل لى نصفها ولما قابلت السير كرى قال لى : ــ « انت عملت أى شىء ليعقوب باشا الذى بالغ فى الثناء عليك » وكتب يعقوب باشا فى تقريره عن سياحته نبذة تسع صفحتين عن تاريخ حياتى فبعد سفره مباشرة بدأت فى كتابة التاريخ للسودان وفى أوائل سنة ١٩١٠ كتبت فيه ستة كراريس من ذات الأربع وستين ورقة وفى سبتمبر سنة ١٩١٠ وصلنى كتاب من المرحوم الشيخ محمد البدوى يطلب منى أن أحضر له ما كتبته من تاريخ السودان فأخذته معى فلما استلم الشيخ محمد البدوى الكراريس قال لى اتركها لى واحضر لى غدا فى هذا الزمن فرجعت له نحو الساعة ٤ مساء فوجدته محضرا نارا فى موقد وبمجرد دخولى عليه بدأ يقطع كراسة كراسة ويلقيها فى النار حتى أتى على الستة كراسات التفت الى مغضبا وقال لى انت جاهل بأخلاق السودانيين بكتابتك الحقائق عنهم فالناس لم يستعدوا فى بلدنا لقرعهم بالحقائق فحينما يظهر هذا الكتاب يدسون لك من يقتلك ــ فلا تسل عما لحقنى من الغضب ولكن الرجل مهيب لاتمكن مصارحته وقد ظهر لى صدق ما تنبأ به حينما ألفت كتاب المطالعة الوطنية للمدارس الأولية سنة ١٩٢١ وقلت فيه الدناقلة (نوبة وعرب) بين غوسين وثارت على قبيلة الدناقلة بايعاز أحمد البدوى فتذكرت نصيحة الشيخ محمد البدوى وترحمت عليه وفى آخر هذه السنة زار سعادة السير ونجت وزوجته المدرسة زيارة ثانية بعد خمس سنوات فاستقبلناهما بالشاطىء بكل تلاميذ المدرسة الذين كسوناهم جلاليب من لون واحد وتلا نشيد الاستقبال التلامذة عبيد عبد النور وعمر محمد وزينا المدرسة وعلقنا فى عمدان البرندة ملونات من القرع المكسو بالورق وفى الوسط القرعة المرسوم عليها الكرة الأرضية فجعلت الليدى ونجت تمسكها وتقول ونجت « فرى نايس » تكررها مرات مظهرة الاعجاب بها وكان يصحبها فى هذه الزيارة برنارد باشا السكرتير المالى وبعد أن امتحنت تلامذة الفرقة الأولى شفهيا فى

الحساب وتحريريا فى ألواحهم كتب برنارد باشا مسألة فى التختة على الكسور الاعشارية وانهض تلميذا اختاره بنفسه لحلها فحلها بسرعة ووضـوح وكان الشيخ محمد عمر البنا رحمه الله من ضمن الخاضرين فقال له ونجت باشا انت تعرف مثل هذا يا شيخ البنا قال لا أعرف.يا سعادة الباشا وهل هذا وأمثـاله موجودة بالسودان قبل أن تشرفوه فضحكوا وانصرفوا ولمـا رجـع دولته للخرطوم أرسل كتابا بالشكر وساعة معها سلسلة فضة •

بدء سياسة الحكومة فى نزع أراضى كبار الملاك :

فى هذه السنة فى آخرها أو فى أول التى تليها جاء مهدى أفنـدى حسن حسين مساحا ومكوين بك نائب المدير رئيسا ومسحوا الأراضى البحرية كل مساحة باسم صاحبها ووضعوا حجارة لحرم الحلة فقط فاصلة بين حدود البلد والجروف ولم يضعوا حجارة تفصل حدود الملاك عن بعضهـا وما كنا فاهمين الغرض من اهمال هذه الحدود الجزئية ثم ان المركز عمل أرانيك بأسماءالمالكين وألزمهم بدفع الأموال من بعد ما كان المطالب بالدفع فى الماضى هم المزارعون وفى نحو سنة ١٩٢١ وقبلها أو بعدها بقليل حولوا مساحة الفدان الى مساحة « الجدعة » بالجروف واستغنوا عن المساحين بالمركز ووكلوا التقدير للعمـد الذين يبادلونهم بمعنى أن كل عمدة يقدر ما زرع فقط من أرض عمودية أخرى وبهذا نقضوا ثبوت الملك لأى أحد بعينه فى كل الأراضى لا بحرية ولا مطرية حتى ظهر الغرض من ذلك جليا على يد المستر هكسويرث فى سنة ١٩٣٠ كمـا سيجىء •

تدخل المفتش والمأمور فى كل الأمور :

دخلت سنة ١٩٠٩ نقل فى أولها الرجل العظيم حيدر أفندى رستم المأمور بعد أن ترقى صاغا وصار أركان حرب لسعادة المدير ديكنسون باشا بمدنى • خلفه المأمور اليوزباشى محمد أفندى شكرى الذى تداخل كثيرا فى مدرسـة البنات خصوصا فى ماليتها ظنا منه أنا نخفى من ايرادها شيئا لأنفسنا ولمـا لم

يتمكن بنفسه من السماح له بالاطلاع على دفاترها طلب من البكباشى روس الذى عين مؤقتا خلفا لمنكريف طلب منه أن يفتش دفاتر مدرسة البنات والمأمور قد صحبه فلما دخلا غرفة الناظر قال لى البكباشى روس انا لى الحق فى نظر ايرادات مدرسة البنات قلت له نعم وقدمتها له فنظرها وردها لمحلها وودعنا وبعد قليل جاء المستر جرينود مفتشا لرفاعة وجنابه يحب النساء وشكرى أفندى خدمه فيما يريد وأوعز شكرى للمفتش على المدرسة حتى طلب المفتش دفاتر مدرسة البنات وسلمها للمأمور الذى فتشها ولم يجد فيها ما أمله ثم طلب منا أن نسير على قاعدة حسابية أصولية جعل لنا نموذجا فرفضت العمل بهـا فأخبرنى المفتش بالسير عليها فاعتذرت بأنى لا أتقن حرفة الكتـابة وهـذا العمل يشغلنى عن واجبى المدرسى تعليما وادارة فأرسل الأوراق كلها للمعارف بشكوى من المفتش فجاء السير كرى ومعه السبكى أفندى لتفتيش المدرسة ومعهما الدفاتر وكان عادة السبكى أفندى أن ينزل بمعرفتى أو بمنزل أحضره له نفى هـذه المرة طلب من المأمور أن يحضر له منزله فجهز له منزل العمـدة ابراهيم عبد الله أبى سن ففى العصر زرته ووجدت معه شكرى أفنـدى الدى ابتدأ أن يذمنى له فصارحته دون مبالاة فانتهـرنى المأمور فقلت له لو كنت سفيها لرددتها عليك فقال لى السبكى أفندى واحد ثانى زعل عليك فانصرفت من المجلس لئلا يوسع المجال للجدل فلما زار السير كرى المدرسة قال للسبكى أفندى كم رأس مال مدرسة البنات عهدة من المعارف عنـد الشيخ بابكر قال لا رأس مال لنا عنده التفت لى وقال كيف سيركم فى أشغال مدرسة البنـات قلت بوفرنا من المبيوعات كونا رأس المال البالغ الآن أربعة وعشرين جنيها فى ثلاث سنوات التفت للسبكى قائلا ما دام ما عندنا عهدة مالية عند الشيخ بابكر ما لنا حق فى التفتيش عليه سلمه دفاتره قلت لا أستلم هذه الدفاتر وانى أسأل بسعادتك هل مرتبى الذى أقبضه على مدرسة الأولاد أم فيه جزء على مدرسـة البنات قال كله على مدرسة الأولاد قلت اذا ان الكبيرات من بنـاتى تعلمن وسيعلمن اخواتهن بمنزلى وأنا عزمت على تنازلى من تحمـل مسؤولية مدرسة البنات • سكت قليلا ثم قال لم انت زعلان قلت لا ولكن تعبان من التفتيش على مدرسة البنات من المآمير قال لى انت مجبور على تحملك مدرسة البنات لأنك انت الذى اقترحتها وفتحتها قلت اذا تجعل لى خمسين فى المائة من الايراد نظير

أتعابى وتجعلها مستقلة من المآمير تماما فأخذ ورقة وكتب كما طلبت وسلمنى اياها فلما رأى السبكى أفندى ذلك أمسك دفتر مصروفات التلاميذ وحسب المتأخرات لكل الفرق فكانت ثمان جنيهات وكسرا فقال لى هذه المتأخرات تلزمك قلت له أنا الذى وضعت المصروفات على تلاميذ كتاب رفاعة دون جميع الكتاتيب لأساعد بها المعلمين وأنا تنازلت عن تحصيلها منذ اليوم ثم أخذ دفتر المصروفات وقدمه لسعادة السير كرى وقال له هذه المتأخرات تخصمها على حساب الشيخ بابكر بدرى من مرتبه فالتفت السير كرى عنه وقال رافعا رأسه (نو نو نو) فلما لم يجد السبكى أفندى قبولا التفت على وجعل الموضوع هزارا فقبلته منه كعذر فى تلك الساعة جاء ساعى البوستة بتلغراف مكتوب فيه (أخوك يوسف بدرى خطر احضر حالا) فارتعشت يداى واصفر وجهى فتناول السبكى أفندى التلغراف من يدى وقرأه على السير كرى بترجمته ففى الحال قال السير كرى اليوم أول ابريل يمكن كذبة اليوم ثم سألنى هل عندك خبر بمرضه قلت لا فطلبوا ساعى البوستة وسأله السبكى أفندى من أعطاك هذا التلغراف قال حسن أفندى يسرى نائب المأمور والقاضى الشيخ عبد الله هاشم واتضح أن التلغراف غير مختوم وكان امضاؤه باسم عبد النور ابراهيم صديق يوسف جدا وجاره بالدكان فانكشفت عنى الغمة والحمد لله ماذا يريد يسرى أفندى بترويعى وانزعاجى غفر الله له .

السبب فى تفتيش المستر جرينود على دفاتر المدرسة أنه كان مواظبا على لعب الكرة مع التلاميذ وكان من أتقنهم للعبة ولد اسمه ابراهيم فزع فلما عرفه المفتش قال لى يوما بعد انتهاء اللعبة ابراهيم فزع أخته تأتينى ليلا بمنزلى فقلت لا أخت له ولكنها خادمتهم فقال هى تشبهه تماما فقلت له منكرا عليه انت تعمل هذا قال لى أنت لا تعمل هذا قلت لا أعمل ولا أحب من يعمل ولما رأيته لم يقتنع بأنها خادمته قلت له أحضرها لك الآن هنا أم غدا بالمكتب أم بالسوق وفى الحال مشيت للشيخ عبد الله ناظر الشكرية وحكيت له هذه المحادثة فوثب مغضبا ومشى وأنا معه لمنزل المأمور رغم ظلاعه الكبير فدق حتى خرج المأمور فقال له الشيخ عبد الله « ات آشكرى » ترسل الخدامات للمفتش باسم الحرات قال المأمور يا شيخ عبد الله أنا معرص ؟ قال الشيخ عبد الله لا شك أما أنت أو

جماعتك وأنت مسئول عنهم ورجع لمنزله فأخبر شكرى المفتش وحقدوها علينا .

لما رأى شكرى أفندى انه فشل فى كل مساعيه لضررى أو خضوعى له جاء يوما مع المستر جرينود وأدخله فصل الأولاد الصغار وكانوا حقامحتشدين فأمرنى المستر جرينود بطرد بعضهم من الفصل فقلت له نحن اليوم فى شهر مايو وفى ١٥ يونيو سنقفل المدرسة فنتركهم ليوم خمسة عشر يونيه يذهبون لأهلهم وعند فتح المدرسة يتأخر بعضهم فنفصله لغياب خمسة عشر يوما كالقانون فصمم على رفت بعضهم الآن قلت له هل ممكن نطردهم كلهم قال لا أنا ما قلت كذا فقلت له ما حجتنا على آباء من نطردهم اذا قال ولى أمر الولد أنا مزارع وولدى بالغ الثمانية من عمره وأنتم قبلتموه أولا سكت قليلا ثم قال لى سأكتب للمعارف أطلب الاذن بفصل بعضهم قلت هذا جميل وانصرف فنقلت الأولاد فى غرفة واسعة فحضر فى يوم للمدرسة ومعه شكرى أفندى فوجد أولئك الأولاد فى غرفتهم الواسعة وغيرهم فى غرفتهم الضيقة ولما لم يظهر لجنابه ازدحام قال لى الأولاد أنقصتهم قبل تصديق المعارف قلت لم أنقصهم ولكنى وضعتهم فى غرفة واسعة فقط فقال شكرى أفندى بدون شك نقصوا التفت اليه وقلت له إقرأ لهم أسماءهم فى ذلك الجدول فقرأها فلم ينقصوا الا ولدان كانا غائبين فخرج شكرى وشكر جناب المفتش تصرفى وانصرف.ومن مكايد شكرى التى لا تنتج أن كان له فى المدرسة بنتان الكبرى فردوس والصغرى زكية ولمحمد أفندى نور مأمور الدندر بنتان بالمدرسة الكبرى نعمات والصغرى تقية فأرسل نور أفندى قماشا لصديقه فخورى أفندى عبد الشهيد وكيل البوسته وقتئذ برفاعة طالبا منه أن تفصل السيدة والدة فخورى أفندى القماش لبنتيه نعمات وتقية فأرسل فخورى خدامه طالبا نعمات وتقية من المدرسة فلم تسمح المعلمة بهما فأرجع فخورى الخدام قائلا ان جدة البنتين معى بالمنزل فرفضت ارسالهما قائلة اذا أرادت جدتهما ترسلهما لك فلترسلهما من بيتها لا من المدرسة فلما سمع شكرى أفندى بأن بنتى المأمور طلبتا لمنزل فخورى أفندى الذى كان بينه وبين شكرى حزازة بسبب تهمة سرقة نقود من فخورى ضد شكرى أراد أن يكيد لفخورى فنسب طلب البنتين وجعله لبنتيه

فردوس وزكية باشتراك لفظة المأمور وقد كنت ذهبت لمدنى فلما حضرت بمنزلى دعانى الدكتور يوسف مبارك للغدا معه فدخلت ووجدت معه شكرى أفنـــدى الذى فاجأنى بقوله مدرسة بناتك خربت قلت لماذا قال أن بعض الناس بالبـــلد أخذوا بعض البنات ليختنوهن قلت حصل هذا فعلا قال نعم قلت بنات من قال بنتاى فردوس وزكية قلت من أخذهما قال فخورى عبد الشهيد قلت هذا كلام كذب فخورى أشرف من أن يعمل هذا وبنـــاتك لا ينكر عليهن ذلك لأنك اعترفت رسميا أن والدتك غير مستقيمة لا تستحق عليك نفقة ثم التفت اليـــه الدكتور يوسف مبارك قائلا له خضيت الرجـــل الله يخيبك بنتك فردوس اذا أردت أن أدخل اصبعى هذا هل يمكن يدخل فيها وبعد الغدا مباشرة ذهبت لفخورى سألته عن المسألة فحكاها لى على صحتها كما تقدم وفى صباح اليوم التالى كتبت سؤالا رسميا لفخورى قائلا له بلغنى أنك طلبت بنتى اليوزباشى شكرى أفندى لمنزلك فما السبب الذى خول لك أن تطلب تلميذتين من المدرسة لمنزلك فكتب لى فخورى الرد على سؤالى بما تقدم فأرسلته لشكرى أفنـــدى قائلا له هذا جواب فخورى على بلاغك لى بالأمس هل أنت مقتنع به حضرتك أم لك تعليق عليه لأرجعه له كتب عليه بخطـــه انه مقتنع به فأمرت المعلمـــة باستلام الأدوات من بنتيه وفصلتهما من المدرسة فأخبر شكرى المفتش جرينود الذى أمرنى برد البنتين للمدرسة فاعتذرت له بعدم الامكان لأن والدهما يريد تقبيح سمعة مدرسة البنات وهى الوحيدة فى السودان والتى تحرت مصـــلحة المعارف وكل البلاد عن حسن سمعتها لتكون نموذجا حسنا يقتدى بها ووعدته بأن أترجم البلاغ وما تم فيه وفعلا ترجمه فخورى أفندى واقتنع جناب المفتش بتصرفى ولم نرجع بنتيه للمدرسة وبعد شهور وجد ولده متهما بفاحشة وفصل أيضا من المدرسة وحينما جاء السبكى أفندى لتفتيش المدرسة قال له شكرى بذمتك يا الســــبكى أما سمعت بابكر بدرى قال ان فى المدرسة ولدين فعلا بعضهما فجعل السبكى أفندى يقول له هو ده كلام ينقال يا شـــكرى فكذبه بهذه العبارة ولم يأمرنى بارجاع الولد ولا البنتين للمدرسة ولو أمرنى مافعلت وبعد مدة طلب المأمور عبد الله منصور وأبو شرة الدفينه وعلى جابر وحلفهم الطلاق يضربوننى وفعلا شرعوا فى ضربى كما تقدم ثم بعد مدة أراد أن يسجن امرأة وجدها مع الخواجة دمستينو بمنزله وألقى عليها القبض ليلا فلما حضرت

بالمكتب طلبني والقاضي عبد الله هاشم والدكتور يوسف مبارك وقال لناحصلت فضيحة لمدينة رفاعة بوجودنا امرأة من هنا من عائلة طيبة مع الخواجة دمستينو بمنزله ووضعتها بالسجن فقلت له في الحال (مع انى لم أسمع بالحادثة والله) اذا كانت هذه المرأة فلانة بنت فلان فهي لا قيمة لها ولا فضيحة للبلد بسببها فقال مندهشا ولم ذلك فقلت لأنها مجنونة قال غير مجنونة قلت أطلبها من السجن الآن لتقابلنا فطلبها فلما دخلت علينا قالت سلام عليكم أنتم طيبون وجلست على كرسى ضحك القاضي والدكتور وأقروا أنها مجنونة ورغم ذلك أراد استمرارها بالسجن لأمر يعلمه أو يريده لأنها كانت وسيمة وشابة فلما لحظت منه ذلك خرجت مسرعا وأرسلت الى محمد العربي ابن خالة أبيها وأخبرته بأن يدعيها زوجته فتحمل ذلك مهما كلفه حتى الموت وساعد القاضي بأن سجل لها عقدا مقدما على تاريخ ليلة القبض عليها وفي الحال رجعت للمأمور بمكتبه وجلست حتى طلب من يأخذها للسجن فقلت له أن زوجها لا يوافق على سجنها فقال لا زوج لها ووافقته هي على عدم الزواج فقلت له وهل للمجنون حجة وفي الحال رفع زوجها الصناعي قضية الطاعة فحكم القاضي بنقلها لمنزله بحلة خارج رفاعة فبدأت تمتنع فأحضرت لها حجلا من فضة قيمته مائتين وثمانين قرشا وسلمته اياها على حسابي الخاص وقبل أن تسافر حضر والدها ودخل على المأمور بمكتبه منكسا رأسه ولم يعلم بما رتبناه لها فقال له المأمور انت رجل بليد وابنتك زانية وكلام آخر بذيء فرد عليه الدكتور مبارك قائلا يا شكرى أفندى أفرض أن هذه البنت ابنتك فردوس وانت جالس مكان والدها الموتور بها وهو مكانك أفترضى أن يخاطبك كما خاطبته فأطرق المأمور ثم خرج لمكتب المستر جرينود ورجع فوجدنا أخذناها وسفرناها والحكم الشرعي بيد زوجها فغضب ولكنه سكت ومن حوادثه انه أمر ذات ليلة بالاتفاق مع الخواجة سليم رزق السورى أن يشربا خمرة بخيمة المولد في ليلته الأخيرة وكان الشيخ أبو شامه عبد المحمود عاملا قضائيا نائبا عن قاضي رفاعة في أجازته فلما علمت ذلك حضرت بخيمة المركز وفي أثناء المحادثات ذكرت حادثة السيدة زينب بنت جحش وطلاقها من زيد بن حارثة وزواج النبي صلى الله عليه وسلم بها فقال الحاكى نظرها النبي صلى الله عليه وسلم فأعجبته فقال شكرى أفندى اذا كنت أنا وواحد يبصبص لزوجتي أضربه رصاصا فانفجرت أنا في الحال

فقلت له من هو الذى تضربه رصاصة يا كلب أتطعن فى رســـول الله صلى الله عليه وسلم وتتفوه فى مجلسنا والقـــاضى الشرعى أمامك (أبو شامة) بهذا يا ملعون فانخزى وقام من المجلس ونقلوا زجاج الخمرة من خلف الخيمة ولم يعد تلك الليلة للمولد وحوادثه كثيرة نكتفى منها بهذا اليسير .

« العوائد والعقائد عند الخاصة والعامة »

فى زيارة السير كرى للمدرسة كما قدمنا كانت السكة الحـديد وصلت سنار فسألنى امام السبكى أفندى قائلا الناس مبســـوطون فى الجزيرة بمد السكة الحديد لسنار ؟ قلت العامة مبســوطون ولكن الخاصة غير مبسوطين قال أنا فاهم العكس لأن الخاصة الحكومة أرجعت لأولى المكانة منهم شرفهم ماليا كان أم اداريا أو أدبيا وأما العامة يغضبون لأجل تحرير الرقيق قلت الأمر الذى يغضب الخاصة الرقيق بالنسبة لهذا الأمر لا قيمة له قال لى بشغف ماهو هذا الأمر قلت أنا بابكر بدرى كنت فى المهدية من كبار التجار وأصبحت بهذا الانقلاب فقيرا وسعادتك المستر كرى وجدت ماهيتى جنيهين فجعلتهمـــا أربع جنيهات وفى سنتها جعلتها ست جنيهات فالطبيعة تأمرنى بمحبتـــك والشريعة تنهانى عن حبك فأنا تعبان بين الطبيعة والشريعة فلما ترجم السبكى له هـــذا القول غضب جدا وقال لى بصوت جهورى ممزوج بالغضب لأى سبب تتكلم بهذا الكلام قلت سعادتك سألتنى وقلت لك ما أعتقده وأى رجل فى سنى هذه تسأله هذا السؤال ولم يجبك بهذا الجواب غشك وأنا لا أرى سببا لأن أنافق لك فضحك وقال لى لا تقل هذا الكلام لكل واحد واحفظـــه فى عقلك لله فقط ثم سألنى عن قسم العرفاء برفاعة الذين ستتم دراستهم ويبتدىء تعيينهم فى أول أكتوبر سنة ١٩٠٩ هل عينت لهم أمكنة قلت هذا من اختصاص ادارة المعارف ومفتشها لأنهم يعرفون الأماكن المحتاجة وفعلا عينوا فى تلك السنة الا عبـــد الرحيم الفقيه يوسف نعمـــة الذى جاءنى والده بمنزلى وطلب منى أن أعينه برفاعة ليساعده بمرتبه فرغما عن كونه شـــيخى الذى درست عليه الدروس الدينية فى صغرى ورغما من كونى أجله كل الاجـــلال كان ردى عليه والله يا مولاى اذا كانت المعارف تعمل برأيى فى عبد الرحيم أشير عليها بأن لا تعينه فى كل السودان لأنه خال من العلم والأخلاق فسكت قليلا وقال لى نصيحة حارة

وأنا أقبلها منك لأنك أنفع لى منه وودعنى أما العرفاء فهم المشايخ حسن عبد النور • الفاضل دفع السيد • محجوب محمد صالح (الغوث) علي ناصف أبو سن • ادريس الحبر • حسن أمين •

وكنت أدرسهم ما سميته قانون العائلة للأولاد •

١ ــ احترام الوالدين لدرجة لا حد لها وتقديس أمرهم ووضعهم بعد الخالق جل وعلا لقوله تعالى : وقضى ربك الخ ــ والشفقة عليهم والرحمة بهم •

٢ ــ عدم اللعب مع أولاد الشوارع •

٣ ــ استعمال اللعب المباح فى مكان خاص لأولاد العائلة وأولاد أصدقائها •

٤ ــ الحرص على الدروس واطاعة أمر المدرسين واحترامهم ومذاكرة الدروس والغيار كل يوم فى الصباح بعد الحمام •

٥ ــ عدم الخروج من المنزل أو محل الاقامة الا باذن من والدته أو من يقوم مقامها مع ذكر الغرض الذى يخرج لأجله وميعاد الرجوع الذى يحدده أو يحدد له •

٦ ــ اذا جمعتك ظروف بأحد الكبار أو أرباب المناصب فلا تتكلم معه بأكثر من الكلام عن المدرسة والدروس والطقس والأحوال العمومية وتجنب بحذر كثرة الكلام •

٧ ــ لا تحكى عن داخلية منزلك وما تسمعه من حديث العائلات والخدامين ومن أولاد البيت واخوانك وعن أكلك وشرابك ونوع معيشتك وعما يخص بالسياسة والرجال •

٨ ــ لا تحكى ولا تتكلم فى الأحوال التى لها صلة بأعمال الناس الكبار والشخصيات البارزة فى البلد والحكومة •

٩ ــ عليك بالمواظبة على الصلوات الخمسة والطهارة ونظافة الثياب والبدن •

١٠ ــ لا تنطق بلسانك بسب أحد ولا تقل الفواحش وبذىء القول •

١١ ــ لا تشتم الخدامين ولا تسب أحدا بما فيه فضلا عما ليس فيه •

١٢ ـ كن صبورا على المكاره وشجاعا وأمينا .

بعد أن أتم السير كرى تفتيش المدرسة أخذنى معه لبيت المفتش وقال لى أن الشريف يوسف الهندي يعمل ضد الحكومة فقلت له ما سبب هـذه التهمة قال انه يحفر آبارا فى البطانة فقلت له أنا عالم بهذه الآبار وسببها أن رجـلا يدعى ولد أبى ناجمه من الفادنية فى حلة أم شديدة كتب له الشريف يطلب منه أن يبيع له حصانه المشهور فرفض الرجل فما كان من الشريف الا أن يزوره فى منزله ويطلب منه الحصان فصار فى طريقه كلما حضره البيات أو المقيل فى حلة أو فريق يطلبون منه أن يبتدىء لهم حفر بئر ليسـهل الله ببركته أمرها ويكثر ماؤها فيأخذ الشريف الفأس وينقر بها الأرض نقرات فى محل يختاره لهم فاذا تم حفرها سموها بئر الشريف يوسف قال لى هو يتداخل فى القضـايا قلت صحيحا انى رأيت منه هذا اليوم خطابا عند المأمور يقول له فيه الجمـاعة المتخاصمون فى الخدامة فلانة هم من جماعتنا أرجو تحويل القضية لى لأصلحهم وان لم أصلحهم أردهم لحضرتك فاذا كان المفتش يقبل وسـاطته فأظن لا لوم عليه فقال لى هو لأى سبب يعمل ذلك قلت يعمل ليكون محترما عند الحكومة والرعية مثل السيد على الميرغنى فقال لى أنت لا تعرف شيئا أرسل لى الشيخ عبد الله أبا سن فذهبت للشيخ عبـد الله وحكيت له ما دار بيننا وقلت له أظن سعادة المدير يريد سؤالك عن الشريف يوسف فآمل أن تذكر السيدة فاطمة الزهراء وتخدمها فى ابنها وما أوصيته به الا لعلمى انه يحمل عليه وعلى العباس الشيخ العبيد وولد الشيخ عوض الجيد وكثيرا ما يقول الحكومةهذه اذا كانت تفهم (الفاقر) أهـل الدين ما لهم وللسياسة تدخلهم فيها وفارقنى للمدير وفى تلك السنة قبض على الشريف وسجن ولم يسمح له بمغادرة الخرطوم أو برى الى أن توفى بها ولكنه أسعد فيها أكثر مما كان يأمل فى الغناء وازدياد العقيدة والاتصال بالحكومة اتصالا كاملا الى سنة ١٩٢٦ حيث أخذ لقب سير الشيخ على التوم ناظر عموم الكبابيش وكان يأملها لنفسه فانحلت ثقته وخاب أمـله فظهرت حقيقته . فى آخر هذه السنة وقع بينى وبين شكرى أفنـدى حركة شقاق فى السوق فشتمنى وشتمته فاجتمع أعيان رفاعة بمنزل أبشرا الدفينـة وأرسلوا لى فقالوا لى نحن مستعدون لنقدم شهادتنا لك فى أى قضية ترفعهـا على المأمور فقلت للحضور أبو شرا ومحمود المكى وموسى يعقوب فليشـهدوا

بما سمعوا وما رأوا فقال لى موسى يعقوب « انت مجنون نشهد لك على حاكم البلد » ولكن المأمور حينما سمع جماعتهم وقولهم لى لم يبد حركة ورضى بما حصل له كان بمركز رفاعة مدرسة رفاعة فقط ففكرت فى أن أرغب أهل الهلالية فى فتح مدرسة بها فابتدأت مع الشيخ التاى سعيد المحادثة بخصوصها فتارة يبدى رغبة وغالبا يبدى نفورا فلما رأيت منه هذا المد والجزر فكرت فى أن أستعمل معه معاملتى لأستاذى الفقيه يوسف نعمة وثور ياسين فصرت كلما حضر رفاعة وكان كثير الحضور لها أزوره بمنزله وأودعه بهدية بسيطة وبعد مدة صار يظهر لى موافقته ولكنه يعتذر بالأرباب عمر العبدلابى الذى قابلته بمنزله وحينما رأيت اعراضه الشاذ قدمت له رأسين سكر وستة أرطال بن ووعدته بارسال ثوب دبلان لكسوته فجعل وصوله ثوب الدبلان شرطا لرضائه وباستلامه هذا الثوب صار داعية لفتح المدرسة وأظهر الشيخ التاى كامل رضائه فأشرت عليه أن يطلب من مدير المعارف ولو يستعين عليه بصديقه سلاطين باشا ففى سنة ١٩١١ فتحت المدرسة بالهلالية بناها المعلم الروبى •

كانت العادة أن يبقى زوج البنت مع أهلها سنين عديدة حتى تضع مرة أو مرات حسب تأثير حماته على زوجها ورغبتها فى بقاء ابنتها وصهرها معها فأول امرأة تزوجت بمنزلى أختى لأبى حسب سيدها تزوجها الشيخ محجوب الذى عين فى أكتوبر سنة ١٩٠٩ مدرسا بالمناقل بمرتب مائتين وخمسين قرشا فتركها بمنزلى ولما رجع فى آخر مارس سنة ١٩١٠ فى أجازة الاسبوع الذى يفصل عادة بين مارس وابريل كعطلة مدرسية لكل المدارس أمرته بأخذ زوجته للمناقل فاعترضت والدتها ظنا منها أن والدى يؤيدها على وهددت صهرها الذى طلب منى أن يترك لها جنيهين شهريا فوسط لى والده الذى كان عمره يربو على الثمانين سنة وأنكر على طلب جنيهين شهريا فصممت على ذلك فطلب منى نقل أختى لهم بمنزلهم ونقلتها لهم بنية أنها تبعد من والدتها تسهيلا لأخذها للمناقل وصممت على أخذها لأقاوم هذه العادة الكريهة حتى اذا ابتدأت بناتى فى التزويج يرحلن مع أزواجهن بسهولة • وفى وقت مبكر نوعا حتى ابتدأ مسألة الزفاف فى بيتنا فلما قرب انتهاء الاسبوع طلبت أختى وأمرتها بالسفر مع زوجها فأخبرت والديها وانها منفذة أمرى بالسفر مع زوجها للمناقل فهاجت والدتها وقالت لى أمام والدى أنا لا أترك بنتى وهى صغيرة ترحل مع زوجها قلت

ما دامت بنتك صغيرة لماذا زوجتها وكيف تمنعيها وهى راغبة ذلك قالت اذا قامت أمسكها وأبكى بأعلى صوتى قلت أدخلك فى غرفتك بالعبيد وأقفلها عليك وكلما جاء أحد يسأل عن سبب صياحك أقول له أصبحت ذاهبة العقل ضحك والدى فى تلك الساعة قامت البنت مع زوجها للحصاحيصة ولكن وجدوا القطار سبقهم بالقيام الى مدنى فرجعوا فلما علمت البنت بتشبث أمها بمنعها قالت لها لا تتعبى والله بابكر ان قال لى اطلعى للسماء أنفذ أمره ونحن الآن رجعنا من الحصاحيصة لقيام القطار قبل وصولنا له وغدا نسافر فرضخت أمها حينئذ وصحبتها للمناقل وتركت معها أختنا الكبيرة ورجعت والدتها لبيتها من هذه الحادثة غينت بمنزلى غرفة لزواج البنات يتزوج فيها الرجل وينقل زوجته فى الحال منها ليخليها لغيره فأطلق عليها اسم « قيرة قيرة » وهى مكان للعبة بهذا الاسم لا يلبث فيها أحد أكثر من دقائق فيغلب ويحتلها غيره •

سمعت والدى حكى هذه القصة وهى أن رجلا عالما يدعى الفقيه منصور كان يصلى بهم فسألهم مرة هذا السؤال وهو هل الأرض خلقها الله أو وجدها مخلوقة فأجاب كل من معه فى الجامع اذا كان ما وجدها الله على أى شىء كان يقف هى موجودة قبله فقال سألنى الفقيه منصور عن رأيى قال قلت له أنا أظن ما فى شىء سبق وجود الله لما سمعت هذه الحكاية من والدى زرفت عيناى بالدموع وخرجت من الغرفة فى الحال لأفرغ عبرتى حتى لا يرانى باكيا فيسألنى عن سبب بكائى اذا صدقته السبب أهنته واذا غيرته كذبت وعزمت عزما أكيدا أعلم والدى العقائد الدينية التى هى شرط الاسلام والايمان ولكن اعترضتنى هذه الصعوبة وهى كيف يجوز لى أن أرفع نفسى لدرجة المعلم وأنزل بوالدى لدرجة التلميذ ولكنها ذللت بفكرة أنى أعلم زوجته بحضوره فيسمع ما أقول فيفهمه دون أن يكون المقصود بالدرس وفعلا شرعت فى تدريس زوجته المعنية صورة بالدرس فاذا لم تفهم يقول لى أدمسها (أتركها ولا تتعب معها) أنا فهمت ولم أزل حتى عرف والدى كل العقائد والطهارة وفرائض العبادات والحمد لله •

فى هذه السنة توفيت المعلمة ست أبوها التى كنا نعتمد عليها فى ادارة مدرسة البنات وخلفتها معلمة وطنية تدعى هانم وكانت ضعيفة الارادة والادارة

وبالبحث المتواصل أرشدنا الى المعلمة زهرة بنت القباني زوجة محمـد الأمين عبد الحليم وكانت حسنة الادارة ولكنها تحتاج الى تمرين في الصناعة فأرسلناها الى المدرسة الانجليزية بالخرطوم رئاسة المس بيولى ورجعت بكفاءة كاملة ولا يزال تعليم العلوم بواسطتى شخصيا وبمساعدة التلميذات الكبيرات فى الفصول الصغيرة .

« مدرسة ابتدائى لرفاعة »

٩١

كانت مدرسة رفاعة تعد تلامذتها بالدروس فيما عدا الانجليزى بمقـرر السنة الثالثة وبما أنهم لما يلحقون بالابتدائيات يبـدأون مع غيرهم من أولى ابتدائى فكرت فى أن أطلب من السير كرى يعطينا معلمـا يدرس الانجليزى فيوفر على أولادنا سنتين من أعمارهم على الأقل عرضت على سـعادته طلبى بمكتبه بالخرطوم قال لى هل النيل يجرى جنوبا قلت لا قال اذا جرى النيـل جنوبا أرسل لك معلما انجليزيا لرفاعة فاقتنعت ثم طلبت منه أن يعطينا جنيهان شهريا مرتب معلم يحفظ القرآن بالمدرسة لأن حفظ القرآن يسـاعد الولد فى العربى الفصيح ويعده لأن يكون قاضيا شرعيا ومعلما بارعا فى العربى فقال لى أنا ما عندى فى ميزانيتى مرتب لحفظ القرآن كم ولدا ليعلمهم هذا المعلم قلت عشرون قال أنا أعطيهم جامع المدرسة يقرءون فيه وأحضر لهم المصاحف وكل الأدوات وآباؤهم يدفع كل واحد منهم خمسة قروش شهريا للمعلم فأخبرت سكان رفاعة بذلك ودعوتهم لتنفيذه وعينت أحمد ولدى من ضمنهم فحـال الحول ولم يتم عدد من قيدتهم بنوتتى عشرة أولاد فتأكدت أن الناس يرغبون فى التعليم المدنى للمادة وتركت الموضوع مقتنعا بفشلى . فى هذه السنة انتدب المستر كوث مفتشنا لرفاعة أياما قليلة وكان لى عبد يدعى عبد الله وكان فى عشرة من والدته وأولاده وزوجته واخواته وقد عصبهم على فشكوته للمستر كوت فطلبه هدده وأخرجه معى وبعد يومين طلبنى قال لى أنت مسرور مما عملتـه بخصوص عبد الله ووالدته ؟ قلت مسرور جدا قال لى لكنى ما نمت هانئـا فى هاتين الليلتين قلت لماذا قال لى اذا قال لك والدك أو أى أحد تحبه أو أحـد تخافه غير لى آية من القرآن هل تجيبه الى طلبه قلت كلا قال لى ان الحـرية

عندنا مثل ذلك ولذلك أنا تعبت جدا من ضميرى فقلت له أنا أريح ضميرك بأنى أعتقهما لله تعالى شكرنى وقال الليلة أنام مستريح الضمير وطلبت عبدالله وأخبرته بعتقه وأمه .

فى هذا العام جئنا بقطار ومعنا بعرفتنا أحمد أفندى خليل الذى كان مأمور للكاملين فجاء المستر مكميكل فيما بعد (السكرتير الادارى وكان مفتش للكاملين) جاء يحمل عصا خرتيت وطلب من أحمد خليل يوصلها بواسطة من يعرفه للمدير بمدنى بمعرفته لأنى لا أعرف أحدا من راكبى القطار فقال أحمد خليل وأنا أيضا لا أعرف أحدا فلما قربنا من المعيلق الذى هو محطة نزولهما الاثنين جاء المستر مكميل مرة ثانية بالعصا وكرر طلبه لأحمد خليل الذى كرر رده الأول بجفاف ولما رأيته فى المستر مكميكل من اضطرار التزمت لجنابه بتوصيلها للمدير فسألني عن اسمى فلما أخبرته شكرنى وسلمنى العصا حكيت هذه الحكاية لما يترتب عليها فى سنة ١٩٢٣ .

أزرع جميلا ولو فى غير موضعه ما خاب قط جميل أينما زرع
ان الجميل وان طال الزمان به فليس يحصده الا الذى زرعا

فى هذه السنة أراد السبكى أفندى أن يبنى مدرسة الكاملين بالقشرة وكان برفاعة رجل مصرى يدعى المصرى شقيق الغزالى أفندى مترجم المركز طلب منى أن أتوسط له عند السبكى ليعهده بالطوب الأحمر بواقع الألف جنيها مصريا فاعتبرنى السبكى كضامن أو مسئول له ولما توجه المصرى للكاملين وحرق الطوب وبدأوا فى الشغل به ظهر أن بالطوب حجارة بوضعه فى الماء يفش ينكسر فأخبر الأسطى الروبى السبكى أفندى الذى سحب لى تلغرافا من النهود بأن أقوم للكاملين حالا وأسلم المعلم الروبى الطوب الصالح للبناء كالشروط فما وسعنى الا القيام فلما وصلت كنت غاضبا لا سيما الحر مشتد فوبخت المعلم قبل أن أحييه فكان رده على أهلا يا مربى الأخلاق فسقط فى يدى وخزيت أمامه ونزل وسلم على وأنا خجل منه وتذكرت الحكمة أحذر مما تعتذر منه . وبعد هنيهة شرعت فيما يهمنا معا فلم نهتد لشىء فى باقى اليوم ولكننى فى سحر الغد اهتديت لأن نعمل أحواضا ونغمس فيها الطوب فما ينكسر فعلى المصرى وما يسلم منه يستلمه المعلم الروبى يمشى به العمل وينقل المصرى

الى مكان آخر بعد اختياره بتجربة حرق قليل حتى تتم العهدة وكذلك فعلت واستلم بهذه الطريقة ٧٥٪ من العهدة وأنا أخذت درسا قاسيا من المعلم الروبى لا أنساه ما حييت • نقل فى هذه السنة المستر جرينود وخلفه المستر كربابين الذى تعرفه رفاعة منذ سنة ١٩٠٣ حينما كانت مديرية الجزيرة مركزها أربجى ولم يكن بها سوى أربع من الانجليز وهم بلوت بك المدير ديكنسون بك نائب المدير المستر مكوين المفتش الأول مستر كربابين المفتش الثانى ولذا يطلق عليه المفتش الصغير • كذلك نقل شكرى وخلفه أحمد أفندى خليل فارتاحت المدرسة مدة السنتين أحد عشر واثنتى عشر لا يوجد بتاريخها انزعاجا ولا شكاوى

سنة ١٩١١م فى هذه السنة فكرت حكومة السودان فى تجربة الرى بالجزيرة حضر سعادة ديكنسون المدير برفاعة وتصادف وجود الشيخ عبد الباقى حمد النيل برفاعة تزوج بنت المرحوم الطيب العربى فتقابلا بضبطية رفاعة وطلب المدير من الشيخ عبد الباقى أن يبتدىء هذه التجربة بواسطة وابور يوضع بطيبة ومتى صحت التجربة يبدأ الرى فعلا بوابور كبير بطيبة فرفض الشيخ عبد الباقى وضع الوابور حالا ومآلا بطيبة فطلب المدير الشيخ عبد الله أبو سن يحسن للشيخ عبد الباقى وهو يرفض بشدة وابتدأ المدير يظهر عليه الغضب رغم اناته فأخذنا الشيخ عبد الباقى خارج المكتب وهددناه بقوة الحكومة وان المدير أخبرك من باب المجاملة فقط وما زلنا به حتى أدخلناه على المدير موافقا ففى سنة ١٩١٩ مررت على طيبة لتفتيش مدرستها فوجدت الابل ترعى فى اللوبيا كانها فى البطانة وحالة الحلة مظهرا للنعمة سكانا ومساكن فقلت للشيخ عبد الباقى اذا رأت الحكومة تحويل المشروع من طيبة ماذا يكون رأيك قال لى « والله تتبعه مكان ما تحوله » ذكرته بتوقفه فقال نحن عارفين عدلهم هذا ما كنا نظن أنهم ينهبون طيننا ويحولونا منه ويجعلونه ملكا للانجليز •

راجت اشاعة بمدينة رفاعة بعد سماعهم لمنع السير كرى بقوله اذا سار النيل جنوبا يكون فصل انجليزى برفاعة بأنى أنا لا أريد الانجليزى لرفاعة لخوفى النقل من مدرستها وتعيين ناظر يتقن الانجليزى ولأسمعهم هذا المنع من السير كرى مباشرة اقترحت عليهم عمل عريضة لسعادته تؤكد منه الطلب من

المجموعة بالبلد كلها وتعهدنا له فى نفس الطلب بترقية ضريبة التعليم من نصف قرش الى قرشين على الأردب للعشور وهذا المبلغ كاف لمرتب المعلم الانجليزى وبمجرد حضور سعادته لرفاعة رفعنا له هذا الطلب ممضى من العمدة والأعيان بكل المراكز بمجرد ما وصله طلبنى بمنزل المستر كربراين وقال لى ألم أقــل بالخرطوم وكرر العبارة بلفظها قلت نعم قال ولماذا قدمتم هذا الطلب وهو بخطك قلت هو بخط العمدة ابراهيم عبد الله قال هو برأيك قلت نعم برأيى لأن الناس اتهمونى انى لا أحب ادخال الانجليزى لرفاعة خوفا من تقلى منهــا فأردت أن يسمعوا ذلك من سعادتك مشافهة فيبرئونى من التهمة أو أن سعادتك تجيب لهم طلبهم فنربح توفير الزمن لأولادنا فكلاهما له فائدة فأمر بجمع الأعيان برفاعة بمكتب المفتش خصوصا من لهم أولاد بالمدرسة ووجه الكلام للشيخ عبد الله قائلا أن مثل رفاعة لا يمكن أن يفتح فيها فصل للانجليزى لأنها بلدة زراعيــة وسعاية بهائم وأولادهم لا يحتاجون للانجليزى ومن يستطيع منهم أن يعــلم ولده الانجليزى فليرسله للكلية أو لمدنى وأمرنى أن أشرح لهم كلامه فشرحته لهم فسكتوا ولم يتكلم منهم أحد ثم قال للشيخ عبد الله اجعلوا هذه الضريبــة لمدرسة البنات فقال له الشيخ عبد الله مدرسة البنات انى أكرهها فضحك السير كرى وقال لعبد الله أنت تكره مدرسة البنات جدا قال نعم أكرهها قال السير كرى أنا مسرور جدا بكراهيتك لمدرسة البنات ثم قال أنا جدى كان يكرههــا وأنا اليوم أحبها فولد ولدك سيحبها جدا ولكن فهمت من كلامه أنه مسرور لأن مدرسة البنات مع كراهية الشيخ عبد الله لها هى متقدمة فليطمئن عليها وعلى مستقبلها ثم تفرق الناس ورجعنا للمدرسة وقال لى هم اقتنعوا قلت نعم قال الشيخ عبد الله فهم كلامى الأخير قلت هو فهمه على ظاهره وأنا فهمت غرض سعادتك منه وحكيت له فهمى فضحك وارتاح لفهمى وضربنى على كتفى قائلا تمام تمام .

فى هذه السنة زار السير الدن غورست نائب الملك بمصر مدرسة رفاعة وبصحبته السير كرى فلما ودعنا أبدى سروره من نشاط التلامذة وأتقــانهم لمعلوماتهم وختم كلامه بأن قال لى أهنئك بمدرسة البنات التى ســتكون أما لمدارس البنات بالسودان وكتب فى تقريره سنة ١٩١١ نبذة عن زيارته لمدرسة

رفاعة للبنين والبنات وانه قد ـ رجدنا من المدرستين خصوصا من ناظرهما الشيخ بابكر المشهور (بهذه العبارة)

تجديد بناء مدرسة رفاعة :

فى هذه السنة جدد بناء المدرسة بالطوب الأحمر والمونة الحرة بواسطة متعهدين يونانيين ووهب لى السير كرى أنقاض المدرسة القديمة كلها أى ماهدم منها فبعت بعضه وأعطيت محمد لطفى قوى الذى نقل مدرسا برفاعة البعض وبنيت منازلى الموجودة الآن مما يلى الشارع البحرى بالقشرة والسقوف والأبواب والشبابيك وفى هذه السنة اشتريت المساحة الغربية التى بنيت فيها المنزل الصغير غرب الكبير ومنزل سعيد والفضاء الذى بينهما بمساعدة المستر كربابن • فى تقرير هذه السنة كتب السير كرى عنى مطولا ذكر فيه شيئا عن تاريخ حياتى فى المهدية وجهادى وأسرى •

سنة ١٩١٢ كانت سنة هادئة لأن المفتش المستر كربابن الذى لا يشتغل رسميا الا فى مكتبه ولا يتشاغل بما لا يصله رسميا من الحوادث والمأمور أحمد أفندى خليل العاقل النزيه ولكنهم رغم محاسنهما تصادما ببعضهما خصوصا حينما أراد أحمد خليل أن يساعد حسن أفندى يسرى نائب المأمور حينما أراد المستر كربابن محاكمته ولم ينجح أحمد خليل فى سعيه فحوكم يسرى أفندى بتخفيضه من يوزباشى الى ملازم أول ونقل من رفاعة للجيش وفى النصف الثانى من سنة ١٩١٢ نقل المستر كربابن نائب مدير للأبيض ونقل أحمد خليل فخلف المستر كربابن ليتش وخلف أحمد خليل كامل هديب •

فى هذه السنة تزوج ابراهيم مالك آمنه بنتى وكانت مخطوبة للطفى ولا أدرى ما الذى نبه ابراهيم مالك لطلب الزواج بها مع انه عارف خطبة لطفى وساكت عليها ففجأة طلبها من والدى الذى طلبنى وقال لى ابراهيم مالك يريد الزواج بآمنه فقلت يا والدى وخطبة لطفى ماذا نصنع فيها قال لى والدى بعبارة مازحة لا تقبل المراجعة « لطفيا شبن » ما دام طلبها ود مالك فسكت وماوسعنى الا أن أنفذ رأيه وفعلا تم ذلك والحمد لله •

فى هذه السنة شعرت بفتور شديد فى بدنى وفى يوم ما درست حصتين متواليتين لا أذكر سببهما فلما دخلت المكتب ارتميت على التربيزة بصدرى وصرت كالمغمى عليه فلما وعيت نفسى قلت أترك العمل فى التدريس وارجع للتجارة ثم جال بخاطرى أن هذا جبن وبخل على البلاد وتذكرت الزهد وراحته فجرى على لسانى هذان البيتان :

فوالله لولا أن طفلا يرضع وقبله مفطوم وقبله يافع
ولولا بنات فوق عشر يلذن بى لما كنت مالا للملذات أجمع

اهتممت لهذا الفتور فوصف لى رجل بحلة أبى جلفه فأحضرته ولما كشف على قال لى هذه مبادىء مرض السل فقلت له أنا أعلم منك بمبادىء مرض السل وفى الحال كتبت لجناب المستر سمسون بما حصل لى من فتور لم أتعوده فخاطبنى برقيا بحضورى للخرطوم بأسرع فرصة فلما وصلت الخرطوم أخذنى السير كرى لمعمل ويلكم حيث كشف على رئيس المعمل المستر بلفور وقال للسير كرى أن قلبه قوى كقلب الصبى ولم تظهر عليه علامات المرض مطلقا وأعطانى شربة زيت خروع فلما رجعت فى ثانى يوم أعطانى المستر سمسون كتابا للاسبتالية الملكية لرئيسها الدكتور خريستفورسن فلما وصلتها وجدت الشيخ محمد مصطفى المراغى قاضى القضاة آنذاك جالسا على كنبة فى دهليز الاسبتاليه كما يجلس عامة الناس وبيده زجاجة أخبرنى أن فيها بول زوجته المريضة يريد عرضه لفحصه وبعد أن أخبرته بما جئت المستشفى من أجله طلب منى أن أطلعه على خطاب المستر سمسون لرئيس المستشفى فقرأه وقال لى أن المعارف توصى عليك توصية جميلة جدا فعلمت أنه يقرأ الانجليزية وبعد مقابلتى للدكتور خريستفورسن قال بعد الكشف أنك شديد ولم يكن فى جميع جسمك عضو مريض ولكنك بالغ فى الفتور تتطلب راحة كاملة وأعطانى دواء فى زجاجة وأظنه مقويا .

متاعبنا مع المأمير :

سنة ١٩١٣ من الاتفاق العجيب انه بعد حيدر أفندى رستم لم يتوالى

مأمورين صديقان للمدرسة ولكن صار على التناوب من يتعاقبان عـدو ثم صديق الى أن بارحت رفاعة منقولا الى الخرطوم فقد حل هديب عدوا للمدرسة ومتعبا لعمالها خصوصا الناظر الذى بدأ يدافع عن نفســه كما سيأتى كنت كعادتى آخذ الفرقة الأولى من التلاميذ بعد لعب الكرة لمنزلى وبعد صـلاة المغرب نبتدىء المذاكرة لغاية الساعة ٩ مساء ولا أتركها لأى سبب عادى يؤدى بعد ذلك من مأتم ومندم أو مطلق زيارة فلما جاء اليوزباشا كامل هديب مأمورا أرسل لى بعد الغروب لأتيه بمنزله وشرع يحكى لى تاريخ حياته الجندية وكونه ناشئا ومربيا فى جنديته منذ خروجه من المدرســة الحربية تحت ادارة الرجـل العظيم عبد الرحيم فهمى ولذلك صار بحالته الحاضرة من الكفاءة عقلا وادارة وبعد أن كرر لى هذا أربع ليالى متوالية وحال بينى وبين مذاكرة التلاميـذ قلت يا حضرة المأمور قد حفظت تاريخك فاسمعه منى أقرؤه عليك صـحيحا فغضب وقال لا أدعوك بعدها لمنزلى قلت قد فعلت حسنا الى فحقـدها على ورآها اهانة منى ولا ذنب لى • اتفق معه اليوزباشى محمد أفندى كامل نائب المأمور فأول ما فعلاه أخبرا جناب المستر ليتش انى مختلس مال مدرسة البنات فحضر جنابه للمدرسة وطلب دفاتر مدرسة البنات فقـدمت له دفتر اليومية المسودة المكتوب فيه بقلم الرصاص وقلم الحبر وفيه شـطب ما أرجع من المبيعات بعد قيده مبيعا فأعتقد المستر ان هذا الدفتر هو الأصلى النظيف ولم أعتقد أنه جاء ليفتش علينا فسلمنى اياه وذهب لمكتبه معتقدا أن ما قيـل هو حق فكتب للمعارف بما رأى وأكد فى تقريره تلاعبى مستدلا بهـذا الدفتر المشطب أخبرنى الشيخ أحمد الأمين المفتش للعربى ان المستر كرى سـأله تفتيكر أن الشيخ بابكر يمكن يأخذ من ايراد البنات عشر جنيهات فى الشـهر خلسة قال لى فقلت له كل الايراد لا يزيد عن خمس جنيهات فى الشهر فقـال لى اكتبوا للجناب المفتش اقنعوه بنزاهة الشيخ بابكر بدرى وان مثل هذه التهم سبق مرات عملت ضده من المآمير ولم يثبت من هذا شيء وهو مصرح له منى بأن يأخـذ نصف الايراد نظير ادارته لمدرسة البنات فجاءنى المسـتر ليتش بالمدرسة وحكى لى ما جاءه وانه شكانى فقـدمت له نفس الدفتر والدفتر النظيف فضحـك وقال لو رأيت هـذا ما شكوتك • فقلت لو علمت أنك جئت للتفتيش لعرضته لجنابك فقال لا آتيكم الا زائرا وبعد أيام سـافرت

للخرطوم مع التلاميذ فمر محمد كامل النائب على منزلنا فوجد أولادنا الخصوصيين ينقلون طوبا لمنزل أخي سعيد فاعتقد أني أخدم التلاميذ فى خصوصياتي وكتب تقريرا لجناب المستر ليتش بأنه رأى بعينه وانه سأل الأولاد فقالوا أمرنا الناظر وان المنزل منزلى فحول لى المستر ليتش بعد حضورى من الخرطوم فكتبت بتغيبى فى ذلك التاريخ عن رفاعة وان المنزل ليس منزلى وان الأولاد ليس فيهم تلميذ غريب فلما فهم ردى حوله للمأمور الذى خجل هو وصاحبه أمام هذه الحقيقة الناصعة وما صار المفتش يسمع لهما كلاما لا فى شخصى ولا فى المدرسة • فى هذه السنة ابتدأ سعر الغلال يرتفع فمرة صدفة صحبت المفتش من لعب الكرة فمررنا على الأصطبل وجدنا هديب أفندى بالأصطبل ليشرف على عليقة البهائم فجاء أحد الخفراء يحمل عليقة حصان فى جردل فنظرها المفتش وقال للخفير كل يوم العليقة هكذا ؟ فقال له : نعم فنظر المفتش الى المأمور الذى اصفر لونه وظهر عليه الارتباك ففى الحال أمر المستر ليتش بأن تعرض عليه العليقة قبل عرضها على البهائم فظن المأمور أننى الذى أخبرت عنه المفتش وحرمته من الفائدة وفضحته فصار يعاكسنى فى خصوصياتى فمن ذلك انى مقاول جابر السودانى البناء يبنى عندى فانقطع عنى أياما فمررت على المأمور وهو جالس فى ظل الجامع فقال لى : لأى سبب وقفتم من البناء فقلت : الأسطى جابر انقطع منا • فأرسل خفيرا فى الحال يحضر جابرا فعجبت لاهتمامه وأمرنى بالجلوس • أرسلت لكرسى من منزلى وجلست فلما جاء جابر قال لى : هذا خصمك قلت نعم ما دمت حضرتك المأمور وانصرفت وعلمت هذه نتيجة اهتمامه فكر المأمور فى أن يعمل اكتتابا عاما بالمركز تبنى بما جمع منه مأذنة للجامع واكتتب حضرته بخمس جنيهات فجمع مالا كثيرا حصرناه عدا عند صراف المركز ولم نفرط له فى شىء منه وتضامنا فى أن يكون الرسم بالمديرية والمتعهدون الاغريق الذين بنوا المدرسة وفعلا حصل ذلك وكنت أشد محافظة على صرف كل الاكتتاب فى المأذنة وتبييض الجامع دخلت عليه فى مكتبه يوما فرأيت عنده ورقة كبيرة مكتوبا فيها هذه العبارة (أنشئت هذه المأذنة وتم بناؤه على يد) فى سطرين وبعدهما (حضرة) فى سطر مكبرة جدا وبعدها اليوزباشا أحمد كامل هديب مأمور رفاعه والتاريخ فى سطرين فعرضها لى لأخذ رأيى فقلت له احفظ كل هذه النعوت لنفسك وضع (أهالى البلد) بدل

مأمور رفاعة لأن اليوزباشا بالمركز غالبا يكون مأمورا وبذلك تكون حفظت حق التأسيس وأرضيت البلد فوافقنى وكان رسم المأذنة بعد أساسها يكون البارز ستة عشر مترا • انى سافرت للدويم كعادتى سنويا منذ سنة ١٩٠٥ ليوسف أخى لأراجع حساباته فبعد قيامى سنحت له الفرصة فأنقصها ثلاثة أمتار فى بروزها وكتب الحجر ووضعه فى الجزء المربع منها كما رأيته ولم يذكر أهل البلد فلما رجعت مررت على المأذنة قبل أن أدخل منزلى الذى لم يكن بينه وبين الجامع الا الشارع فلما وجدت الحجر على حاله كتبت للشيخ عبد الله بالطنضب ما أهاجه ونبهه فلما وجدت موافقته على خلع الحجر بواسطة الحكومة جعلت أدعو الناس الكبار برفاعة الى قراءة الحجر ومن يقول منهم ننتظر الشيخ عبد الله أعرض عليه رده لى فباح أكثرهم برأيه بعد ذلك عن كتابة هذا الحجر فطلب القاضى الشيخ محمد محمود الأزهرى التقى الورع وسأله هل مثل هذه الكتابة ممنوعة شرعا قال نعم ان المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدا • حضر الشيخ عبد الله وأيد شكوتى فكتب المفتش للمدير فحضر بنفسه وطلب منى صورة الكتابة على ورقة وبيان موضعها من المأذنة فعملت له ذلك برسم فأرسل شكوانا وفتوة القاضى والرسم للسكرتير القضائى وقاضى القضاة فلما طالت مدة الرد أخذ المأمور يتهكم علينا جئت مرة الساعة ٧ صباحا فوجدته جالسا بمن معه فى ظل المأذنة فلما سلمت عليهم كان رد سلامى قوله : (ان للحجر ربا يحميه) قلت اذا شاء ولكنه لا يشاء أن يحمى ما يخالف شرعه وسترى قريبا تصديقه وقبل أن يحضر الرد من قاضى القضاة اجتمعنا وقررنا أن نطلب من المدير واحدة من ثلاثة أما أن يقلع المأمور الحجر بيده واما أن يدفع باقى ثمن المأذنة بعد خصم الخمس جنيهات تبرعه واما أن ندفع له الخمس جنيهات ونقلع الحجر فطالبه المدير باحدى الثلاثة فاختار أن يقلع هو الحجر فمسح منه الكل ما عدا التاريخ والسطر الأول ولكن الكاف من اسم كامل كان ظاهرا فصار الشيخ عبد الله يقول له كاف كامل ما اتمسح فلما أتم مسحه قلت أنا والله ان قلع الحجر بالمرة خير له من هذا التشويه الملفت فقلع الحجر كله عندما بلغه كلامى • كان فى النصف من شعبان أمر المأمور بعمل احتفال للمأذنة وتليت فيه الخطب والقصائد وكنت جالسا بجانبه تلى كنبة ومعنا حلمى أبو سن وعبد المجيد على طه التلميذان بالحربية فطلب منى هديب أفندى أن أقوم وأشرت

للتلميذين ألا يدعاه يقوم وبدأت فى الخطبة بعد حمد الله ان قلت نشكر حضرة
المأمور على اقتراحه بعمل هذه المأذنة واشتراكه الذى لم نحقق من دفعه بعد
أما ما نأخذه على حضرته ونتبه له أن طول المأذنة بالشروط يكون البارز منه
ستة عشر مترا وقد نقص ثلاثة أمتار أكثر هذا النقص فى الجزء المربع منهـــا
وحضرته المســئول الأول لأنه مبــاشر بنـــاءها كمهنــدس والمتعهـــدون
المسئول الثانى فقام وقال لى اجلس فأمسك به التلميذان فقلت واللجنة ترجو
من حضرته تقديم الحساب ايرادا ومنصرفا لتنشره على المشتركين فلما رآنى
مستمرا قام وأخلى مجلسه ورجع لمنزله فتنبه النــاس لمحاسبته ثم بعــد أيام
ظهر حرب البلقان أعنى اكتتاب السودانيين لمساعدة السلطان التركى حاليــا
فجمعنا جلود الضحايا من كل المركز بمناديب عينوا لذلك وبيعت برفاعة لتجار
الجلود فبلغ المبلغ أكثر من مائة جنيها فبلغ المدير هذا الخبر فجاء لرفاعة ونصح
لأعضاء اللجنة بعدم تحويل هذا المبلغ لاسطنبول لأنه فى رأيه لا يوصل لمحل
قصدنا وسعادته يستحسن أن يصرف فى مشروع تنتفع منه رفاعة المدينة ولكنا
صممنا على تحويله وفعلا شرعنا فى عمل التحويل فأراد المأمور أن يحول باسمه
فرفضت وحولناه باسم الشيخ عبد الله أبى سن وجاء الرد باســـمه فغضب
حضرته جدا وقال لى كل المراكز حولت اعانتها باسم مأمورها فقلت يجوز أن
يكون ما عندهم معروف بينهم كالشيخ عبد الله أبى سن .

نحتفل بمرور عشرة أعوام لانشاء المدرسة

فى هذه السنة عملنا احتفالا بالمدرسة لمرور عشر سنوات على فتحهـــا
احتفالا حضره كثير من أعيان القبائل وممن حضره ســعادة المستر وتتر الذى
كان قاضيا مدنيا حين ذاك وكانت الرواية رواية المقعد الذى يقول ان صـحت
التجارة المرأة والحمارة الخ وسعادة وينتر رسم لنا رأس الحمــار على خيش
حشوناه تبنا فألقى شيخ لطفى فى هذه الحفلة قصيدة مدحنى بها ودعا لأولادى
فيهـــا بالنجــاح فى آخرها وألقى فيهــا الشيخ حسن الأزهــرى قصيــدة
قصيرة عينيه ولكنها فى غاية البلاغة فكنت أرتجف حينما كان يلقيها بصــوته

الموقع الذى يظهر منه الاخلاص فى انشائه وانشاده وهاك القصيدة : ـــ

سقا الله بالأمطار أرض رفاعة وبارك فى خيراتها ثم أينعا
سقاها فأرواها فأنبت زرعها فأحيا به السودان والناس أجمعا
بمدرسة لم أنس فضل رئيسها على كما لم ينس ذو الذنب شافعا
أبو بكر البدرى من حاز همة تقوم مقام البدر أو يجلسا معا
سعى للعلا حتى تربع فوقه كما النجم من فوق السحاب تربعا
رعى الله أستاذا رعتنا عيونه وكان لنا يا قوم مرآى ومسمعا

فى هذه السنة جاء جناب المستر بومن مفتشا بالمعارف وزار رفاعة فصحبته لمدرسة البنات وكان لى بها ست بنات فكان كلما رأى بنتا نبيهة يسألنى بنت من هذه أقول لجنابه بنتى حتى مر عليهن كلهن فقال لماذا بناتك أحسن من باقى التلميذات قلت لأنهن يتعلمن فى البيت من اخواتهن الكبيرات فقال لى كم بنتا عندك قلت أحد عشر بنتا كبراهن متزوجة . كان المستر بومن رجلا لطيفا دقيق التفتيش فى غير عنف يرشد المعلم وينبهه دون جبروت .

فى يناير وصل أول طيار بطائرة فى السودان يدعى المسيو بورب فرنساوى فدعيت لها من رفاعة لأنظرها فلما رجعت أخبرت الناس أكثرهم لم يؤمنوا بما قلته لهم حتى تواتر الخبر فأعجبوا بفعل العلم .

فى هذه السنة زار المستر يودال مصاحبا سعادة مدير اسكوتلاندا وهو الذى بعد أن رأى تدريسى كتب فى دفتر الزيارة بعد ابداء سروره فى المدرسة عامة قال عنى ان هذا الرجل خلق ليكون مدرسا فلما رآها السير كرى وطلب منى كتاب السير ونجت الذى أهدى لى معه الساعة ضمهما السير كرى على بعضهما وقال لى أن هاتين الشهادتين تفتحان الك مجالا واسعا .

فى مرة أراد السير كرى مبارحة رفاعة ألزمنى السبكى أفندى بأن أحضر لهم الجمال وتأتيه برجالها فى منزلته الساعة ٤ صباحا فلما لم تصله الى الساعة ٥ ركب حمارا وجاء لمنزلى وسألنى وبدورى سألت عبد الله الذى ناولنى رد الطيب فأرسلته للطيب فقال له الجمال سارت لمنزل المفتش قبل الميعاد ولم يجىء فى بالنا بيت مفتش المركز كما فهمه الجماله برزت الشمس فجاءنى السبكى مغضبا وانتهرنى فقفلت الباب فى وجهه ودخلت فنادانى مرة أخرى

فخرجت غليه وقلت له تظنني أجرى من نهرتك هذه أتم المصريون لا تعرفون السودانيين فقال لى ماذا تصنع الآن قلت أعطنى الحمار وجاء فى بالى أن الجماله يكونون فى رعية جمالهم وانتظار من يدعوهم للحمل والسفر فوجدتهم فى جرف عبد ألاه فجئت بهم للسبكى الذى قال لى اذا سألك المدير قل له أخرها الطيب السواكنى قلت له لا أقول ذلك وأحرم الرجل معيشته بلا سبب فلما قابلت المدير قال من الغلطان قلت عبد الله الفراش قال لى اجلده ثمان جلدات فى آخر هذه السنة نقل كامل أفندى هديب لأبى دليج وخلفه الرجل المتواضع الكفء السيد أفندى نور الدين مصباح فوجدنا منه فرصة الراحة من كيد المآمير .

المجاعة وعيش الهند :

تمكنت المجاعة بدخول سنة ١٩١٤ فمن حوادثها أن سيد نور الدين مصباحا اجتهد فى تحصيل أموال الحكومة بأن قام بنفسه للتحصيل وعين فى كل ربع من أرباع المركز مندوبا للتحصيل ولكن حالة الأهالى لشدة المجاعة لم تساعدهم على دفع الضرائب فحضر سعادة المستر ايلس المدير برفاعه وعاتب المأمور فى تأخير تحصيل الضرائب فأخبره بما عمله من الجهد ولكن حالة الأهالى هى التى حالت دون التحصيل فأمر المدير المستر ليتش الرءوف فلما وصل حلة بانت التى تبعد من رفاعة نحو ثلاثة أميال ووجد أن أكثر الأولاد راقدون فى ظلال بيوتهم وان الرجال بحالة تحرك شفقة من يراهم رجع الى رفاعة واشترى أكياسا من الدقيق وثورا من البقر أخذها معه لأولئك البائسين وأقام معهم حتى أشبعهم ولعب أطفالهم وهكذا كلما حل بقرية ورأى حالها كحاكم صنع مع أهلها ما صنع بأهل بانت وكتب تقريرا للمدير طلب منه تأجيل دفع الأموال لسنتى ١٣ — ١٤ حتى تنفرج الحالة الحاضرة وفعلا ترك التحصيل واهتمت الحكومة بتموين السودان الذى اشتد به الجوع فجلبت الغلال من الهند ولولا غلال الهند لمات من السودان ما لا يقل عن عشرين فى المائة على الأقل جوعا فليحفظ السودانيون هذه الحسنة ويرويها السلف للخلف رب قائل يقول انها عملت ذلك حرصا علينا لمنفعتها منا أقول فعلى هذا المبدأ يضاعف

شكرنا لأن مصر والحبش كان الغلال قليلا بهما فمن من السودانيين يفكر فى جلب الغلال من الهند ولو فكر السودانيون وعرفوا وجود الغلال بالهند ورخص ثمنه فكيف يوصلونه للسودان .

كنت اشتريت من الطيب السواكنى ستة وثلاثون أردبا كبيرا أى الأردب عشرون كيلة بسعر الاردب مائة وعشرين قرشا ودفعت له الثمن كاملا واستلمت منه نصف أردب لكى ينعقد البيع شرعا والباقى لميعاد شهرين وفعلا اشترى الطيب بدوره الغلال بالمغازه بسعر ستين قرشا ولكن الحكومة احتكرت الجمال لنقل مهماتها بين مدنى ورفاعة للقضارف والقلابات وارتفع سعر الأردب جنيهات فقال لى والدى ان الطيب السواكنى رجل طيب ومحمول وسعر الغلال تعالى وهو بلا شك يسدده لك ولكن سداده يخرب بيته امش استلم منه نقودك كما دفعتها له ونحن ربنا يعيشنا من فضله وعيش الهند يصرف للمستخدمين ونحن نأكل العيش بأى ادام وماهيتك أى مرتبك كاف لمؤونتنا من الغلال الهندى شهريا فطبعا أذعن لأمر والدى الذى أحبه وأحترمه وأحفظ له حق ابوته وتأثيره لنا بأن نتعلم فى وقت هو محتاج لمساعدتنا جزاه الله خيرا عناء سعيت للطيب السواكنى وأخبرته بما قال والدى فقال والله أن والدك لصالح أنا مابقى لى من مال الا البقر وقد طلبتها من كركوج ووصلت ويوم غد السوق الكبير وانى عازم أن أبيعها وأوفيك مطلوبك تماما ثم نهض وأحضر لى ضعف ما دفعته ناقصا ثمن نصف الأردب الذى استلمته وذهبت لوالدى وسلمته هذه النقود يحفظها للادام وفى البوستة الآتية مباشرة ورد جواب من شقيقى يوسف بدرى يأمرنى فيه بأن أعمل له مصاريف والدى وزوجته وأولاده فى السنة ليرسل لى نصفها الذى يلزمه شرعا مساعدته لى فى هذه السنة الجدبة وأن أتخلى عن نفقة بنات أخواتنا وأرسل كل منهن الى من تجب عليه نفقتها من أهلهن وأن أقصر مرتبى على أولادى ونصف نفقة والدى فكتبت له رد كتابه بخصوص نفقة والدى سنويا هأنا أرسل لك الحساب مفصلا نزولا على ارادتك لأنى عارف انك أكثر منى مالا وكنت أظن أن سكوتك عن هذا الطلب الذى لك فيه الحق مدة أربع وثلاثين سنة مضت انك قد آثرتنى بالثواب عند الله والدعوة الصالحة من والدينا والثناء فى الناس فالآن وقد أردت أن تشترك معى فى هذه

الفضائل فلا أحول بينك وبينها يا شقيقى ويا أعز صديق أما البنات فلا تشك حضرتك أن رزقهن على الله والآن يوصله لهن بواسـطتنا وبمناولته لهن نبر بذلك أخواتنـا ولنا أجر المنـاولة ومباشرة تربيتهن بالتعـليم المدرسى فاذا فصلناهن من كفالتنا لهن فلا شك أن الله تعالى يحول رزقهن لمن يكفلهن ويكون نصيبنا الحرمان من تلك الفوائد فاذا كنت مصمما على التخلى عنهن مع هـذه النتيجة فتجدنى انشاء الله فاعلا بما تأمرنى به فبعد أسبوعين جاءنى كتابه الثانى مبللا بدموعه كما قال لى فيه وبه قال والله يا بابكر كلما ندعى أنا وصلنا مكانا فى العقل نعتقد أننا قد ساويناك أو ظننا أننا تفوقنا عليك فحينما نقترن معك فى أمر يحتاج فيه استخدام العقول نجد أننا أطفالا بالنسبة لك أنى والله وحقك على ما منعنى فى مساهمة نفقة والدى معك الا البخل والاعتماد عليك فحسب اما وانك أولت الأمر بهذا التأويل الحسن فقد تركته لك أما البنات فاحتفظ بهن وفقك الله بما تقدمه من ثواب وما تأخره من التأريخ آمين . وقد شحنت لكم ستة وثلاثين جولا غلالا بكل جوال خمس عشر كيلة لتستعينوا بهـا على مؤنتكم وثق أنى قرأت كتابك هذا أكثر من عشرة مرات وما تراه من البلل على كتابى هذا حلو من تساقط دموعى عليه سرورا بأن لى أخ مثلك يقـوم أود أخلاقى كما يقوم سبب ارزاقى أبقاك الله وأحياك الله والسلام عليكم وبلغه والدى ومن معكم . بعد عشرين يوما وصلت الستة وثلاثين جوالا حولناها بمنزلنـا وأمر والدى أن نستمر فى معيشتنا كأن لم تأتنا وأن نبيعها ونشترى بثمنهـا طينا ولا أنس قوله لى ان هذه سنة اقتناء الطين فاضطررت أن أقول له يا أبت ان هذه سنة كسب الثواب ومساواة الضعفاء فضحك وقال لى رأيك خير من رأيى وهذه من ثمرات العلم فيك وهو أن عدم العلم منى لأن أخانا محمـد الخليفة كان بليدا بيننا فلما قرء العلم بالدامر صرنا نقطع الحجج عنده .

شرعت فى توسيع البئر التى بمنزلى وجعلت أجرة العامل قدحا من الغلال لليوم بدلا من قرشين فأقبل العمال وخصوصا الذين لا يستطيعون مزاحمـة غيرهم كالنساء والعجزة من الرجال وممن جاء للعمل امرأة تدعى عمـايم من سكان حلة الحرق شرق أبى حراز عندها ولدان صغيران توأمان وبنت تدعى مكه عمرها نحو عشر سنوات كانت عمايم هذه عندما جاءت أول يوم لخـدمة

اليومية بحالة نعمة ظاهرة على لحمها وشعرها وهدمها ودهنها وبعد أسـبوع لم تتأخر فيه يوم واحد من الخدمة تغيرت هيئتهـا لحالة البؤسـاء الا فى حالة نشاطها كانت وحالما تستلم قدح الغلال مساء لا تذهب الا بعد أن تدعـو لى بالصحة والتوفيق فسألتها يوما عن حالتها ومن يأكل لها القدح يوميا فضحكت وقالت لى عندى ولدان وبنت قلت أين أبوهم قالت هرب منا ببطنـه قلت هل يهرب الرجل من وألاده فى مثل هذه السنة الجدبة قالت لى ما سمعت حـكاية الرجل الذى قال لزوجته فى سـنة الجوع قلت أحكيهـا لى قالت عملت المرأة المديدة ووضعتها فى المواعين فقدمت له نصيبه وهو الأكثر فقال وهذا لمن قالت للأولاد قال لها والله الأولاد ان أكلوا يبكون وان لم يأكلوا يبكون ضعيها فوق حقى ثم قال لها وهذا الماعون لمن قالت لأمى قال والله أمك ان أكلت تذمنـا فى البلد وان لم تأكل تذمنا صبيه فى قدحى فصبته ثم قال وهذا لمن قالت للخدامة قال والله الخادمة انأكلت تشرد وان لم تأكل تشرد فصبيه فى قدحى ثم قال وهذا لمن وهو الأخير قالت لى أنا قال لها أنت يا أم عصيبات والله ان أكلت ما تسمنى وأن لم تأكلى لا تسمنى صبيه فى قدحى ثم حمل الأكل وأكله فضحكت وقلت لهـا جئينى بأولادك واسكنى بهم فى هذه الغرفة فجاءت بهم وأجرنا بنتها مكه بعشرين قرشا شهريا ومعيشتها وكسوتها لتحمل يوسف بدرى الذى كان عمره سـنة ونصف وبعدما أكملت بئر المنزل تحولت على حفـر بئر مترة بجرف قريب فى النحلة هذه البئر التى وجدناها رملة وبعد أن أوصلناها الماء وضربناها بالطوب المشوى والخنزيرة قدر متر كامل انهارت على من بها من العمال ولولا الخشب الذى كنا عملناه وحشوناه بالقصب ليمنع الرملة الانهيـار لماتوا كلهم ولكنـا أسرعنا فى جمع عدد كاف لقرف التراب وأمرت الحاضرين أن يصيحوا بأسمائهم لئلا يضربون أحدا بالفاس فى رأسه أو فى عضـو آخر فكانوا اذا قربوا من أحدهم يصيح بأعلى صوته فيجتهد فى فتح ثغرة له يتنفس ثم يخرجونه وكان آحدهم على موسى رجله التوت فى عود مال اليـه عودا آخر فكان هو آخرهم خروجا وأتعبهم ، تحولت عمائم بنشاطها لما رأتنا نستأجر الحمير لنقل الطوب قالت عندى ولد كبير فى بلدنا فسلفنى جنيها أتممه بما ادخرته من ايجـارى اليوم فأشترى له حمارا ينقل به الطوب ويبقى لنا زامله فى الخريف نحمل عليه الأكل والماء للبلاد قلت أعطيك اياه لله فحلفت لا تقبله الا سلفة على الخـدمة

أعطيتها اياه فاشترت الحمار وركبت عليه وبعد ثلاثة أيام جاءت بولدها الذى خلصنا الجنيه من أجرة نقله من الطوب ولما قرب الخريف سمحت الحكومة باستلاف الغلال الهندى للمساكين بضمانة مكفولة الدفع فطلبت منى عمايم أن أضمنها فى جوالين قيمتهما مائتان وأربعون قرشا فضمنتها عند الرجل الكريم السيد نور الدين مصباح فأخذتهما وبارحتنا بأولادها وبعد حصاد المزارع صدر أمر بمسامحة مستلفى الغلال من ضعفاء الحال فحضرت عمائم وأخبرتنى أن زرعهم لم ينتج أكثر من مؤونتهم لسنة واحدة فأخبرت المأمور بحالها فشطب اسمها ضمن الضعفاء هذه عنائم الأمينة الوفية الصابرة المدبرة ليت كل النساء عمايم وقليل ماهن .

هذه السنة وفى شدة المجاعة وبعد مجيىء العيش الهندى اقترح السيد نور الدين مصباح المأمور على أعيان مدينة رفاعة تشكيل لجنة تعمل اكتتابا من المحسنين لمشترى الغلال من المركز يصدق لمساكين المدينة ومن يأوون اليهمن الخارج فى كل جمعة للشخص نصف ربع مصرى وفعلا عمل بهذه الفكرة التى يشكر ويؤجر عليها من الله والناس كما سهل حضرته وجود الغلال الذى يلزم لهذه اللجنة مهما كانت عدته من الجوالات وبذلك اجتمع برفاعة مساكين كثر منها ومن الخارج واشترطوا أن يكون الطفل بالغا أربع سنوات وان كل من أراد الصرف له أو لأولاده يحضر ويحضرهم بالجامع واستمرت هذه الحالة المحمودة حتى دخل الخريف وتفرقوا للزراعة باستلافهم المضمون أكياسا للغلال . ومما أذكره أن رجلا رآنى أن كل ليل أحضر فى الديوان الفاتح على الشارع فجاء هذا الرجل مرة والتصق مع عمود البرندة وبمجرد ما وضع العشاء أمامى قفز واختطف لقة من الكسرة (الخبز) بشراهة الجائع فأمرته بالجلوس وتركت له العشاء يأكل مطمئنا وبعد ما شبع سألته عن اسمه وبلده فقال اسمه ولكن نسيته أما بلده فقرية أبى عشر فأمرته أن يأتينى كل ليلة فيتعشى معى ويبيت فى الجامع وبعد أيام جئت من المدرسة نحو الساعة ٨ فوجدت امرأة ومعها ولدان وابنتان فى ظل منزل الجنيد أفندى عبد الله فسألتها عن بلدها فقالت بلدى قرية أبى عشر فأمرتها بأن تصحبنى فنهضت نهضة المضطر الذى برقت له فرصة فأدخلتها بيتى وأمرت لها بطعام فلما أمسيت جاءنى

الرجل كعادته وبعد العشاء سألته أله أولاد قال نعم ولدان وبنتان وأمهم قلت ما اسم أمهم قال فلانه وما اسم الولدين قال فلان وفلان تركته واستأذنته بدخولى منزلى لأنى أريد قضاء حاجة وسأخرج اليه سألت الضيفة عن اسمها واسم ولديها فاذا هم كما ذكرهم لى خرجت للرجل وقلت له مبشرا بأن زوجته وأولاده فى بيتى وستراهم غدا فانزعج وظهر عليه الارتباك وودعنى لبياته بالجامع ولكنه رجع الى غير رجعة فلما حكيت لزوجته صباح تلك الليلة قالت لى لن يعود لك مرة ثانيــة ولا يعود الينــا الا بعد (أن تنعدل الواطى) أى يحصل الخصب وتسهل المعيشــة قلت لماذا قالت لأنه (انزلع) أذهب الجوع رشده ففى الحال ألحقتها وأولادها بمساكن الصرف وأسكنتها براكوبة ظليلة ففى هذه السنة تبرع المأمور بعشرين جنيها عن نفسه وعشر جنيهــات عن أمه وزوجته وكان أكثر الناس اكتتابا المستخدمون الوطنيون ومن أكثرهم اشتراكا لأهله فى مرتبه الشيخ محمد لطفى عبد الله وكان من أنشط الناس خدمة فى هذه اللجنة المشكورة أعضاؤها فى ابريل فى هذه السنة اعتزل خدمة الســودان الرجل العظيم السير كرى مؤسس التعليم فى السودان على أحسن أســاس وخسره السودان أكبر خسارة فى أهم مصالحه ألا وهى التعليم كمــا وانه فى فبراير من هذه السنة اعتزل الخدمة فى السودان الرجل العظيم ديكنسون باشا الذى كان مديرا للنيــل الأزرق من سنة ١٩٠٣ الى سنة ١٩١٤ وقــد خسرته مديريته أى سكانها الذين أذاقهم طعم الديمقراطية بمعناها الحقيقى فى وقت لم يكونوا يأملونها وفى أكتوبر سنة ١٩١٤ نقل الشيخ لطفى لكسلا وخلفه الشيخ حسن طه السيد .

سنة ١٩١٥ فى هذه السنة نقل السيد أفندى نور الدين مصباح بهــدوءه وهدوؤنا فى زمنه وخلفه محمد أفندى توفيق عونى بمتاعبه ومشاغباته ولمــا استلم عونى أفندى المركز كنت ضمن المودعين للسيد أفندى مصبــاح فلمــا توسطنا الشارع لقيتنا المرأة المسماة حلبية حاملة قلتها فأنزلتها من رأســـها وخطبت للسيد أفندى بقولها حليلك يا العــاقل المابتشتم حليلك يا العــادل المابتظلم حليلك يا المابخلت بمالك فى وكت الجوع حليلك يا الماغيرت هدومك بالليل ودخلت البيوت تزوع حليلك يل للمظاليم رفيق حتى أبكتــه وأبكت الناس لأنهم متأكدون كل ما قالته حقا .

استلم عونى المركز وأراد أن يخضع له كل واحد فى مكتبه وفى بيته وفى السوق وفى الشوارع بأنه المأمور وبخلاف ذلك قليل المعايب كان لا يصـوم رمضان عفا الله عنه فدخل عليه أحد الأعراب فى مكتبه فقال له يا حضرة المأمور واحد شتمنى شتما كعبا قال له ماذا قال لك قال الاعرابى قال لى يافاطر رمضان فقال المأمور : هذا غير شتم هأنا فاطر رمضان قال الاعرابى أنت مالك نصرانى يا حضرة المأمور فالتفت للشيخ عبد الله والقاضى قائلا هلكنى ابن الكلب ثم التفت للاعرابى وقال له أخرج من هنا .

أول ما نقمه على طلب منى أن يزور مدرسة البنـات فقلت له لم يسبق لمأمور قط أن طلب هذا الطلب وانه لعسير الاجابة فحنق على وزاد عـلى أن تفشى مرض السحائى فأرسلت الحكومة طبيبا مصريا يدعى الدكتور محمـد أفندى البكرى نزل مع المأمور بمنزله وفى يوم ما توفى بالسحائى الشيخ طه ولد عبد الصادق خليفة الصادقاب وهو رجل معتقد دينيا وكانت أوامر الدكتور تقضى بأن من توفى بالسحائى يحمله أربعة أشخاص يدفن فى مـكان عينه فى خرائب مدينة رفاعة القديمة ويحبسون فى محجر عينه أيضا بالقرب من قبـور موتى السحائى سبعة أيام ثم يغسلون بمطهر ويرجعون لمنـازلهم ولما كنت متصلا بالمستر لتش مفتش المركز ليلا لاعطيه درس العربى حكيت له ما يلقاه الناس من صعوبة فى هذه التعليمات وطلبت منه أن يستخبر من الدكتور اتكى المفتش الطبى بمدنى اذا كان يمكن الغاء هذه التعليمات أو تخفيفها ولما أصبح الشيخ طه ميتا فى الكرنتينة اجتمع أعيان المدينة عند بيت المأمور لمقابلة الدكتور فدخل عليه الشيخ عبد الله فطلبنا منه أن نصلى عليه وندفنه فى مكان واسـع لأن قبره سيصير مقبرة واسعة كعادة البلاد فقال لنا أن مكروب السـحائى ينتشر الى سبعمائة متر فقلت له توضع الجنازة وبعد غسلها وكفنها بواسـطة من يحتجزون عادة فى هذه المسافة ونحن نصلى عليها وتدفن فى مكان واسـع أو فى المقابر المعتادة فعين مكانا فى مزرعة فاعترضه صاحب المزرعة ولما خرج المأمور من منزله وكنا خرجنا قبله ووجد الناس مجتمعين عند بابه شرع يوبخهم ويشتمهم فقلت له يا حضرة المأمور هؤلاء الذين أمامك هم صفوة رعيتك فالتفت الى مغضبا وقال هم فى نظرى كالذباب لأنهم يمكن بينهم من يحمل مـكروب السحائى فيعدينى به فقلت أنت ضابط مستعد للموت بحكم وظيفتك فلايجوز

أن تصرح بمثل هذا الكلام ولا بهذه البذاءة مع ضيوفك الجالسين فى بابك فبدلا من أن تواسيهم فى مصابهم لا يجوز لك يا حضرة المأمور وأنت عربى الجنس مسلم الدين مثل هذا فسكت وانصرف وتركنا مكاننا فتوجهنا لمنزل المفتش أسأله اذا كان جاءه خبر بالتخفيف أو بالعفو لهذا التعسف فوجدت سعادة المدير فلما علم المدير ما جئت له ركبا جوادين وتوجها للطبيب الذى وجداه ينازع صاحب المزرعة ليكرهه على دفن جنازة الشيخ طه بمزرعته ولو تنزع ملكيته لها للصالح العام ولكن يوسف بابكر صاحب المزرعة لم يعرف معنى النزع ولا سمع به فسأل المدير الدكتور محمد البكرى الذى شرح له قاعدته لأموات السحائى فما كان من المدير الا أن قال للدكتور البكرى : والله ان كانت التعليمات كما تقول فان الدكتور اتكى لا يعرف الطب فارتاع الدكتور البكرى وشحب وجهه وقال بصوت الموتور : العفو يا سعادة المدير فان الدكتور اتكى طبيب ماهر • فقال له المدير : هو يدفن موتى السحائى فى القبور الاعتيادية فقال اذا نسرح للناس مثله فأعطانا المدير عربية الحملة التابعة للمركز رحلنا بها الجنازة الى المقابر الاعتيادية ودفناه حيث قبته الآن ومارجعنا من المقابر الا الساعة ٢ رحمه الله • ومن ذلك اليوم ارتفع عن الناس عنت الدكتور البكرى وبعد أيام كتب لى الشيخ حسن طه السيد من الفصل ورقة بخطه الجميل يذكر لى فيها انه غير مطيق الاستمرار فى الدرس فأمرته بالحضور لى فرأيت عليه أثر الاعياء وكنت قد رأيت فى المنام فى تلك الليلة ان شيئا كالقنبلة مار فى الجو على رؤوس المنازل ففرقع بعد أن سقط فرقعة داوية جدا وكان سقوطه على جهة منزل الشيخ حسن طه السيد وفى ذلك الصباح حكى انه فى نحو نصف الليل أحس بطعنة فى رجله حادة أيقظته من النوم ووجد رجله ثقيلة فى حملها فلما رأيت حالته بالمكتب قلت له اذهب الى أهلك وفى الاصفرار ذهبت اليه فوجدته ومعه الشيخ محمد عبد النور وفى الغروب ظهر هلال شعبان فأخرجناه متوكئا علينا فنظر الهلال وأدخلناه بيته وكان رحمه الله كثير الاستعمال للفورملين خوفا من اصابته بالسحائى فلم تفيده شيئا وفى تلك الليلة خمسة عشر ابريل جاءنى الشيخ محمد عبد النور وأخبرنى بوفاته فحزنت وذهبت المستر لتش فى مروره وأخبرته بوفاته فذهب معى فى الحال الى منزله فلما رأى والدته عريانة الجسد غير ازار بين ركبتيها وسرتها وهى

ترتفع وتنخفض فى نقطة واحدة لا تتجاوزها وعيناها لا تدمعان فقال : من هذه؟ قلت هى والدته • ففى الحال جرت دموعه وأخرج منديله يمسحها ثم قال لى حين تريدون جهازه أعطونى خبر لأحضر دفن الجنازة وفعلا وصل معنا المقابر وظل واقفا حتى صلينا عليه وفرغنا من دفنه ورجع معنا نحن للمدرسة وهـو للمكتب • هذا المستر لتش وهذه مجاملته لرعاياه وفى الحـال عملت له مرثية أكملت بيت المطلع الذى أرسلته للشيخ لطفى بكسلا بموته وهو :

من شاء أن ينظر الثكلى بمعناها فلينظر اليوم أم الشيخ حسن طه

فتوليت تربية أخويه السيد وعثمان بناءا على وصية أبيه لى عند سفره للفاشر الذى لم يرجع منه • فى هذه السنة جاء لرفاعه عمر آفندى الأمين نائب مأمور وحضرته من الدفعة الأولى لهذه الوظيفة وهو متخرج من كلية غردون الثانوية بمهنة مدرس الانجليزى وفعلا قضى فيها زمنا كان من النابغين وفى هذه السنة نقل الشيخ محمد الطيب قاضيا لرفاعة من كوستى لما سمعت بنقله حزنت جدا لأن عمه الشيخ عبد الله أتعبنى مع حيدر أفندى رستم وهـدد المعلمين البدوى المبارك والمرضى كريم الدين بأنى نويت ضررهم فأوجد بينى وبينهم سوء الفهم • فلما سمعت بنقل الشيخ محمد الطيب قلت اذا كان الشيخ عبد الله الذى أعرفه من صرص وكنا تجارا بالدويم عاملنى بهذه المعاملة وأضعف علاقتنا مع عائلة هاشمى فاذا ولد المفتى يقضى على البقية ولكن قد زال حزنى حينما وصلنى خطابه المصحوب بكشف به أدواته المنزلية يخبرنى أنه شحنها بالسكة حديد باسمى ويأمرنى بأن أقابلها بنفسى فى الحصاحيصا وأضعها فى مكان خال بمنزلى وانه يقسم لى بالله لو ضاع ولد المرحاكه يغرمنى اياه فاطمأننت لحسن ظنه ورفع الكلفة لهذا الحد وفعلا حفظتها فى غرفةوطوبتها عليها والكشف معها بخطه وسافرت الى أم درمان لأذهب ليوسف أخى بالدويم فلما سمع بوجودى فى أم درمان وعرفنى انه سيقوم غدا بأولاده لرفاعة وكنت أعلم أن بيت القاضى ساكن به نائب المأمور والشيخ محمد الطيب يحتاج لمنزل ولا يعرف أحدا برفاعة يقوم له بهذه المهمة عدلت عن سفرى للدويم ورجعت معه وأنزلته بأحد منازلى وسلمته أدواته بالكشف وصار لى نعم الصديق حتى توفاه الله رحمه أرحم الراحمين برحمته الواسعة التى وسعت كل شيء •

من حوادث المأمور عونى اني طلبت مائة وستين قرشا لتصليح بيرالمدرسة التى سقط من نصف دائرتها قدر متر ونصف فبنيت ما سقط وجلبت من مأمور الحصاحيصا بلاط أسمنت على هيئة الطوب مما بنى به المراكز عملت به عمودين للبكارة فجاء عونى أفندى ووقف بالجهة المبنية جديدة ونظر مقابلة المكان الذى لم يسقط فاعتقد اننا لم نبن البئر وحدث أن الوصولات وصلته للخصم فنحن سرقنا ما جعلناه قيمة بناء فأخبر المفتش بذلك فسألنى فأكدت له بناء البئر فقام معى للمدرسة ونظر للبناء وكان المأمور معنا فلما رأى البناء قال هذا يستحق المبلغ الذى صرف عليه فقلت للمفتش مفتش الأشغال موجود بالمركز أطلبه يقدر البناء فلما جاء مفتش الأشغال قال انه يكلف أربع جنيهات فوجم عونى أفندى وسيأتى باقى حوادثه فى سنة ١٩١٦ •

فى هذه السنة تزوج ابراهيم بدرى بالسارة بنتى وبالنسبة لما بذله والده من لوازم الزواج المبالغ فيها نبهت على أمها ألا تطالبهم بشىء قط فى عوائد النساء لا للأم ولا لغيرها وما يلزم سلينى منه فانى مستعد لدفعه لك ولما أراد يوسف السفر أخبرنى بأنه دفع لحفصى خمسة عشر جنيها نظير عوائد النساء على يد زوجته الرسالة ولم تخبرنى بهافلماسألتها اعترفت وكانت تظن أن يوسف لا يخبرنى فتناقشنا حتى حصل الطلاق الأخير بيننا دون غرضى وكتمته عنها لأجد رخصة فى أى مذهب وسافرت لسنكات ولم أخبر سوى والدى مخافة أن أموت فترث ولما لم أجد رخصة نشرت خبره فكانت الثالثة • فى هذه السنة رفت الشيخ على ناصف أبو سن من نظارة مدرسة المفازة متهما فى حادثة زنا فلما أخبرنى المستر سمسن بالسبب وان الشيخ ناصف جرى من أهل المرأة قلت له أصدق كل قولة ولكنى لا يمكن أن أصدق انه يجرى ولم أزل حتى أقنعته انه لا يجرى وان المآمير ضد كل ناظر يحفظ كرامته معهم ثم قلت له أن حكومة الأنجليز سياستها أن تفتح البيوت المشهورة فى السودان والشيخ على جده لأبيه الشيخ الحاردلو أبو سن وجده لأمه الشيخ على أبو سن ناظر الشكرية الى أن توفى فعليك الرسول ترده لوظيفته فضحك وقال لى نعينه معك فقلت حبا وكرامة فعينه بكتاب رفاعة • فى هذه السنة أحرم كل مستخدمى حكومة السودان الذين يستحقون علاوات من منحها لهم ولكنها عوضت لهم بعد انتهاء الحرب مع ضم ٢٠٪ لمرتباتهم من علاوة الحرب التى كانت ٤٠٪ وكنت منهم •

فى هذه السنة سافر المستر لتش بالأجازة ولحسن معاملته للناس ومجاملته لهم قام معه أعيان رفاعة لوداعه للحصاحيصا وحينما دخل القطار قلت له هذين البيتين مكتوبين فى ورقة بخط كبير فأخذهما منى وهما : —

يا ليتش سـافر بالأجازة هانئـا وليبـق فى كنف الاله ايابك
هذا مدى الأشباح ترجع عنـده أما القـلوب فانها ستصـاحبك

فلما رجع من الأجازة قال لى بيتاك كانا لى أعظم شاهد عنـد أهلى بأنى سائر فى السودان سيرا حسنا ٠ من مجاملته انه أول بريطانى دعى لوليمة فأجاب دعوته أنا لزواج ابراهيم بدرى وأكل معنا بيده وقال هذه أول مرة آكل بيدى فلما رجع من الأجازة أتى للعروس بهـدية صندوق به كل أدوات الخيـاطة والتطريز والتنتق ٠

سنة ١٩١٦ أنا وعونى فى احتفال عيد جلالة ملك انجلترا جمعنا الأعيـان من كل قرى مركزى رفاعة والمسلمية ومستخدمى المركزين وكان عونى أفندى ينتظر أن يكون صدر المجلس ولكنا وضعنا فى مكانه الذى يأمل الجلوس فيه قاضى الحصاحيصا لأنه ضيف دينى فلما دخل عونى أفندى قال للشيخ حسن أحمد أين كرسى جلوسى فقال له حضرتك صاحب المنزل وهؤلاء ضيوفك فلا بأس أن تظل واقفا تستقبل ضيوفك فبرم شنبه الطويل وخرج من المدرسـة لمنزله واعتبرها اهانة قصد بها ودبرتها له مع أنها من الصدف ولم يكن لى علم بها الا بعد انتهاء الاحتفال فحقدها كعادته فلما جاء وقت المولد وضعنا خيمة المدرسة فى مكانها الاعتيادى فطلب خفراء المركز ورماها خارج الميدان وسلم مكانها لأحد مشايخ الطرق فقابلته وأفهمته أن هذا مكان خيمة المدرسة منذ ثمان سنوات لم يتغير فحضرتك ترجعها له فرفض وقال أنا رئيس المولد أتصرف فيه كما أشاء فاضطررت الى أن أكلم المستر باردسلى رغم أن جنابه جاء من أول هذه السنة فدخل الميدان وسأل من وجدهم به من مشايخ الطرق فكلهم شهدوا بأن هذا مكان المدرسـة فأمر الشيخ بأن يرجع لمكانه وأمرنا بنصب خيمتنـا مكانها فاستاء عونى أفندى وهجر المولد وبعد يومين التقيت به فى خارج الميدان بالقرب من منزلى ومعه الخواجه سليم رزق السورى التاجر فسـألنى لماذا أرجعت خيمتك قلت بأمر المفتش فأشار الى بعصـاه وقال لى أنا والله أكسر رأسك واقتلك وقرب منى فوقف رزق بيننـا فقلت له أنت تضربنى وأنا والله

لا أرفع يدى ولكنى أؤكد لك انك حينما تضربني ترمى فى مـــكانك وانك لا تصل بيتك ولو جريت بكل قوتك قال لى من يمنعنى قلت أنظر الى هؤلاء التلاميذ والى ذلك الطوب فكل تلميذ يرميك بطوبة فقال أجيب البوليس قلت لا يصلك البوليس وأنت صحيح فلزه سليم وقاده ومضينا فلما لقى عمر الأمين نائب المـأمور قال له أنا عاوز أضرب بابكر بدرى أجابه لا لا والله يا حضرة المأمور تضرب الشيخ بابكر ان جريت ما تصل بيتك ثم قابل الشيخ محمـــد الطيب وقال له أنا سأضرب بابكر بدرى قال له كل شىء تقوله يمكنك أن تفعله الا هذا قال ولم قال والله حينما تضربه لا تصل الى بيتك ولو جريت قال هل اجتمعتم معه انت وعمر الأمين قال والله لم أره منذ يومين قال المأمور هـــذا عجيب وكيف اتفقتم فى هذا الجواب قال له القاضى الحقيقة لا تخفى على أحد فمن ذلك الحين تنازل عن ضربى وشرع يكيد لى فى نواحى أخرى وصـــار يقضى للشيخ عبد الله بعض وساطاته مما جعل الشيخ عبد الله كثير المكث معه فى مكتبه ففى يوم كنت ألعب فى الكرة فوقعت على ركبتى فحصل لى منها ألم وفى الحال بلغنى أن عمى عبد الله أخذ شربة أتعبته فقلت للشيخ حسن أحمد نصله من المدرسة ثم نأتى البيت لأعمل مكمدات لرجلى وأنام مبكرا فلمـا وصلنا الشيخ عبد الله وجدنا معه عونى وغيره فجلست عـلى كرسى ووضعت رجلى المألومة على كرسى فغضب عونى واعتبرها اهانة له وقام من المجلس وخـرج معه عوض الكريم فلما رجع منه عوض الكريم أخبر والده أن المأمور قال انى ما جئت لبيتكم لأحتقر فما كان من الشيخ عبد الله الذى انفجر وقال لى قم من بيتى أمام الناس فقلت ما السبب فقال احتقرت المأمور بوضع رجلك على كرسى أمامه فقال الشيخ حسن أحمد ان عمى فلان وقع فى الكرة ورجله مألومة وانه يعتبرك كوالده فاذا أمد رجله أمامك فهل للمأمور أن يرى نفسه أولى بالاحترام منك فتحول حالا وقال المأمور ما غبى آكان ما غبى يطالب الناس باحترامه فى رفاعة أكثر منى ــ حينما زار البرنس أوف ويلز السـودان أبرق لكل المراكز بالسودان تلغرافا دوريا يبلغ الرعية تحيته ويعتذر من الزيارة شخصيا فاجتمع الناس فى الضبطية لسماع البرقية الكريمة ووضع المأمور كرسى جناب المفتش فى وسط المجتمعين ليجلس حضرته عليه فجئت متأخرا وجدت هـذا الكرسى خاليا فجلست عليه دون قصد فلما حضر المأمور وجدنى جالسا عليه تأكد أن لو

أمرني بالقيام منه ليجلس هو عليه لا يمكن أن أقوم أمام الجالسين النـاظرين لي فاحمر وجهه ومشى للقاضي محمد محمود الأزهري الرجل التقي طلب منه أن يطلبني عنده لأخلي الكرسي ويجلس حضرته عليه وقال له هلكني ابن الكلب فرفض القاضي طلبه فظل واقفا حتى قرىء التلغراف وكتب رده وأمضى ووقع عليه من جميع الجالسين وكتب رد آخر ليرسـل للنـدن برسم البرنس أوف ويلز قصد المامور أن يرسل هذا التلغراف برسمه فكنت أول المعترضين ورأيت أن يرسل بتوقيع الشيخ عبد الله أبو سن فلما عارضني قلت له الشيخ عبد الله أبو سن صـديق السردار أما أنت فـلا يمـكن أن يعـرف عنـك الا اسمك في كشف الضبـاط ثم ضم القـاضي وركز غيره أصـواتهم لي وفعلا أرسل بتوقيع الشيخ عبد الله واني والله لا أقصد الا وضع الأمر في موضعه ولكنه غضب حضرته وبعد أيام دخل مكتب نائب المأمور فوجدني معه فطلب سعيد النصيبة شيخ الغفر وأمره أن يجرني ويخرجني من المكتب فقال له سعيد لا يمكن هذا موظف كبير ومحترم بالبلد فلا يمكنني أن أجره قلت لعوني أفندي امسكني حضرتك وأنا أتبعك كأمرك ونويت في خـلدي انه اذا طأطأ ليمسكني أملأ يدي من شنبه الطويل وأنزعه من مكانه وأنتظر ما يترتب على ذلك من الجزاء ولكنه خرج وتركني فشكاني لعمي عبـد الله الذي جلس مع القاضي بالمحكمة وطلبني فقال لي « ها ود بدري الحكومة تجلسك على كرسي المأمور كلما جا مأمور انت تخاصمه وتشاتمه » وكان كلامـه بغضب فقلت له انت والدي اذا قلت لي صالح المأمور أنا لا أستطيع أخالفك فأصالحه فقال لي « لا لا تصالحه » بصوت منخفض واشارة باليد فضحك القاضي وقال للشيخ عبد الله منكرا عليه : ما المناسبة بين قولك أولا وجوابك هذا ؟ فقـال الشيخ عبدالله أحسن يخاصمه لأنه كلما عصر عليه يلين لنا أنظر يا قارىء الى هـذا الدهاء العظيم • زرت الشيخ عبد الله مرة ليلا فوجدت معـه مالك والخضر اسيد وعبد الله ومنصور ولدى محمد منصور يدعوهم للتحفظ من ضرر المأمور بمسالمته والدعاية له والانقياد الأعمى فقلت له يا عمي عبد الله هؤلاء من أخص أولادك ومن أغناهم ومثـل هذا الكلام منك يفت في عضد كرامتهم فمـا هي قيمة ضرر المأمور لهم حتى ينقادوا له بمثل هـذا الخضوع المشـين قال لي يضرهم في العشور قلت لا يظلمهم بأكثر من ثلاثين أردبا في التقدير عشـورها

ثلاثة أرادب والأردب جنيه واحد فحاج الخضر الرجل الكريم المتلاف ينفق الثلاث جنيهات في ليلة لضيوفه يخضع سنة تفاديا من دفعها فقـال لى عمى عبد الله انت دائما تنقص من هيبة المآمير انا بخبر المدير قلت انت خبره وأنا أخبره بما رأيته فى هذا المجلس لما انصرف الجماعة قال لى لا تكلم المدير وأنا لا أكلمه وانصرفت ولكنه خبر سعادة المدير بعلامة انى سافرت مرة لمدنى فى غرض ولما كان المدير يزورنا كثيرا فى المدرسة وبيننا مناقشة فى علم الفلك لأنه يعرف الكثير فيه عزمت أن أزوره فى مكتبه ولكنى أجهل غرفته وطريقها فلما صعدت السلم رأيت بابين متقابلين فظننتهما طريقا فلما توسطت الغرفة نهض المدير واقفا وقال بصوت عال يدل على الغضب قال لى « دا مش طريق » قلت بهدوء اذا كان ليس طريقا لماذا فتحتم البابين وخرجت من الباب غير الذى دخلت به وكتبت له ورقة طلبت مقابلته فطلبنى فدخلت عليه وجدت محمد أفندى حلمى المأمور لا يزال واقفا أمامه كما كان عند مرورى فأجلسنى على كرسى وقال لى : شعرت بأنى غاضب عليك قلت لم أشعر قال حينما قلت لك هذا ليس طريق قلت ولماذا تغضب على قال لأنك تحتقر المأمور قلت المأمور الموجود لا احترمه ولا أحتقره قال بينهما درجة قلت : نعم ان الحكومة حددت له واجبات على الناس فمن زاده عليها فقد أحترمه قال ولماذا لا تحترمه قلت : لأنى لا أشعر له بواحدة من أسباب الاحترام لأنى لا أحبه ولست آملا فيه ولا خائفا منه قال ولماذا لا تخاف منه قلت لأن الحكومة سلبت نفوذه فغضب (أو تغاضب لوجود حلمى المأمور) وقال الحكومة سلبت نفوذه ؟ قلت : نعم هل يستطيع أن يشترى لجام بغل أو يعين خفيرا ويرفت خفيرا بدون اذن المفتش فسكت قليلا ثم قال لى ألك حاجة قلت فقط قصدت زيارتك قال : العصر تجيء فتشرب معى الشاى قلت حاضر وأتشرف ولما كان محمد أفندى حلمى حسن صديقنا أنا ويوسف أخى انتظرته فى مكتبه حتى جاءنى وبعد التحية قال لى اليوم مثلت لى شجاعة السودانى أحسن تمثيل لو كنت مكانك والمدير وقف وخاطبنى كما خاطبك مهما تشجعت أرجع مسرعا ولكنك رددت عليه بلا مبالاة ثم أنك خدمتنا خدمة جليلة بقولك له الحكومة سلبت نفوذ المأمور ثم دعانى أتغدى معه فلما حضر الأكل قال لى أنتهز هذه الفرصة بانفرادنا وأسألك لماذا يكره السودانيون المصريين قلت : كل محكوم يكره حاكمه ألستم تكرهون الانجليز

فى بلدكم ولكنى أنا الذى أســـألك لماذا يكره المصرى الســودانية قال لى لا يكرهونهم ولكنهم يحتقرونهم فقط فقلت وهل هناك مسوغ لهذا الاحتقار ؟ قال لماذا ؟ قلت لا يجــوز للمحتقر أن يحتقر قال لى المصرى محتقر قلت رأيت أحمد باشا المتينى وهو لواء رافع تعظيما لبكباشى انجليزى فى المحطة العمومية فأمسك عن الأكل وأمسكت فقال لى كل فقلت وأنت كل فقال : لا نفس لى • قلت وأنا أيضا فرفع الطعام وبعد شرابنا القهوة خرج مودعا لى بعد أن قال لى يا أخى أنا كما تعلم لى أصدقاء كثير فى السودان وأرجوك أن تكتم عنى هذه المحادثة وتعتبرها سقطة عاقل وخصوصا « يحتقرونهم » قلت لك على ألا أذكر اسمك ما دمت فى السودان ويجب على أن أحكيها لكل من يفهم قيمتهــا منسوبة لمصري عاقل وفارقته ولكن اليوم فى هذا التاريخ بعد سبع وعشرين سنة لا تضره بشىء • زرت سعادة المدير وبعد شرابنا الشاى سألنى عن المأمور وسيره فى البلد فقلت والله يا سعادة المدير انه رجل نزيه فى يده وفرجه ولكنه فاسق فى لسانه وان له نفسا هو صاحبها غير قادر عليها وضررها عليه أكثر من ضررها على غيره وسبب النزاع انه واضع نفسه فى مركز أكبر من وظيفته وأراد أن يكره الناس على الاعتراف له بهذا المركز مكانة ومعاملة فى المكتب والخارج فما استطاع الناس وخصوصا من يرى لنفسه كرامة أن يقوموا له بهذا الواجب ولم يمكنه أن يتنازل عنه فاستمر النزاع فشكرنى لنصيحتى وأعطانى كتـــابا هدية من مكتبته الحافلة بأنواع الكتب وفيها رأيت كتابا باللغة الحبشـــية مكتوبا فى ورق من جلد غزال مدبوغا أبيض صلبا وودعته وعلمت أن هــذا من أثر كلام والدنا الشيخ عبد الله رحمـــه الله ولما وصلت رفاعة وعرضت نتيجة مقابلتى للمدير وهديته لى انحلت عقيدة المأمور فى الشيخ عبد الله وأصـــابه ملل من كثرة تواجده معه بمكتبه فأخبر المفتش انه غير قادر على شغله بالمكتب لمواظبة الشيخ عبد الله الذى يسبقه على المكتب ويبقى معه كل ساعات المكتب ويتداخل فى كل قضية وادارة فكتب المفتش المستر بازدسلى للشيخ عبـــد الله كتابا شديد اللهجة يقول له فيه أكون ممتنـــا لو انقطعت من زيارتك لمكتب المأمور التى بالغت فيها فانقطع الشيخ عبـــد الله من المكتب وانقطع عونى من بيت الشيخ عبد الله فى يوم ما كتب لى عونى فى موضوع بالحبر ناظر كتـــاب رفاعة هوصيلنى هذا الكتاب بمدرسة البنات ولم يكن عندى حبر ولا ورقـــة

فكتبت له على ورقته بقلم رصاص مأمور رفاعة فلما وصـــله الرد على نفس الورقة كتب بقلمه فى الأول حضرة وفى الآخر المحترم وعرض الكتابين عـلى المفتش الذى طلبنى وقال لى لماذا تكتب للمأمور بما لا يليق مع انه كتب لك بما يليق قلت أطلبه أمامك وليحلف بشرفه فى المصحف أن كلمتى « حضرة » أولا وكلمة «المحترم» آخرا كانتا مكتوبتين من الأول فحضر ونكل عن اليمين ولكنه طلب التحقيق رسميا فرفضت أن أقف معه أمام المفتش الذى كتب لمدير المعارف ولمدير النيل الأزرق فحضر المستر يودال لرفاعة وطلب منى أن أقف أمام المفتش فى القضية فرفضت وقلت أنا أقبل أبلغ جزاء منك أو من المســـتر باردسلى وأرفض بتاتا أن أقف فى هذه القضية قال لى ولماذا تخاف من الوقوف مع المأمور فان المفتش لا يظلمك قلت لست خائفا من الظلم ولكنى خجل من أن أخرج من المدرسة للقضية التى تدل على نقص فى (الخلق) خلقى وارجع للمدرســة من المحكمة والمعلمون والتلاميذ يعرفون هذا النقص فى أخلاقى فكيف أدعو أحدا منهم الى حسن الأخلاق وأنكر على من يغلط خلقيا منهم بعد ذلك وعلى كل حال سعادتك وكيل المعارف فشكلوا محكمة أنت والمستر باردسلى وافرضوا انى غلطان ووقعوا حكمكم وأعلنانى به وأنفذه ولما عرف غرضى وافقنى ومشيت معه للحصاحيصا كأمره فلقى المستر جكسن نائب المدير فقص عليه القصة فقال المستر جكسن حينما يرجع سعادة المستر بكى من السوق أنا أخبره وسنعمل فيها عملا يوافق الشيخ بابكر فلما وصلا مدنى جاء خبر للمستر باردسلى أن يضع لى أسئلة بمنزلى وأجيب عليها حتى استوفت وأجوبتى أرسلها لسـعادة مدير النيل الأزرق الذى حفظها .

فى النصف الأخير من هذه السنة نقل عونى أفندى لســـنجة فجاءنى صديقى الشيخ محمد الطيب القاضى وطلب منى أن أكتتب لاحتفال يعمـــل لعونى بمناسبة نقله فقلت له يا شيخ محمد انت صديقى ويعز عـلى أن تطلب منى طلبا لا أوافقك عليه فيه أن الانجليز وسكان رفاعة يعلمون ما بيننـا من الخصام وأمس كانت لنا قضية فلما يرونى فى احتفاله آكل وأكتتب يستحسنون منى ذلك اعذرنى فتركنى ولكنه سلط على عمى الشيخ عبد الله دخلت للمحكمة يوما وجدت عمى الشيخ عبد الله مع القاضى فقال لى عمى الشيخ ها ود بدرى سلمنى خمسين قرشا لاحتفـال عونى ما وسعنى الا دفعهـا قال للشيخ حسن

أحمد أدفع ثلاثين قرشا فدفعها وخرجنا استعملت فكرى فى أن أسافر لئلا أحضر يوم الاحتفال الذى سيعمل لعونى عند سفره الذى يكرهنى عمى عبد الله للتواجد بحفلته ولكن أعمالى الرسمية لا تسمح لى بالغياب عن رفاعة استعملت فكرى فى أن أسعى للغو الاحتفال فذهبت للمستر باردسلى للدرس وبعد الدرس قلت له هل بلغك الاحتفال الذى سيعمل لعونى عند سفره قال وأنت معهم قلت نعم ولكنى مكره قال من أكرهك قلت عمى عبد الله وهو رئيس الاحتفال فضحك ثم لما أصبحنا قلت لعمى عبد الله انت رئيس الاحتفال هل فى نيتك أن تدعو المفتش أو لا تدعوه قال سأدعوه بلا شك قلت هو لا يمكن أن يأتى لاحتفال لا علم له به فالأحسن أن تمشى له الآن وتخبره به فاذا لم يوافق عليه تترك الاحتفال قام فى الحال ودخل على المفتش وأخبره فقال له يا شيخ عبد الله أنت ترأس احتفال لعونى أفندى الذى هو السبب فى الكتاب الذى أرسلته لك بالانقطاع عن مكتبه قال هو السبب قال نعم فرفض الشيخ عبد الله عمله وجاءنى فى المدرسة وقال لى كيف نعمل فى النقود التى جمعناها للاحتفال قلت نقود الناس الغرباء ردها لهم ونقودنا نحن تصرف فيها كما شئت فشكرنى وبطل الاحتفال وبعد أيام كتب المستر باردسلى كتابا لعونى أفندى حدد له يوما يتعشى معه فأخذ عونى يعرض كتاب باردسلى على الناس ويقول هذا خير من احتفالهم لأنه شهادة برضاء المفتش عنى قبل اليوم المحدد وبعد الدرس قلت للمفتش ان جماعة لجنة احتفال عونى آخذون عليك وقال لأى سبب قلت لأنك منعتهم الاحتفال وأنت دعوته للعشاء وحضرته ينشر كتابك بين الناس ويقول عشاء المفتش أحسن من احتفالنا ففى الحال كتب ورقة قال فيها وصلتنى أخبار تمنعنى من الاجتماع بأصدقائى ولذلك آسف على لغو دعوتى لك بالعشاء واستودعك فسافر ولم يصحبه أحد عدا خضر ومحمد أفندى الضنو . فى أول هذه السنة نقل المستر ليتش بعد ثلاث سنوات وكسر قضاها برفاعة كان فيها مثال العدل والشفقة قولا وفعلا .

متاعبنا مع المفتشين

خلفه المستر باردسلى ففى يوم ١٧ يناير من كل سنة تعمل بكتاب رفاعة ألعاب لعيد مرور جلالة الملك جورجى الخامس بالسودان حيث يجتمع أعيان

مركز رفاعة والمسلمية وتلاميذ كل المدارس الأولية بهما برفاعة وفى ١٩١٦/١/١٧ لم توجد ملونات للزينة دخل جناب المستر باردسلى وجدنى مشغولا بصبغ شاش أبيض بألوان التفتة للزينة ويداى مشغولتان ووسختان فلم أصافحه ولم أدع التلاميذ للطابور لتحيته فرأى هذا ذنبا ودخل مكتب الناظر ودعانى للمثول بين يديه فلما دخلت عليه قلت السلام عليكم لم يرد على بل عبس وقال لى أين سلام المفتش فخاطبته بأسلوب الحكيم قائلا أنا قلت السلام عليكم وهى أحسن تحية اسلامية فنهرنى قائلا نهارك سعيد فقلت لا أعرف نهارك سعيد فقال ما رأيتنى داخلا قلت يا جناب المفتش أنا مشغول اليوم بعيد جلالة الملك هل تترك ما نحن فيه لغيره فسكت وانصرفت وبعد اتمامى للصبغ مشيت لميدان الألعاب لتمرين التلاميذ فوضعت موانع المدرسة التى متخذة من شجر السدر يتمرن عليها التلاميذ وفى يوم الاحتفال يلعبون على الموانع الجميلة التى تكرم جنابه وطلبها من كلية غردون فلما وجدنى وضعت موانع السدر بغير دقة قال لى كل سودانى لا يعرف الزاوية القائمة قلت صحيحا أكثرهم لا يعرفونها ولكنى يا جناب المفتش أعرفها من طرقها الثلاثة ولكن هذا الوضع معرض كثيرا للسقوط الذى رآه كثير الحصول وجنابه لا يضحك منه ثم انتقلنا الى تمرين الجرى واتفقنا على أن يجرى الأولاد خمسا خمسا نأخذه من كل دفعة ثلاث ثلاث ثم نصفيهم فنأخذ السابقين منهم فتمت عملية الخماس وانتهى اليوم فلما أصبحنا للتصفية وهو يوم الزينة نفسه فجاء جنابه فى الضحى وقال الأولاد يجرون رباعى فقلت رباعى فعبس لى وقال نعم أنا ما قلت ثلاثى ولا خماسى فرميت الشريط الذى كنت ماسكا رأسه وجنابه ماسكا رأسه فأسرع الشيخ حسن أحمد ورفعه وأمسكه وابتعدت عنهم وكان كشف الألعاب بيد جنابه فلما وصل الى لعبة (لا أذكرها) واحتاج فيها لرأيى ندهنى باسمى المجرد فلم يؤلمنى وسألنى عن اللعبة فانتهزت الفرصة وقلت له يا جناب المفتش انك لم تحضر ألعاب رفاعة قبل الآن ولا يمكن للولد أن ينتقل فى بضع ساعة عما تمرن عليه أياما فالأحسن أن تجلس مع الجالسين وتتركنا هذا اليوم ننفذ ما تمرنا عليه وتحصى غلطاتنا فى مفكرتك لنصلحها فى العام المقبل فعمل بهذا وتركنا فلما جاء وقت العصر واجتمع المدعوون لم أباشرهم كالعادة حتى جاء جنابه بالميدان فجلست بين الشريف بركات وقاضى شرعى

الحصاحيصا وكنت عينت كل لعبة وما يلزمها لها لمعلم فلما جاء دور لعبة رمى الرصاص الذى يزن أقتين من مركز دائرة أمر جنـــابه بأن يرش على محيطها الجير أولا ثم على كل جزء طمس طول اللعب وكان الشيخ عبد اللطيف قد نسى احضار الجير وكانت هذه اللعبة التى أدخلها وأراد أن يبتدىء هو بالرمى أولا ولم يجد الجير غضب وجاءنى بين الناس وقال لى يا بابكر هذا شغل زى الزفت فلم أبتئس لهذه العبارة الجارحة أمام الناس وقمت بهدوء معه حتى وصـــلنا مركز اللعبة الذى عينه جنابه لها قلت ماذا حصل قال أين الجير قلت على الفور كل رفاعة لم يوجد فيها جير لا عند الدباغين ولا عند مبيضى البيوت تعـــال يا فلان اجلس أمام المحيط وكلما وطئه رجل أحد اللاعبين وطمس الخط وضحه بيدك ثم قلت له العب يا جناب المفتش فدخل المحيط ووضع رجله فى المـــركز ورجله الثانية على خط المحيط ورمى الرصاصة وفى الحال أصلح التـــلاميذ ما محى من الخط المحيط وبذلك استمر اللعب وكان بين اللاعبين عبـــد الله شوقى الأسد ناظر كتاب الهلالية فكانت رميته أبعد من رمية المفتش فغضب جنابه وانتهى اليوم على خير والحمد لله زار جنابه المدرسة يوما فوجـــدنى أدرسهم الجغرافيا السياسية فسمعنى أقول لهم أن الحكومة عاقلة ومن عقلهـــا رفعت الانجليزى وأمرته أن يساوى بين الرعية ومن عقلها جعلت المال على المال ومن عقلها لا تؤاخذ أحدا بجريمة غيره مهما كانت علاقته به الخ . فظهر على وجهه الغضب ولكنه لم يتكلم فى الفصل فلما خرجنـــا طلبنى بمنزله وقال لى انت تقول للتلاميذ الحكومة عاقلة وكررها لى منتقدا فقلت نعم فقال لمـــاذا لا تقول لهم الحكومة عادلة قلت لكنها ليست عادلة فغضب وقال مثل حـــكومة الدراويش فقلت له انت الذى ذممتها بمقارنتك لها على حـــكومة الدراويش ثم قلت لجنابه تريدها تكون عادلة لنا أو لكم قال لكم قلت نحن عقلها خير لنا من عدلها قال ولم قلت لأن العقل يستقر ويستمر ولكن العدل بالحـــق يقضى بأن تكون الرواتب فى كل الحكومة واحدة قال وأهل المســـئولية الكبرى قلت يكفيهم التمتع بالنفوذ يأمرون فتنفذ أوامرهم قال وهل سبق مثل ذلك قلت نعم فى زمن سيدنا عمر بن بن الخطاب وسيدنا عمر بن عبد العزيز ولم يستمر كاصله بينهما ولا بعدهما قال كيف كان عمل سيدنا (بهذه اللفظة) عمر بن الخطاب قلت له كان مرتبه مرتب الجندى وكل المرتبات مساوية لمرتبه وفى يوم من الأيام

جاءته ابنته السيدة حفصة احدى زوجات النبى صلى الله عليه وسلم وقالت له أمير المؤمنين ضيوفك ووظيفتك يقضيان عليك أن تزيد مرتبك فقال لها جاءك العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب (وذكرت ثالثا أنا نسيت اسمه) فقالوا لك كلمى أمير المؤمنين بما قلت لى قالت نعم فضحك وقال لها هم يريدون أن أزيد مرتبى فأزيد مرتباتهم فخبريهم انه ما دام عمر حيـــا يستوى الأمير والجندى فى المرتب قال وماذا كان يصنع عمر بن العزيز قلت أول ما أسـندت اليه الخلافة كانت زوجته فاطمة بنت عبد الملك ابنة عمه فقال لها ان ما عنـدك من الحلي والجواهر هو للمسلمين أما أن تتجردى منه لبيت المال وأما أن أطلقك فلا يكون بينى وبينك من العلاقة الا بقدر ما بينى وبين المسلمات مطلقافتجردت من كل ما تملكه لبيت المال ثم ان له بمنزله سراجين وبمكتبه سراجين اذا أراد عملا لبيت المال أضاء مصباح بيت المال واذا عمل لبيته أضاء مصباح بيتـه ثم إذا وضع بين يديه أو مر عليه بما له رائحة طيبة من الغنائم سد أنفه لئلا يشتم رائحته فقيل له يا أمير المؤمنين ان رائحته لا تنقصه • قال ولكنى أنتفع بهـا ، قال جنابه : لما سمع هذا قال هذا زهد عظيم • قلت لا ان الزهد فى الأول يتمثل فى أن زوجته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب طلبت من زوجها عمر بن الخطاب أن يشترى لها حلوا تأكله بعد الغداء لأنها اشتهته فقال لها هل كل نســاء المسلمين يأكلن حلوا بعد الغداء فسكتت ، وبعد أيام جاءت بعد الغـداء بحلو فقال لها من أين لك هذا • فقالت اقتصدت من وظيفتنا اليومية ما اشـتريته به فقال كم اقتصدت فى اليوم ؟ قالت كذا • فأمر فى الحال بتخفيض ما اقتصدته من مرتبها اليومى لبيت مال المسلمين • هذا هو الزهد لأنه تنازل مما يحل لها زجرا لشهوتها وهو معها • فعجب جنابه مما سمع وأخـيرا قلت له لو كلفت جنابك من الحكومة أن تساوينا فى كل شىء ما ساغ لك أن تساوى بين الشيخ عبد الله عوض الكريم وهو ناظر الشكرية وبين المرأة قبورة وهى أضعف انسان فى رفاعة ، قال ولم قلت كنت تحس بألم المساواة فتميل مع الشيخ عبـد الله لتميزه بحسب مسؤوليته •

فى سنة ١٩١٧ جاءنى جنابه مرة بمنزلى ليلا وأخبرنى أن جيش الحلفـاء أنحنى كثيرا أمام جيش الألمان حتى كاد أن يصل بحر المانش قلت انفصـل عن بعضه • قال لا • قلت هذا جميل جدا قال وكيف ذلك • قلت القاعدة الهندسية

الخط كلما انحنى طال وما دام ان الجيش لم ينفصل فلا شـــك أنه قد جاءته زيادة سدت فراغ الانحناء ، وبعد أيام جاءنى وأخبرنى أن جيشا امريكيا انضم الى جيش الحلفاء بأوربا وكان يخبرنى بكل أخبار الحرب لما تأكد من اخلاصى واندفاعى روحيا فى محبة نصرة الحلفاء حتى ظهر كتاب (هنـاك) الذى كان الغرض منه الدعاية فلما ناولنى نسخة منه قلت ببساطة أمام الجميـع أين طبع هذا فتناوله منى مغضبا ولم يرده لى • قلت اشتد على الناس وصار يضربهم ، فقلت له يوما انى أخاف أن أراك تضرب أحدا ، فقال لى أنا لا أضرب مثلك • فقلت ليتك تضرب مثلى وتترك ضرب السفهاء . قال ولم . قلت أخاف أن تضرب أحدهم فيضربك فتعتبر الحكومة بلدنا لا يعرف قيمة الانجليز فتؤدب البـلد تأديبا يضر بمصلحتنا وسمعتنا • فقال سأترك الضرب • ولكنـه جاءنى يوما بحصانه فى المدرسة فأمرت الفراش أن يمسك الحصان • فأخبرنى انه اليـوم قد ضرب صباح الخير شيخ المدينة فلم يتحرك من أمامه ولما كثر عليـه الضرب نظرنى نظرة أذكرتنى نصيحتك لى فتركته وجئتك لأخبرك انى أقسمت عـلى الانجيل لا أضرب أحدا واذا ضربته أدفع خمس جنيهـات للصليب الأحمر • ومن ذلك الوقت لم يضرب أحدا برفاعة ولكنه استمر يأمر بالنزول كل من يمر عليه راكبا • ففى مرة لقى محمد عبد المجيد آتيا من الزرع وهو صـائم مارا بالسوق • فقال جنابه لمحمد أنزل فقال له محمد يا أخى بلاش دوشـــة أنت شبعان ريان مستريح وتأمرنى وأنا صائم متعب بالنزول فضحك المفتش وتركه مع انه قابل أحمد باره وعمره فوق الثمانين فى مكان لا أحد به غيرهما فأمره بالنزول فقال له أحمد باره أتريد أن أنزل لك وتنزل أنت فتركبنى أم تريد أن أقطع كل هذه المسافة ماشيا على قدمى فضحك المفتش وقال له اذا لقيتنى بعد ذلك فارفع عكازتك على كتفـك وقل أنا أحمـد باره فقـال حاضر وافترقا هو قاصدا الحصاحيصا فلقى فى الطريق الشيخ الصـديق الأزهـرى فلمـا لم ينزل له أرجعـه لرفاعـة ماشيا قائدا حمـاره مع انه كان يعرفه شخصيا ، وجاءنى فى المدرسة وقال لى من الذين لا يجب عليهم النزول للمفتش فعددت له كبار الناس وعددت له من ضمنهم أمام الجـامع فقال لى هذا صغير سنه ، قلت ولكن كبيرة منزلته فلو رأيته جنابك يوم الجمعـة على منبره يوبخ الجالسين بارتكاب المعاصى ويأمرهم بتركها وفيهم الشيخ يوسف

نعمه العالم والشيخ أحمد تور ياسين المعتقد والشيخ عبد الله آبو سن لعرفت منزلته وسموها ، فأخبرنى أنه جاء به من قريب مشرع الحصاحيصا ماشيا على رجليه فكيف يترضـاه ، قلت أعطه هـدية نقود وبما أنك عضـو فى لجنـة الجامع أقترح على اللجنة تعطيه علاوة ففعل ذلك .

خرج جنابه مرة يفتش على لجان العشور فوجد لجنة العمدة محمـد فنجرى جالسين يقتسمون نقود الرشاوى التى أخذوها من الحـلال : فلم يشعروا الا والمفتش خرج عليهم راكبـا جمله فما وسعهم الا أن يتفـرقوا ويتركوا النقود فى مكانها فاستلمها وأحضر العمدة وجماعته فوضعهم فى السجن (وكان سألنى قبل ذلك عن الناس الذين أكلوا نقود الجراد كما سيأتى بيانهـا فقلت ليس هذا من شغلى) . ولما كنت أعلم ان العمدة محمد فنجرى نزيهـا ولكنه غفله جئت لجنابه فقلت له العمدة محمد فنجرى مظلوم فى سجنه فقـال لى هذا ليس شغلك . قلت نعم ، ولكن نصيحة أحملها لجنـابك عنه وأنت صاحب الأمر فيه بعد سماعها قال ماهى قلت محمد فنجرى هذا كان غنيا جدا قبل أن يكون عمدة ، عنده الغنم والبقر والجمال والحمير والخيل كلمـا يأتى سوق رفاعة من التراجمة (اسم حلته) يأتى راكبا زاملة غير التى يركبها السوق الماضى والآن صار يأتى السوق راجلا العمودية هى التى أفقرته فى ضـيافتها للرؤساء وسداد ما قصر من مالها بينما غيره صاروا أغنياء بعـد فقرهم حين تعمدوا ولكنه أمى وغفله . فقال لى ما رأيك فيه قلت تعزله من العمـودية ونطلعه من السجن فطلبه فى الحال وأخبره بقولى وعزله من العمودية .

كثر الجراد وخصوصا العتاب بمركز رفاعة فقررت الحكومة مبلغا وزعته على العمد لمقاومته ومن ضمنهم الشيخ ابراهيم عبد الله عمـدة رفاعة وكان الباشكاتب وقتئذ قبطى اسمه وكان فى المهدية يدعى عمر فاتهمه المفتش كما بلغه انه أكل الكثير من مال الجـراد وطلب من العمـدة الاعتراف بأنه اشترك معه فى سرقة نقود الجراد فرفض العمـدة رغم تطمين المفتش له بأنه لا يعاقبه ورغم انه وسط اليه الشيخ عبد الاه عمه ووالد زوجته فرفض فطلبنى المفتش وسألنى المفتش عن من أكل مال الجراد فقلت له ليس هذا شغلى قال شغل من ؟ قلت شغل عوض الكريم وكيل ناظر الشكرية فغضب وقال لى انت شغلك ايه فقلت شـغلى تسـألنى عن التـلامذة ومعـلوماتهم

وصحتهم وحضورهم وتهذيبهم أما لو اشتغلت بالأخبار لجنابك يعتبرنى ولاة أمورهم جاسوسا عليهم فتضعف عقيدتهم فى وتسقط قيمة المدرسة فى نظرهم • فسكت جنابه وتركنى بعدها من أى سؤال من هذا النوع • حضر عبد الحميد أفندى عبد الله بك حمزه مساحا لرفاعة المدينة كتسوية لمنازلها ووضع أوتادا لبعض الجيران فقام أحدهما ووضع الوتدين اللذين بينهما وأدخلهما فى أرض جاره فأخذ منها جانبا وسع له داره فاشتكى المغبون للمفتش فأحضر عبدالحميد وقال له وضح الحدود بينهما كالخرطة فظهر الغلط فغضب المفتش وأراد أن يسجن الرجل ولكنه أنكر تحويل الوتدين فلما رأى عبد الحميد الخطر تحمل المسئولية قال للمفتش الغلط منى وخلص الرجل من سجن مضمون • هذا عبد الحميد الذى يفدى غيره بنفسه ، هكذا تكون النفوس العالية • أخذنى جناب المستر باردسلى يوما معه للحصاحيصا ليرسم غرف مدرسة الحصاحيصا الأولية فجعل سعة الغرفة عشرة أمتار فى ثمانية أمتار فقلت لجنابه هذه مساحة يصعب سقفها وثباتها للأمطار لسعتها لأنها تبنى من الجالوص وكان معنا اسماعيل أفندى مراد مأمور الحصاحيصا ماسكا الشاكوش ليدفع الأوتاد فالتفت لى جنابه وقال لى الأولاد يزدادون فى المستقبل • فقلت هذه تسع ستين ولدا على الأقل والمعلم لا يعلم أكثر من أربعين تلميذ فنمصها من كل طول متر فقلت لم تزل كبيرة ووقف المأمور من دق الوتد فقال له المفتش اضرب (يلعن أبوك) فما كان من المأمور الا انه أخذ يضرب بشدة فبنيت تسع طولا فى سبع عرضا وفى سنتها سقطت وغيرت بالمدرسة الجديدة •

سافر جنابه مع الشيخ عوض الكريم أبى سن لمشترى جمال للجيش ومكثا فيها مدة طويلة ولما رجعا جئته بشوق لأسلم عليه فقبض بكل أصابعه ومد الى اصبعه الخنصر (الصغير) فقط وهو ملتفت عنى لجماعة آخرين كما حصل لى مرة من مختار فانكمشت يدى وتقلص سرورى به وآليت على نفسى ألا أبسط يدى لمصافحته حتى يبسط يده أولا وذلك لما تعودته من آداب المفتشين قبله وغيرهم من البريطانيين واستمريت على هذه الحالة حتى رأيته يوما آيبا من المكتب ووراءه الولد حيلوانى يحمل شنطة الأوراق لجنابه وكنت راكبا حماراوفاتحا مظلتى وكنت ملتفتا الى الوراء ولو استمريت لمررت أمامه وكان المكان تقاطع شوارع فلما رآنى ملتفتا لا أراه نبهنى وقال يا حيلوانى

امسك الحمار للاستاذ فاضطررت للنزول وبسط لى يده فصافحته ثم انه خلع البرنيطة من رأسه وقال لى الشمس غير حاره يريدنى أضم شـــمسيتى فقلت لجنابه انت شاب وأنا شائب • وقف معى قليلا وبارحنى فمن ذلك اليوم صـــار جنابه كلما لقينى يبسط لى يده وبعد أيام زار رفاعة المستر يودال وزاره بمكتبه فخرج المستر باردسلى ليودع المستر يودال فلما مد له يده ليصـافحه رأيت المستر باردسلى قد مد ليودال اصبعه الخنصر فقط فصافحه به وافترقا ولم يتأثر المستر يودال • فعلمت انه لا يقصد الاســـتخفاف بى • كان جنابه مفتشـا للحصاحيصا ورفاعة ، فى بعض تواجده بالحصاحيصا جاءه خصمان من الحلاوين وكان معهما من أهلهما من دخل معهما المكتب كعادة الأهالى يصحبون الخصمين من باب المجاملة فلما أمرهم بالخروج خرج البعض وبقى البعض ولم يخــرج فرأى أن هذا استخفافا به وان فى استخفاف جنابه استخفاف سلطة الحكومة فنشأ عن ذلك أن طلب من الحكومة حملة تأديب جاءت فعلا وجاست خـــلال الحلاوين ورجعت الخرطوم • وجنابه هو الذى ابتدأ تنفيذ توزيع أطيـــان الشيخ عبد الاه أبى سن على مزارعيه فيها •

طلب الشيخ عبد الله أبو سن من سعادة المستر ايلس المدير بقاءها بيده حتى يموت ثم تعمل الحكومة فيها ما تشاء • فى حكاية طويلة•

جاء الشيخ عبد الاه الى المستر باردسلى مفتش المركز لمـا بلغه انه يريد توزيع طينه بالحديبه وقال له « ات أبا ردسلى ده ما دام ختيت عينك فى طينى كلامك ما بسمعه وباشكيك للمدير ان وافقك كلامه ما بسمعه وأشكيه للسردار وان وافقكم حتى هو كلامه ما بسمعه وان بع نص طنتى بصل الى لنـــدن وأشكيكم فى المجلس ا نوافقوكم بعرف الظلم بادى وي نوبرجع وألبســيها (أى الذى سأعلمه) بسيها »

فشكا المستر باردسلى الى مدير المديرية المستر آيلس فحضر سـعادته لرفاعة حكى للشيخ عبد الله ماحدث بين المفتش والشيخ عبد الاه فقال الشيخ عبد الله لسعادة المدير (عمى عبد الاه ما بقول كده وان قال بيعمل ـــ ات آمستر ايلس عمى عبد الاه ان شكا للسردار بتصل المفتش قبـال ما تدعكك ات ـــ عمى عبد الاه عميره قدير شنه خلوه يموت وبعدين الداير نه سوها)

وبقيت فى حوزته حتى نفذ ذلك لما صار فى حيازة ابنه ابراهيم بواسطة المستر هكسويرث • فى هذه السينة عينا التلميذات زينب الأسطى سليمان معلمة ونفيسة المدنى وعائشة بدرى وزينب مالك ووالدتها النسيم عبد الرحمن كمراقبة على البنات لموت المعلمة زهرة القبانى •

انشاء الخلاوى النظامية

زارنى سعادة المستر كروفوت فى فبراير هذه السنة فاقترحت على سعادته عمل خلوات للبادية لتعليم أولادهم بواسطة فقهائهم ان وجدوا أو بأمثالهم من فقهاء السودان الذين يعرفونهم ويألفونهم ويتنقلون معهم فلما وصل الخرطوم خاطبنى وطلب منى أن أبين له أسماء ثمانية قريات من قرى رفاعة الكثيرة ليضع فيها الخلوات المقترحة لأهل البادية فكتبت له ما طلب فأرسل اقتراحى لسعادة مدير مديرية النيل الأزرق وفى أوائل مارس حضر لى برفاعة ومعه السيدة الفاضلة المتواضعة العالمة قرينته فمررنا بالمركز مدة ثمانية عشر يوما بدأنا بدلوت فصدق لها بخلوة فقيها لها الشيخ عبد الله حامد العالم ولما توجهنا منها لحلة الشريف بركات قلت لسعادته هل تعرف الشريف بركات ؟ قال أسمع به • قلت هو رجل طيب مخلص للحكومة ولكن فيه عادة صعبة قال ما هى قلت لأنه يعبد الله تعالى ليلا وينام فى الضحى وتلاميذه لا يجرءون على ايقاظه من النوم واذا رأوا ذلك ضرورة لعظم الزائر كسعادتك وأيقظوه يستحم ويلبس ثم يخرج • قال سعادته وكانت الشمس حارة نحن نقف كل هذه المدة قلت لا نحن ندخل الخلوه ونجلس وتأتينا الماء والجبنة ثم يحضر السيد وهو رجل لطيف أنيس قال لا بأس مادمنا نستريح ، فلما وصلنا صحبة العساكر حتى دخل وجلس وأنا صحبت السيدة التى رأت الحراز مزهرا فصارت تقطف من زهره وتضع فى شنطتها فلما دخلنا وجدت الشريف بركات جالسا على برش وسعادة المدير على عنقريب ولم يعرف أنه الشريف فقلت الشريف بركات وقمت وسلمت عليه فقام المدير مسرعا ووصله فى مكانه وحياه أحسن تحية ثم التفت الى وقال لى ما قلت ان الشريف يتأخر نصف ساعة أو أكثر قال الشريف بركات نعم عادتى أتأخر لكن حينما بلغنى من أيقظنى أن

الزائر سعادة مدير المعارف أسرعت على خلاف عادتى لأن سعادتك ناشر العلم فى بلادنا فمكانتك فوق الجنس وفوق الوظائف وسر المدير وأجلسه بينه وبين مدام كروفوت • ثم ودعناه وركبنا قاصدين أبا حراز وكان غرض المدير أباحراز الشرقى ليرى قبر الشيخ أبى عائشة ، ولما وصلنا مفرق الطريقين لقينى من أخبرنى أن أحد أولاد يونس فى غيبوبة ويشتم فى الانجليز بأعلى صوته ، فلذا ملت بالمدير لأبى حراز الغربى حيث رقدنا هناك واعتمد سعادته خلوة الشيخ عبد الباقى لكثرة حيرانها وسافرنا حيث مررنا على قبر أبى عائشة فى الطريق وواصلنا حملتنا فى مجرى النهر حيث قضينا ليلة جميلة وفى الصباح متعنا أبصارنا وملأت سعادة السيدة حقيبتها من أنواع الزهور التى كتبت لها أسماء أشجارها بأنواعها وأعجبتها كثيرا شجرة سدر عليها أربعة أنواع من أشجار أخرى اندراب وعرديب ودبكر وحراز مما يسمى « بالقلعى » فكتبت اسم « القلعى » معناه الشجرة القائمة على فرع شجرة غير نوعها وليس لها فى الأرض جذع ولا عرق وهى تنبت مما يأكله الطير ويقع بذرته على فرع الشجرة غير نوعها فى وقت بدء الخريف • ثم قمنا وصحبنا عثمان الشايقى والعجب من حلة أبى الحسن فلما وصلنا سوق الحديبة تقدم سرج جمل المدير ونزل ليصلحه له العجب وأنا والسيدة تقدمنا هى راكبة جملا وأنا راكب حمارا • ففى أثناء سيرنا اذا حمار العجب وراءنا يجر سرجه فلما سمع جمل السيدة صوت السرج على الأرض هب جاريا رابعا فنزلت من حمارى وجريت خلفها وأقول لها امسكى الزمام والجمل يربع فاذا مالت نحو عنقه أقول تقع منه واذا مالت للوراء أقول تقع على ذنبه وأنا جار خلفها أكرر لها امسكى الزمام ثم حضرنى رشدى فأملت حمار العجب عن طريقنا فجرى حيث وجهته واطمأن جمل السيدة فبركته ونزلت فقلت لها أما كنت تسمعين قولى لك امسكى الزمام قالت ولكن ماسكه بيدى اليسرى الرسن وبيدى اليمنى رأس السرج الخلفى فاذا أطلقت الرسن ينزل هو واللجام فيعثر فيه الجمل واذا أطلقت رأس السرج وأنامستندة عليه أسقط فعجبت لوعيها وحسن تصرفها • ثم وصلنا المدير والعجب فقال سعادته للعجب هذه اذا كان من نسائكم تسقط فأجابه والله كان راجل كان يسقط فلما رمانى الجمل فى طريق حلفا تذكرت هذه الحادثة وقلت أنا الرجل الذى يعنيه العجب فلما وصلنا حلة الشيخ

عبد الاه وجدناه يكنس فى الغرفة التى أعدها لنزول المدير بنفسه فشكره المدير واستعظم هذا الأمر من رجل فى سنه ومركزه فقرر لحلة عبد الاه خلوة فقيهها ابراهيم الناسخ الشهير بكتابة المصاحف وغيرها ثم برحناها لحلة أبى جلفة وقرر سعادته خلوة فقيهها الفقيه أبراهيم أحمد المجود على الشريف محمد الأمين الهندى ورحنا نحو الساعة ٩ صباحا فى حر قائظ قاصدين حلة تنبول فلما قابلنا ود الخبير ورأيت أن الحر مشتد وتنبول بعيدة احتلت على سعادة المدير ليبرد جسمه أن يقيل فى ود الخبير خوفا عليه أو على السيدة من ضربة الشمس ، فقلت لسعادته فى هذه الحلة رجل عمره ينوّف على الثمانين وهو عالم تجد عنده من تاريخ السودان شيئا كثيرا ممتعا أرى ألا تضيع هذه الفرصة فشكرنى ، وملنا فدخلنا على الفقيه محمود الخبير وقلت له سعادة مدير المعارف وزوجته معى بالباب وهو يحب مقابلتك فقال لى فى دهشة بماذا نضيفهما فقلت له بماء آبرى وجبنه وتجيبه فى أسئلته التاريخية فنزل من سريره وجلس على مقلوبة الصلاة وأذنهما بالدخول فجلسا معا على العنقريب فالتفت لى الفقيه وقال لى ما قلت معه إمرأته أين هى وظنها دخلت على نسائه ففهمت السيدة انكاره لباسها الذى أظنه لم يره من قبل ، فقلعت قبعتها من رأسها فانتشر شعرها وبدأت تفك أزرار صدرها لتظهر له ثديها فبادرها بقوله لا تفكى صدرك أنت امرأة ، امرأة فسأل الفقيه محمود المدير بقوله أنت مدير المعارف والا مدير المدارس فأجابه المدير هل هناك فرق بينهما قال الفقيه نعم مدير المدارس يحضر لها المال والرجال ومدير المعارف يعرف كل ما يدرس فى المدارس فضحك المدير وقال أنا مدير المدارس . فأخذ المدير يسأله ويجيبه اجابة العلماء المحققين وكل سؤال لا يحقق اجابته يعترف له بجهله حتى شربنا الماء والجبنه وأبردنا أجسامنا وودعناه وخرجنا منه فلقينا على الباب الخارجى عبد الله محمد الخبير مدعى كل العلوم بتفوق فطلب من سعادة المدير التصديق وقادنى للخلوة فوجدت بها لوحا مكتوبا به فى التجويد البيت التالى :

والأخذ بالتجويد حتم لازم   من لم يجود القرآن « فهو » آثم

فقلت فهو زائدة فقال لى أنت لا تعرف الجزرية فلما تناقشنا قال سعادة المدير الحمد لله اليوم وجدت من يجهل الشيخ بابكر بدرى قلت لسعادته أنا أحكمك بيننا . قال سعادته أنا لا أعرف هذا العلم ، قلت نعم ولكنك تعرف

ميزانه فكتبت فى الأرض مستفعلن مستفعلن مستفعلن وشكلتها وكتبت تحتها والأخذ بالتجويد حتم لازم وقابلت الحركة بالحركة والسكون بالسكون حتى عرف سيادته الميزان فكتبت تحته ثانيـة مَن لَمْ يُجَوِّد . ويد القرآن — ا ثم ثم قلت لعبد الله أين تقع « فهو » فى هذه الاستفعالات فقال أنا حافظهـا من صغرى كذا وهو غلط فضحك سعادة المدير وقال له أنت لا تستحق خلوة نظامية وركبنا ووصلنا تنبول بعد الساعة ١٢ فى حر شديد فوجدنا سكانها غير مستعدين لنزولنا مع انى أعرفهم ولى فيهم زبائن وقتمـا كنت تاجر برفاعة فقادونا لمنزل شيخ الحلة وهى غرفة صغيرة لا تليق للجمالة فقلت لهم أين بيت الجعلى جباره فقادنا الشيخ له فوجدت به الفقيه أحمد محمد السيد العـالم المستحضر فلما رآنا ارتجف وكان وقت صلاة الجمعة فقلت له أخل لنا البيت فبدأ يعتذر فضغطت عليه فأخذ كتبه منه ولم نره بعد فأنزلنا سـعادة المدير ونزلت بقطية مخلعة لا تسع السرير السفرى وثم يدعنى أحد من أصحابى حتى الأمين عباس الى النزول بمنزله لأنى فى نظرهم كافر بصـحبتى للكافرين . توضأت وسعيت للجامع صليت ورجعت ولم يزرنى منهم أحـد وبعد برهة جاءنى العمدة محمد البشير عمدة ود الفضل فأحضر للمدير ماء وجبنة ودعانى أتغدى معه بمنزله فاعتذرت له ، وفى الساعة خمسة مساء دعانى سعادة المدير وبعد شرب الشاى معهما قال لى بانزعاج جمالنا لا يجدون عليقة ولا قصـبا فأخبرت الشيخ بذلك فقال لى لا أعرف انسانا يبيغ غلالا ولا قصـبا ، وأنا أناقشه وأحذره عاقبة فعله هذا واذا بمحمد ولد الفقيه أحمد حمد السـيد يحضر من سوق الحلاوين نزل وهو حامل كيلتين من الغلال ثم صـعد رأس بيته وهو يرمى القصب محزوما حتى قلنا يكفى مكررة حتى نزل فدفعنـا له العشرين قرشا التى كنا أعطيناها شيخ الحلة فحلف بالطلاق أن لايأخذ منهـا قرشا فشكرناه ، وكانت حلة تنبول ضمن المقرر لها الخلوات فأحرمها سـعادة المدير وقرر الخلوة لحلة ولد الفضل (نسيت اسم فقيهها) ثم رحلنا لحـلة الحضور فوجدنا خلوتها بحالة أذكرتنى قراءتنا القديمة حتى وأنى دخلتهـا نسيت نفسى ومن معى من كثرة الحيران العائدين وقراءتهم الواضحة وجلوسهم فى الخلوة مزدحمين الكبار منهم على هيئة دائرة راكزين ألواحهم على جدران الخلوة المستديرةومن وراءهم ماسكون ألواحهم لو سندوها لالتصقت بظهور

من أمامهم وهكذا ، غير دائرة صغيرة وسطهم وقفنا فيها نحن الثلاثة والفقيه ابت لرشدى وصدق المدير باعتمادها ، ولما صلى المغرب جاء المدير وجلس على بله عبدالله شيخهم فأخذالمدير لوحين نبهنى لخطهما الجميل المتشابه،وهم يحومون على نار القرآن أى حولها حتى الساعة ٣٠ر٨ حيث ذهب للعشاء. بارحناها صباحا للهلالية حيث قضينا يومنا مع الشيخ التاى سعيد بمنزله ولوجود المدرسة لم تلزمهم خلوة ثم أوصلتهما الى المعدية حيث سافر المدير بالقطار بمحطة أبى عشر للخرطوم • وصلنى خبر من البنات اللائى يتمرن بمدرسة الخرطوم رئاسة المس بيولى انها طالبتهن بحفظ دروس من الانجيل سافرت فى الحال للخرطوم طالبا ابطاله فوضعنى المستر كروفوت والسيدة قرينته بينهما وحبذا لى تعليم البنت الانجيل فلم أوافقهما فآخر ما قاله سعادته أما تعتقد أن الانجيل كتاب منزل قلت أعتقد ذلك وأعتقد أيضا ان القرآن كتاب منزل فليحفظوهن من القرآن فقاما وذهبا فأصبحت وقابلت المستر سمسون نائب مدير المعارف فلما قابلته أنكر عليهما وعلى المدرسة تحفيظ الانجيل لبنات مسلمات وبدأ فى الحال يكتب للمس بيولى بتركه ، فى أثناء كتابته جاء تلغراف قرأه ووضعه ثم كتب قليلا وقرأ التلغراف ووضعه وفى الثالثة قلت لجنابه هذا التلغراف مهم جدا قال نعم ان شقيقى قتل فى الميدان الغربى قلت يجب أن تكون متسليا بأنه أدى واجبا عظيما قال نعم وانى لست جازعا عليه ولكن غابط له وأتم الكتاب وسلمنى اياه • وبرجوعى لرفاعة علمت أن السير برنارد باشا السكرتير المالى قد قتل ولده الوحيد فكتبت له فى التعزية هذين البيتين :

برنارد باشا له فى ابنه خلف ذكرى الفقيد متى ما شاء يفتخر
من مات بالسيف مظلوما له شرف فكيف من مات للمظلوم ينتصر

وفى نفس الوقت سمعت بأن محمد الحسن دياب وصديق فريد وعبد الكريم محمد وحمزة فتحى حسين حلفوا المصحف على انهم يستعفون من مصلحة المعارف ما لم يساووهم باخوانهم فى المصالح الأخرى • حضرت للخرطوم لمقابلة سعادة المستر كروفوت الذى تعجب من مجيئى الخرطوم دون علمه وقلت لسعادته قد علمت بأن أولادك المدرسين الأربعة الأوائل قد حلفوا

بأن يستعفوا فجئت أتداخل فى أمرهم فقال لى ان لم يرضوا بما قلت لهم نستغنى عنهم فقلت لسعادته اذا استغنيتم عنهم وانفصلوا وأرادوا أن يفتحوا مدرسة ابتدائية بأم درمان يعلمون فيها تسمحوا لهم بذلك قال لا نسمح لهم قلت هل من العدل على انك تعلمنى حرفة وتمنعنى استعمالها لأعيش منها قال سعادته ومن يكن الناظر قلت فى السنة الأولى أحدهم ويتناوبون ثم فى الخامسة وهكذا ثم قلت له يا سعادة المدير هؤلاء المعلمون هم أولادك الذين علمتهم أطفالا وقد صرت رئيسهم الأكبر الذى تتعلق عليه آمالهم فهل يجوز بأبوتك أن تعاكسهم فهدأت ثورته وقال سعادته أنه قد اتفق مع السكرتير القضائى أن نجعل علاوة عمال المصلحتين من سبعة الى ثمانية فتسعة وهكذا • قلت انى سمعت أن اخوانهم أخذوا ثمانية ونصف فتناول سفرا ضخما وفتحه وأطال تفتيشه وأنا صامت ثم وضعه فى مكانه وقال لى سنعطيهم ثمانية ونصف فشكرته ، وقبل أن أخرج قال لى هم صغار • فقلت هم واخوانهم المهندسين وغيرهم يخرجون من المدرسة ويدخلونها فى سن واحدة الا الشواذ فقال صحيح وخرجت • ولا أذكر هل اجتمعت بهم أم ضايقنى القطار وسافرت • فى هذا العام زار مدرسة رفاعة المستر دنلوب يصحبه المستر كزوفوت كان دائر اللحية الشائبة وكان لونه يميل الى اللون المصرى الا فى حلمتى أذنيه فقلت لسعادة المدير انه يشبه المصريين فقال لى أسكت لا تسمعه ذلك فيغضب وصحبناهم للحصاحيصا أنا والشيخ محمد الطيب هاشم فلما دخلا العربة بالقطار أمسكنى بيدى وقال لى كلاما لا أذكره بالحرف معناه ستكون كبيرا بمصلحة المعارف •

كان نجم الدين رحمة الله فى هذه السنة ناظرا لمدرسة المناقل واختلف مع مأمورها فقرر عليه السبكى أفندى حرمان علاوة وتنزيله لمدرس ولغو أجازته يقضيها بادارة المعارف شغلا فى عمل دفاتر • جئت الى الخرطوم وأخذت معى الشيخ محمد أحمد فضل ناظر كتاب الخرطوم وزرنا السبكى أفندى فى منزله فوجدنا معه ثمانية من المصريين أذكر منهم سماحة أفندى والبكباشى صبرى • فبعد التحية قلت له أنا جئت أسترحمك للشيخ نجم الدين فغضب • وقال لى باحتداد أنت تشفع له لأجل أنه على شاكلتك فى مشاكلة المآمير تهيجت ووقفت وقلت له أنا لست راض عن مشاغبتى مع المآمير ولكنهم هم الذين يبدءوننى

وأنا لا أتحمل وحضرتك ندبت للتحقيق فى مشاغبتى مع المآمير فهل استطعت أن نوقع على جزاء ولو كنت راضيا عن مشاغبتى للمآمير لكنت أثرتها فى عشرة من النظار خرجوا من رفاعة ولكنى كنت أوصيهم أن لا يقتدوا بى فى مشاغبة المآمير بعد هذا الكلام جاءت القهوة فرفضت شرابها ومضيت فى الحال للكلية قابلت المستر سمسون الذى أعطاه أجازته وعلاوته وقال ننقله مع أحد والديه بابكر بدرى ومحمد أحمد فضل فلما علمت ذلك طلبت نجم الدين وحده وبدأت أنصح له فهز عصاه الغليظة ورفع كمه عن سكينه وقال لى والله النسبكى أما أن أشق رأسه بعصاى أو أشق بطنه بسكينى فأخبرته بحكم المستر سمسون فلم يرجع للمكتب واختار الخرطوم لقربه من أهله .

زيارة الشيخ حسن على أب حاج

فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٧ بلغنى أن صديقى والمحسن لى فى أسرى بالقطر المصرى الشيخ حسن على أب حاج بلغنى أنه فى ضائقة مالية رهن لها نصيبه من الطين الذى يزرعه لمؤونة عامه . فأمرت الشيخ محمد عبد النور بتحويل ٧ جنيه له بدراو ليترك منها لأولاده ٥ جنيه ويحضر لى برفاعة وبعد مدة طالت حتى يئسنا من حضوره لنا ففى يوم ما كنا زرنا الحصاحيصا لعزاء الشيخ عبد الرحمن الفقيه الأمين الضريرى فى وفاة والدته وكنا جمعية كبيرة بمنزله طلب منى الشيخ محمد عمر عبود أن أحكى لهم حكاية أسرى وخصوصا ما يختص منها باقامتى بدراو فشرعت فى الحكاية وفى أثناء ذكرى احسان حسن على أب حاج لى دخل علينا التلميذ عثمان طه السيد وقال لى أن بالباب رجلا غريبا يريد مقابلتك فخرجت له ولم أميز شخصيته لكآبة حاله فقلت له بعد التحية من تريد قال أريد الشيخ بابكر بدرى قلت أنا بابكر بدرى فبسم لى فعرفت ثغره الذى لم يتغير فقلت الشيخ حسن مظهرا سرورى قال نعم فأخذته فى صدرى ودخلت به على الجماعة الذين أحدثهم عنه وقلت لهم هذا هو الرجل الشيخ حسن على أب حاج فقاموا كلهم اجلالا وسرورا واعجابا لهذه المصادفة وأتممت لهم الحديث بحضرته وبعد وصولنا مساء لرفاعة وأصبحنا رأيته وبه سعال شديد يتنخم نخامة بها نوع من المدة فسألته عن السبب فقال انه يحس فى جنبه الشمال بألم فأحضرت له طبيبا وطنيا اختصاصيا فى ذات الجنب فأمر بسقيه لبن البقر من ضرعه فعينت له البقرة المسماه حريرا فان لبنها غزير

وحلوا لطعم وبعد يومين أدخلته على والدى وزوجتى وبناتى وأمرته بالدخول فى المنزل متى شاء واعتذرت له بشغلى الرسمى فى المدرســـة وأحضرت له حمارتى يتفسح بها عصرا أو صباحا متى شاء فكان اذا ذهب للســوق ليشترى شيئا يخصه عادة فيريد دفع ثمنه لصاحبه يقول له البائع أنت سيد الشيخ بابكر تكون سيدنا كلنا ولم يأخذ منه ثمنا لمتاع اشتراه حتى خجل من الناس كمـا أخبرنى بذلك وبعد أن شفى تماما ودخلنا فى العطلة الصيفية عمل له سـكان رفاعة اكتتابا برئاسة عمنا الشيخ عبد الله عوض الكريم أبى سن وبعت له ناقتى وبنتها بـ ٣٥ جنيه صارت بالاكتتاب ٥٢ جنيه حول منها لأولاده بدراو ٣٠جنيه وقمت به للدويم لأخى يوسف بدرى الذى بالغ فى اكرامه حتى صار يغسل له يديه بنفسه فقال الشيخ حسن يوما ليوسف بدرى لا أغسل يدى بك والأولاد موجودون فكان رد يوسف عليه نحن يا شيخ حسن لا نعترف لأحد غيرك من الجميل ما نعترف به لك فكل ما نعمله لك جزء قليل مما قلدتنا اياه بارك اللهفيك وعندما أراد السفر قال لى يوسف كم تريد أن تعطيه قلت أنا أعطيته ٣٥ جنيه حول منها ٣٠ جنيه لأولاده قال لى ما عنده بخت أنا لا أزيد على ما دفعته له ولكن أعمل لهاكتتابا [1] من أصدقائى فجمع له بمبلغه ٦٠ جنيهحولها باسمه لدراو وسلمه البوليسه وودعنا مسافرا للأبيض ليقابل محمد على نصر الله ابن خالتـه السمسار بالأبيض فبعد وداعى له طلبت منه ارساله ولدا أو ولدين من أولاده لأعلمهما له ولكنه حينما وصل دراو عاد عليهالمرض وتوفى لرحمةمولاه فكاتبت ولده الكبير مصطفى حسن ليرسل لى أحد اخوانه الصغار لكنه رد بعـــدم موافقة والدته على طلبى . هذا الرجل أحسن الى بلا معرفة ولا أمــل بل كان احسانه لله واشباعا لرغبته فى الخير وأنا عملت له سدادا لبعض ما عمله معىفهو أفضل منى رحمه الله رحمة واسعة راجع فى جزء المهدية لترى احسانه على .

اشراكى فى أعمال المصلحة بالخرطوم

سنة ١٩١٨ نقل عونى أفندى وخلفه اليوزباشا صالح أفندى زكى وجاء دور راحتى وراحة المدرسة . كانت امرأة برفاعة من العوضـية بحسب رؤية

---

(١) سمعت من والدى ان ضمن المكتتبين كان الشـــيخ ابو شـامه عبد المحمود مفتى السودان الاسبق فجاء من المحكمة راسـا حيث كان عاملا قضائيا يحمل مرتبه الشهرى كله وهو بضع جنيهات ذهب واعطاها للوالد ليكون اكتتابه !!

ادعتها جعلت للشيخ سلمان الولى العوضى المدفون بحلة الجوير بيانا جعلته كالقبر وغرزت به رايات عند رأس القبر ورجليه وكعادة العامة اعتقده رجال ونساء قبيلة العوضية صاروا يزورونه لكل مناسبة كزواج أو ختان أو عيد أو وضوع يأتونه بدلوكه (طبلة تدوى وغوغاء جماعته من فخر رجال وزغردة نساء) فاتفق أن بيت المفتش الذى بنى جديدا جعل البيان فى داخله فجاءنى المستر باردسلى أول مفتش سكن هذا البيت وطلب منى أن أحول هذا البيان لمكان آخر دون أن أثير غضب هذه القبيلة لموضوع دينى (على قاعدةالسياسة الانجليزية فى احترام العقائد والعوائد التى ترضى السذج من الأهالى أما المثقفون يرون الغرض من هذه السياسة بقاء لسكان الأقطار على سذاجهتم لأنهم فى هذه الحالة يسهل قيادهم وتوجيههم) فلما طلب منى هذا قلت أدفع لى ثلاثة جنيهات فدفعها لى حالا فطلبت المرأة وقلت لها ان المفتش كافر لا يضره اهانة الشيخ وأنت تعلمين أن أهلك يزعجونه فى نومه وفى كتابته فى قضاياه وفى وقت أكله وقد بلغنى انه عزم على قلع الرايات ومسح القبر وكما قلت لك لا يضره ذلك فأنصح لك أن تقولى لجماعتك انى رأيت الشيخ سلمان الليلة وقال لى انقلينى من مكانى لأنه صار نجسا بجوار المفتش واذكرى لهم المكان الذى تريدين تحويل البيان له وأنا أجىء لك منه بثلاثة جنيهات فقبلت وحولت البيان وأخذت الجنيهات واستراح المفتش ومن بعده .

فى هذه السنة طلبنا فقهاء الخلوات النظامية للتمرين بعد أن أعطيناهم فرصة ابتدأوا فيها ووجهناهم فى مرورنا عليهم سنة ١٩١٧ مرناهم علىالتجويد والحساب والانشاء البسيط .. لقد قاسينا الأمرين فى تمرينهم لصعوبة قيادتهم وقفل أفكارهم وتقيدهم بالمألوف واعتقادهم انا أردنا صرفهم عن تعاليم القرآن لولا أن أدخلنا المعلومات الدينية الضرورية من عقائد وعبادات . جاء المستر يودال لتفتيش المدرسة وأخبرنى انه ومعه كثير من الانجليز مقتنعين بعدم نجاح هذه التجربة ولكنه اعترف أخيرا بنجاحها . فى هذه السنة زار مدارس النيل الأزرق للتفتيش عبد الحليم بك محمد وكتب عن كتاب الهلالية كتابة لم ترض ناظرها الشيخ عبد الله الأسد الذى ناقض نص التقرير وكتب للمعارف هذه المناقضة فانتدبتنى المعارف لأقف على الحقيقة وأخبرها فلما وصلت

الهلالية وصورة التقرير بين يدى صرفت عبد الله الأسد عن الفصل الذى أردت أن أسأله عما قاله الناظر عنه بعد أسئلة فنية توجه أفكار التلاميذ لاستحضار أجوبتها لأشغلهم عن غرضى ولأطلع على قوتهم فى الحساب فاجأتهم بقولى تلاميذ رفاعة يحفظون مسائل المفتش الذى يمتحنهم بها لمدة سنة فهل منكم من يحفظ مسائل جناب المفتش عبد الحليم بك رفعوا أصابعهم قال المسئول بالتعيين انه قال لنا كم بيضة بقرش قلنا ثمان بيضات فقال اذ أعطيتكم خمسة قروش كم بيضة تحضرها قال فلان أربعين بيضة فأعطاه الخمسة قروش وقال له اجر جيء بها أربعين فخرج فلان وجاءه بها • ثم قال ما ثمن زوج الحمام قلنا قرشان • قال لفلان اذا أعطيتك عشرين قرشا كم زوجا تحضرها قال فلان أحضر عشرة أزواج فأعطاه العشرين قرشا وخرج بها وأحضرها • ثم التفت علينا وقال أنتم شاطرون فى الحساب وأخذ بعض الكراريس وخرج فوجدتها كما قال شوقي الأسد الا أنه لم يذكر أخذه الكراريس فطلبت الكراريس التى أخذها فوجدت لا علامة تفتيش بها فكتبت للمعارف بما رأيت ••

وفى الأجازة ندبت لأرغب أهالى مقرات ليرغبوا فى فتح كتاب بهذه الجزيرة لأن دار الرباطاب كلها خالية من التعليم وأن سكان مقرات هم أقربهم للمدنية لقربهم من مركز أبى حمد ولكثرة قضاياهم مع بعضهم وصلت الدامر وقابلت نائب المدير المستر فدس فزودنى بالنصائح لعلمه بحالهم وفوض فى كل ما أعمل معهم • دخلت مقرات ليلا ولم أكن رأيتها من قبل غير أن والدى أوصانى أن أبلغ تحيته لمحمد عثمان شيخ الجزيرة فقضيت ليلتى عنده وأخبرته بما جئت من أجله فكان ألد عدو للتعليم • فلما أصبحت جلست فى السواقى وفى البيوت لعلى أجد أحد أعرفه فللحظ بلغنى وجود على الصغير وكان شريكا لشقيقى يوسف بدرى فجعلته دليلى فثبطنى بالمبالغة فى بغض الأهالى للتعليم المدنى وبعد يومين قضيتهما جائلا عرفت أن محمد الدحيشى ومن معه ممن كانوا برفاعة أنهم بمقرات فسعيت لهم بالهوى الغربى للجزيرة ولقيت الفقيه التيجانى الذى دعانى لغداء حضره الشيخ بابكر عبد الله المدرس الذى تقلنى لمنزله • للحظ الحسن اجتمع أكثر أهل الجزيرة بالمقابر ليدفنوا جنازة فوصلتهم للعزاء فى الجبانة ولما فرغوا طلبت منهم ألا يفترقوا حتى يسمعوا منى ما أقوله لهم قلت لهم أنا جئت هنا منذ أربعة أيام وأنا بابكر محمد بدرى

رباطابى مثلكم وجئتكم لأفتح لكم مدرسة بالشروط التى ترضونها من حيث
عمر الأولاد ولباسهم وبالعلم الذى ترغبونه وفى البيت الذى تختارونه والعلم
الذى تحبونه فلا ترجعونى خائبا فتحول الحكومة المدرسة لغيركم وحينما ترون
نتيجتها فى أولاد غيركم وتطلبون فتح مثلها لكم لا يمكن ذلك لأن الرباطاب
من الباقير للنقير مقررة له مدرسة واحدة الآن لخمسة سنوات تحت التجربة
فحينذاك تندمون حيث لا ينفع الندم فاقعدوا الآن واشترطوا على بالنيابة عن
مصلحة المعارف ومدير بربر ما تريدون لفتح المدرسة قال رجل كبير منهم
ما عندنا بيت لها قلت أنا أؤجر أحد بيوتكم مما يليق لها بجنيه شهريا قال كهل
من العبابدة أنا أعطيكم بيتى بجنيه ونصف قلت قبلناه ان كان صالحا قال آخر
تكلفونا لباسا صعبا قلت نقبل التلاميذ بثوبه العادى قال آخر تأخذ أولادنا
للخرطوم أو بربر قلت لا نأخذ الا من يرغب والده زيادة التعليم ويوجد له هناك
مكان ويؤدى الامتحان قال آخر بعد مدة تقولون لنا ادفعوا مصاريف شهرية
قلت أكتب لكم مجانا قال آخر بعد دخول الولد المدرسة لا يمكن خروجه منها
اذا احتاج له والده ليساعده قلت أكتب لكم كل من يريد اخراج ولد يستلمه
وفى المعارف قانون المدارس ان الولد اذا تأخر خمسة عشر يوما يرفت وأخيرا
كتبت لهم بكل هذه الشروط واستلموها بخطى وتوقيعى عن مصلحة المعارف
ومدير بربر وفى الحال عينت عباس الحسن مدرسا مساعدا وهو كان متعلما
بكتابة رفاعة وكبير فى سنه وطلبت من المعارف تعيين ناظر وارسال الأدوات
بأول قطر لأبى حمد فجاءتنا الأدوات وفى هذا الأثناء أعد لنا المنزل وفتحت
المدرسة فعلا أدرس فيها بنفسى فصلا وعباس الحسن فصلا حتى جاء الناظر
تركتها له مفتوحة مستوفية ـ سافرت بالبر الغربى ولا أنس للشيخ بابكر
عبد الله مرافقته لى حين وصلت مسقط رأسى ومأوى قبيلتى حيث بقيت معهم
سبعة أيام ولم أمر بالرباطاب قبل هذه منذ خرجت منها وعمرى أقل من عامين
(حيث نقلنا لنهر أتبرا) فى هذه السبعة أيام أغريت ثلاثة من أولاد قبيلتى
ليذهبوا معى لرفاعة يتعلمون فينتقلون من حالة وسطهم الى ما يدعو غيرهم
للاقتداء بهم فسلكت بهم طريق الغرب للشريك مخافة أن يفقدهم أهلهم
فيدركونا بالطريق فيرجعونهم وفعلا حصل ذلك فأوصلتهم رفاعة وأدخلتهم
المدرسة ولكن لقيامى من رفاعة للخرطوم نهائيا رجعوا لأهلهم ٠ ثم وصلنى

كتاب من المعارف لأخذ بنتين من مدرسة بنـات رفاعة للأبيض ليكونا نموذجا لبنات مدرسة الأبيض فأخذت عديلة بنتى وزهراء محمد الفكى قمت بهما يوم ١٠/١٨ فلما وصلت الحصاحيصا سمعت امرأة تبكى بالمحطة فاذا هى والدة التلميذ النابه العوض عبد الله شقيق الشيخ لطفى فبسماعى ذرفت عيناى الدموع (على أن دموعى غالية جدا فى المصائب العظمى) ولم أذق الطعام نهارى وليلى حتى وصلنا الأبيض وفى هذه المـدة قلت القصيدة التى مطلعها « هـو الموت لطفى » والتى نشرتها فى شعراء السنودان ضمن ما نشرته •

برجـوعى من الأبيض زار المدرسة سعادة المستر كرو فوت وبعـد التفتيش خلا بى وسألنى اذا نقلت من رفاعة على من أوصى أن يخلفنى فأوصيت على الشيخ لطفى الذى كان مدرسا بابتدائى مدنى وما دار بخلدى انى أنتقـل مفتشا للمعارف • وفعلا خلفنى لطفى •

وفى يوم ١٩١٨/١١/١١ انتصر الحلفاء وأعلنت احتفالات الهدنة فاجتمع الأعيان والعلماء والسياسيون والأشراف ومشائخ الطرق بمدنى وكان يرأس الحفلة المستر جوكسون نائب المدير • دخلت المحكمة فوجدت الشريف بركات منزويا فى ركنها ووجدت الموجودين محتفين بالشيخ الجيلى عبد المحمود فقلت الشريف بركات بصوت جهورى وعبارة ملفتة بأسـتفهامها الانكارى فى رأى البعض والتعجب فى رأى البعض فانفضوا من الجيـلى الى الشريف بركات الذى كانوا يسمعون بعظمته ولا يعرفون شخصه وتحت نظرهم أصـلحت له قبة قميصه التى كانت مرتفعة على باقى ملابسه التى يقضى الهنـدام أن تكون مخفية بينها وعند قرب ساعة ابتداء جلوس الناس فى أماكنهم أخذته وطلعت به الى قاعة الجلوس وأجلسته بلصق كرسى المستر جكسون الذى استقبله أحسن استقبال ودعاه للشاى العام ببستان المديرية والخاص بمنزله وحينما عرف عامة الناس وجوده بين الزائرين تكدسوا حول البستان وعند خروجه تسابقوا على لثم يده حتى فرقهم البوليس ولو كان بالمديرية أتومبيلا وقتئذ لحمله الى منزله من ازدحام الناس عليه عظم الله شأنه وأجاب دعواته لى (ان شـاء الله تكون شجرة ماء) وفى هذه الحفلة تسابق الخطباء وكنت ألقيت خطبة وقصيدة أذكر

من الخطبة قولى فيها « فاليوم فلتكن المسابقة فى هذا الميدان ميـدان السرور الشامل بحق ما تكنه القلوب من الاخلاص لا بما تلقيه الألسنة بين النـاس »
ومن القصيدة أذكر ثلاثة أبيات ومطلعها :

بريطانيـا العظمى ترينـا العجائب فترسـل شهبا من بنيها ثواقبـا
يسيرون سير الشمس فى فلك الفلا فيقتبس العـافون منهم مواهبـا
ألم تر أن حـلو مـكانا ينزلوا به غيث رحمات ويجلو مصـائبا

وهذا ما كنت أعتقده فى عقلى ولا يعترينى شك فيه وبعـد أيام وصلنى تشكر من المستر جكسون الذى كان لى أول مهنىء بنيشان الامبراطورية من درجة عضو وسعادته كان مدير بربر أو نائب مديرها لا أتذكر ولكن آخـر مقابلتى له وهو مدير حلفا بمنزله وبعد الهدنة بقليل زار رفاعة بعض ضـباط الجيش الذى حارب بالميدان الغربى فى لوريات وكان أول رؤيتنـا للوريات ونزلوا جنوب المدينة فبالغ الشيخ عبد الله أبو سن فى اكرامهم ودعاهم لينظروا منزله فى قرية التنضب وبسبب تلك الضيافة تحسنت علاقته مع المستر باردسلى الذى طلبت من جنابه أن يشرفنى بشرابهم الشاى وجنابه معهم عند رجوعهم من التنضب فشكرنى وأخبرنى بأن وقتهم لا يسمح لهم وفعلا عنـدما رجعوا واصلوا سيرهم الساعة ٢ حينما استأذناهم أنا والشيخ عبـد الله أبو سن أن نقدمهم الى حلة ود السيد نيابة عن سكان رفاعة وأرسلنا حمارين مقدما وبعد وصولنا معهم رجعنا على حمارينا ومما رأيت منهم أن لهم منـاطق تقرن بين أحدهم والأتومبيل مما لم يستعمل الآن •

فى هذه السنة جاء مدير المعارف بنيجريا وطلب تعيين مدرسين فعينت لهم مصلحة المعارف المشايخ عبد القـادر شريف • حسن الأزهرى • من متممى الثانوى ويوسف القاضى من أحسن العرفاء وكلهم من رفاعة وقـد اتفق كل الانجليز الذين يعرفونهم بالمصلحة و المديرية على حسن اختيـارهم حتى قام المستر باردسلى خطيبا بالمدرسة فى الحفلة التى عملت فى أوائل سـنة ١٩١٩ حينما عينت مفتشا بالمعارف ومما أذكره من خطبته قوله : ان نور الشيخ بابكر لم يكتف بانتشاره فى السودان الانجليزى المصرى حتى أراد أن يضىء نيجريا وان من انتخبوا من أولاده لجديرون بأن يقوموا بهذا الواجب •

أخي سعيد رهن منزله ثلاث مرات لكوركجان مرتين دفع قيمها يوسف أخي والثالثة لأولاد منصور دفعت قيمتها أنا خمسة وعشرون جنيها فى كل مرة وفى الرابعة أراد رهنه بمدنى لمصطفى الطاهر الذى كتب لى ليستأذننى فأشرت عليه بأن يضمن السند انه اذا لم يحضر النقود المرتهن بها هذا المنزل الموضحة حدوده ومساحته يباع المنزل فتأخر سعيد عن السداد كعادته فوافقت مصطفى الطاهر على بيع المنزل فرفع القضية بتوكيل موسى يعقوب بنفس المبلغ وافق المفتش على بيعه وحضر جنابه بنفسه وفعلا اشتراه موسى يعقوب بنفس المبلغ فربحته خمسين قرشا وسجلته باسمى فلما حضر سعيد أخذ معه عشر جنيهات قدمها لوالدى وطلب منه أن يأمرنى بارجاع تسجيل المنزل باسمه فأمرنى والدى بحزم بتنفيذ غرضه فقلت يا أبى اسمع رأيى فان لم يوافقك أخضع لأمرك هذه النقود أنا الأحوج لها أم سعيد قال الأحوج سعيد قلت اذا مات سعيد من الذى يرثه قال أنت أو أولادك قلت أنا أكتب له وثيقة اذا مت قبله فمنزله ملك له وليس لأولادى حق وراثته واذا رزق أولادا بعد ذلك فالحق فى المنزل لأولاده دون أولادى وفى الحال له الحق فى سكناه دون ايجار فتمسك سعيد لطلبه فقال له والدنا غرضك غير معروف فى طلبك بعد هذا الكلام فانتهزت الفرصة لأحول فكر والدى الذى استعد لقبول كلامى فقلت له أنا عارف غرضه قال والدى ما هو غرضه قلت ليرجع تسجيله باسمه لرهنه ونحن ندفع القيمة فأنا مستعد أن أكتب ليوسف يرتب له جنيه ونصف شهريا وأنا أسلمه ساقيتى ببقرها وطينها والمائة وعشرون نخلة التى زرعتها وسقتها حتى مسكت كلها على شرط أن يترك السفر للصعيد فرضى ونفذنا له ذلك ولكنه بعد ثمانية شهور أجر الساقية لمحمد صالح أبى تركى بجنيهين فى السنة وباع البقر ومات النخيل وتلف بعض الطين بالزريبة التى حجزت الرمال وراءها من الناحيتين وما زال يسافر الصعيد سنويا حتى توفى عام خمسة وأربعين هجرى رحمه الله رحمة واسعة .

زارنا سعادة المستر كروفوت وأخبرنى انه أخبر المفتى أن الشيخ على أبا قصيصة ناظر ابتدائى أتبرا طلب منه عمل تلفون للمدرسة فكان رد المفتى لأنك رفعت من شأنه وكان أبوه منحطا فتهيجت وقلت لسعادته هل الانحطاط

فى نظركم يكون أبلغ فى نقصان الأخلاق أم نقصان الأرزاق • فقلت ان والد الشيخ على فقير وأمى ففى فقره علم أولاده الأربعة حفظ القرآن وتعليم العلوم الدينية • وهو أمى اختارته مدينة بربر أن يكون مأذونها وأمنته على عصمها فأى فخر بعد هذا فقال لى لماذا غضبت قلت لأنه ابن عمى فقال تحبذ طلبه هذا قلت هل فى المحكمة الشرعية تلفون قال نعم قلت حاجة المدرسة للتلفون بأتبرا أكثر من حاجة المحكمة فلما أخبرت الشيخ على بذلك كان رده أن المفتى لا يقدر أن يقول ذلك — قلت له أنا كذاب أم جاسوسك يا بليد وفارقته •

سنة ١٩١٩ احتفى جكسون باشا بى وزارنى بمروى قبل أن أزوره وفسحنى فى الجنينة وعرض على الحيوانات حتى السلحفاة ودعانى لشاى العصر •

فى يناير من هذه السنة وصلنى كتاب من أحمد بدرى يخبرنى فيه أن المستر يودال وكيل المعارف قال له أبوك اذا طلبناه للخرطوم ليكون مفتشا ثانيا للعربى أيقبل النقل من رفاعة • وقال أحمد أنا أجبته بأن أبى لا يبخل بأن يضحى راحته فى خدمة بلاده فاضطرب فكرى وتنازعنى عاملان أولهما انى خشيت من سقوط الطفرة التى هى من ناظر كتاب الى مفتش عام • والثانية أنى اذا رفضت يعين فى الوظيفة أجنبى وبعد عدة سنين اذا طالبنا بها يحتج علينا بأنها قدمت لكم فرفضتموها وأخيرا عزمت أنى أجيب بالموافقة وقلت انى اذا نجحت فالحسنيين وان لم أنجح فلا بأس أن أحفظها لمن يكون أكفأ منى بها من أولادى الوطنيين وقمت للخرطوم يوم ١٦ يناير لأحضر يوم الخريجين بالخرطوم كالمعتاد سنويا وكان الخبر قد ذاع •

اشتد المرض على المرحوم عبد المجيد بك ابراهيم الذى سيخلفه عبد الحليم بك الذى رفض أن يكون مفتشا فرارا من أتعاب الأسفار التى كانت بالجمال •

زرت عبد المجيد بك فأبدى لى استهزاءه بتعيينى مفتشا ولكن عذرته لمرضه فلم أزده على قولى ان لم أنجح فيها فسأربح حفظها لأحد أولادى الوطنيين وحجرها على الأجانب فاتكأ على مخدته فقال لى مصطفى السيد الذى وجدته معه ستندم على مجيئك للخرطوم وفقدانك لرفاعة قلت أنا لا أكون

أقل من المصريين رالانجليز واليونان وغيرهم من الأجانب الذين تركوا أوطانهم البعيدة وارتكبوا مشاق السفر برا وبحرا أترى حضرتك أن المنفعة الشخصية فوق المنفعة الوطنية أنا والله لا أرى ذلك فسكت وودعتهما وانصرفت .

طلبنى سعادة المستر يودال وأخبرنى بأن الدكتور قرر أن عبد المجيد بك سيموت قبل آخر هذا الشهر ولكن الدكتور هدسون وهو الطبيب الرسمى قال انه سيطيب ولذلك فسترجع أنت لرفاعة لآخر هذا الشهر وستعين رسميا فى الشهر الآتى قال انه مقتنع بقرار الدكتور . فرجعت لرفاعة وفى اثنين فبراير سنة ١٩١٩ توفى عبد المجيدكما توفى فى نفس اليوم والساعة الشيخ محمد عمر البنا رحمه الله . فلذا فان سكان أم درمان شيعوا جثمان الشيخ البنـــا كما شيع سكان الخرطوم جنازة عبد المجيد بك . وفى يوم ١٢ فبراير سنة ١٩١٩ حضرت للخرطوم معينا فى وظيفة أول مفتش وطنى بمصلحة المعاوف . عنـــد قيامى للخرطوم سلمت خلفى المدرسة ومكتبتها عامرة بالكتب التى جلبتها لها من المعارف وما اشتريت لها من المكاتب وكذلك سلمته كشفا بأشـــياء لى شخصيا خفت عليها الضياع من ناحية وكون لى بيتان لا أحدث بين سيدتيهما مشاجرة ولما جئت فى أكتوبر سنة ١٩٢٤ استلم منه المدرسة لم أجد لآثارى مدة الستة عشر سنة شيئا يدل عليها لا شخصيا ولا رسميا وخصوصا الكرة الأرضية المصنوعة بواسطتى من القرعة .

المعلمون المصريون يسخرون منى

كان رئيس المفتشين جناب المستر هسى فأول جـدول عمـله لى تفتيش مدرستى الخرطوم وأم درمان ثم شطبت مدرسة الخرطوم وأظن أن مصـطفى السيد ناظرها وقتئذ عارض فى تفتيشى ولما ذهبت لمدرســة أم درمان قوبلت ببرود من المعلمين ومرسى أفندى فهمى الناظر ولما دخلت فصل ثالثة ابتــدائى وجدت به الشيخ أحمد حزين الذى حييته فلم يرد على ثم انه جلس عـــلى الكرسى الموجود بالفصل وتركنى واقفا ولما لم يثر عمله غضبى ولم أعره أهمية لأنى اعتبرت عمله مقدمة لمشاغبة معى يبنى عليها عدم كفاءتى لوظيفتى فقـرب منى وقال (تفتش ايه وانت عارف حاجة) قلت له وأنا باسم (وجه هذا السؤال

المصلحة التى تعرفنى أكثر منك دعنا من المزاح وائتنى بأحسن كراسة ووسط وكراسة أضعف تلميذ فى كل أنواع العربى يا مولاى فجلس على درج تختة تلميذ ولم يعن بأمرى فقلت لأحد التلاميذ ناولنى كراستك فى العربى وكان التلميذ ابن صديق لى ففتح الدرج وناولنى الكراسات وفى الوقت نفسه دخل الناظر فقمت من الكرسى اجلالا له لأنه علمنى الكسور المركبة فى سنة ١٩٠٣ فعبس لى فظللت واقفا أفتش فى كراسة الاملاء فغلطتها فى صحيفة واحدة خمس غلطات املائية فقال لى مرسى أفندى هذا الغلط صحيح فلت نعم يا مولاى فضحك وأومأ للشيخ حزين الذى جاءنى مندفعا مغضبا ومسح الخط الذى وضعته تحت الكلمات بأستيكة كانت بيده وجذب الكراسة منى بعنف فلم أكلمه ولم أضمن التقرير أى شىء من سوء معاملتهم لى ولكنى ذكرت تغليطه تغليطى وطلبت تعيين محكمين بيننا فكتبت المصلحة بذلك ووجد هو الغلطان فحكيت للمستر هس شفويا ما حصل من الأستاذ حزين فطلبه وسأله أيكما الغلطان فاعترف ولكنه ظهر بجبن عظيم فلما خرج دعوته لمكتبى وطلبت له ليمونادة وللشيخ أحمد أمين المفتش العربى الأول ولباقى المحكمين ومن ذلك اليوم بدأ المصريون يعترفون بعلمى ولكنهم لا يرضون بتفتيشى الا بعد سنتين ظهرت لهم فيها معلوماتى ومعاملتى بعد تفتيشى أم درمان وانتدبت لتفتيش كتاتيب النيل الأزرق وابتدائى مدنى وبدأت بمدنى فكان ناظرها محمد افندى عارف مصريا فاستقبلنى وهنأنى وبعد أربعة أيام بارحتها وكان كبير مدرسى العربى الشيخ لطفى الذى قدمنى لحلة ود العشا وسافرت للمناقل ففحل فالسوريبا حيث وجدت خبر وفاة والدى فعرجت على رفاعة وأعطيت المعارف خبرا فأذنوا لى بقيام المأتم وأنا فى المأتم اذ ورد لى كتاب بتكليفى أتحدث لأولياء أمور بعثة نيجريا فتحدثت مع أمى الأزهرى ويوسف القاضى فرفضتا وكذلك رفض عبد القادر شريف نفسه بعد رفض رفيقيه فطلب المستر باردسلى الفقيه محمد الأمين وبقدر ما راجعه انتهى بالرفض ولما وصلت الخرطوم جاءنى الشيخ عبد الرحمن الأمين وبقدر ما راجعته انتهى بالرفض ولما وصلت الخرطوم جاءنى الشيخ عبد الرحمن الأمين وشتمنى شتما بليغا فلم أرد عليه وفى مساء اليوم ذهبت له بالخرطوم بمنزل ابراهيم ابن خالته وأفهمته أن لا يد لى فى انتخاب هؤلاء الأولاد ان انتخابهم حصل وأنا فى سفرة ماعلمت به

الا من المستر يودال حينما لقينى بالحاج عبد الله فقبل عذرى ظاهرا • وبعد أيام جاءت أختاه للمستر يودال فدخلت عليه خديجة فلما مد لها يده لفت يدها بثوبها وصافحته فقال لها اجلسى فامتنعت فقال لها لا تخافى فقالت له لست خائفة ولكنى لا أجلس على فراشك لأنك كافر فغضب أشد الغضب • وقال لها امش ولدك مرفوت فلما سمعت منه ذلك صعدت للمدير بمكتبه وقلت له أن سعادة الوكيل رفت حسن الأزهرى • أنا غير مقتنع بهذا الحكم لأن هذان الولدان أما أن يعتبرا مسئولين عن أنفسهما فيكرهان على السفر لنيجريا وأما أن يعتبرا قاصرين فيحاكم من كان السبب فى امتناعهما وبعد أخذ ورد عين حسن الأزهرى بمدنى ولم يوجد محل ليوسف القاضى لاعتباره منفصلا فألحق بمدرسة الأقباط لمدة سنة ثم بالمعارف وفى أثناء هذه الحركة اجتمعت بالشيخ الطيب هاشم بمعدية أم درمان فقال لى عبد الرحمن الفقيه الأمين كان السبب فى فشل بعثة نيجريا أشكوه لمدير المعارف ليتصل بالسكرتير القضائى ليرفته فقلت هذا مالا يحصل منى قط واذا طلب رفته بدون واسطتى وكان فى امكانى رده لوظيفته لفعلت • فلما عدت لمنزلى برفاعة وندبت لتفتيش كتاكيت دنقلا ودعت أهلى فلما ركبت حمارى وكان عمر ابنى موسى سنة وأشهر • وكان محمولا لصفحة والدته فلما ركبت صرخ وقبض بطرف جبتى فالتفت اليه فرأيت وجه أمه باد عليه الحزن فاهتزت عاطفتا الحنان للولد والعطف لأمه فلما فارقتها قلت فى الحال :

وما طلبى للمال والجاه وحده	حدى بى الى أن أنهب الأرض ذا النهبا
وأترك موسى يلتوى خلف دابتى	تضمه أم حزنها يلهب القلبا

فلما زرت كتاب الجزيرة تنقس وجدت به الشيخ محمد سليمان الذى كان معلما محليا بكتاب دنقلا من فتحه سنة ١٩٠٧ عين بجنيهين ووجدت ماهيته فى سنة ١٩١٩ ثلاثة جنيهات ونقل من وطنه مع ان القانون اذ ذاك لا يجيز نقل المعلم المحلى من وطنه فكتبت ذلك فى التقرير الذى حينما اطلع عليه المدير فطلبنى وقال لى باستغراب يوجد معلم فى مصلحتى أخذ علاوتين فى اثنتى عشرة سنة هكذا وجد ــ أنت متأكد قلت سعادتك وهل مثلى يكتب الا بعد التأكد فطلب فريد أفندى عطية وأمره أن يعرض عليه حقيقة هذا المعلم وزاد استغرابه

حين لم يوجد اسم محمد سليمان بكل ميزانية المعارف فطلبنى ثانيا منكر صحة
ما كتبته قلت الأمر هين نبرق لسعادة مدير دنقلا يعرفنا أسماء معلمى كتاب
تنقس فرأى سعادته أن هذا الطلب يفضح المصلحة ثم قال وماذا نصنع لمحمد
سليمان قلت هذا مظلوم فى أربعة علاوات تجعل ماهيته خمسة جنيهات وننقله
لوطنه دنقلا أسوة بأقرانه المحليين فقال هذا التعديل يصعب مرة واحدة ولكن
نطلب له الآن جنيها وننقله لدنقلا فى أول السنة المقبلة نعطيه جنيها وهكذا فعل
وبرجوعى من دنقلا ندبت لكردفان وكان ناظر الابتدائى بها الشيخ علــى
أبو قصيصه المنقول لها من عطبرة فلمــا وصلت الأبيض شق على ابن عمى أن
أفتش مدرسته وهو فى الدرجة الخامسة وأنا فى الدرجة السادسة ولكن تحملت
كل ثقله فى معاملته كما تحملت غيره وهون على ما أغاظه من أن أحمد أفندى
محمد صالح وعبد القادر أفندى شريف وغيرهم من المعلمين جعلوا لى حفــلة
دعوا فيها كثيرا من ناس رفاعة بالأبيض وبعض أعيان الأبيض .

لا يزال التعليم عند بعض أهالى القرى مبغوضا

سنة ١٩٢٠ فى هذه السنة أراد المستر هس ادخال النتنق شرابات وفنائل
فى مدارس البنات وبدى فعلا بالصــوف الذى يشترى الصوف أو الشعر من
الدباغين الرطل بسبعة قروش وفى هذه السنة ندبت لتفتيش كتاتيب دنقلا فلما
وصلت الأردى وجدت المسز درامندهاى تعلم البنات النتنق فتعلمته ثم اشتريت
باله قطن من الشيخ عبد القادر الحميدى الذى تسامح بترك ربحه فيها ثم عهدت
عبد الرحمن أبا عوف بالصوف الخالى عن الشعر سعر الرطل قرشــا ونصفا
وحولتهما على خزينة المركز على حساب المعارف وشــحنتهما للخرطوم برسم
المصلحة (ولما وصلت الخرطوم ندبت لتعليم بنات مدرســة رفاعة والكاملين
فعلمتهما) وبعد أن اشتريت القطن والصوف وفتشت المدرستين فى دنقلا أقام
المستر درمندهاى حفل لاجتماع كبير لاكتتاب لبناء مأذنة الجامع بدنقلا فقــام
أبو عوف وخطب محرضا المجتمعين وعرفهم فى خطبته بأنى أول سودانى مفتش
وطنى وكنت جالسا بجانب الحميدى وهو عدو أبى عوف ومكروه المفتش وقال
لى أنا أريد أن أصافح المفتش ولكنى أخاف ألا يمد لى يده فأفتضح فى هــذا

الأمر فما رأيك قلت امش لزوجته تاركا له ومد يدك لها فلا شك انها تصافحك فان رأيت منه استعدادا لمصافحتك له صافحه والا فاتركه فقام ومد يده للسيدة فوقفت وصافحته فما كان من المفتش الا أن قام ناهضا بسرعة وقال له يا شيخ عبد القادر انت تسلم على الست زوجتي أنا عفوت منك لله ورسـوله فوقف أولاده وأولاد أخيه وتبرع الحميدى فى تلك الساعة بعشر جنيهـات وتبرع أولاده بعشرين جنيها وقال المفتش والله نحن ربحنا ثلاثين جنيها ثم اختلى بى وقال انى أريد أن أصلح الحميدى وأبى عوف وأرى أن يكون الصلح بمنزل أبى عوف فقلت لجنابه !.. أبا عوف فقير لا يتحمل مصاريف مجلس الصلح والأحسن أن يكون بمنزل الحميدى فوافقنى ولما دخلنا ديوان الحميـدى وجدنا كل أرضه وسقفه وجدرانه لون أحمر الأرض بالسـجاجيد والسقف بالبرص (فرك حرير) والجدران بالشافونه (نسيج أحمر من القطن) وبعد أن شربنا الشاى بالكيك المؤتى به من القاهرة والفاكهـة قام المفتش ورفعنى من ذراعى وقال لى قل خطبة الصلح فقلتها بالدارج ليفهم جنابه ما أقول ومعناها أن سعادة البك هنا نائبا عن المدير ودولة الحاكم العام وقد اهتم بصلح رجلين ذوى عائلتين كبيرتين فى هذه المدينة فمن قدر هذا الصلح قدره وأعطاه فى قلبه واجبه يرفع جنابه مكانته ويرضى عنه ومن نقضه فقد احتقر جنابه فهو يسقط مكانته ويعركه عرك الأجرب (ودككت الأرض بجزمتى وقلت هكذا) فقـام جنابه وقال أنا أريد كما قال الشيخ بابكر بدرى وتصافح الخصمان وتفـرق الجمع .

ولما رجعت الخرطوم تكلم معى سعادة المدير فى انه ضم اسمى الى اللجنة التى تمر فى الجزيرة للمشروع بتحبيذه للأهالى واقتناعهم بفائدته فقلت لسعادته انى غير مقتنع بفائدته فغضب وقال لى أنا صاحب الماء وأنت صاحب الأرض (فرضا) هل أرضك لها فائدة قبل سقى مائى لها قلت نعم لها فائدة نسبية لأن العشرين قرشا التى تعطينى فيها أجرة للجدعة هى أقل من أجرة أردأ نوع من طينى أما أجوده (اللقد) يؤجر بجنيهين الجـدعة . أما ماؤك لا فائدة له غير طينى لأنه يصب فى البحر الأبيض المتوسـط . فشطب اسمى من كشـف المندوبين ثم قال لى بهدوء لو كنت الحكومة كيف تسير فى المشروع قلت كنت

أقسم طين من يملك خمسمائة جدعة فما فوق وأحدد لهم طينا من أطيان الحكومة التى لم يلحقها الرى بسعر الجدعة جنيها واحدا فلا شك أن كلا منهم ينشىء حلة ويحفر بها بئر يسكنها الناس ولو بعد حين فاربح للمشروع عمالا ان لم يكن للزرع والحش لشغلهم بزرعهم المطـــرى فمضمونون للجنى وهو أهم المواسم وأفيدها ثم أحول ملكى من الطين لمشروع بمنطقة واحدة أخصصـه لزراعة القطن وأزيده بنصيب ما يقل نصيبهم عن الخمسمائة جدعة واجعــل نصيب ذوى الانصبة الكبيرة فى منطقة منفصلة وأفرض على الفدان أربعـــة جنيها سقيا وضريبة وأحل لهم يزرعون ما شاءوا بواسطة أهلهم الخصوصيين فهز رأسه وبارحت سعادته لمكتبى .

برجوعى من دنقلا انتدبت لفتح مدرسة للحلاويين كطلب جناب المستر باردسلى وأختير لها حلة التميد لأنها متوسطة وكونها حـــلة الناظر فسكنت بديوان الشيخ الأمين مساعد الناظر وشرعنا حالا فى ضرب الطوب الذى كنـا نشترك فى نقله لمحل البناء أنا والناظر الأمين مساعد وعمه يوسف أبو سن الذى يربو عمره على السبعين وذلك لقلة العمال فلمـــا رأيت ذلك طلبت من المستر باردرسلى عسكريين وجعلت على كل حلة نفرين يوميا وكان أولاد الحلاويين كبيرى الأنفة يرون الخدمة فى المدرســة عارا حتى جاء الدور على ولد يدعى محمد زين متكبر فرفض الشغل فأرسلته للمستر باردسلى بجواب وعسكرى فسجنه برفاعة سبعة أيام وأرسله يعمل بقية الخمســة عشر يوما كمحبوس فى خدمة المدرسة وبالليل يكون فى حراسة العسكريين وبذلك ســهل لنا وجود العمال الذين كنا ندفع لهم أكبر أجره

فلما سمع الشيخ ابراهيم عالم ببناء المدرسة بالتميد طلبنى بحلتــه التى تبعد من التميد نحو ثلاثة أميال وقال لى يا بابكر تريد أن تخـــرب خلوات القرآن بالمدرسة ؟ قلت : لا يا مولاى أشترط لك ان الولد الذى يقرأ القرآن لا نقبله بالمدرسة فسر وقال والله هذا صلح الحديبية ودعا لى بخير وحينما أكمل بناء المدرسة طلبت من المعارف الأدوات فجاءتنا ولكن لم يأتنا أحد يقيــد اسم ولده فسألت الناظر عن السبب فقال الناس لا يرغبون تعليم المدرسة فقلت له والله العظيم المستر باردسلى ان لم تفتح المدرسة بعدد لا يقل عن الثلاثين ولدا

سيعزلك من النظارة ويولى غيرك هل تخسر الحكومة مثل هذه المبانى وتعتذر بعدم رغبة الناس • قم بنا نمر بالحلال فمررنا بنحو عشر حلال فما وجدنا من رغب لولده تعليم المدرسة فلما رجعنا قلت للشيخ الأمين أكتب مساعد ابنـك وأبناء أخيك وأختك فكتب خمسة فنفخت الكره وأعطيتهم اياها وعلمتهم كيف يضربونها بأرجلهم فسروا منها سرورا عظيما فقلت ادخلوا بها فى الحـلة وكل ولد يريد يلعب معكم امنعوه حتى يأتى به والده لى فيكتب اسمه حتى تتركوه يلعب معكم ففى هذا اليوم كتبنا اثنى عشر ولدا بهذه الطريقة وفى الغد أدخلتهم المدرسة وصرفت لمن يعرفون منهم القراءة كتب المطالعة بهـا رسـوم وتركتهم يذهبون بها لبيوتهم وصرفتهم بعد ثلاثة حصص درسناها عربى وحساب وقرآن وأعطيتهم أجزاء « عم يتساءلون » والجزء الأول من كتاب الديانة للشيخ أحمد الأمين وفى العصر بدأت معهم لعب الكرة على نظامها وقسمتهم بالتسـاوى وعينت « الجولين » بطوب وعودتهم على رمى « الجول » بقـوة والبـاقون يحرسون • فلما رأى الآباء الكتب التى يقرءونها ورأى الأولاد لعب الكـرة كمل العدد فى أربعة أيام خمسة وثلاثين ولدا واقتنع الفقيه عبد الله أبو الحسن الذى كان مقبحا لهم تعليم المدرسة ولما حضر الناظر والمعلم عملنا احتفالا فتحت المدرسة رسميا بعده على يد الفقيه عبد الله نفسه وانتهت مأموريتى لكن فى مدة الخمسين يوما التى مكثتها بالتميد نظمت منظـومة البدجوجة من ثلاث كتب أحدها لعبد العزيز جاويش والثانى لحسن بك توفيق والثالث لعمر بك فتحى ـ فأخذت من كل كتاب أحسن مافيه لأنى أخبرت أنى سـأعلم مجموعة من معلمى الكتاتيب فى عطلة هذه السنة علم التعليم بأصوله وفعلا جمعوا لى عشرين معلما أغلبهم حفظ أكثرها وامتحنوا فنجح أكثرهم ، وهاك هى :

علم التربية وتعريفها والغرض منها

تربية نهوضنـا بالطفـل	ليبلغن كمـاله بالفعـل •
فى الجسم والعقل وثم فى الأدب	وذى الثلاث مبلغات للارب •
وأفضل الأغراض منها ما قصد	به الكمال مطلقـا فليستفد •
وكلها ببعضهـا قـد ترتبط	كالجزء والكلى بمعنى تختلط •
اذ صحة العقل بصحة الجسم	وحسن الآداب نتيجة العلم •

عوامل التربيـــة

عــوامل فأسرة والاخوه وبيئة عامــة ثم المدرســه •
طبيعـــة وكتب جـــرائد ســياحة ولتنتق المقاصـد •
ما طاب منها ينمى جسما وعقلا أو خلقا وما تردى اسـفلا •
وقدموا تربيــة الجســم على تعليمه لينمو عقـــلا أولا •
لأن نفسه على اســـتعدادها فيحسن التدريج فى ارشادها •

النظـــام

قسم المؤلف النظام الى قسمين وهما نظام الحكومة ونظام المدرسة وبين كل وطريقة سيره :

ويلزم النظـــام قبل البـدء فى نشر تعليم لنفــع النشء •
لأنه كالأس للبنـــاء فى الفهم والأخلاق والنمـاء •
حـكومة نظامهـا ينفـذ لحفظ أمن ما يشاء المنفـذ •
وجهــله فلا يعـد عـــذرا واضعه يراعى فيه القهـرا •
مدرسة نظـــامها قـد كونا ليكفلن للطفل خلقـا حسنا •
ليس النظام فى المدارس سوى ترتيب سير محكم بالارتوا •
قد يجمع القلوب بائتلافهـــا ويكرم السلطة باعترافهـــا •
منميـا للألفـــة الحقيقـه وبين عنف ثم لين صـــيغه •
منظمـا لشهوات للغـــلام فى كبر أو غضب أو انتقام •
ملازما طرق أصـــول عينت تناسب الصغير طبقا حكمت •
اذ حظه من النظـــام المدرس فى بذله الطـاعة للمدرس •
أساسها احساسه بالواجب لا الخوف من رعاية المراقب •
فتغرس الفضيلة فى صـــدره حتى ترى فى سره وجهـره •
ولا يرى فى الاســتفهام عارا محبا الأعمـــال والوقارا •
فحبه الحـق يؤسس الوفاق وطاعة الخوف تعلم النفـاق •

✲✲✲

واجب المعلم

وواجب المعـــلم أن يدرس ... أميال أطفال لهم قــد درس •
ليمحون سيئها ويغرسن ... مكانه ماكان من ضدحسن •
من أجل ذا فينبغى أن يعلمــا ... حب الصغير للتحرك دائمــا •
وحب الاستطلاع ضعفالعقل ... غير مراع سببا فى الفعـل •
وحبــه الفوت على أقرانه ... وسرعة الحفظ بلا تبيــانه •
وضعف تمييز لدى المشــابه ... محبة التنقـــل أولى به •
وانه اذا اليـــه مثـــلا ... فيفهم المثــال لا الممثـــلا •
مهــددا من نفســـه أو غيره ... مقــلدا فى نجحه أو خسره •
ليس لــه رأى ولا عزيمـــة ... فنم فيـــه التربية القويمة •
ونفسه قد يقبض انبســاطها ... بقهـرها ويذهبن نشــاطها •
وانه ان يحــفظ المغلطـــا ... قد يعسرن اصلاحه ما غلطا •
أخــلاقه تكون وتنمو ... وبالنظـــام بدؤها وتحكم •
مذ عرف التشخيص فليعــالج ... لدائه من داخــل أو خارج •

القانون المدرسى

وواضـــع القــانون فليقلل ... مواده موحـــدا للمحمل •
ويزن الأمور ثم يصــــدره ... يراقبن تنفيذه اذ يقـــدره •
متى تخطى أحـــد حـــدوده ... عاقبــه مبينــا تحـديده •
فانمــا النشء متى استطاعوا ... أن يفهموا الأمر له انصاعوا •
لا يجعلن للكبــار ســـلطة ... علىالصغارخوفسوءالغلطة •
بل يجعلنهم قــدوة فى قولهم ... يتبعها الصغار أو فى فعلهم •

السلطة التنفيذية

فطاعة وســـلطة أمران ... وجــودا أو عدما نسبيان •
وسلطة التنفيذ يقصــدن بهــا ... تدرج التهذيب فى غاياتهــا •

ولا تؤدى واجبـــا بالحس ... حتى تنافى شهوات النفس •
متلزمن مكانهـــا ووقتهـــا ... وسببا والا تجزى مقتهـــا •
واستعملن ما استطعت الشفقة ... ان لم تفـــد فشدة ملفقـــه •
ولينفرد رئيسهم بالســـلطة ... فى كل ما أيده أو أســقطه •
فان تجزيها اليهـــا مضعف ... وضعفها بفشـــل سيردف •
ولا يعـــاقبن اذا ما يغضب ... لا سيما من أجـــله فيعطب •
وانصحن معلمـــا منفـــردا ... لا تخبرن بما تقول أحـــدا •
وانصحنه ثانيا لدى الصـــديق ... وثالثـــا فعممن بما يليق •
وانذرنه بعـــد ذا محـــررا ... ان لم يفد فعند ذاك شـــهرا •

التعـــليم

تعـــليم ما يخص بالمعـــلم ... تعـــلم يختص بالمتعـــلم •
ما كل ما يلقى دروساعلمـــا ... وســـامع ماكله تعلمـــا •
الا اذا كان المعـــلم اتبـــع ... أصول تدريس يراها من برع •
اذ قيمة التدريس ليس فى اجتهاد ... معلم مهما بدا منه السداد •
لكنها تقاس فيمـــا اتقنـــه ... تلميذه فيما اليـــه بينـــه •
فكلما زاد نشـــاط الجســـم ... والعقل فى النشىء يجىء بالعلم •
تدرج الفكر بتذليـــل الصعب ... بحيث للأصعب يأتى بالسبب •
ولا تعطل حاســـة التفـــكير ... مســـهلا مخـــافة التأخير •
ما ضاع وقت فى صعوبة صرف ... مهما يطول وبه قد تنصرف •

التدريس

تدريس اسم جامـــع لخمس ... مدرس طريقـــه والدرس •
أى مادة وسيلة الايضـــاح ... والخامس التلميـــذ للافلاح •

المعـــلم

المدرس المـاهر روح العـلم ... وسيلة القصـد وسر الفهم •
أوصـافه ثلاثة ففى الجسـد ... والعقل والخلق ليكمل الرشد •
فجســد يصح من أمراضه ... رياضة الألعاب من أغراضه •
وصوته موســط فى الكلم ... من سرعة أو ارتفـاع النغم •
ونظر كسمعه مســلم ... بالمرئى والمسموع طرا يلمم •
يقـلل الكلام والنفورا ... ونشــطا يكون بل غيورا •
منتظم الهنـدام كالقيــاس ... ونظفا فى الجسم واللبـاس •

العقليـــه

عقلية اتقان مادة الدرس ... وصحبة الأخيار تهذيب النفس •
علومه صحيحـــة مفيـــدة ... يحضرن درسه لكى يفيــده •
مداوما ترقى معـلوماته ... حتى ترى كالنهر فى خيراته •
وطرق تدريس دوامـا ينتقى ... لهـــا المرقيات حتى ترتقى •
ويصحبن ذا وفرة فى عقـــله ... وعلمــه ليقتــدى بفعـله •

الخلقيـــه

وخلقه يدرج الأطفـالا ... حتى ينالوا العلم والكمـالا •
لـكونه مثـــالهم فى الأدب ... مجانبـا لسرعة فى الغضب •
وبالأخص عنـد تفهيم الولد ... كتركه التهديد أو ضرب الجسد •
ويحذر الطيش اذا فى الدعوة ... بجودة الأعمال أو فى الشهوة •
يغلب الحـــق على العواطف ... لذمه ســواه فليخـــالف •
بل يملك الشهوة ثم العاطفـة ... ويبدل الغلظـــة بالملاطفة •
يحب أعماله بل وليحترم ... ودرهم مكانه دون العـلم •
يشـارك الأولاد فى سرورهم ... لا يأخـذنهم بذنب غيرهم •
يكون مثـل الوالد الحنـون ... لا سيما فى العون للمسكين •

القــاعدة والطريقة

قاعــدة تصـــور المعـــلم ... آساس بنيان الطريقة أفهم *
طريقة التدريس ما توصـــل ... معلوم درس بطريق يسهل *
فيهـــا المعلمون طرا تختلف ... علما نشـــاطا وتجاربا عرف *
لكنهم قد وضـعوا قواعـدا ... وطرقا تقـرب المقاصـــد *

الفواعــــد

أما القواعـــد فخمس رتبت ... وخامسة فروعها قد شرحت *
محسوس للمعقول بابا قد جعل ... كذاك معلوم لشرح ما جهل *
بسيط منه استنتج المركبـــا ... والخاص قبل العام حين رتبا *
وعرضنا الأشياء ليختار الاسم ... واللفظ للمعنى وان يعجز تتم *
وفرق تلقين وتعـــليم وجب ... وقرن تثقيف بكل يستحب *

التلقــين

التلقين ما يسرد للمحـــاكى ... من غير تفكير ولا اشتراكى *
كنحو مرسوم واصلاح اللفظ ... تعريف أسماء ودرس للحفظ *
وطول شيء نسبة المقـــارنة ... طريقة التلقين فيهـــا كائنة *

التعــــليم

لكن تعليمـــا لمـــا يســـتلزم ... قوى جميع العقل فيما يمموا *
ولا يكون وافيـــا للغـــرض ... الا بربط الماضى بالمستعرض *
ربطا يحث العقـــل للتفكر ... ويدفع النشىء الى التصور *
ويحذر التلقين فى دروســـه ... ما أمكن التعليم فى تدريسه *

***

التثقيف

تثقيفه استعماله ما علما ٭ وسيلة فى كسب مالم يعلما
اذ قيمة المعلوم ذات فائدة ٭ وسير عقل فى النماء زائدة
ورتبن قواهم العقليه ٭ مع بعضها لتحصل المزية
من غير ما جهد يضر بالجسم ٭ أو يجعل النبيه فى معنى الفدم
فان تخصيصك بعضا بالرقى ٭ يسبب الضعف لما منها بقى
اذا فهمت هذه القواعدا ٭ فرتب الطرق بها واعتمدا

الطرق

فالطرق الاستنتاج والتطبيق ٭ جمعية استعمالها يروق

الاستنتاج

طريقة الاتناج تدريج الفكر ٭ من المثال للقواعد اعتبر
فأكثرن أمثلة قد نوعت ٭ جامعة أوصاف حالة دعت
وجاذبنه فهمه ثم اتفق ٭ واستنبطن قاعدة متى تثق
فسيرها طبيعى للتصوير ٭ بالحس للمعقول والتفكير
وفضلها تربى عند الطفل ٭ وثوقه بنفسه فى الفعل
وتخمل التلميذ للتفكر ٭ يكون الأشياء بالتصور
وتفتحن باب تحصيل العلم ٭ مقتنعا بصحة الذى فهم

التطبيق

طريقة التطبيق عرف أولا ٭ ومثلن لترشد النشىء الى
ادراك ما عرفته أو قاعدة ٭ سريعة فهما قليلا فائدة
لأنها عكس التى تقدمت ٭ وان تكن كثيرا ما استعملت
فان ترد سرعة تعليم الولد ٭ بلا معانى استعملنها للرشد
كقولنا الحرارة تمدد الأجسام ٭ طرا وبعكس تجمد
ممثلين بعدها بما يحس ٭ ليفهم المعقول مثلما يحس

الجمعيـــة

جمعية طريقة قــد وفقت ❊ بينهما لفضل كل قد حوت ❊
فتعرض الأمثـلة المقربه ❊ واستنتج الحكم بها واستعذبا ❊
واستعملن أمثـلة التطبيـق ❊ منك ومنهم تأتى بالتوفيـق ❊
وهى طريقة لكم قد تكفـل ❊ نجاحهم فعلا وفيما يعقـل ❊
فنبـه النشىء لأن يعــدو ❊ أنفسهم لفهم ما قـــد يرد ❊
مما يؤدى بالخيـال وبالحفظ ❊ والذكر والفكر واتقان اللفظ ❊
ويعقــلوا أن المعـــلم اذا ❊ لم يحترم فى أمره أبدى الأذى ❊
فى الجسم أو فى العقل أو فى العلم ❊ ومهمــل التأديب خسره فهم ❊
متى وثقت انهم قد أذعنـــوا ❊ وفهموا ما عمـلوا فأتقنوا ❊
فاستعملن أسـئلة لتفهمـــا ❊ مقـدار ما عندهم قد فهما ❊
ممهـــداً فى أول لبـدئه ❊ مراجعا بعــد بيـان خبره ❊
وبعد كل درس قد تجيـده ❊ قيده فى أسئلة تفيـــــده ❊
واختبرن بعد مقـــرر نفـد ❊ أو جله وذى لاظهار تعـد ❊
وبعدها أسـئلة التثقيف ❊ ليعملوا الأفكار فى التكييف ❊
فيصلحوا ما أخطأوا فى فهمهم ❊ ويعقلوا ما استظهروا من علمهم ❊
كى ما تقوى الفكـر والتذكر ❊ وقوة الخيـــال والتفكـر ❊
دربهم قبـلا على فهم السؤال ❊ كى ينبنى جوابهم على كمال ❊
وذللن ما عليهم يعسر ❊ وأربطن ما مضى بما يحضر ❊
حتى يسـود الانتبـاه فيهم ❊ وينشط العقـل دواما منهم ❊
ويمحى من بعض التلاميذ الغرور ❊ فيعلم الحـق ومعـه يدور ❊

شروط الســؤال

شرط السؤال أن يكون واضحا ❊ وغير مبتور وعقلا مصلحـا ❊
مختصر عار مـن لفظ أجنبى ❊ معين المعنى وسـهل للصبى ❊
موقع بالصـــوت للفظ المهم ❊ موسط الفهم للموضوع لزم ❊

والقه على جميع الطلبه ليستعد كلهم أن يطلبه *
من الذين يرفعون الأصبع وغيرهم ممن ترى أن تطمعا *
من يرفعن ولم يطابق الجواب يساو من لم يرفعنه فى العقاب *
ولا تعد سؤالك بعينه ان عجز التلميذ عن بيانه *
ولا تشر لأحد بأن يقف ومقتضى طول الجواب عنه كف *
ولتجتنب فى سؤالك لفظ الكتاب أومايكون مرشدا الى الجواب *
أو ما يجاب عنه بلا أو نعم ولا تكرره اذا لم يلتزم *

أنواع السؤال

سؤالك عن وصف ومفعول فعل وفاعل ظرف ومن ما احتمل *
ومبتد ايجاب نفى كيفيه حصول أسباب كمية *

الجواب

أما الجواب أن يصيب الطالب أو يخطئن أو قط لا يجاوب *
للحالة الأولى تفرس وجب للفهم عن صدفة أو عن ظهر قلب *
متى اقتنعنا انه مصحح فليفهمن أخوانه أو نشرح *
وعدم الفهم لعسر فى السؤال أو لعناد أو لاهمال يقال *
فالعسر يسره بتعبير سهل والأخريان بهما العقاب يحل *
وربما كان من استحيائه أو خوفه من ضغط أو استيائه *
أو أعمل الفكر ولم يصادف أرشده الأستاذ وليلاطف *
أو أخطأ الموضوع والقول أصاب ساعده حتى يؤوب للصواب *
مهارة المدرس فى حاله يظهرها الجواب فى تناوله *
فليحسن التصرف فى كلما يشوق الطفل لقصد المرمى *
اذ بحثه يقوى معانى الفكر وقوة الحفظ وقوة الذكر *
يولد البديهة ويظهر مقدار نجح عمل يقرر *
لا يقبل الجواب الا فى جمل صحيحة المعنى بتركيب كمل *

ويقبلن ما كان عن فكر صحيح ويرفض التخمين للكذب الصريح •
فانما التلميذ غالبا يغرر مداريا لعجزه اذا حصر •
لا يسمحن لغير مسئول يجيب فى آنه ويحذر العطل المعيب •
وشجع المجيب حقا بالثنا وأفتح لغيره طرقا للمعنى •

المادة

ومادة الدرس فمعلوم قصد مدرس توصيله ذهن الولد •
من كتب يوثقن من صحتها مراعيا فائدة النشىء بها •
تسبقها غالبا مقدمه مبنية على الذى قد تقدمه •
موصلة بنفسها لما يريد تدريسه يسهل قول ويفيد •
تناسب الوقت وحالة الولد فى فهمه وعمره قصد الرشد •
يجزئن دروس عام قررت ترتيبها العقلى لأسبوع رعت •
بحيث لا يأتى بدرس لاحق حتى يكون واثقا من سابق •
أمثالها يطابق المعنى بها وتكشف الغامض من معقولها •
مستعملا ترتيبها المنطقى فى أوضاعها مسهلا ما يصطفى •
ولا يخيف النشء ان ما ذكر توطئة لما يليه من عسر •

العرض

فالعرض نفس الشىء أو شكل الجسم أو صورة لجزئه أو بالرسم •
فالشىء أو شكله أعرض مفردا مكملا لوصفه نلت الهدى •
واحسن الرسوم ما المعلم يرسمه أمامهم كى يفهموا •
لأنه يضبط مقياس الرسم ويوضح الجزء بتخصيص المهم •
يكون الشكل مجزءا لهم ملونا لنقله شجعهم •
مراعيا تناسبا لحجمها منبها أفكارهم لفهمها •
وعددن فى الدرس للوسائل اذ منه تثبيت ودفع الملل •

التقليـــد

تقليد كالأصل يقول أو فعـل مدرجا للطفل حسبما جبـل •
فى الفعل راعى جودة المقـلد وان تكن قليلة فى العـدد •

حكاية أو قصـة من تنتخب توسع الفكر وتذهب التعب •
تطـابق الواقع فى نفع الوطن أو تبعث النشىء لاعظام الزمن •
يشخص الموضوع فى تعبيرها ويستفيد القول أو تحديدها •
ووصف شىء يعرض عليهـم أو ما يكون ثابتـا لديهم •
وأحسن الأوصـاف ما يحقق من صور الموصوف معنى يصدق
مختصرا من لونه وحجمـه مجانبـا متعبهم فى فهمه •
الا نتاج عرض الحسن فى أبصارهم ينتهجوا المعقول من أفكارهم •
وواجب تنبيههم للقصـــد والسير تدريجا لمـا يؤدى •
بأخـــذنا البسيط للمركب والقرب للبعد وسهلا للصعب •

السبـــورة

سبورة لازمـة للدرس لتضمن النجـاح للمدرس
فحـاذق لا يكتفى بالسـمع بل يشغل الأبصار اذ درس رعى
وليكتبن عليهـا الدرس مرتبا منطقـا وأسس •
ووضعها أمامهم فى البعـد كنصف بعد الطول للمحدد •
محلها موافق الضوء ينـال من خلفهم أو لا فمن ذات الشمال •
فى الخط والرسم تمال لليمين لميلهم نحو الشمال جالسين •
يجعلهـا المدرس اذ يكتب يمينه أو جلهـا أو يحسب •

الشرح

شرح خواص الشىء فالمقيـد تفسـيره أربع طـرق أوردوا •
ترتيب معقـول بمحسـوساتها والثانى فالتشبيه فى حالاتها •

ووصف فن ضده قد يشرح ... حكاية أو مثل يوضح .
كالله ربى أين كنا معنا ... وطائش كالغصن فى مهبنا .
وشرحك الألفاظ بالمرادف ... ـه ضدها أو جىء بوصف كاشف .
ولا يقصدن من شرح لفظ سهله ... فى موضع العويص بل وعقله .
كقولنا البر مكان القمح ... وقولنا البخيل ضد السمح .
والموت روح فارقت للبدن ... بالبؤس عبر عن توالى المحن .
وجمل تركيبها لذاتها ... وشرح أجزاء وموضوعاتها .
وان وجدت جملة مستطردة ... فاخرجنها قبل كالمعترضه .
وليعلم الأستاذ نقصان الفهم ... فى جزء درس ربما به الندم .
وشرح تاريخ حكى أو أدب ... بحصر مجموع وربط النسب
وأفضل الشروح للمسائل ... فرص صغيرة للمسائل
ووضحن صلاحة المقصود ... ليرجع النشىء لها فى العود .

التمرين

تمرين للاعمال بالتكرير ... والعلم بالشفاه والتحرير .
بشروط ربط ما بالحاضر ... مبتدئا بالمتلو أو بالغابر .
فروض الأعضاء على أعمالها ... لتحسن الأوضاع فى اعمالها .
بسرعة وغير ما تفكير ... مدرجا كالعمر للصغير .
كتابة صناعة رياضة ... سيرا وقوفا وجلوسا عادة .
والعلمى حفظهم ذوات القيمة ... تاريخا آدابا أجد تفهيمه .
يشرح ما سيحفظون أولا ... فالحفظ دون الفهم لن يكملا .
وارشدهم الى طريقة الحفظ ... تجزئه وقتا وضبط اللفظ .
وليسمعوا الماضى ومن يربحله ... أرشد لربط المعنى وأتم عقله .

الواجب المنزلى

والواجب المنزلى ما يقرر ... تحريره فى بيتهم ليظهروا
معلومهم بالحق للمدرس ... ويشكر الأب النظام المدرس .

فالشفوى بغيره لا يكفــل   تثبت المعلوم فيما حصلوا •
يدعو الى استقلالهم فى العمل   ينوع المعلوم للمستقبل •
تسـاند النشىء على المراجعه   ويصرف الوقت بخير ساعه •
كى لا يحل ملل بعقلهم   وليستفيدوا بالسوى فى حلهم
حساب تطبيق فى انشائهم   ورسم جغرافيا وفى هجائهم •
وليشتمل على متــاع المنزل   من عيشة أو حرفة أو موئل •
بفهمهم كم ذا له من فائدة   ان لم تجد من أهلهم مساعده

الاصـــلاح

الاصلاح قسمان فخاص أولا   اصلاح تغليط بدرس حصلا •
فى الشفهى أذكر قبلما قد غلطه   أو شكلة فيصلحن غلطه •
واكتبن ما يفسدن فى البداية   مجزء واحدة بالهجاية •
واصلح التحرير بعد درسك   خوف ضياع الوقت أو فى بيتك •
ملاحظا أسلوبهم وخطهم   نظافة وموضعا وضبطهم •
مؤرخا موقعا ومادحا   مجيدهم والغير أكتب ناصحا •
مجازيا بعد ثبوت القاعدة   من يغلطن ليهتدى بالفائدة •
والثانى ما يحصل فى أعمالهم   يناقض التأديب أو أحوالهم •
كالاحترام فى السؤال والجواب   حسن السلوك واتقاء خير الصحاب
وليحذر المدرس التساهلا   مهما يكون قدر ماقد حصلا •
فتركه التصحيح مهما صغرا   يسير بالتعليم سير القهقرا •

الامــــلاء

الاملاء اسم صادق لما كتب   مصححا فى اصلاحهم حسب •
فى كل اسم خصصوا الاسم   بما نسميه بإملاء الرسم •
موضوعه فصل ووصل الكلمة   ابدال زيد حذف شرط أثبت •
وسائل فالعرض ثم التخختة   والشرح والتمرين قد يثبت •

طريقة الجمعيـــة للقـاعدة أمثلة فهم تعم الفـــائدة •
مرنهم على المواضيع الجميـع في كل عام آخذاً ما يستطيع •
من أول ابتدأ لهم من الحرف يكتب جملة بلا زيد حذف •

وواجب الدروس اذا ما قرئت في وقتهـا بسرعة قد كتبت •
ملاحظين قاعدة في رســمها كالجيم والفاء ثم صاد ميمها •
وكلمـــات تبتدىء مقاطعـا وبعد فهم يكتبن مجمعـا •
وحذرنهم من لســان يسبقن عينـا يدا قراءة أو يكتبن •

وجمـل من كلمتين يبتـدى لربطها بللعنى نشء يقتدى •
ويوصلن قراءة همـزة ال أن قبلها محرك ماقد حصل •
والثـاني تنوين ومدخففـا نحو الى هذا ابدلنه واحذفا •
وواجب الوصل لجزء الكلمة كذاك ال ونا بوصـل ثبت •

والتا آخـر الاسم هاء تبتدل وحذف ألف ال اذا اللامدخل •
كاللام في الذين والـذى التى موصول الأسماء أو سواهاثبت
والتـاء مطلقـا اذا ما سكنت أو يسكنن ما قبلها قد فتحت •

ملقنا ماليس منه يفهم مستنتجا لكل ما قـد يعلم •
في كل هـذا صغرن دروسهم وصغها مما يلزمن محسوسهم •
كي يقرءوا ما كتبوا فيفهـوا فيسهل الآتى بما قد علموا •
وثالث فصـل لهم ماقد وصل وملحقا به وعللن ما فصـل •

ووصل ما موصولة مستفهمـا زائده ومثـلن كي يفهمـا •
وكافة قافية همز كلمة الأخير والفاء في الرباعى ياء يصير •
وألف يقلب في المضـارع ياء كقبـله بيـاء سـارع •
والتاء آخر الاسم اذا ماحركت وحركت ما قبلها ها أبدلت •

مع ألف في مفرد نحـو فتـاة أو جمع منقوص الولاة والهداة •
ماضى ثلاثى أن بهمـز افتتح أو واو أو توسط ياء يصح •
وزيد ألف مائه واو الجمـع والواو في عمرو أولو فلتتبع •

التلميذ والفصـــل

التلميذ فى الفصل نظامه وجب ⁂ وبعد الانتبـاه فائدة تصب •
نظـامه المعنـوى كالمـدرس ⁂ فى خلقه وعمـــله المؤسس •
بســـلطة الحب وقدرة على ⁂ ايصال معلوم لديهم سهــلا •
وقوة التـــأثير بالتيقظ ⁂ وصحة الأعمـــال والتلفظ •

ويملــكن علمــه ونفســـه ⁂ ويحسنن هيئتــه ودرســه •
فانهم متى رأوه حازما ⁂ وواجبـــا آدؤه ملازمـا •
منظما أعمـاله والشفقه ⁂ فى وقتها يملك منهم الثقــه •
يديرهم كما يشاء فيقــدروا ⁂ من غير عنف منه مهما يأمر •

يرضعهم من ثدى روح العلم ⁂ لا العــلم ألفاظا بغير فهم •
يضبطهم مــن غير ما يخيفهم ⁂ وبذله مجهـــوده تأليفهم •
هل مثل ذا يحتاج منهم ضربا ⁂ أو يحرجونه الى أن يغضبا •
غير صغار عــذروا ومن لؤم ⁂ لزجره مــكان حــلم فليؤم •

والفصل فى الأعمال قبل الدرس ⁂ اذا دخلتـــه فــلا تعبس •
وانظر الى شباكه المقفـــول ⁂ ونظم الجلوس كالمعقــول •
والحظ لكل مابه من أمتعــه ⁂ هل أحسنوا لكل منها موضعه •
وأبدأهم بمـــا يؤمـــن روعهم ⁂ ولتـلقى درســـهم شجعهم •
وامنعهم أن يلفظوا أو يهمسوا ⁂ واسألهم باللطف عما درسوا •
كـــل له مـــكانه قد عينـــا ⁂ تنقــله منه اذا ما امتحنــا •
والدرس دواما راعيا قواعده ⁂ وطرقا مســـائلا والفـــائده
لا تأمـــن التلميـــذ فى أدائه ⁂ واجبه من غير ما أهـــدائه
وحافظن دائمـــا لرشده ⁂ وانبذن مطلقـــا لحقـــده
متى تتم حصـــة أخـــرجهم ⁂ قبلا وفى دخـــولهم أسبقهم
أغـــلاطهم علاجهـــا التيقظ ⁂ لكل ما يصـــدر والتحفظ
أجعـــل لهم من أهلهم عيونا ⁂ لحفظ أخـــلاق ولا يدرونا

وفائدة تقــذية الأرواح وهى مراد القــول للافــلاح
وفضلهــا بقدر ما يحصـــله معلم من وصفه فيوصــله
فى علم تلميذ وحاكى يعمـــله والفضل كل الفضل فى المعامله
وحاصل" الفصل يا من درسوا ميدان سبق جريه ما تغرسوا

الانتبــــاه

توجيهك الفكر بأمر خارجى فالانتباه القسرى منــه عالج
عقل الصغير غفلة أو كســلا أو كرهه التعــليم أو ان مللا
عوامل القسرى خــذها أولا فى جلب احساساتهم وســائلا
مفرقع مزمار حــلو طعمـــه وفاقع لون غريب رســـــمه
عذب الأقاصيص وضع اللعب وكل ما يشوق نحو الطــرب
واستعملن لكل وقت ما ترى مناســبا حالا مكان عمــــرا
ويكثرن فى الطفل أول النهار أو صحة أو طمعا أو باختيــار
يعوقه فى الجسم ضعف البنية رداءة الغــذاء وقرب الجلبــة
رداءة الهــواء والخمــــول بقــاء جسم زمنــا يطــــول
فى وضعه من غير ما يحــرك ان خمود الجسم عقلا يملك
والعقل منه الكسل المطبــوع ذكاؤه ان غره متبوع
تركيب عقله وعلمــه الدرس ان يعجزن عن فهم مادة حبس
وعدم اعتقـــاده المعلمـــا كفاءة بغضــا وعرضا ثلما
فالقسرى بالطفل الصغير أليق والاختيارى بعـــد علم يعلق
بالقسرى أوجــد فيهم اراده حتى ترى بالاختيـــارى عاده

الانتقــــاد

الانتقاد طعن ماقد وجـــدا من ناقد ليرشــد المنتقــــدا
ودرســـه ماعــده المطــــالب ليعلم الاحسان والمثالب
فلا غنى عنه لتطبيق العمـــل للمبتدى مهما حوى علما حصل

وشرطه فى الناقد أن يعتــدل ... فى نقده كأنمــا له جعــــل

وحبــــه أو كرهــــه ما أثرا ... بعدل اخـــــلاص ورفق عبرا

وليذكرن محاســنا مثالبــــا ... موضحا منشأها أو ســـــببا

اذا لا يكون درس نقد كاملا ... وليس خطــأ كله مســتعملا

وليعلمن ان مــن له نقــــد ... فبعض ما أعــــده له فقــد

لا يحصين ما يصورن من عمل ... لربكة الفكر وخــوف الزلل

لكن من يسمعه مهما اعتقــد ... حطته فى ذوقه منـــــه يفــد

لأن منقوده قطعـــــا يشعرن ... بفوزه أو خيبـــة فيعلمن

اخفـــــاقه بخــير طرق ينتقى ... فيستفيد الحــاضرون ما لقى

وشرط منقود فتحضير الدرس ... وبعــد تكميــــل يريه للرئس

وانه يفــــرغ فى اعـــــداده ... أو عرضه محاسن اجتهــــاده

يسهل المــادة فى ايضــــاحها ... طريقة يكثر م ن اصـــــلاحها

ويعددن وســائلا تشــــوق ... ويشرح الموضوع كيما يعلق

يلاحظن اخفـــــاقه فيصلحه ... وكل تلميذ أخـــــل ينصحه

ولا يسىء ظنــــه بمن نقــد ... ويطلب المزيد فوق ما اجتهــد

فى هذه السنة ناب عن الحاكم العام جاكسون باشا فلما عمل الحفلة المعتادة سنويا دعانى لحضورها وأرسل لى عربة السرايا لأصل بها فركب معى سعادة المستر « يودال » وقال لى حينما ركب : أنا اليوم فى جاهك . فقلت : استغفر الله . ثم قلت دولتى تنقطع بوصــولى فى دقيقتين ورجوعى ان كان بها دقيقتين ودولتك التى انتفعت بها لدرجة وظيفــة التفتيش لا تنقطع وهى التى تستحق أن أقول فى جاهك . فلما وصلنا قابلنى سعادة الباشا أحسن مقابلة كما عودنى كلما زرت مروى ووجدت معه سعادة المستر كروفوت الذى مازحنى بقوله : سنحيلك على المعاش فقلت له على الفور : المعاش يا سعادة المدير هــو الموت الأصغر فضحك الباشا ضحكا عاليا وطمننى بقوله : انت بعد عشرة سنين حتى تحال للمعاش وفعلا حصل ذلك فى هذه السنة جاء الشيخ الهادى الحاج الأمين

داخلا الى مكتب المفتشين العربى ووضع شمسيته خارج المكتب فجئت للمكتب ووجدت الشمسية فأدخلتها وسلمت على الشيخ الهادى وطلبت له ليمو ناده وجلست بجانبه على الكنبة وقضيت له ماجاء قاصده فلما خرج قال لى الشيخ أحمد الأمين لا تعامل المشائخ مثل هذه المعاملة يحتقرونك قلت لجنابه لأن يحتقرونى وأنا أعمل عمل الكرام خير لى من أن يحترمونى وأنا أعمل عمل اللئام • والله يا مولاى أنا لا أرى الرئاسة سيادة وانى أراها آلة ارشاد وانى أوصى أولادى فى الدراسة حينما يتوظف الواحد منهم يا فلان اعتبر الوظيفة كحرفة فى السوق تكتسب منها عيشك ولا تتكبر على أحد فانك تعمل لقوم انت منهم وأنا سودانى للسودانيين فمن ذلك اليوم صار يحترم كل من دخل عليه فهو والحق أقول رجل عاقل كريم فى طباعه موزون فى كلامه •

فى هذه السنة طلب منى المستر هللسن أن تؤلف كتاب مطالعة باللغة الدارجة لتلاميذ الكتاتيب وحسن لى ذلك كما عندهم فى انجلترى فقلت له وللمستر هسى أليس غرضكم أن الكتاب يكون من النوع الذى بمجرد ما قرأه الولد يفهم معنى ما قرأ قالا نعم • قلت لكما على أن أجمع كلمات فصحى مستعملة فى الدارج وأؤلف منها كتاب مطالعة فرضيا وتتبعت كلمات القاموس المحيط وأخذت الكلمات المقصودة فحصلت منها سبعمائة وسبعة وخمسين كلمة ألفت منها كتاب المطالعة الوطنية الذى من ضمنه درس فى أسماء القبائل السودانية والذى منها الدناقلة (نوبا وعرب) فلما ظهر الكتاب قال أحد المضلين الذين بعثهم الله للفتنة بين العباد قال للدناقلة ان ولد بدرى سبكم سبة عظيمة حيث جعلكم نوبا فغضب بعض من الدناقلة بأم درمان وشكوا لمدير المعارف ومدير المخابرات ولكن لم يقابلنى واحد من الدناقلة ولو بتعبيس الوجه وأصبح الناس يخرصون بما لحقنى من الأذى حتى وانى جئت من مدنى فقال لى مدير المعارف جاءنا خبر أن الدناقلة هجموا عليك بمدنى حتى رافقتك الحكومة بحرس أوصلك المحطة فقلت والله العظيم يا سعادة المدير الى اليوم لم يصلنى سوء من الدناقلة ولا بكلمة مسيئة من طفلهم أو سفيههم فقال لى نريد أن نأخذ الورقة التى فيها القوسين من الكتاب ما صرف منه وما كان بالمخزن قلت لسعادته لا شأن لى بالكتاب • المصلحة أمرتنى بتأليفه وأعطتنى قيمة تعبى فى تأليفه وعينت لجنة لتصحيحه وتولت طبعه لحسابها • أما لو كان هذا الكتاب

ملكي وغضب على واحد من أصدقائي لأحرقته بأكمله • وكان المسترهس كلما يلاقيني يحني سبابتي وابهامي يده اشارة الى القـوس فقطعت أول ورقة من كتاب بيدي وكتب منشورا وانتهى الموضوع • كنت عملت كتاب مبـادىء التهجي برفاعه للبنات من هذا الكتاب فلما نقلت للخرطوم مفتشا أردت أن أعمم فائدته بالكتاتيب ولأجل لا أستبد بفرضه على مجتمع المعلمين وأجعله عرضة للتحبيذ والانتقاد عرضته على كبـار معلمي العـربي الذين تبرعوا من وقتهم الخاص لأن يجتمعوا فى أوقات عينوها بمدرسة أم درمان الابتدائية وأذكر ممن أشتركوا فى التصحيح المشائخ عمر اسحق (الذى عرضت عليـه بدأه وهـو مدرس بمدني فنبهني الى أن الفعل لا يجوز حذف المد فى آخره ليكون حرفين نحو جرى ورمى وكان غرضي من حذفه تسهيل بدء الكتابة وان حذفه مستعمل فى لغة البيت الدارجة فوافقته وجعلت ترتيبه الجديد)

ومن المشائخ عبد القادر المصرى والأمين آحمـد ابراهيم وأمين مكى وحسن آحمد الذى رآه برفاعة حينما مرنا عليه معا فقهاء الخلوات ليستعملوه بخلواتهم وقد ساعدهم كثيرا فى صعوباتهم السابقة • فأفادت الجمعية فى تنقيح الكتاب فائدة عظيمة فغيرت وحذفت وزادت حتى صار مفيدا لسنتي أولى وثانية ولما عرضته للمعارف لاستعماله شكلت له لجنة رأسها الشيخ عبد الرحيم حامد فلم تقره تلك اللجنة ولا أدرى لماذا لم تقره • ولا أدرى أللسياسة دخل فى هذا الرفض الذى كان معظم اللجنة ممن صححوه ويمكنني أن أقول ان الشـيخ عبد الرحيم لم يجرب تعليم الأطفال ولكن الانقلاب بلغو سنة أولى فى الكتاتيب كم فمي عن المدافعة لهذا لكتاب المفيد وقضت عليـه ولله الأمر وسأستأنف استعماله فى روضة الأطفال بالأحفاد للأحفاد •

فى هذه السنة وأنا بالمكتب وصلني تلغراف باسم الشيخ مجذوب مالك نصه (سنصلكم بقطار اليوم بالعائلة جميعا) فطلبت فى الحال عبـد اللطيف آفندى يوسف زوج عديلة بنت المرحوم ابراهيم أفندى كامل وطلبت منه مفتاح بيتهم القديم على ضيق فيه فعرفني انه قد أجره آرمني تاجر ليتزوج فيه وقـد أعده بتبييض جدرانه ومسح أبوابه وشبابيكه بالبويا • قلت متى يتزوج قال بعد اثني عشر يوما قلت نستأجره نحن أسبوعا واحـدا • قال أجرة الأسبوع

أربع جنيهات سعيت لأم درمان فلم أجد بيتا خاليا يسعنا بقطع النظر عن لياقته ونظافته لأن سكان أم درمان لم يتنبهوا لاعداد منازل للايجار فالتجار أمام رد فعل غلو البضائع التى كسدت ومن توفرت عندهم الأموال ولم يصبها كساد هم المزارعين وأرباب البهائم وهذان لا علاقة لهما بأم درمان أما المستخدمون فقد خصمت الحكومة منهم نصف علاوة الحرب وضمت النصف الثانى للماهيات وأوقفت سلفيات البناء فالغريب منهم يستأجر بيت (سلفه الوطنى) فما وجدت عير غرفة واحدة فى بيت خرب للمرحوم حمد الكردى بجوار الشيخ البنـــا فبتمام الاسبوع تقلناهم لها وحشرناهم فيها حشرا يئنون ولا يرحمون ويندمون ولا يقالون وصرت كل عصرية آتى لأم درمان حيث لا تلفون حينئذ للتخاطب حتى حصلت على منزل الشيخ على حمدى به غرفتان صغيرتان وديوان خارجى بالقرب من مدرسة البنات الانجليزية بجنيه ونصف فى الشهر وما ســكنا فيه أكثر من عشرين يوما لأنه كان موبوءا بالناموس الكبير الذى يفد اليه ليلا من المخــازن التى بلصقه المملوءة بالجلود التى يجلبهــا التجار من بحر الغزال • الناموس الذى لم تحجزه الناموسيات فخرجنا منه حيث أجرنا منزل كوركجيان المركب من ثلاثة غرف متصلة ببعضها وغرفة صغيرة جدا ســـكن بها الشيخ مجذوب وسكن فى الغرف المتصلة أحمد بدرى بعـائلته ووالدته بأولادها • فى يوم ٢٠ أغسطس من هذه السنة ولد ابنى محمد برفاعه وهو يوافق يوم عيد الحجة سنة ١٣٣٨ • طلبنى سعادة المـــدير أخبرنى بأن أخطب لنواب المآمير بمدرستهم هذه السنة فحضرت الخطبة فلما تحادثنا فى مسألة المشروع تركنى من ذلك قبل أن ينظر الخطبة • فى سنة ١٩٢٠ سعيت من نفسى وبوحى قلبى أن أوفق بين السادة الثلاثة السيد على الميرغنى والسيد عبـد الرحمن والشريف يوسف الهندى الذين اعتبرتهم حكومة السودان أنهم الرؤساء الدينيون وأكثر البلاد من الناحية الروحية منقادة لهم وان تفاضلوا فى قلة الأتبـاع وكثرتهم فبدأت الكلام مع سعادة مدير المعارف (حينما كنت أجهل سياسة فرق تسد) فقلت لسيادته (ببساطة من يجهل السياسة ويخلص فى القصـــد) ألا ترى سعادتك لو اتفق المتخرجون الذين بدأوا يخرجون على أهل العقـائد الدينية والأشراف الثلاثة الذين اعترفت لهم الحكومة أنهم الرؤساء الدينيين فى البلاد وكونوا كتلة واحدة برأى واحد يبديه الكبار وينفذه الصغار رأيا يتفق عليــه

المتعلمون وغير المتعلمين وتؤيد الحكومة سواء نفذت ما جاء به هـــذا الرأى أو أجلته أو على الأقل فهمته وأهملته لوقت بعيد يكون مساعدا للحـــكومة فى سيرها بالبلاد (بعدكل هذا كان جوابه) اذا كان رأيا محترما فالحـــكومة ستحترمه • اضطربت من هذا الجواب القصير الحازم من سعادته المهم عندى فقلت لسعادته • أتأذن الحكومة لى بأن أسعى فى الجمع بينهم قال لا مانع لدى الحكومة فسعيت بأن بدأت بالأشراف وزرت السيد على بحلة الباوقه وقلت له فى خلوة أترى أن المتخرجين كآبائهم يعتقدونكم تضرون وتنفعون قال لا أظن قلت أتوافق على أن تجتمعوا بهم وتكونوا معهم رأيا واحدا تقدموه للحكومة قال لا مانع وهذا جميل • وبمثل ذلك قابلت صاحبيه وفعلا عقـــدنا المجلس بنادى الخريجين وكان رئيسه محمد الطيب المفتى فانبرى بفشـــل الموضوع عبد الله خليل وأحمد عثمان القاضى واسماعيل فوزى وخرجنا أبعد مما دخلنـــا من الوفاق •

سنة ١٩٢١ حضر لسعادة المدير الشيخ الطيب الشيخ العبيـــد وطلب من سعادته عمل مدرسة بحلة أم ضبان وأخذ المدير رأيى فى ذلك فخاطبت الشيخ الطيب قائلا هل الخليفة حسب الرسول يوافق على هذا الطلب قال الطيب نحن نضحى أولادنا لخاطر الخليفة حسب الرسول • قلت لو عملناها دون رضـــاه فهل تضمن نجاحها فسكت قال لى المدير وما رأيك قلت تكتب خطابا للخليفـــة من سعادتك ليوافق على عمل بخلوة نظامية فاذا وافق نرفعها لكتاب بعـــد سنتين • قال الشيخ الطيب والأولاد الآن قلت حضرتك غنى تســـتطيع تعليم أولادك بكتاب الكاملين فوافق سعادة المدير • كتبت للخليفة كتابا لطيفا يوافق ذوقه ووقع باسم المدير بالانجليزى وحملته بنفسى ولما قابلت الخليفـــة وفتح الظرف ورأى التوقيع بالانجليزى رجفت يداه ولما قرأ الكتاب ارتبك لسانه ثم بعد أن هدأته قال لى غدا نجتمع ونرد للمدير • مشيت لمنزلتى التى أعدت لى بجوار الغرفة الجامعة للدرس نهار وبعد أن نمت أيقظنى من النوم صـــوت الحيران بقولهم (أرقد أرقد) تبعت الصوت فلما وصلتهم تذكرت حالتـــا فى الصبا حينما كنا نغلط من يغلط بمثل قولهم خشع قلبى وقلت لا يسعى فى تغيير هذا المسجد الا من كتب الله له الشقاء ولا أكونه أبدا فأصبحت تتجـــاذبنى تنفيذ أمر المدير أو تنفيذ غرضى على ألا أكون المغير لمســـجد ولد بدر العتيق

الجامع لأنواع الحفظـة لكتاب الله وبعد رأيي اهتــديت بأن أوفق بين الاثنين والحمد لله كما يأتي • طلبني الخليفة ووجدت معه أخويه عمر وخالد والشيخ صالح تاى الدين فقال لي نحن اتفقنا على الرد بالرفض بتاتا قلت أنا أوافقكم بعد أن أؤكد لكم أن الذي يسعى في اضعاف هذا المسجد فضلا عن تغييره الى مدرسة ليس هو ابن حلال ولا نصيب له في الدين الخالص ولكنكم وافقوني على أن ندفع تهمة التعصب الديني ونقفل باب سؤال الحكام عن سبب الرفض البات اذ ربما يصادف المسئول من أعدائكم فيلبس الرفض ثوبا يسيء الظن بكم وتوجه الحكومة نظرها لهذا المسجد العتيق العظيم قالوا وما رأيك قلت تكتبوا أسماء عشرين ولدا من أبناء الشيخ العبيد وتندبوا لنا واحــــدا من أولادكم الذين يحفظون القرآن أو قريب من حفظه نأخذه للخرطوم نمرنه على الحساب والعقائد والعبادات وطرق التدريس اللازمة للخلوة وبعد شـــهرين يأتي ويفتح الخلوة ويتباطأ في العمل وبعد سنتين أكتب أو الشيخ عمر اسحق الذي أوصيه بقفلها كما هو الجاري في كل خلوة لا تؤدي واجبها فرضوا بذلك وكتبوا أسماء الأولاد وعينوا لنا عبد القادر ولد الشيخ صالح تاى الدين وجده لأمه الشيخ العبيد • وبعد سنتين قفلت فعلا ورفض الخليفة مرتب للفقيــــه من الحكومة من أول مرة • ولما خرجت من حلة أم ضبان لقيني الشيخ الطيب ومعه الشيخ الجيلي العباسي ، الأول ناظر القسم والثاني وكيله فألح الناظر في الرجوع رفضت معتذرا بضيق ميعادي مع المدير فأخرج جنيهين ورق وقال لي خذ هذين قلت لم أستطع أخذهما قال لي تتكبر على الآخذ مني ولم يتكبر على المشائخ أبو القاسم وأخوه الطيب والشيخ محمد البنا • فقلت نعم أتكبر عليك لئلا تضمني عليهم واني لا أراك أحسن مني حتى أضع يدي تحت يدك وضربت حمارى ولم أودعه • وكان اليوم يوم جمعة فأدركت الصلاة بالعيلفون فخطبت في المصلين بأن يطلبوا من المعارف مدرسة وضمنت لهم التصديق بها بلســـان سعادة مدير المعارف فرد على حامد على بالقبول ورفض العمدة محمد عبدالقادر وخرجا بالصمت الخليفة أحمد والفقيــــه بلال فمكثت معهم كل يوم الجمعة وضمنت للخليفة تعيين ولده بركات مدرسا بها بمرتب أربع جنيهـــات مما لم يسبق لمعلم محلي أخذها في أول تعيينه فرضي فقلت الحقني غدا عند مــــدير المعارف وهو صاحبك وسأخبره أنا بما حصل فحضرتك تؤكد كلامي أما بطلب

المدرسة أو بالموافقة فعاهدني على ذلك وحضر فعلا ووفى بالموافقة فسر المدير جدا بفتح كتاب بالعليفون لها ولأم ضبان وفعلا لحقت العمدة بعد أسبوع وقضيت بالعليفون أسبوعا كاملا لم يستمر فى رفضه أحد غير العمدة الذى أهملناه وأجرنا منزلا وما أقوى تأثير صاحب البيت الذى يؤجر على أصدقائه بالمجاملة له لينال المنفعة فيكون هو وهم دعاة لفتح المدرسة كما حصل فى كتاب مقرات وحلفا دغيم • عينا لها الشيخ صديق عبد الوهاب ناظرا والشيخ بركات مدرسا وسلمتهما الكتاب وبارحتهما للخرطوم •

« بدأت أكشف سياسة الاستعمار التعليمية وأختلف مع رؤسائى الانجليز »

وفى هذه السنة قررت المعارف تعميم الطريقة التى جربت فى النيل الأبيض من جعل تلاميذ الفصل بالكتاب خمسين تلميذا ولا يسمح ببيات أكثر من عشرة فى المائة وأن يجلسوا فى البروش فى الأرض بدل التخت فعارضت واحتججت بعدم استطاعة المعلم القيام بهذا الواجب اذا لم يزل مكلفا به أما اذا تساهلت المصلحة فى تدقيق التفتيش فهذا ما لا أظنه فيها واتفق أن مشينا معا لتفتيش مدرسة أم درمان فوجدنا الشيخ التجانى محمد هاشم ممسكا المؤشر ويتنقل بين الأولاد الخمسين على الأرض ليسكتهم من الكلام وليحفظ فيهم النظام فلم يستطع فنبهت سعادة المستر هسى فرآه بهذه الحال فقلت لسعادته اذا كان هذا من المعلمين القدماء وهو عاجز عن حفظ النظام وترك الكلام فكيف يعلمهم فأخذنى ناحية مخزن الكتب وقال منفردين هذا العمل سياسيا فلا تتكلم فيه فوضعت راحتى على فمى وقلت ما دام السياسة دخلت فى التعليم لا أتكلم بعدها وأشكرك على هذه النصيحة • طلبت من سفرة بالبحر الأحمر لأرافق المس ايفنس لرفاعه ومعنا المسز كروفوت العاقلة المؤدبة فلما فتشت مدرسة البنات المس ايفنس التفتت الى بلا مجاملة وقالت لى يقولون الشيخ بابكر الشيخ بابكر (مكررا) أين نتيجتك قلت لها وأنا باسم نتجيتى مجيئك للسودان فأنا الذى أسألك بعد سنة أو سنتين أين نتيجتك وانتظرى ذلك فغضبت ولكنها سكتت وفى غد طلبت منى مدام كردفوت أن أطلعها على نساجى الدمور وشمال الصوف • مررت بها على نساجى الدمور برفاعة وأخذنا عربة لقرية الهبيكة لنسج الصوف والمس ايفنس معنا فلما رجعنا مررنا بالطريق بأشجار النعوت التى كانت حاملة أصابعها البيضاء الاسطوانية التى تشبه الحشرة التى

فى بطنها بدودة القز وحشو أصابعها بالحرير الواطى النوع فأوقفت مــــدام كروفوت السواق ونزلت فقطعت بمضوتها جانبا من هذه الأصابع حتى طعنها شوك الشجرة وأدمى أصبعيها فركبت وأخذت تشرح للمس ايفانس • والمس تلهو عنها فاستدليت من هذه المعاملة قلة مجاملتها حتى لزوجة رئيسها ومنتخبها فلم أعد أحسن فيها ظنا ولا أنتظر منها مجاملة وان قلت • فلما رجعنا للخرطوم سألنى المدير سؤال منتقد عن قولى للمس ايفنس أنا الذى أنتظر أن أســألك الخ منكرا هذا الجواب فقلت لسعادته لماذا انتخبت هذه الرئيسة لمـــدارس البنات وحكيت له معاملتها لزوجته فغضى عنى ولم يكرر لى عتابه • اجتمعنا أنا والمستر هس فى دنقلا العرضى فانتخب جنابه بنتا زنجية تدعى الرسالة لتكون مدرسة فلم أوافق على انتخابها فقال لى أنتم تظلمون الزنوج وأخذها لأمدرمان.

خرجت يوما قبل ميعادى لمقابلة المس ايفينس فى موضوع نسيته فوجدتها بجلابية زرقاء منفوشة الشعر منزعجة فى ذهول لما رأتنى قالت يا شيخ بابكر أنا غير مسئولة والأستاذ أحمد البشير واقف بجانبها مبد الحيرة فقلت لهـــا مالك قالت البنت الرسالة قفزت هذا السور مستعينة بالأدبخانات وهربت من المدرسة فقلت لها اطمئنى فأنا الساعة ٥ مساء أحضرها لك هنا فشـــــكرتنى واطمأنت والحقيقة أنا قلت هذا لتطمئن من ذهولها وما كنت أعرف للبنت مكانا ولكن الله أهدانى لمكانها بالخرطوم بحرى حيث وجدت أحد أقارب سيدها الصـــاغ سعد أفندى لبيب من سكان دنقلا فى الترام فسألته عنها قال لى أختها الكبرى جاءت من دنقلا وهى معنا فى بيتنا فقلت له اعمل معــروف اذا جاءتكم حافظ عليها لحينما آتيكم بعد ساعتين فى الترام الآتى (لأن الترام مدة الحرب العظمى يقوم كل ساعتين مرة) فأخبرت سعادة المستر هسى وتوجهت فوصلتهم قبلهــا فطلبت أختها وسألتها عن الرسالة فقالت انى جئت لأخذها لدنقلا لأنها خطبت وفضلنا أنها تتزوج فقلت لها هذا غرض جميل ولكن بقى على الأجازة ثلاثة شهور فأنا نعطيك جنيها فى الشهر لتعوسى العجين للبنات الكسرة فقط وهى تتم درسها فى السنة ثم تسافران بالاجازة على حساب الحكومة فاذا تزوجت فالمدرسة ترفتها واذا لم تتزوج فارجعا هى لمدرستها وأنت لعملك فوافقتنى • فلما رجعت وجدتها والأفندى قابض عليها فأخذتها ووصلنا الساعة ٥ فرأيت المس ايفنس فى الباب الخارجى تنظر يمينا وشمالا فلما تحققت منا طلعت فى قصرها فلمـــا

قربنا منهـــا لم تسمح أن تجينا عرجت بها لطريق منزلى فلمـــا رأتنى رجعت بها
نزلت وخرجت من السور فى الشارع وناديت شيخ بابكر كتر خيرك كررتهـــا
مرارا وهى ساعية وراءنا فرجعت لها بها فدعتنى لشرب الشــــاى فشـــكرتها
ورجعت بعد أن أخبرتها بأجرة الكبيرة الذين كانوا فى حاجة اليها ولكن الرسالة
لم تنجح كمعلمة • وكانت شقيقتى البتول مع بناتها أم لهن لأن المعتـــاد كان فى
أول الامر أن البنت التى بقسم المعلمات يلزم أن تصحبها أمها لتطمئن عليهـــا
فجاءتنى يوما وقالت لى الرئيسة أمرت أمهات البنات بغسل الادبخانات فمـــاذا
أصنع قلت لا تمدى يدك ولو من الخارج فلما أمرتها المس ايفنس قالت لهـــا
لا يمكن أن أمد يدى للأدبخانة ولو جدرانها من الخارج فلما بدأت تضـــغط
عليها قلعت نعالها من رجلها وقلبتها للرئيسة وقالت لهـــا جميلتك على هـــذا
(وهى عبارة فى العرف السودانى غير محمودة) ثم قالت انت امرأة وأنا امرأة
لا تزيدين على بشىء فقالت لها المس ايفنس أنا أشكوك للشيخ بابكر بدرى
قالت لها اشكينى الخواف من غير الله اشراك وكان الشيخ أحمد البشير المفتى
واقف يسمع هذا وهى تقول له ترجم لها يا ود البشير فلمته على عـــدم تأديب
البتول حينما قلبت النعال لأن هذه البذاءة ليست من أخلاقنا ولكنى عاقبتهـــا
عليها • فى يوم قال المستر هس أن مس ايفنس قالت أن البتـــــول تسرق من
المشتروات التى تشتريها للمطبخ فقلت له والله اذا سرقت مس ايفنس البتـــول
لا تسرق قال لى المس ايفنس لا تسرق قلت انت لا تعرف المس ايفنس كمعرفتى
للبتول • والله اذا تسرق المس ايفنس عشرة مرات البتول لا تسرق مرة واحدة
وعلى كل حال أنا أعلن سعادتك أن البتول من يوم غد لا تكون بالمدرســـة •
ابحثوا عن خلفها فلما أخبر المس ايفنس بذلك قالت له أنا ما قلت لك البتـــول
تسرق وهى كما قال الشيخ بابكر لا تسرق أبدا وانما قلت لك أن البتـــــول
لا تسرق كما أن أسلافها يسرقن من المشتروات فاذا بقى عندها مليمان أو أى
مبلغ ترده لى فلما حضرت للمكتب غداة يوم الحادث طلبنى المســـــتر هس
وأخبرنى بما قالته المس ايفنس واعتذر لي بأنه فهم غلطا وطلب منى أن أترك
البتول فى عملها فقلت لسعادته أنتم لا تميزون بين الناس وهذا يسبب ســـوء
الفهم غالبا وأجبت طلبه فى البتول • بلغنى أن المدير يريد بناء مدرسة المعلمات
بالخرطوم فراجعت سعادته وحسنت له أن تكون بأم دمان فأخذنى معه لنبحث

لها عن مكان مناسب فاختار سعادته السهل الذى يقع جنوب المركز قبـل أن يبنى ولكنى أثنيته عنه واقترحت عليه بيت الخليفة عبد الله الذى كانت فيـه المحكمة الشرعية وبقية بيته جميعه الا الجزء الغربى الذى به الآثار وبيت مفتش المركز الأول . فى أثناء تعليمى العرفاء ومعى الشيخ عمر اسحق نعلم فـرقتين طلبت من سعادة المدير اعتبار العرفاء فى المعاش أسوة بكتاب المحاكم الشرعية الذين يوجد بينهم من لم ينفعوا عندنا ونحيلهم على المصلحة القضائية فيعطونهم الثامنة المطلقة ويدخلون المعاش كحسن الضو وغيره فأمرنى أن أمضى للمحاكم الشرعية وآتيه ببيان يؤيد قولى هذا فمضيت وأتيته بنحو ثمـانية معلمين من الضعفاء وجدوا المزيتين فوعدنى بالنظر فى أمرهم فطلبت منه أن يبلغهم ذلك بأن يزورهم فى فصلهم ويعدهم بذلك فتكرم ونزل اليهم وأبلغهم انه سيساويهم بكتبة المحـاكم الشرعية فقام أحدهم المدعو أحمد المصطفى المغوارى وتظـلم لسعادته انه من قسم المعلمين واعتبر كالعرفاء مع انه متمم رابعة معلمين فقـال له سعادته ولماذا لم تنتقل للخامسة فقال انى لم أؤد امتحان الرابعة فقال يعنى انك أمضيت ثلاثة كالعرفاء فجلس مقتنعا . ولكن مما يؤسف له أن وعد سعادة المستر كروفوت للعرفاء لم ينفذ فعلا الا فى سنة ١٩٣٠ على يد المستر اسكوت الذى وجد مكاتباته موضوعة فى زوايا الاهمال فأحصاها ونفذها جـزاه الله عن المساكين خير الجزاء. وفى هذه السنة طلبنى سعادة المدير بمكتبه ووجدت معه المستر يودال وضعونى على كرسى بينهما وأعطانى المدير ظرفا مقفولا وقال لى امضى به للمستر ولس فقلت طبعا أنك أخبرته فى هذا الكتاب انى أنفع فى مكتبه وأؤدى فيه ما يجب له ولكنى والله العظيم لو كنت أقوم بهذه المأمورية كمـا يجب لنفذتها تماما لأجل خاطرك وأجعلها من ضمن الذنوب التى أستغفر الله منها ولكنى متأكد من نفسى التقصير فى ادائها لعدم تعودى لمثلهـا وانى أخاف ألا أحقق شهادتك فى فأضر غيرى فيها فلما سمع منى سعادة المستر يودال ما سمع تركنا وأخلى المجلس فقال لى سعادة المدير بعده انت زعلان قلت كيف أزعل وسعادتك رقيتنى من ناظر كتاب الى مفتش فمزق الكتاب وتركنى فانصرفت ولم يسألنى أحدهما عن خبر قط كما لم يسألانى قبل ذلك . فى هذه السـنة فتشت مديرية كسلا وكان الشيخ البشير الفضيل ناظر كتاب كسلا فاقترحت فى تقريرى ترقيته للدرجة السادسة أسوة بأقرانه فلما ترجم التقرير طلبنى سعادة

المستر هس وقال كيف تطلب الترقية لمن لا يستحقها وهو الشيخ البشير الفضل قلت ما سبب عدم استحقاقه لها قال هو لا يعرف العربى قلت سعادتك انت تعرف العربى مثله قال لا • ولكن كل التلاميـذ الذين يتقدمون للكلية من مدرسته يسقطون فى الامتحان • قلت قد وضحت السبب فى تقريرى وهو أن من يطلبون منه لا ينتخبون مثل غيرهم بل يعينون تعيينا وقد يكونون لم يأتوا للمدرسة الا لماما من أولاد العمد والنظار وهذا لا يعد عليه ذنب وعلى كل حال ان لم يستحقها وهو ناظر كتاب يستحقها وهو مدرس ماهر للسنة الرابعة كالقانون فنقله للابتدائى بسدنى وأعطاه الدرجة فشكرت له ديمقراطيته وانصافه للشيخ بشير الفضل •

فى بعض سفراتى لدنقلا وأنا بمدرسة البنات أرسل الى جناب المستر درمندهاى بمدرسة الأولاد فوجدته جمع أعيان المدينة وبوصولى خطب فيهم بأن السيدة زوجته ستأتى الساعة ٧ صباحا بمدرسة البنات فعلى كل منكم أن يرسل زوجته لتكون معها • ان زوجتى ابنة عمى وما جئت بها من ممرضات الاسبتالية وهدد من تتأخر زوجته بعبارة لم أستحضرها فتفرق الناس مزمجرين ولم يرد عليه أحد منهم بلا أو نعم • فقلت لجنابه الرجال تكدروا واذا لم تأت من البلدة امرأة واحدة ما أنت فاعل بالرجال فان مسألة النساء حساسة جدا بعوائد السودان فالأحسن بأن تخبر بعضهم بالمكتب أنك تهزر معهم وتترك المسألة للشيخ أحمد البخارى الذى اختاروه أنفسهم لتعليم البنات بالمدرسة وهو وطنى منهم فهو حينما نلزمه يعرف الطريقة التى يحضر بها النساء لمقابلة السيدة الفاضلة بحق زوجته فطلبنا الشيخ البخارى وأخبرناه أن جنابه يمزح بما قاله للجميع ومن واجبك أن تعمل دعاية للمدرسة حتى يرى الأمهات مصنوعات بناتهن وهن يعملن فيها أمامهن حتى لا يتسرب لهن الشك فى انه عمل غيرهن ونسب لاحداهن تدليسا وغشا فنشر الشيخ هذا بالمنازل فما جاء الوقت المحدد الا وقد امتلأت مدرسة البنات بالنساء اللائى حدد لهن ساعتين ولما كانت مدرسة الأولاد بلصق مدرسة البنات وشبابيكها فاتحة على مدرسة البنات أخرنا دخول التلاميذ والمعلمين بعد الساعة التاسعة • وانى لأعجب من هذا الغلو فى التستر على المرأة الذى لم تأمر الشريعة البيضاء التى أتاحت للمتوفى عنها زوجها أن تقضى حاجتها بالسوق الذى لم يكن لديها من يقوم عنها بدلا

منها ــ هذا الغلو المخالف لعادة عرب السودان وأظنــه مكتسب من الأتراك الذين مكثوا حكاما من سنة ١٢٣٦ الى سنة ١٢٩٨ والناس مولعون بما يوافق مليكهم وانتهى الموضوع على أحسن حال • بعد رجوعي من دنقــلا أطلعني المستر يودال على أوراق من المستر بوسن بها أن أهل القطينـــة يتهمون الشيخ حسن أحمد ناظر المدرسة ولما كنت أعرفه معرفة حقيقية وأعرف مكائد ابراهيم بدري الذي غير راض خطبة الشيخ حسن لابنتي عزيزة وموافقة صديقه شوقي الذي معه بالدويم وشنقيطي نائب المأمور بالقطينة وأنا متأكد من انقياد الأهالي للمآمير كما شاءوا وان الشيخ حسن أحمد كان معي برفاعة وساكن معي بالمنزل سنتين المدة التي أكدت عفافه من النساء فضلا عن الأولاد وأن غيرته على تعليم وتفهيم تلاميذه اللتين لا يرضى عن نفسه الا أن يتساووا فيهما كلهــم • وقفت وقفة المدافع رغم أن المستر بوسن الرجل العاقل أثر عليه شوقي أفندي حتى عقب آخر مرة انه مقتنع بصحة هذه التهمة ويستأذن المصلحة في محاكمة الأســتاذ ورغم هذا قلت للمستر يودال كل هذا من شوقي أفنــدي وابن أخي ابراهيم بدري الذي أرغمه والده على امضاء خطبة الشيخ حسن لابنتي كمــا أرغمــه قبل ذلك على زواج عبيد أفندي عبد النور بزواج بنت شقيقتنا • واقترحت على سعادته أن يكتب سرا للمستر غرادين مفتش القطينة اذا كان الأمر كمــا يقولون فليبحث بحثا سريا دقيقا وأنا متأكد سعادتك ستظهر نزاهة الأســتاذ وحكيت لسعادته ما دبره الثلاثة بخصوص منزل القاضي الشيخ عبد الله أحمد هاشم الذي قال ابراهيم أبوه طيب ولكنه أخذ من عمه بابكر بدري مشيرا الى حادثته معي حينما كان قاضيا برفاعة وبذلك اقتنع سعادته وكتب للمستر بوسن انه وافق على نزاهة الشيخ حسن أحمد ويرجوه ألا يتمسك في الموضـــوع وبذلك انتهى المشروع عليهم بالفشل •

في هذه السنة عمل مجلس بمنزل السيد عبد الرحمن المهدي سياسي ولكن لجهلنا بالسياسة لم تتقن نفاذ الخطة كما يجب أما الذي حصل فعلا طلبنا فدخلنا غرفة بها ورقتان أنا والشيخ عــــلي أبو قصيصة ــ في الورقة الأولى ذكــر الشريكين صاحبي العلمين بالسودان وبعد ديباجة تفصيلية صرحنا انا نفضــل انفرادنا بالشريك المتولي الحكم الآن (الانجليز) وبالورقة الثــانية أن تكون الحكومة المختارة وصية تبين سيرها بالبلاد نحو الحكم الذاتي فلما اجتمع عقد

الجماعة قرأ المرحوم حسين شريف الورقة الأولى وسكت عن الثانيــة فقلت يا سيد حسين الورقة الثانية معتقــــدا أنه نسيها ثم قمت فقلت نحن لو كنــا مستحقين أن نحكم أنفسنا فالشريكان لا نختار أحدهما ولكن الشيخ اسماعيل الأزهـــرى كان بيني وبين الســـيد عبــد الرحمن قال لى : يا شـــيخ بابكر هؤلاء خيار الناس لا يحتاجون لتفسير ما تلى عليهم . وفى الحال التفت الى السيد عبد الرحمن وقال لى أجلس سيجتمع مجلس خاص غدا وستكون من أعضائه فجلست فى الحال مررت على المجتمعين صورة الورقة للتوقيع عليها فاستأذن سيد أحمد سوار الدهب وأحمد حسن عبد المنعم وخرجا قبــل أن يوقعا ووقع كل من بالمجلس عدا الشيخ أبى القاسم هاشم شيخ العلماء بالمعهد الذى أخذ أخوه المفتى الورقة ووقعها منه ليلا بمنزله وفى صباح اليوم أمرنى مدير المعارف بالسعى للمستر هدلستم مدير الخرطوم فلما دخلت عليه وجدت أمامه القرار وبه حشـــوة بين سطرين بعد اسم السيد عبد الرحمن المهـــدى (عليه السلام) فقال لى المدير خط من هذا قلت خط الشريف يوسف الهندى . قال ان الحكومة لا تؤمن بالمهدى ولا تسمح أن يتبع اسـ ـه بعليه السلام قلت هل آمنت بمحمد رسولا ؟ قال لا . قلت هل منعت الحكومة أن يتلو اسمه عليه الصلاة والسلام أو صلى الله عليه وسلم فسكت قلت هـذا لا يضر الحـــكومة أتباعه ولا ينفعها تركه . فقال صحيح الشيخ أبو القاسم رفض التوقيع قلت نعم رفضه فى المجلس العام وبلغنى انه وقع بمنزله قال ولماذا امتنع قلت لو كنت مكانه لم أوقع لا فى المجلس ولا فى منزلى ولم قلت لأن العامة يعتقدونه شيخ الاسلام فيعتبرون الحكومة خارجة عن الدين الذى هو رئيسه والعامة هم الأغلبيـــة الساحقة والشيخ أبو القاسم ألصق الناس بهم فلو أسقطوه لم يرفعــه الذين يميزون بين الكتابى وغير الكتابى ثم قلت لسعادته ناس المهدية نعم الأصـــدقاء للحكومة قال لم . لأنهم يعتقدون أن المهدى ظهر ومات فلا ينتظرون مهـــديا آخر فلو ادعى أحد انه مهدى فى غرب السودان فمعتقدوا المهـــدى ينذبونه ويهدؤون فى مكانهم ومنكروا المهدى الذى ظهر ومات يؤملون فى المـــدعى الجديد ويؤيدونه فيتعبون الحـــكومة فضربنى فى كتفى وقال هـــذه دعاية للمهدويين لأنك منهم فضحك وودعته ولما علم المفتى ما قلته بخصوص الشيخ قال لى والله انت مظلوم كررها ثلاثة مرات .

فى هذه السنة صحبت المستر فيلد لتفتيش سواكن قبل نقل الابتدائى الى بورتسودان فاصابتنى دوسنتاريا آتعبتنى • وكان ضمن مدرسيها عبد القادر افندى شريف الذى نقل فراشه ووضعه أمام الغرفة التى آنام فيهـــا بالمدرسة بالبرندة واحضر مصباحا ومظلة لأن المطر تتوالى رذاذا فمتى سمعنى تحركت للخروج فتح المظله وحمل المصباح ونزل معى الســـلم نازلا رغم انى أغالب الطبيعه لئلا اتعبه فلا يقل خروجى عن الثمانية مرات وبعد آن أتممنـــا تفتيش المدرسة رايت أن أتاخر حتى يتم شفائى ولكن همة عبد القادر الذى أدخـــل حمارى القطار وخدامى وجاء لى بالعربة الفورد صالون بالتساريح أرغمتنى همته هذه على السفر مع المستر فيلد الذى كنت أستأذنه فى التـــأخير ولكن سفرى صدق لى الحكمة (سافروا مرضى يشفكم الله) وفى القطار اجتمعت بالمستر فيلد وشكوت له من القـــانون الذى يحظـــر على المستخدم مشترى بهائم وأخذ أجرتها من الحكومة فحكى لى انه احتار فى سنار عن وجـــــود بهائم يرحل عليها لطوكر فأخذ جمال المستر هس مفتش المركز وقتئذ وصرف أجرتها باسم الخدام الذى أرسله معه ليرجع بالجمال فيرى جنابه اذا اضــــطر المستخدم لمشترى زوامل يترحل عليها فلا مانع • وصلنـــا الخرطوم معـــا وواصلنا سفرنا للأبيض لتفتيش مدارسها فقال لى جنــــابه انه يريد أن يوبخ الشيخ محمد البدوى لأن المدير أمره بذلك • قلت ما السبب • قال لى شكاه النـــاظر الشيخ على أبو قصيصة • قلت الشيخ محمـــــد البدوى لا يقبـــل التوبيخ بدون تحقيق قال ماذا يصنع قلت جنابك يتكلم وهو لا يتأثر لكلامك • وعلى كل حال نحن الآن فى التفتيش فلننظره بعين خاصة فاذا وجدنا عنده تقصير أو قصور تتخذه جنابك وسيلة وتوبخه وتذكر له ضمن توبيخك ما بلغك عنه فاستحسن ذلك وبنهاية التفتيش لم نجد من الشيخ البدوى قصورا ولا تقصيرا فجاءنى المستر فيلد فى غرفتى التى نازل فيها بالمدرسة قال لى الأستاذ البدوى عمله جميل فما هو السبب الذى يشتكى منه الناظر قلت الشيخ البـــدوى شيطان (نبيه) يقوم بواجبه المدرسى كأحسن ما يكون خصوصا فى المواقيت يكون أول من دخل وآخر من خرج ولكنه يغتاب الناظر فى البلد وخصوصياته وهذا شىء لا يهم المصلحة فاذا كان الناظر مظلوما منه شخصيا فليشـــكوه فى المركز فحكى المستر فيلد للبدوى ما دار بيننا فأخذ البدوى كلمة شـــيطان

سبا له ولم يقدر لدفاعي عنه قدره فجاءني ومعي بعض المعلمين وخلف رجله على أختها وتجشم بقوة وقال أنا والله شيطان فلم أكلمه وأظنه كتب لوالده الذى لقيني بمحطة الخرطوم وذكر لى شكوى ولده لى ونسيا كل ما قدمته لهما من احسان ونفثوا فى سمهم المشهور عنهم • فى هذه السنة أو التى قبلها لا أدرى أفرج عن الشيخ أحمد البدوى من اعتقاله أو سجنه بحلفا فزرته فى بيته ونويت أن أدعوه بمنزلى ثم لقيته بمعدية الخرطوم وأم درمان ومعى الشيخ عمر اسحق فقلت للشيخ البدوى خذ هذين الجنيهين ضيافتك التى نويت أن أدعوك لها بمنزلى فانى رأيت أنهما أنفع لك من لقمة تأكلها معنا ونحن ننتفع بأكلها أكثر منك فشكرنى وأخذها ثم لقينى مرة أخرى بترام شمبات • فطلبنى أن أطلب له من مدير المعارف يتوسط له عند مدير المخابرات ليردوا له المنحة التى كان يأخذها بحلفا على حساب المخابرات • وأذكره يده على سعادة المدير حينما كان قاضيا لمديرية بربر وعنده تلاميذ يعلمهم العلم فلما جاء المستر كروفوت يدعو الناس لارسال أولادهم لكلية غردون والشيخ أحمد البدوى ساعده بأن أرضى ولاة أمور تلامذته وأرسلهم للكلية وهو يتقاضاها من سعادته الآن • قابلت المدير وذكرت له أن الرجل كبير السن عالم من قبيلة كبيرة لها تاريخ فى السودان وليس له الا ولد واحد وهو المدرس بالمعارف ومرتبه صغير وعائلتهم كبيرة ومسألة تسع جنيهات لا تؤثر فى مالية الحكومة لكنها تنفعه هو فسعادتك تعرف أنه نزل عن مرتب كبير كان يصرفه كله فقبل منى هذا الكلام الذى لم أذكر له يده عليه لأنى خفت المدير ليغضب ففى الحال تكلم مع المستر ولس وقال لى أخبره أنها ردت له فقلت شئ آخر قال ما هو قلت أن الشيخ البدوى ساكن فى بيت خواجة بالأجرة فلو أخبرت سعادتك مدير الخرطوم يعطيه قطعة أرض ووصيتم على ولده باعطائه سلفية مبانى يكون جميلا • فغضب ونهرنى قائلا هذا الرجل بطال لماذا تعطف عليه هذا العطف فخرجت مسرعا وكلفت الشيخ عمر اسحق يخبره برد المنحة له حتى أقابله •

فتشت مدارس مديرية بربر فلما وصلت الدامر ، قابلت نائب المدير بواسطة الباشكاتب نسيم بدر ولما دخلت الكتاب للتفتيش جاءنى مفتش المركز وسأل الناظر عنى فلما علم بى طلبنى بالمركز وقال لى جنابه كيف دخلت المدرسة بدون علمى فقلت العادة مدير المعارف يعلن مدير المديرية بتوجيه مفتش مصلحة

المعارف ويعمل جدولا يتضمن يوم وتاريخ وصولى أى مدينـــة أو قرية بها مدرسة ومتى أبارحها من ثلاثة صور • صورة لمدير المديرية وصورة بالمعارف وصورة بيدى لأسير بموجبها ومع ذلك قابلت نائب المدير فأغلظ على فى القول فخرجت من عنده فطلبنى حينما خرجت وقال أين تقصد • قلت لأكتب للمعارف أشكوك • وقال أنا أيضا أشكوك وفعلا كتبت للمعارف وفى عصر ذلك اليوم ونحن بملعب الكورة زارنى سعادة المستر براون الذى كان مفتشا برفاعـة فعاتبنى لماذا لا أزوره فقلت سعـادتك صرت مديرا كبـيرا قال وانت صرت مفتشا فالنسبة محفوظة بيننا ودعانى للشاى بمنزله فأنا مع سعادته جاء نفس المفتش ووقف قليلا تحدث مع سعادته فعرفه بى وصافحنى باحترام كأن لم يكن شىء بيننا • ولحقنى رد المعارف وأنا بمدرسة مقـــرات بأنهم كتبوا له وانه اعتذر •

سنة ١٩٢٢ فى أوائل هذه السنة لقينى الشيخ الطيب هاشم المفتى وقال لى هل بلغك أن الشيخ أحمد البدوى سيعين مفتشا بالمعـارف قلت لم يبلغنى ذلك والمصلحة فى حاجة لمفتش عربى رابع بعد تعيين الشيخ عمر اسحق ثالثـا قال لى أول ما يدخل المصلحة يقلعك ويحل مكانك قلت هذا من عنـــد الله يا مولاى فلما يئس منى قال سآتيك غدا بمكتبك هل تذهب معى للمســتر يودال قلت بلا شك ففارقنى فأتانى فى ميعـاده فأخبرت الوكيل بمجيئه يريد مقابلته فأذن له وأمرنى بمصاحبتى ما دام معه • فلما شرب القهوة قال يامستر يودال هل بلغك أن المستر كروفوت اتفق مع المستر استرى عـلى أن يعفوا أحمد البدوى كوساطة الزعماء له فيه ويعينوه مفتشا بالمعارف قال سـعادته لا علم لى • قال المفتى أنت والمستر كروفوت ألستم أولاد عم قال نعم • قال المفتى والله يدخل بينكما ليفتنكما كما فتن السادة الميرغنيـة ويترككما يضرب بعضكما بعضا والتلاميذ والمعلمون يتفرجون عليكم فقال الوكيل وهو متحمس اذا كنت فى كرسى هذا فأحمد البدوى لا يتعين فى المعارف مطلقـا أبدا فأسرع المفتى بالخروج وقال لى وقد ضغطنى فى يدى المسك بها هذى قضت وكفاكم الله شره • وأحمد البـــدوى يعتقد أنى سعيت فى حرمانه من هـذه الوظيفة المزعومة وأنا علم الله وشهد أنى لا يد لى فيها • صحبت المستر هس لتفتيش مدارس الأبيض فلما زرنا مدرسة البنات وجدنا الشيخ سليمان يعطيهن حرف

الحاء فرسم صورة حصان فى نحـــو خمس دقائق ونحن واقفان ثم قال لهن ما هذا قلن له حصان فقال لهن حصان ذا هو الحاء فخرجنا ضاحكين فلمارجعنا للخرطوم طلبنى بعد مدة لا أذكرها سعادة المدير لمجلس به سعادته والمستر يودال وهس وفيلد فلما جلست علمت أن المجلس منعقد لرفت اسماعيل الماحى ناظر كتاب البنـات والأولاد بالأبيض فظننت أن الاسم غلط فالتفت للمستر هسي وقلت لسعادته المطلوب رفته اسماعيل الماحى أم سليمان الأزهرى قال اسماعيل الماحى لأن السيد اســماعيل الازهرى طلب رفته فقلت نحن نعين ونرفت بطلب الناس فقال لى سعادة المدير صوتك سقط فخرجت من المجلس بعقيدة ما كنت لأصدق انهـا تحصل من الشعب الانجليزى وحزنت فى نفسى حتى جعلتها مجال فكرتى فى ذلك اليوم وفى اثناء جولان فكرى خطر ببالى أنه لما يصل الأبيض خبر رفته يحضر عماه السيدان محجوب وأبو الغيث لمـدير الأبيض • ومعهم خليفة السيد المكى يسلمان ويقعان على رجليه يطلبان منـه رجوعه للخدمة ولا شك أن مدير الأبيض يجيب طلبهما ويبرق لمدير المعـارف برأيه فيرتبك سعادته ان ألحق للخدمة خالف رأيه فالأحسن له أن يحطاط لهذا الأمر وان لم يوافق على إرجاعه احتاج لمبررات لعزله من منصبه الصغير مما يقنع بها مدير الأبيض فلم يجدها مقنعـة • فالأحسن انى أخبر سعادة مديرنا بذلك لأخلى نفسى من مسئولية الجهل بما يحصل بالأبيض وبعدم التبليغ اذا كنت عالما • فلما حضرت بالمكتب فى صبيحة ذلك اليوم مررت على روفائيـل أفندى الياس وسألته ماذا تم بخصوص اسماعيل الماحى فقال لى كتب جواب برفته فدخلت على سعادة المدير وقلت له اسماعيل الماحى فقال لى بحدة كتبنا برفته قلت علمت ذلك من الباشكاتب ولكنى جئت لأخبر سعادتك بما يحصـل بالأبيض وقال ولم تخبرنى ؟ قلت لأخلى نفسى عندك من مسئولية حينما تعلمه وقصصت عليه القصة فقال لى أيحصل هذا قلت سل سعادتك المســتر هسى فسأله فقال يحصل ذلك فكتب ورقة لمدير البوستة حملها الفراش حسن عبد الله الذى جاء بالكتاب واستمر اسماعيل الماحى فى وظيفته ذلك تقـدير العزيز الحكيم العليم سخرنى لتنفيذ ارادته تعالى أمره على كل أمر • لم أقصد خدمة اسماعيل الماحى ولا انصافه ولكن قصدت اخلائى فجعلنى الله سببا •

ومن طرائف حوادث التلاميـــذ فى الكلية التى مرت بى وأنا مفتش بالمعارف قصة اتهام أحد أولاد رفاعة زميلا له فى أمدرمان بأخـذ جنيهين أو ثلاثة من دولابه ولم أعلم المسألة قبل وصولها للمستر يودال حيث أخبرنى بها على بدرى وأنا قادم للترام بعد مكتب الخميس فلمته حيث لم يخبرنى بها يوم حصولها . أتانى فى ليلة السبت خاله وهو محموم وطلب أن أساعد فى الموضوع وأنهيه بحيث لا يطرد الولد من المدرسة فلما وصلت الكلية جاءنى الولد ومعه مدثر البوشى وأخبرانى أن ألف وعين صديقان وأن عين أخبر ألفا أن عبيـد أفندى عبد النور أعطاهما برفاعة درسا فى التاريخ وهو قيد ملحوظاته بمذكرته واذا أراد أن يطلع عليها فهى فى دولابه فأخذ ألف المذكرة لغرفته وفتحها وجد فيها الجنيهـات وحفظها فى جيبه ولما انتهى من نقل المذكرة ورجع بها مكانهـا لردها وجد التفتيش جار بواسطة عبد القادر شريف فخاف اذا قدمها يظن هو الذى سرقها فرجع وبعد مدة رجع بها الى عين الذى أذاع أنه وجدها عند ألف فصدقتهما واعتبرت هذا عذرا مقبولا فحكيته للمستر يودال الذى أمرنى بأن آتيه بهما فلما ذهبت إليهما أرسل سعادته لعين وسأله عن جميع نقط ما حكيته له فأنكر الجميع وقدم مذكرته التى لم توجد بها مذكرات تاريخ ولمـا دخلت عليه وهما خارج مكتبه وجدت عين معه وأخبرنى سعادته جميع ما دار بينهمـا وتكذيب عين لما حكيته وقال لى انه سيطرد ألف من المدرسة فقلت له لو كنت مكان جده وسعادتك تطرد ولدى فى اكتوبر وهو برابعة لو ربطت رجليـــه بالهدم وسعى برجليه دون نعل لأرسلته لمصر وألحقته بمدارسها فان سـعادتك أوافقك على كل جزاء توقعه عليه غير الرفت فقال أخرجه من الداخلية وأحرمه المرتب وأجلده اثنتى عشرة جلدة قلت أوافق ونفذها جميعها . ولما اطمأن الجد على بقاء حفيده بالمدرسة بدأ فى قلب الحقيقة فبدأ بلومى أولا لعدم حسمى للمسألة قبل أن تصل مدير الكلية ثم ترقى الى أنها مفتعلة على حفيده المحسود لتفوقه ثم ترقى الى أنى الملفق لها واستدل بأن جميع أركان القضية من رفاعة وكان ابنـه الذى زارنى بالبيت وهـــو محمـــوم يرجـــونى كمـــا تقدم وكان ابنى معه بالمكتب فبـدأ يسحب منـــه العمـــل المخصص له وهـــو يشكوه لى وأقول له ما دام لم ينقص شيئا من مرتبك فلا تبالى ولما كثر كلامه بشأنى لقينى المستر فلبيدس بالمعدية وأخبرنى بأنه يريد أن يصلح بينى وبينه

ولم يكن بيني وبين المستر فليبدس معرفة ولم يخاطبني باسمي قبل ذلك اليوم وكنت أظنه لم يعرفني • قلت له اني لا أريد أن تصلحنا قال ولماذا قلت نحن أكبر منك سنا ويجمعنا الوطن وأنت أجنبي فلا أحب أن يقال عنا تخاصـمنا وأصلحنا أجنبي فأعجب بقولي وقال حقا ما قلت • ثم قال لماذا لم أعـرفك يا شيخ بابكر وأنت رجل عاقل ثم قال سأسعى لصـلحكما من طريق غيري لا يفضحكما وبعد أيام جاءني في بيتي ومعه الشيخ الطيب المفتي وطلبا مني أن أصحبهما لمنزله فصحبتهما فلما وصلناه قال لنـا أن المستر يودال جاءه بمنزله ولامه على أنه بلغ السكرتير القضائي فقلت ان المستر يودال لم يقل لك ذلك لأنه قال لي بمكتبه أن السكرتير القضائي قال له ان ذمته لا تبرأ بأن يعين هذا الولد قاضيا فتمسك الجد بهذه الجملة التي ظن أنها تكفي لانتقـامه مني اذا بلغت المستر يودال وقال لي أتقول هذا أمام سعادة الوكيل • قلت أقولها فقال المفتي لا تكلفه بقولها • قلت على الطلاق أقولها أمامـه لأن علاقتي بك أهم عندي من علاقتي المؤقتة بسعادة الوكيل فسر من حلفي هذا ورآه قاضـيا على بالعزل فالتفت الشيخ الطيب الى المستر فليبدس وقال له (أهاحوبتك جات) أي وقت الحاجة لك حصل فحل المسألة فبابكر في خطر وصاحبه انتهز الفرصة فطأطأ فليبدس رأسه وبعد هنيهة قال قبل أن يمضي صاحبنا ليودال فأنا أسأل المستر ضن السكرتير هل سمع بحكاية التلميذ فان قال أخبره يودال فقدكذب يودال وصدق بابكر وان قال ما سمعتها فصدق يودال وكذب بابكر وفي اليوم التالي سأل فليبدس السكرتير فقال سمعتها وكلمني المستر يودال وأنا قلت له ذمتي لا تبرأ بعمل هذا الولد قاضيا فأخبر فلبيدس الرجل فقال أدخل عـلى المستر ضن وسله ان كنت في شك مما قلته لك وأنا أنصحك اذا كنت بعد هذا تحقد على بابكر بدري فأنا والله أقف في صفه وسأنقل ولده منكم لئلا يكون وجوده معكم باعث للضغائن ومجـالا للانتقـام وفعلا نقله لتسوية الجزيرة وانتفع في العمل المسـتقل وبدل السفرية واستمرينا أصدقاء بعد الجفـا فنشكرهما •

ندبت لتفتيش مدارس مديرية كسلا فوجدت المستر براون أيضا مـديرا بها ونائب المدير المستر بلفور وناظر المدرسة الشيخ البشير الفضل والقـاضي الشيخ محمد الطيب هاشم ونائب المأمور عبد المجيد على طه فقضـيت أياما

طيبة باجتماعنا فلما سافرت ووصلت استراحة المقطع بعد يومين من كسلا نزلت بها نحو الساعة ١١ وقدم لى الفطور وأنا آكل اذ دخل على سعادة المستر براون فقمت اجلالا له جلال محبته لا جلال هيبته فقط فقال لى أن معه المستر بلفور والسيدة قرينته فقلت لسعادته ما دامت الغرفة واحدة تتركها للسيدة وأنا أنصب خيمتي وأنتما كل منكم ينصب خيمته فيقيل فيها فاستحسن رأيي وابتدأ من معهم ينزلون العفش ومن معي يحولون أدواتي فلما جاءت المسز بلفور رفضت المقيل بالمقطع وقالت لى لما ألححت عليها أنا قاصدة صيد الأسد بغابة المحرقات اسم قرية وسيكون الأسد الآن مقيلا بعد الظهر ننتهز مقيله فى الغابة فجمعوا عفشهم وسافروا فقيلت فى غرفتي ففى الساعة ثلاثة ونصف أمرت الحملة بالسفر وأن ينزلوا فى حلة ولد كابو وفى الساعة خمسة ركبنا أنا والهجان ولما توسطنا الشارع بين المقطع وسهل المحرقات وكان الشارع المحاط بالغابة لا يزيد على اثنتى عشر مترا فما كان من العسكرى الذى أمامى الا أن أوقف جمله الذى صار يبول بولا لا ينقطع وأخذ حمارى بدوره يرتجف فقلت مالك فأشار بيده على فمه أن أسكت فأشار لى بأن أنظر أمامى فنظرت فاذا بالأسد فى الشارع بارزا الى آخر صدره وهو نائم فلما طال بنا الوقوف قلت اضربه بالرصاصة لأنه نائم فقال لى ضربه ممنوع الى أن يهجم علينا قلت صفر له صفارتك فلما صفر رفع الأسد رأسه ثم استأنف رقدته فقلت له صفر ثانية فلما سمعها الأسد وقف وانتفض فجعل غرته على كتفيه ونظر وهذه أول مرة أرى الأسد فى غابته ثم انه قطع الشارع ودخل الغابة ولا تزال ركائبنا ترتجف حتى سمعنا صوته بعيدا فاطمأننا وانطلقت زاملتانا تجريان بسرعة لا يخفضها زمام الجمل ولا لجام الحمار حتى خرجنا من الغابة ودخلنا سهل المحرقات . هدأنا وحمارى هذا كان عزيزا على لأنه مريح جدا فقلت فيه بيتى شعر وهما :

يا ذا الحمار حمدت مشيك والسخا	والصبر فى سفر وعمـا تأكل
ووهاط ظهـرك غير أنى قـدارى	من كل شيء حتى ظلك تجفـل

وقد مات بالنجمة بأم درمان وأنا بالمكتب فقال لى يوسف وعمره اذ ذاك عشرة سنوات والله يابابا حصل شيء يغضبك قلت ما هو قال حمارك التريده

مات فقلت الحمار فداؤك . ندبت لتفتيش مدارس مديرية حلفا بعد أن قابلت سعادة المدير المستر سيجر الذى كان نائب مدير النيل الأزرق سافرت لدلقو وعبرى لتفتيش كتابيهما وكان ناظر عبرى الرجل الشهم صديقى الشيخ حسن على أحد خريجى كلية غردون الأوائل فلما رجعت وكنت راكبا جملا اختاره لى الشيخ عثمان عبد القادر لوهاط ظهره ولكننى لم يسبق لى أن أركب جملا غير هذا الجمل فلما وصلنا قبة عكاشة (الذى يعتقد العامة أنه عكاشة بن محصن الصحابى غلطا منهم) بتنا بحلتهم وأمرت الحملة بأن تأخذ طريق العقبة فتنتظرنا بحلة مك الناصر ثم ركبت ومعى العسكرى بجمله فلما خرجنا من طرف حلة آكمه وبرز لنا السهل ضرب العسكرى جمله فرحا مرحا أو سكرا وأظنه الأخير وانطلق جملى خلف جمله فصرت أرتفع بصلبى من السرج وأقع عليه وأجر رسن جملى فلا يزداد الا نشاطا ويرخى عنقه للأرض ينازعنى الرسن فلما رأيت عناده وعدم ثباتى عليه تيقنت انى واقع لا محالة فملت به عن الطريق ووجهته نحو جبل ليهدأ اذا اعترضه الجبل . فأنخه وأقوده واذا استمر فى طلبه الجرى خلف جمل العسكرى الذى صرت لا أراه أطلقه وأسعى برجلى فاذا وصل العسكرى ووجده خاليا منى رجع به لى وليتنى لم أمل به فانه صار يدور بى حتى أحسست أن رأسى بدأ يدور اخترت أن أنزل احدى رجلى وأنزل الثانية وأنا ممسك برقبتى السرج ثم أطلقهما فجأة وأقع على الأرض على رجلى ولكن عندما أنزلت رجلى وحاولت انزال الثانية رفست رجلى صفحة الجمل الذى قفز بشدة ورمانى على حجر مسنن على ظهرى فصادفت سن الحجر فقرة من ظهرى فتقوست الفقرة وصرت لا أدرى شيئا مطلقا فلما وصل الجمل العسكرى قاده ورجع به لى فلما رآنى على الأرض صار يصيح لى يا أفندى مرة وباسمى مرة فلم أشعر به الا بعد مضى نصف ساعة كما أخبرنى فلما سمعت صوته كأنى حالم أو كأنى أسمعه من قعر بئر عميقة وبعد جهد وعيت وحاولت أفتح عينى فاذا بى أنظر الأفق أحمر قان وبعد نصف ساعة أخرى من وعيى صرت أرى الجو اعتياديا وفى الحال عزمت أن أرسل العسكرى الى عكاشة ثم خطر ببالى انه ربما يجد من يسكره فيشتغل معه ويتركنى حتى يجىء الليل وأنا أعرف أن هذا المكان مأهول بالذئاب وغيرها من الحيوانات المتوحشة التى تتسرب بالليل فتجدنى شخصا لا يدفع عن نفسه فتعمل بى ما شاءت واذا

أبقيته معى ونحن بلا ماء واليوم اثنين وعشرين ابريل فى غاية الحر فالعطش يضنينا للذئاب أو يقتلنا وأنا فى هذه الأفكار اذ رأيت جماعة فى الطريق العليا فقلت للعسكرى أمضى اليهم وجئنى بهم ولو تهددهم بالسلاح فلما وصلهم وجدهم ابراهيم أفندى فهمى كاتب حسابات عبرى وبحملته ذاهب لاداء الامتحان فلما أخبره ما حصل لى حول طريقه على ووضعوا لى عنقريبه فى حماره ونزلوا بى الى حلة سونق التى ليس بها غير ساقيه واحدة بها رجلان أحدهما يدعى محمد بدرى والآخر صالح قاسم والأخير كان غائبا وبها أربعة نسوة زوجة الأول وزوجتا الثانى ووالدته خديجة فبات معى ابراهيم أفندى وسافر بعد أن حلفت عليه وتلك الليلة لم أذق طعم النوم وكتبت للمأمور بعبرى (محمد أفندى فتحى الذى كان معنا برفاعة ساكن بمنزلى نحو سنتين) بخط ابراهيم أفندى فهمى ليخبر مصلحة المعارف بما حصل ويبرق لمدير حلفا ليرسل طبيبا ولو مساعد حكيم ليباشر حالتى لكن العسكرى الملعون هون عليه المسألة وناقض له ما فى الكتاب وأبرق للمعارف بالحادثة مخففة ولمدير حلفا بأنى أطلب أجازة للطريق أكثر من الزمن المعتاد ولكن الشيخ حسن على بمجرد ما سمع الحادث ركب جملا بحوية ووصلنى ثالث يوم فلما رأى حالتى انى لا أستطيع أكل طعام ولا أسيغ الشراب الا بصعوبة ولا يمكن أن أتحرك وأنا راقد على بطنى الى يمين أو شمال طلب من السكان الذين لما سمعوا بالحادث تجمع بعضهم وخصوصا العمدة • الذى بقى معى كلمهم الشيخ حسن على أن يعملوا حمام النار فخافوا أولا ثم ضغط عليهم وضمن لهم عدم المسئولية حتى رضوا • ما هو حمام النار ؟ يحفرون حفرة كالقبر ثم يملأونها خشب توقد فيه النار حتى تحمى الحفرة حرا شديدا يخرجون منها الفحم ويفرشونها فى سطحها وفى جانبيها بالسنامكى الأخضر ووضعونى فيها ودفنونى الى رأسى فبعد ثلث ساعة شعرت بالحرارة اشتدت فصبرت قليلا حتى صرت كأنى على الجمر بلا فراش فقلت للشيخ حسن أنى سأحترق ان لم يخرجونى فأمرهم باخراجى بسرعة فلما أخرجونى وجد السنامكى يبس وبدأ بعضه يحترق وطرف جلابيتى به دخان فوضعونى على سريرى وغطونى بالثوب والبطانية وبعد هنيهة ابتدأ العرق يجرى من جسمى مدة ساعة أو أكثر وبت بحالتى هذه فلما أصبحت وجدت نفسى فى ضعف شديد وأنا لا أستطيع أن آكل طعاما ولم يخرج منى

براز ففكرت أن دمي ضعيف الدورة وما دمت لا أستطيع الأكل فان دمي لا يجري الا بالسرور ولا أجد السرور الا بمؤانسة النساء فطلبت خديجة الكبرى سنا وقلت لها خلي بنيتك وزوجتي ولدك يجئن يؤانسنني فغضبت وقالت اذا سمعك الرجال يضربونك لأن هذا كلام بطال قلت ولكني مصمم عليه فذهبت وأخبرت أخاها المدعو عبد الله فجاءني مغضبا وامتنع مما طلبته باستنكار عظيم فطلبت الشيخ حسن علي وأخبرته بما أريد فقال ني أنا لا يمكن أن أطلب منهم هذا الطلب ولكن أكلمهم أن يخبروا العمدة فأخبره بطلبك . فلما جاء العمدة سألني بعبارة المنكر الطلب ولكنه قال لي أخيرا ماذا تريد من أنس النساء قلت أنا في حياتي لم أزن غير مرة واحدة حينما بلغت واذا كنت زانيا فهل في حالتي هذه طريق للخوف مني قال لا قلت أنا دورة دمي ضعيفة ولا يقويها الا الأكل والسرور فالأكل معدوم فاذا جاء البنات وتكلمن معي وضحكن فان قلبي يهتز ويقذف الدم بسرعة وكثرة فأبتدىء في القوة فما دام البلد لا طبيب فيها فلنجرب فكرتي هذه فان صحت كما أظن والا فقد عملنا جهدنا فخرج مني وأخذ معه الشيخ حسن علي الذي أعانه في طلبه وبعد عناء وعواء جاءت البنات وجلسن أمامي وتظاهرن بعدم معرفة أي كلمة من العربي فقلت لاحداهن ما اسمك . قال (عربي أرتم) ثم قلت لهن أنا عندي أحد عشر بنتا قلن بصوت واحد (بيوي) ومسكن على بعضهن متعجبات فأحسست بحركة نشوة في قلبي ثم قلت لهن احداهن اسمها فاطمة فقالت احداهن بصوت فصيح هذه اسمها فاطمة قاسم . وأشارت لاحداهن وهكذا حتى عرفت أسماءهن وبعد قليل قالت احداهن انها تريد القيام لتطحن فأذنتها فلما بدأت تطحن وتغني بلغتها ولكن بصوت رخيم اهتزت له أعصابي وتحرك قلبي بقذف الدم فقامت احداهن وأمسكت برجلي لتعصرها فجذبتها منها وقلت لا تفعلي . فقالت أن أهلنا قالو لنا عاملنه كوالدكن قلت أشكرهم ولكني اذا رضيت ورضى أهلكن ورضيتن فان الله لا يرضى فهو أولى بأن يرضى ثم انهم جعلوا اثنتين لأنسي واثنتين للعمل المنزلي أو بالساقية بالتناوب وبعد خمسة أيام سبقتها سبعة الحسوم دبت في جسمي روح الحياة عدا ظهري الذي لا أتحمل أن يمس أي مس الا آلمني كل الألم لكني صرت أقبل شراب اللبن من البقرة التي كانت تحلبها لي خديجة وتضع الجردل بلبنه

على تربيزة (خوان) صغير عند رأسي يسقني منه طباخي اللازم الذي لم يبلغ الحلم وهو مولد بمنزلي من أمه وأبيه وجدته الذين كنت أملكهم ولم يزالوا معي أخدمهم أكثر مما يخدموني . وقد عتقتهم أمام المستر كوث كما تقدم . فلما أحسست بدبيب الحياة في جسمي قلت للشيخ حسن أخبر العمدة يحضر لنا ثمانية رجال يحملونني بالتناوب الى حلة مرشد وأهل مرشد يحملونني الى جمي وأهـــل جمي الى عمـــكه وعمـــدة عمـــكه يوصلني حلفـــا فأحضر العمدة الرجال فحملوني . وفارقت خديجة بعدما أعطيتها من النقود ما رأيته واجبا لها على ولبناتها الأربع . وطلب مني محمد بدري أن أكتب لمأمور عبري يحدد له قطعة يبنيها بيتا لسكناه فعجبت لحجر تلك الأرض التي لا قيمـــة لها ولا رغبة في سكناها ولكنها القوانين الوضعية مأخوذة من القوانين السماوية فتعم البلاد والأفراد فكتبت لمحمد أفندي فتحي الذي كتب لي فيما بعـــد أنه بمروره على حلفا عاج على محمد بدري ومسح له الأرض وشـــكرهم على خدمتهم لي مدة مرضي أو محنتي فرددت عليه شاكرا صنيعه فلمـــا وصلت التبري لقيني الرجل الشهم صالح شلبي الذي أحضر لي سفينة صغيرة مهـــد لي فيهـــا ما أراحني الى شـــلال سمنا الذي منع المرور به وفي التبري لقيني الشيخ مجذوب مالك ابن عمي وصهري حينما سمع بحادثي وكان عاملاقضائيا بحلفا فساعد الشيخين حسن علي وصالح شلبي في خدمتي الشاقة حتى وصلنا حلفا وكان الشيخ صالح قائد حملتنا وترجمان رحلتنا والمسهل لأمورنا بمعرفته لغة كل بلد ننزل به مع انه عربي وهو ناظر عرب القراريش بمركز حلفـــا فلما وصلنا المدرسة ذهب الشيخ مجذوب وجاءني بصديقنا الدكتور خليل أفندي الخوري الذي بعد أن كشف على ظهري اعتجب مني كيف حييت الى هـــذا اليوم الذي هو يوم عشرين على الحادث . ثم طمأنني ألا يحصل لي شيء بعـــد هذه المدة التي مضت ثم انه ذهب ورجع ومعه تمرجيان فأمسك أحدهما كتفي والثاني صلبي وضغط الدكتور بيديه مفترقتين وبركبتيه على الفقرة المقوســـة حتى استوت مع اخواتها بعدما أحدثت صوت فرقعة لا أدري أســـمعتها أم أحسست بها لشدة ما انتابني من الألم ووضع على ظهري شيئا مقـــوى وربط عليه برباط وأمرني بالجلوس فجلست وفي ثالث يوم أمرني بالقيام فقمت ومن العجيب لم أحس بألم حينما جلست وحينما قمت وبعد ذلك أمرني بأن أمشي

قليلا وصرت آكل وأعطاني دواءا مقويا وبعد أيام باشرت عملي والحمد لله .
ودعت الشيخ حسن على ليرجع لمدرسته ومنزله والشيخ صالح شلبي الذى أرسلت له خمسة أرادب غلال بعد وصولي الخرطوم . أما حسن على فانى ألححت على سعادة المدير أن يكافأه عني بأن يضعه في الدرجة السادسة وحجتي له أنه ان لم يعمل شيئا يستحقها به غير أنه حفظ لكم حياتي فقد استحقها فأجاب طلبي فيه . بعد أن استطعت العمل طلب مني المدير بحلفا أن أصحب جناب مفتش حلفا لنفتح كتاب دبيرة الذى بناه العمدة عيسى عبده على حسابه الخاص . فأخبرت الدكتور خليل بمأموريتي هذه وانى أحس بنشاط وعدم أقل ألم فكشف على ظهري وبعد فحصه أخلاه من الجبيرة وأمرني بدلكه يوميا قبل النوم ليلا وعند الصباح قبل أن أقوم من سريري السبب الذى عودني استعمال الدلكة الى اليوم . وصلنا مدرسة دبيرة التى اتفقنا بعد أن رأينا ازدحام الجمهور عليها أن نفتح فيها فصلين مرة واحدة كل فصل أربعون ولدا ولكن الناس أحضروا ضعف هذا العدد تقريبا كل منهم أراد برغبة أكيدة أن يجعل ولده من المنتخبين وجعلوا يتشاجرون مما جعل المفتش يقول لى نرجع ونتركهم حتى يهدءوا أو يطلبوا مجيئنا مرة أخرى وهم قد حددوا العدد والأعيان حتى نرجع لهم ـ قلت جنابك اجلس فى ذلك الظل واتركنى لهم فسأفتح المدرسة الآن فعمل جنابه بما قلته له ثم جئت الناس وقلت لهم اختاروا واحدة من ثلاثة (١) أن يختار الكبار الذين يرفض القانون قبولهم فى القادمة . (٢) نمتحن الأولاد فى العربى والحساب ونأخذ الثمانين الأول بالترتيب . (٣) أن نمتحنهم بالنباهة فنأخذ النبهاء فاختاروا الثالثة فأوقفتهم صفين بالطول وكتبت أسماء كل صف فى وجه الورقة وقلت لهم كل ولد يعرف مكانه وجاريه اللذين واقف بينهما فأنا سأضرب لكم الجرس لتتفرقوا وتخرجوا من السور فاذا ضربته مرة أخرى أدخلوا وكل منكم يقف فى مكانه فاذا غلط أحد سقط حقه فى القبول . رضى الجميع بذلك وكررت ضرب الجرس ودخولهم وخروجهم واخراج من يغلطون بحيث يقفون بجنوب السور صفا وهكذا حتى بقى الثمانون فأدخلنا كل أربعين غرفة دون فرز المعلومات . تركنا هذا لناظر المدرسة فما كان من أحد يدعى سليمان الصائغ الذى قدم لى ولديه وقال يجب علينا قبولهم كما قبلنا ابنى العمدة من غير قرعة لأن العمدة

بنى المدرسة على حسابه الخاص • قال لى بحدة أنا أكتب لك شيكا بقيمتها الساعة هذه فلما رأيت جده وخشيت أن يتبعه غيره • قلت له أنا أقبل لك أحد ولديك وان تكلمت بعدها أخبر لك جناب المفتش الذى يطردك أمام الناس فيخزيك فقدم لى أصغرهما فأدخلته الفصل وأنا معه ولم أسمح لسليمان بمرافقتى • حكيت هذه الحكاية للدكتور ابراهيم سليمان الصائغ فقال لى أنا هو الولد الذى اختاره والده فقلت الحمد لله على قبولك فتحناها وأبنا لحلفا •

« نحن ربونا آباءنا أما أولادنا فتربيتكم »

ثم أن المستر سيجر مدير حلفا أرسل الى اللنش (الوابور الصغير) دعانى لشرب الشاى فكنت أنا وهو والسيدة قرينته فبعد أن فرغنا قال لى يا شيخ بابكر أنتم كبار السودان مؤدبون لكن أولادكم وخصوصا المتعلمين منهم غير مؤدبين • فقلت لسعادته نحن الكبار تأديب أبائنا أما المتعلمون فتأديبكم أنتم • فقال لى نحن غير مؤدبين قلت نحن لا نغبط الانجليزى على نفوذه ولا على نقوده مثل ما نغبطه على أخلاقه وآدابه ولكنكم جئتمونا بأجانب علموا الولد فى المدرسة ورأسوه فى المكتب فقلد المعلم واحترم الرئيس فانطبع بخلق المعلم وتملق للرئيس فذهبت عنه أخلاقنا وحال المعلم والرئيس بينه وبينكم فكيف تلومه ونحن وكلناه اليكم وأنتم وكلتوه لغيركم فقال لى سأكتب بهذا الحديث لمدير المعارف قلت لا مانع عندى ثم دخلنا فى أنس عام من ذكرى مديرية النيل الأزرق التى اجتمعنا فيها حيث كان سعادته نائب المدير أيام الحرب العظمى • ثم ودعانى الى اللنش الذى رجعت كما جئت به •

فى صباح ذلك اليوم طلبت من سعادته الاذن لمقابلتى الأمير عثمان دقنه بالسجن فندب معى المأمور محمد أفندى كامل الذى كان نائب مأمور برفاعة • فلما خرجنا من المكتب أرسل خلفى فرجعت لسيادته فقال لما تصل الخرطوم لا تقل لأحد انك رأيت عثمان دقنه فان الدخول عليه ممنوع — اذا أتركه • قال لا لأنك انصارى فانظره بصفة خاصة فدخلت على الأمير عثمان دقنه وجدناه مطأطئا رأسه مغمض عينيه فلما حييته فتح عينيه لى ونظرنى ثم رجع لحاله ولم يزد لنا على التحية فى كل ما سألناه منه ثم ودعناه فهمهم وهو مطأطئا

رأسه مغمض عينيه • فهو رجل ضخم البدن طولا وعضلا أبيض اللون مشرب بحمرة غزير الشعر فى كل بدنه لا يخلو موضع فى جسمه من الشعر فما ظهر لنا وناهيك بدقنه التى قارنت اسمه على كبر سنه ولم تسقط شعرة من رأسه كله غير النزعات ظفوره مقطمة لم يظهر منها غير اللحمة التى تحتها ولم أدر من قلمها ولم يحلق رأسه أما اللحيــة فطبعا لا يسمح بأخذ شىء منهــا للسنة النبوية • وشاربه كاد يغطى فمه • وأذكر هنا فتحى لمدرسة حلفــا دغيم ولم أتأكد ان كان فى هذه السنة وفى هذه السفرة أم بعد وغير الســفرة طلب الى أن أفتح كتاب بحلفا دغيم وعينوا لله الشيخ أحمد محمد صالح الذى رافقنى وأخبرنى أن أكبر من يعارضنا داود كباره وهو أكبرهم سنا ومركزا فقلت له الأحسن أن ننزل ضيوفا عليه وفعلا نزلنا عنده ففاتحناه فأبدى لنا اعراضا كدنا نؤمن معه ثم انتهيت لحيلة الاغراء بأجرة منزله كما عملت فى غيره فحاورته حتى ذكرت له نحن نؤجر منزلك بجنيه ونصف شهريا لمدة سنة فاذا وجدت المدرسة مصرة بالبلد أطلب قفلها وفى الوقت نفسه أنا أعمل لمنزلك رسما يوضح المحلات التى نكسرها (حتى اذا بنت الحكومة مدرسة ولا يكون ذلك قبل مضى ثلاثة سنوات تقيمها فى منزلك) وتكون مصلحــة المعارف ملزمة ببنــاء ما كسرته ونسلمك بيتك كحاله الأول وأن الأولاد الذين يتعلمون فى بيتك يحفظون لك الجميل ويعرفون من يأتون بعدهم فتذكر بالخير حيا وبالرحمة ميتـــا فرضى حضرة الكاشف داود كباره فى الحــال عملت رسم المنزل كاملا وأشرت على الأماكن التى تكسر لحفظها مساحة ومكانا وأقمنا ثلاث أيام فتحنا فيها الكتاب فعلا • وسافرت • فلما سافرت ركبت الدرجة الأولى لأرتاح فيها ممتد الجسم فلما مددت تذكرتى لعزيز أفندى مفتش التذاكر طلب منى الانتقال للدرجــة الثانية فامتنعت وأعطيته عنوانى فلما وصلنا أتبرة رجع لى ومعه انجليزى طلب منى ما طلبه عزيز فأعتذرت له بمرضى فغاب وجاءنى ومعه صديقى ســعادة المستر ليتش مدير المديرية فلما رآنى قال باشتياق شيخ بابكر ودخــــل معى الغرفة فرجع الانجليزى وعزيز واكتفيا بعنوانى وصار المستر ليتش يأسف لى بما بلغه من مرضى ووقوعى من الجمل وأنا أخبره بما حصــل لى حتى وصلنا الدامر أخذنى لمنزله وعرض لى السيدة قرينتــه وولديه منهــا • وبعد شراب الماء والقهوة عين لى الغرفة التى أقيم فيها فى ضيافته فقلت لسعادته أنا أعطيت

المعارف خبرا بأنى أصلهم اليوم فقال أنا أخبرهم بأنى حجـزتك اليوم فقلت لسعادته ان منزلتى عند الشيخ البشير وهـو يلومنى اذا نزلت هنا • فأعطانى عربته بالخيل وصلت بها منزل الشيخ البشير وزارنى مرتين بمنزله فلما رأى الشيخ البشير عناية سعادته بى وأخبرنى بأن المدير يعاكسه فى أموره خصوصا أراد أن يجعل منازله المعدة للأجرة للحكر وله قضية فى طين بحرى يخشى أن يملكه خصـومه فلما زارنى سعادته فتحت معـه الموضـوع فقـال هـذا رجل يتعرض للقضـايا يأخـذ فيهـا رشـوة • قلت فى نظـر سـعادتك أنا أصـدق ممن بلغـك فاتكلم أم مبلغـك الا صـدق فاسكت • قال أنت أصدق عندى فقلت له أنا أرسلت للشيخ البشير فى مجاعة أربعة أرادب قصابى وقربة عسل وصفيحتين مسليا على باب الهدية بين الصديقين فكتب لى لا يقبلها الا اذا عرفته قيمتها فيدفعها لى وحدد لى مدة ان تأخرت عنها يشحنها باسمى لأم درمان فالذى لا يقبل من صديق مثلى لا أظن أنه يرتشى من صاحب قضية ولكن المجاذيب من قديم الزمن يعرض الجعليون القضـايا العويصة عليهم فيحكمون فيها والشيخ البشير اليوم فى هذا المركز فقـال لى سعادته المنازل التى بناها جديدة للايجارة لا يمـكن اعفاؤها من أن تعتبر فى الحكر واما الدكاكين والبيوت القديمة فسأكتب عنهـا لتكون ملـكا • وأما الجزيرة فليقابلنى الساعة ٧ عندها وسأعلن خصمه بالحضـور وقد أعطـاه نصيبه وغير فكره فى الشيخ البشير •

وصلت الخرطوم فأول ما سألنى فيه سعادة المدير محادثتى مع سـعادة المستر سيجر بخصوص آدابنا وآداب أولادنا فأخبرته بكل ما جرى بيننا وبعد أيام قال لى سعادة المدير أن دولة معالى الحاكم يريد مقابلتك اليوم الساعة ١١ فلما قابلت دولة استاك باشا وكانت أول مرة أرى فيها مكتب السراى فذكر لى من طرف خفى آداب الكبار منا فأدركت غرضه وكان دولته واضح اللغة لطيف العبارة من النوع الذى تطمئن له نفس جليسه فقلت لدولته ان أغلب القضايا المهمة تعرض على دولتك فهل جاء فيها أن والدا لأحد المتخرجين من كليـة غردون قاضى ولده • قال لم أسمع • قلت أنا أعرف من آبائهم من جرد زوجته وبناته من الحلى وباعه ليدفع المصاريف المدرسية لابنه ولم يكافئه الا بالعقوق وأعرف من الآباء من باع غلاله الكيلة الواحدة بقرش واحد لتسديد مصاريف

ابنه الذى تخرج ضابطا ولم يكافئه الا بالبذاءات وأعرف من المتخرجين من أساء معاملة والده حتى قال له أمام الملأ ان الذى مثلك لا يلد مثلى فقد عق والده بنهاية الاحتقار • ورمى والدته بظاهرة قوله هذا بالزنا وأمثال هؤلاء كثير فقد تحملوا من أولادهم ما لم يسبق أن يقوله ولد لوالده • لأنهم ينتظرون سكرة شباب أولادهم سيرا مع هذا الانقلاب الذى سببه بالاختلاط مع الأجانب حتى يفيق الولد من سكرة الشباب ويبلغ السن الذى يبتدىء العقل فيه يتغلب على الهوى وحتى يرأس كبار الخريجين الصغار منهم فى المكاتب فيوجهـــونهم التوجيه الحسن أما الآن ورؤساؤهم فى الغالب أعداؤهم الذين يسرهم عــدم ظهور كفاءتهم عملا وأخــلاقا • نريد من الحكومة الرشيدة أن تعاملهم بالأناة وتوجههم التوجيه الحسن لمن تراهم مستقيمين وأكفاء ويسرع بهم حتى يرأسوا أخوانهم ففى ذلك الحين يتضح صديقهم الحق من عدوهم المضلل فيريحــون ويعرفون للحكومة حقها فقال لى ستصبر الحكومة عليهم وتوجه كبارهم حتى يبلغوا ما تريدون ونريد لهم فودعته وانصرفت وقد ودعنى دولته واقفا ومشى خطوات •

تاريخ

حياة الشيخ بابكر بدرى

١٩٢٢ ـ ١٩٢٨

((استحكم الخلاف بيني وبين الانجليز))

تحرك على ظهرى ورقـــدت بمنزلى والطبيب يزورنى فورد لى فى يوم خطاب رقيق من المستر فيلد مؤداه أكون ممنونا اذا كلفت خاطـرك وزرتنى بمكتبى لأمر مهم وكان نائبا عن مدير المعارف الذى هو بالأجازة • وفى زمن عطلة للمدارس فخطر ببالى أن هنــالك تنقــلات طرأت مستعجلة وخشيت أن لموت أحد المعلمين فأجبت الطلب وكان لى أن أعتذر لمرضى فلما وصــلته اذا بالمسألة ملاحظات مالية وتهمة ملفقة • أما الملاحظات المالية أولها انى ســاكن بأم درمان ومركز خدمتى الخرطوم فلا يجوز لى أن ارحــل أدوات سفرى من مطبخ وسرير على حساب الحكومة لأم درمان فلما جاءنى بغتة ثار حمقى ولكن رأيت أمامى بريطانى جالسا مكان المدير الذى أحترمه كل الاحترام • احترام تقدير قلبى لعلمه الغزير ولعقله الوفير وليس فقط لمركزه الكبير فقلت لجنابه هل المصلحة عينت لى مكانا بالكلية أو بالسكة الحديد أضع أدواتى فيه بحيث أطمئن عليها لحينما تحدد لى سفره • قال جنابه أنا أضع أدوات سفرى بمكتبى فقلت لجنـــــابه أنت أدواتك التى تســـــافر بهــــا هى أدوات منزلك ومطبخــك وأن غرفتـــك ضعف غرفتنــــا وأنت وحـــدك ونحن ثلاثة مفتشين فى هذه الغرفة الضيقة • وأنت لا تضع فى غرفتك الا سرج الجمـــل وخرج الجلد الذى لا يشغل مترا مربعا • ثم قال جنابه : الماليــة تطالبك بثلاثة جنيهات صرفتها بمديرية بربر أجرة مركب بين الشريك وبلدكم فى أجازة سنة واحدة وعشرين قلت لجنابه أنا أستحق خمسة جمال والجمل أجرته اليوميــة عشرون قرشا وبين الشريك وبلدنا ليلتان فأستحق أربعة جنيهات وأنى وفرت للماليه جنيها فلنسأل سعادة مدير بربر عن يومية الجمل والمسافة • انتقــل للتهمة قال لى أنت صرفت أجرة سرج جمل مرتين فى سفرك لمديرية كسلا وهذه سرقة لمال الحكومة أعاقبك عليها جنائيا فطار صوابى لهذه التهمــة المؤكدة • لدى جنابه وقلت بحدة : انت رأيتنى سرقت أنا لا أسرق من جيبى هذا واضع

فى جيبى هذا لأن خزينة الحكومة هى أحد جيبى هل رأيتنى سرقت ؟ قال لى
جنابه قال بولص أفندى رئيس الحسابات . قلت : هو كذاب . قال لى بغلظة
لا تقل كذاب قلت ألف مرة كذاب وكل من يقول أنا أسرق مهما كانت قيمتـه
أقول أنه كذاب فطلب بولص أفندى فوجدنى مع جنابه فقال له الشيخ بابكر
ما صرف أجرة المخلوفة مرتين قال له نعم مرة يصرفها فى كل مركز مع أجـرة
الجمال ثم صرفها جملة للطبيب السواكنى برفاعة . قلت له كذاب فغضب المستر
فيلد وقال لا تقل أدبك أمامى . قلت أنا مؤدب والمؤدب الحر هو الذى يقول
للكذاب كذاب . طلب منه الورق فلما ذهب وجاء به ظهر له غلطه فجاء خجلا
وقال أنا غلطان ووضح لى أنى فى كل صرف أقول أجرة الجمل بخلاف المخلوفة .
انتهينا من التهمة ورجع للاحظات المالية . فقـال لى أنا أخصم قيمـة مطلوب
المالية من ماهيتك قلت لا تستطيع هذا الخصم . قال أنا مدير المعارف قلت ولو
جاء سعادة المستر كروفوت مكانك هذا لا يستطيع ذلك . قال لى كـــلامك
شديد قلت لأن بطنى خالية من ريبه ولو كنت ســارقا لطأطأت رأسى وخفضت
صوتى والله لولا انك بريطانى لكنت أسمعتك غير هذا حينما قلت لى سرقت
قال لى اذا كنت زعلان استعفى قلت لجنـابه أستعفى ؟ أنا لا أستعفى لأننى
أخدم فى بلدى ومحتاج لمرتبى وراض عن وظيفتى وأنا العتبة الســفلى لبيت
السودان أنت تطأ وتتعدى . وخلفك يطأ ويتعدى الى أن أدفن هنا فاذا كنت
جنابك غضبت مما جرى فلتستعف جنابك لأن لك محلا غير هذه البلاد قال لى
أنا أوقفك من الخدمة . قلت لا مانع عندى أكتب لى ورقـــة وأنا ألزم بيتى
وسترى ما الذى يحصل جنابك . لا تعرف سياسة أهلك فقال لى : أنا لا أحبك
قلت الناس قالوا القلوب شواهد « وكان معنا فريد بك عطيـة . » جنـابك
ما الفائدة الى ولك أو للمصلحة من قولك لى أنا لا أحبـــك ثم طلب حبيب
أفندى الباشكاتب وقال له أنا لا أستطيع أن أخصم من ماهية الشـيخ بابكر
بدرى مال الحكومة المناقضة فيها . قال الباشكاتب القانون لا يسمح . فقلت
لجنابه أنت تستطيع أو المالية زفع قضية على واذا ثبت على شىء لى طريقـة فى
دفعه بواسطة القضاء قال لى أخيرا أنت تشترى بهائم وتسافر عليها وتأخـــذ
أجرة فيها من الحكومة قلت ألم تخبرنى جنابك انك أخذت جمال المستر هسى
من سنار لطوكز وصرفت الأجرة لها باسم خدامه وأرجعت النقود والجمال له

وهذه جمال الحكومة وتأخذ عليقه فأجرت للحكومة مرتين قال من قال لك هذا قلت أخبرتنى بالقطار حينما عدنا من سفره وذكرنا أن هذا القانون غلط لأنه يؤخر الموظف مدة طويلة فتذكر ذلك وسكت ثم أنه بعد كل هذا كتب للمالية كما قلت لجنابه وعلق على الأدوات أنا لا يمكننى أن أجد له مخزنا بالكلية ليضع فيه أدواته وهو لا يمكنه أن يتركها بالمحطة وكل سفرة يشترى أدوات جديدة وأما المركب فانه يستحق أربع جنيهات وخفضها لثلاث جنيهات فان كنتم فى شك من قوله فاسألوا مدير بربر كما قال وأنى معتقد أنه لا يكذب فلما قرأ لى هذا الرد قلت لجنابه أنت انكليزى على أصلك لم تدخل فى السياسة وشكرته وانصرفت فدخلت على فريد أفندى عطية فقال لى خلصت من الورطة فقلت له أعمل ايه .

- أنا سودانى بليد لو كنت سوريا لتركتها لهم واستوطنت بلدا أخرى فضحك من كانوا معه .

أخذت كشفا بحساب الفخار الذى كان يرسل من ورشة أم درمان لنظار الكتاتيب بالسودان للمستهلكين . فلما وصلت القطينة وناظرها أحد أبنائى من رفاعه : حسابك فى الفخار ثمان جنيهات وكذا مليم قال لى والله هؤلاء الناس لا يضبطون حسابهم أنا عندى نحو عشر جنيهات نقدا وعندى من الفخار ما تربو قيمته على خمسة جنيهات فاستلمت النقود بوصل وضبطت حساب الفخار وكتبت بذلك للمعارف التى بدأت تفتش على حسابات الورشة بدقة . وفى هذه السنة نقل للكاملين التى بها مدرسة بنات فجاءنا شبه محضر من المستر بيرفس مفتش الكاملين انه ضبطت أشغال مبيعة بالكاملين لمعروفين قيل أنهم اشتروها من الناظر ولم توجد بدفتر مبيعات المدرسة وجنابه يستأذن فى محاكمته فعرضت هذا الورق على جناب المستر فيلد فلما قرأه قال لى هذا الناظر سراق وضحك . فحكيت له حكاية فخار القطينه لعله يوافقنى على نزاهة الناظر فلما لم تظهر عليه الموافقة قلت لجنابه أنا جئت لك بهذه الأوراق لتعلم عنها شيئا حينما تتحدث عنها أنا وجناب المستر هسى بالدارج لتشترك معنا فى الرأى ورجعت بأوراقى فلما جاء المستر هسى وقرأ الأوراق قال لى ما رأيك قلت لا أصدق مطلقا بأن الناظر سرق شيئا وأنى أرى أنها مكيدة من المأمور كما كان يحصل برفاعة فأمرنى أن أسافر للكاملين وأكشف هذه الحقيقة

فلما وصلت الكاملين نزلت عند غير الناظر وفى نفس الساعة دخلت المدرسة وأرسلت للناظر طلبت دفتر المصنوعات والمبيعات منها فوجدت رسالة كبيرة مكتوبة بالدفتر انها أرسلت للمعارف بتاريخ مضى • فراجعت وارد مصنوعات الكاملين الذى حملته معى فما وجدتها لا بأعيانها ولا بتاريخها بالخرطوم فاندهش وطلب الفراش وقال له أما أعطيتك مصنوعات داخل ظرف كبير ومعها جواب كبير بتاريخ كذا لترسلها للمعارف بالبوستة قال نعم قال ما فعلت بها قال سلمتها البوستجى ولكنه قد شحب وجهه شأن من كشفت خيانته فأخذته الى جانب وأقسمت له أن نصحنى لا أسعى فى رفته فأخبرنى أنه لما خرج بالظرف لقيه جماعة من اخوانه ذاهبين يسبحون فى البحر وألحوا عليه فى مرافقتهم وحينما خرج من السباحة لم يجد الظرف وخاف الرفت اذا أخبر الناظر ولكنهم باعوا الأشغال لفلان كذا بثمن كذا وأعطونى شيئا من ثمنها لأوافقهم بأنى بعتها بأمر الناظر وسلمته ثمنها ولما سألنى المأمور قلت له ذلك ولما أخذنى المأمور لجناب المفتش اعترفت له بذلك ولكن الحقيقة هى ما قلت لك الآن فحررت له سؤالا أجاب عليه بما قاله لى ووقع عليه بخطه وفى الغد ورد لى تلغراف من سعادة المستر يودال بأن أقابله فى المعيلق لأصحبه لرفاعة فسررت لأن جناب المستر بيرفس برفاعة نائبا عن مفتشها الذى بالأجازة • دخل المستر يودال الذى أريته كل الحادثة دخل وأنا معه على المستر بيرفس الذى أطلعناه على حقيقة القضية فوافق على شطبها لما لم تنجح هذه دبروا له مكيدة أبلغ منها وهى أن احدى المعلمات انقطعت عن المدرسة بالحمى الملاريا فأشاعوا بأنها أجهضت من الناظر وكتبوا تعريفة للمعارف بذلك فرجعت للكاملين بأمر المستر هسى ونزلت عند الحرم الحاج الحسن خالى فأخذتها معى فى الحال لمنزل المعلمة المفترى عليها فوجدتها راقدة على ملاءة بيضاء غاية فى النظافة ولابسة جلابية بيضاء ولباسا أبيض غاية فى النظافة والمكوى ولكنها تتأفف من الحمى ورغم ذلك قامت فتحت دولابا وعملت لى شربات ليمون وبعد تشخيصها لى حماها أمرتها أن تذهب غدا الى المدرسة حيثما تنقطع عنها الحمى تشتغل قدر طاقتها لأن حمى الملاريا تضعف قوتها من العمل فوافقت وفى الصباح الغد زرت مدرسة البنات وكتبت عن عملها كما كتبت عن غيرها ومن ذلك الحين صرنا لا نعتنى بتعريفات سكان الكاملين • فى هذه السنة اشتريت منزلنا الكبير الحالى بواقع

المتر خمسة وثلاثين قرشا وهذا الثمن يعتبر مبالغا فيه حد المبالغة والذى حدا بى لذلك قربه من السوق والترامواى ودور الأحكام شرعية ومدنية والمدارس خصوصا مدرسة البنات التى كانت بيت كوركجيان ثانى سكن قبالة مدرسة أم درمان الأميرية الوحيدة للأدوار ومواسير الماء التى لم توجد الا فى شارع الموردة للسوق فقط وكل من أراد دخول الماء بمنزله يعمل المواسير على حسابه نوعا وعملا فيكلفه المتر نحو خمسة عشر قرشا أو تزيد ولذلك كلفت نفسى بحفر بئر بمنزلى الذى كسرت كل البناء القديم وبنيته بحاله الحاضرة فى سنتى ثلاث وعشرين وأربع وعشرين وضعت بيت العائلة قريبا من الجدار الشرقى بأمل نشترى المنزل الصغير، وكان لآدميه تؤجره فسعيت لها بواسطة عوض الكريم الفراش بأحد ديوم الخرطوم واشتريته منها ودفعت لها العربون وأخبرت ابنى على الذى كان معلما فى مدرسة أم درمان الابتدائية فى تسجيله ودفع باقى النقود لها فباتت عند جارها الزنجى المدعو بلالا وأخبرته بما جاءت له فأخبر بدوره جارنا من جهة الشرق الخضر غندور الذى زادها جنيهات على ثمننا وأعطى بلال نقودا لا أدرى كميتها فلما مضى على بدرى للضابطية للتسجيل أخبرنى بالتلفون بالكلية أن الزنجية سجلت بيتها للخضر غندور قلت له أتركها من صبر على أذى جاره ورثه الله دياره وفعلا بعد سنتين حصل بين الخضر وزوجته خلاف شديد اضطره لتركها وسكنا بحلة تدعى أم خير بدار حامد بمديرية كردفان ثم انها باعت لنا جميع بيوتها ورحلت وراءه فلم أفرح بذلك بل يعلم الله انى رثيت لحالهم خصوصا لما بلغنى أن بعض أولادهم من الذكور والأناث ماتوا وان حالتهم ساءت .

رأى سعادة المستر كروفت حضور بنات مدرسة المعلمات لاحتفال كلية غردون السنوى للالعاب لا أدرى أطلبت منه الليدى استاك أم الحاكم أم تبرع بذلك من نفسه فى ليلة أرسلت لى بناتى بمدرسة المعلمات أن ألمس ايفنس أخبرتهن بأنهن سيمضين غدا الى الكلية فكتبت لهن بالرفض وفى صباح اليوم مررت على مكتبها وسألتها فقالت نعم قلت بناتنا لا يمشين قالت لى هذا شغل مدير المعارف فخرجت منها وأظنها أخبرت المستر هسى بالتليفون بما قلته لها فلما وصلت الكلية قابلنى جناب المستر هسى وقال لى لا تتكلم هذا الكلام الفارغ ولما كان التلامذة فى فسحة جعلت الكلام كأنه

صادر لغيرى وواصلت سيرى حتى توسطت السلم ولحقنى جنـابه فكرر لى ما قاله تحت فقلت له لا يمكن أن يحضرن احتفالا كهذا فقال لى المدير ينتظرك فلما قابلت سعادته قلت كعادتى السلام عليكم فكان رده لا تتكلم هـكذا . قلت السلام عليكم فضرب الترابيزة بيده وقال لا تتكلم هكذا فقلت بصـوت عال : السلام عليكم فرد سعادته وعليك السلام وأتبعها مكررا العبـارة قلت لا يمكن أن يحصل هذا ... بناتى لا يأتين فقال جنـاب المستر هسى : بناتك لا يأتين فقلت لجنابه كل بنت بالمدرسة هى بنتى الا الرسالة التى انتخبها جنابك من دنقلا فقال لى وهو مغضب أنظر مع من تتكلم فغضبت وقلت هذا هو الكلام الفارغ كونى آتى أمرا لا أرضاه بالخوف فأنا مت يوم الاثنين فى الخـرطوم ومت يوم السبت فى طوشكى ومت يوم الجمعة فى كررى فعمرى هـذا الذى أشتغل به معكم هو ربح « فأشار اليه الرجل العاقل الذى يحل الأمور بالسلم» مضى جناب المستر هسى لمكتبه وقال لى سعادته أجلس ثم قال سـألت منك بالأمس لآخذ رأيك فى هذا الموضوع فأنت أضعت كل اليوم فى مشـترى ميزان بجنيه فقلت يا سعادة المدير أرسل كل المكتب أو من تثق به منهم وانظر هل أتى أحد بمثل هذا الميزان فلولا أنى وجدته عند أحد التجار الذين أعرفهم من المهدية ما كنت أحصل عليه ثم وصلت قولى لسعادته أن الحكومة الحاضرة من محاسنها احترام العقائد والعوائد وهذا الموضوع يخالفها معا قال سعادته أنا وعدت الليدى استاك بأن البنات يجئن للاحتفال ولم يبق زمن أعتذر لهـا فيه وأن الشيخ محمد أحمد فضل سيحضر بناته وأمهن وعبيد عبـد النور سيحضر زوجته فضحكت فقال مم تضحك فقلت لسعادته زوجة عبيد ابنتى وأنا ما علمت ذلك فأنى أؤكد لسعادتك انهما كاذبان لأن الشيخ محمد أحمـد اذا وفى بوعده لا يمكنه أن يسكن السودان وعبيد كذب فزوجته لا تأتى حينئذ قال لى وافق على هذا الأمر لأجلى قلت نعم أوافق عليه بأربعة شروط الأول ألا تتكرر مرة أخرى وأن يعمل لهن بابا بالدرابزين بعد الورشة وأن يكون باب خيمتهن جهة الشرق وألا يزورهن أحد ولا يقدم لهن طعام فقال بهدوئه المعتاد: الليدى استاك تزورهن ؟ فقلت نعم فقال والمس ايفنس ؟ قلت نعم قال وزوجتى ؟ لت نعم فقام ومعـه المساتر : يودال وهسى وفيلد وأنا معهم فطلبوا الحـداد الذى فتح الباب فى المحل الذى أشرته ونصبت الخيمة بجوار شجرة ورد كذاب

كبيرة ورجعنا فقال لى سعادته على بدرى يأخذ النشن ليحضرهن قلت : على صغير فليمضى عبيد عبد النور وذكرت أن بناتى لا يأتين فأخذت قلما وورقة من مكتبه وكتبت لبناتى يحضرن مع اخواتهن فلما علم بذلك سر سعادته ولكنى من ذلك الوقت هبطت قيمتى وبلغنى أنه قد أخذ قرارا باحالتى على المعاش آخر أربعة وعشرين • حضر البنات ونفذت الشروط • بعد أيام كتب لنا جناب المستر هسى رئيس مفتشى المعارف منشورا بأنا نحن مفتشى العربى الثلاثة المشايخ الشيخ أحمد الأمين وعمر اسحق والعبد لله اذا طلبنا أدوات من المخزن تقدم الطلب لفريد أفندى عطية الذى أعطى وظيفة مراقب فرفضت ولما سألنى جناب الرئيس قلت له أنا لا أعترف بأن فريد أفندى رئيس لى حتى أطلب منه أى شىء وجعلت أكتب للمخزن مباشرة وبعد أيام تكرم جنابه بلغو المنشور •

سافرت لتفتيش مدارس كردفان ففى أول مرة طلب لى أن أعمل بروجراما يحدد زمن سفرى واقامتى بحيث لا يزيد على يوم بالكتاب ويومين وبعض يوم بالابتدائى وهذا مبدأ هبوط الثقة فلما رجعت زرت يوسف أخى بكوستى فقدم لى دفتر عمل وبه أنه ربح أربعمائة جنيها من بعض شركائه لا جميعهم فقلت له ان ثقتى يا يوسف بأن نعيش من ماهيتى وحينما نكبر من معاشى ونأنس ببعضنا ارجح عندى من أن نعيش حالا ومالا من أرباحك لأن التجارة ندر وتغرز • وودعته وعند وداعى قال لى أن حديثك خوفنى لأنى كثيرا ما رأيت حدسك يصح الله يستر فلما وصلت أم درمان وصلنى خطاب من ابراهيم بدرى بأن أسدد حسابات له تبلغ نحو خمسين جنيها فصرفت عشر أواق ذهبا كانت عند أم أحمد وأتممت الباقى وهذا أول هبوط تجارتهم ثم بعد ذلك وصلنى من ابراهيم بدرى كتاب يطلب فيه موافقتى على أن يكون نائب مأمور فجرت دموعى العزيزة المجرى حزنا فكتبت لأبيه فأمرنى أن أوافقه ثم طلب منى ابراهيم أن أساعده فذهبت للمستر كربابن مدير الخرطوم وكان مفتش الدويم أو مديره والمستر بوسن صديق يوسف بدرى وكان معه صديقاه شوقى وشنقيطى اللذين جاهدا فحضرت الدفعة الأولى للامتحان ولم يكن فيها ابراهيم فذهبت للمستر مكميكل السكرتير الادارى وقلت له أنى عملت مع سعادتك جميلا بتوصيلى عصا المدير التى لم تجد سعادتك أحدا يوصلها فقال أذكر ذلك قلت أريد أن تطلب ابراهيم بدرى من الدويم وتلحقه بنواب المآمير

فقال لى عرضت الدفعة على اللجنة وأنتخبت اللائقون فى نظرنا قد طردنا كثير من وصوا عليهم فلا يمكن أن أتدخل بعد ذلك ولكن أشير عليك أن تذهب المستر كربابن مدير الخرطوم فهو الوحيد الذى له هذه الفرصة اذ ربما يسقط أحد المنتخبين فى الكشف الطبى فذهبت لكربابن فوعدنى بعد خمسة عشر يوما أسأله ولكن قابلته قبل الخمسة عشر يوما بالسكة الحديد بالمحطة وأخبرنى أنه كتب لابراهيم بالحضور فأنتخب ومر فى الامتحان بتفوق خصوصا فى القانون الذى كان فيه برنجى الفرقة والذى جعل معلمهم فيه خليل أفندى الخورى البرنجى غيره فجاءنى ابراهيم وأخبرنى انه برنجى القانون كما يثق من نفسه أنه كتبه كما ألقاه المدرس عليهم فاذا أخطأ فى شىء يكون منه غلطه هذا ناتجا من غلط المعلم نفسه فى القائه ولهذا التغير يعد نفسه مظلوما فذهبت لفريد بك عطية بمنزله وحكيت له ما قاله ابراهيم بالحرف وزدت عليه أنى واثق بما قاله ابراهيم فأخبر خليل أفندى ليراجع أوراقه وان لم يفعل سأرفع الموضوع لسعادة السكرتير القضائى فأخبره فراجع الأوراق مرة أخرى فوجد ابراهيم بدرى هو برنجى فعدل حكمه وسر ابراهيم •

برجوعى من كردفان اجتمعت صدفة فى القطار بحسين بك سرى ومعه حبيب بك ؟ بغرفتهما فدخل أولا حبيب بك فحيانى وجلس ثم جاء حسين بك سرى وقال لى من غير تحية يا أستاذ هذه الدرجة الأولى قلت أعرفها فسكت فلما جاء الكمسارى وأعطيته تذكرتى فرآها حسين بك قال لى حضرتك قاضى أى مديرية قلت أنا مفتش بالمعارف فسكت قليلا ثم قال لى أنا فلان وهذا فلان أبنا من البحيرات الاستوائية فى مأمورية هندسية فقلت أهلا وسهلا والدك مشهور عالمى وقد رأيته فى المحطة العمومية فى الخرطوم وكنت لسماعى أتصور له شخصا بدينا فاذا هو معتدل يميل للنحافة علامة النشاط البدنى والتوقد الذهنى ثم قال لى هل عندك مانع تتكلم قليلا فى السياسة العامة فانى أريد شيئا أحمله لمصر عن السودان لا سيما من رجل مثلك • قلت لا مانع عندى فاستجمعت فكرتى ظنا منى انه يسألنى عن أشياء غامضة تحتاج لذاكرة ومفكرة فاندهشت لما قال لى الوفد سافر لانكلترا لأى سبب فلم أرد عليه فكرر لى العبارة بنفسها مرتين فقلت له أنت شريك فى السودان بحكم علمك الخافق عليه والوفد مر بمصر فلم لم تسأله أو تسأل شريكك الذى أرسله هذا السؤال

الذى سألته بعد أربع سنوات فسكت وضحك صاحبه واتبه لى وبعد هنيهة قال لى حسين بك لماذا تحبون الانكليز أكثر من المصريين وهم أحق بمحبتكم قومية ودينا ولغة قلت هل تسألنى عن نفسى ومن فى سنى أم عن الشبيبة المتعلمة قال أسألك عن الجميع قلت أما كبارنا فهم يعرفون للمصريين فى حكومتهم التى استقلوا فيها بثورة عامة ودعوة رجل واحد مهما تعتقدون نوعها وسببها ما يفيد جوابك عن سؤالك هذا أما الشبيبة فهم يعتبرون الانجليز بحكم مباشرتهم للادارة هم السبب فيما وصلوا اليه من حضارة وحريه « وان كانت حرية جزئية » ويرون كل علامات الحضارة من مؤسسات غير حكومية من مدارس وشركات ومستشفيات هى انجليزية ولا يرون أثرا بينها للمصريين الا جامع الخرطوم الذى لم يزل ناقصا فى كمالياته وبعض أركانه فلذا يقدمونهم عليكم قال ولكن كيف تحبونهم لهذه الأشياء التافهة وهم يعلمون أنا لو أردنا عمل مثل هذه المؤسسات يمنعوننا من عملها قلت أن النيل الى فرس وأدنداان لكم فيه التصرف الكامل فلو أرسلتم اسبتالية كاملة بأثاثاتها ورجالها أو مدرسة كاملة بأدواتها ومعلميها الى حدودكم السياسية وهم ارجعوا كليهما لعذرناكم ولكنكم لم تفعلوا فقال له حبيب بك اسأله اسأله فسكت قليلا ثم قال لى حسين بك أنا أعرف أن المآمير الذين باشروا الحكم فى أول دخول هذه الحكومة هم الذين أساءوا سمعة المصريين عند الشعب السودانى وانهم يعملون ما يسوءكم تحت ضغط الانكليز ليصلوا الى هذه النتيجة قلت نحن أعلم منك بذلك ولكنا اذا وافقت عزتك على الكراهة المزعومة عندكم فسببها « ان كانت » نعزوه للوزارات المصرية وللمثرين من الشعب المصرى فالتفت نحوى حبيب بك مع صاحبه وقالا بصوت واحد كيف ذلك ؟ قلت أما الوزارة فعندما قال الانجليز نريد أن نعمل فى السودان ريا كنا ننتظر من كل وزارة مصرية تعلم جهل اخوانهم فى السودان بالسياسة ادارة واقتصادا أن تقول للانكليز بأموال من وتحت اشراف من وبأى فائدة فى المائة شفقة على اخوانهم القاصرين ولكنهم قالوا رى السودان يضر فى « الوقت الحاضر » برى مصر فهل هذا يدل دلالة حقيقة على مايدعيه المصرى من انه الأخ الأكبر لأخيه اليتيم الأصغر فسكتنا قليلا ثم قال حسين بك هل غير هذه حادثة مثلها قلت نعم وأكبر منها وقال وما هى ؟ بعناية وشوق لسماعها قلت أنهم فى سنة ١٩١١ حينما تعدى الطليان على أفريقيا

أرسلتم للمغاربة مئات الألوف من الجنيهات اعانة وفى سنة ١٩١٢ حصلت حرب البلقان أرسلتم مئات الألوف وجنـدكم اعانة للاشتراك وفى سنة ١٩١٣ بدأت المجاعة فى السودان وبلغت أشـدها فى سنة ١٩١٤ حتى بدأ الموت جـوعا من الفقـراء واستمرت المجـاعة حتى جلب الانكليز الغلال من الهند والدقيق من استراليا فانفرجت الأزمة ولم يصلنـا من مصر اعانة حكومية ولا شعبية وان قلت ، فقال حسين بك لم نسمع بهذه المجاعة فقلت عجبا : الأخ الصغير يموت جوعا ولم يسمع به أخوه الكبير فخرج حبيب بك يمسح دموعه بمنديله فقال لى حسين بك يستأذننى أن أنشر هذه المحادثة فقلت لا فائدة لى ولا لك فى نشرها قال ولم قلت لأنها توضح عيوبكم فى السودان فتبنى كراهتنا لكم التى تدعونها بسبب المآمير وتصرفهم على حقائق أخرى جوهرية أما أنا فلا يصح لموظف كبير فى سنه ووظيفته ينبهكم لمساوئكم فتصلحونها وربما أدت النصـيحة لعكس نتيجتها لمن لا يعرفون قيمتها • وهنا وصلنا تقاطع سنار الذى نزلا فيـه ليريا خزان سنار فودعانى شكرنى حبيب بك على هذه الصراحة التى زودتهم بهـا ليبثوها بمصر •

فى هذه السنة على ما أذكر دعانى المستر يودال لأنصح توفيق البكـرى الذى يريد الذهاب لمصر فعلى قدر ما نصحته لم يقبل نصيحتى التى يعلم الله ما أردت بهـا الا خيره على ما أعتقـد الذى يتعـلم فى بلده ليخـدم بلده باستعداده العلمى وموهبته العقلية والتمسك بعاداتها المملوءة بالأخلاق الحسنة وعقائدنا القائمة كلها على الكتاب والسنة وما يصرفه فى بلدنا الفقير من مرتبه الصغير ويشرك فيه من يعتمدون عليه من ضعفاء عشيرته «كعادتنا» خير له من أن يكسب وظيفة عظيمة أو ثروة طائلة فيخدم بهما بلادا أخـرى ولكن اختلاف العقول لا اتفاق معه علم هنرى جيد أن مفتش كوستى صديق يوسف بدرى قد أعطاه سكر كوستى فدفع الأمل هنرى فى ربح السكر المضـمون أن يمد يوسف بمبلغ السكر الذى من شرطه أن يدفع لخزينة الحكومة مقدما قبـل استلام السكر فيكون له نصف الربح فقبل يوسف دون أن يشـاورنى وذلك لأنى انفصلت من التجارة وفى رأى حبيبى يوسف أنى لا أعلم منها ولا فيمـا يتعلق بها فاهملنى وكتبت الشروط مع هنرى وأمضاها حتى أخبرنى فسكت حيث لا ينفع الكلام على رأى المثل السودانى « الجس البعد الضبح » وابتدأ

يوسف فى استلام السكر « المشئوم العاقبة » يستلمه يوسف بالأكياس ويستلمه
من يشترى منه بالرأس فينقص كل كيس من راسين الى خمسة رؤوس ويوسف
بدرى يخبر المفتش الذى صار يحصر نقصان كل رسالة حصرا رسميا ويخبر به
المدير الذى يخبر به الحكومة العليا بالخرطوم وكانوا متأكدين بأن الشركة
تدفع هذه الفروق كاملة ليوسف الذى اعتقد هذا وصار يحاسب من يشترون
منه على ما استلموه وكل نقصان يحسب عليه شخصيا والحكومة تطمئنه كلما
سألها وهنرى جيد بدوره يحاسبه على الكامل ويأخذ أرباحه نقدا حتى انكشف
الأمر بغير ما يأمل يوسف الذى تحمل كل شىء وأخلى شريكه هنرى المطماع
ومن يشترون منه من مسئولية النقصان الذى لم تدفع الشركة منه شيئا
وحجتها بأن هذه الأكياس تمر على سكك حديد أوروبا فى البلجيك وعلى البحر
الأبيض والبر الى الخرطوم فالشركة بقانون الشركات غير مسئولة فلما أعلن
يوسف بهذا الحكم أصابه اليأس وجاء للخرطوم فاجتمعت به فى بعض أوباتى
من الأسفار فأخبرنى بأن الأمين الحاج شهر افلاسه فلنذهب اليه نأسف له فلما
وصلنا الأمين الحاج بمنزله بالخرطوم أسفنا له وخرجنا وسمعت يوسف يقول
لمن معنا من التجار والله حينما يأتى دورى بالافلاس أفلس افلاسا شريفا
فوقعت هذه الجملة على قلبى موقع الصاعقة لأمرين الأول أحسست بأن ماليته
صارت قليلة لا يستطيع أن يمد شركاه المتعددين محمد ميرغنى ببحر الغزال
وجباره بالرنك وعبده بأم روابة وانى أعلم ان الشريك الفرع اذا لم يمده
الأصل يضمر له السوء ويشهر أخيرا افلاسه بعد أن يدخر لنفسه ما يشاء
والثانية أن يوسف يفعل ما يقول فاذا أراد الله أمرا هيأ له أسبابه .

غاب المستر بوسن عن كوستى واستلم المركز مفتشا جديدا لا يعرفه
يوسف . فى يوم ما من هذه السنة جاء الى الشيخ أبو القاسم أحمد هاشم
وطلب منى أن أقابله بسعادة المدير فدخلت عليه مخبرا بقدوم الشيخ وطلبت
الاذن فى مقابلته فالتفت عنى وقال أنا أقوم أرمى نفسى من الشباك لكى أخلص
من الشيخ أبو القاسم قلت يا سعادة المدير انت عالم والشيخ أبو القاسم رجل
عالم أيضا فالعلم يجمعكما وهو قادم لكم فى أمر ابنه والابن شىء مهم فى نظر
والده فبالله عليك أن تقابله فطأطأ رأسه العاقلة كعادته وقال دعه يدخل
فدخل عليه وطلبت له قهوة أرسلتها لمكتب المدير وكان الموضوع الذى قدم له

هو التوسط فى توظيف ابن له رفت من مصلحة ليخدم مدرسا بالمعارف فلما خرج منه طلبنى سعادته وقال لى من أحضر هـذه القهوة قلت أنا خشيت انك تنسى اكرام الشيخ جريا على عادتنا أن عدم العروض جفا فقال أنا ما أدفع ثمنها قلت جيبى هو جيبك الصغير فضحك ودفع ثمنها .

سنى ضيق وحزن :

دخلت سنة ١٩٢٣ وبدأ بؤسنا يظهر جليا فى نصفها الأخير متنوعا متعددا فى أوائل هذه السنة ذهبت لمديرية كردفان فوجدت فى مركز بارة اعلانا معلقا فى عمود أحد الدكاكين بالسوق مكتوبا عليه ما معناه أن الحكومة لا تعترف « وليس السيد » لعبد الرحمن المهدى بأى شيء يميزه عن عامة الناس فكل من يجد أحدا من جماعته الذين يتقاضون باسمه نقودا أو عروضا باسم الشيخ عبد الرحمن يلقى عليه القبض سلطة محلية أو مركزية . أخذت هذا الاعلان الذى يخالف معاملة الحكومة العليا للسيد عبد الرحمن المهدى مخالفة شاذة من نوعها لأوصله لمدير المعارف الذى له دخل كبير فى السياسة بصفته من أعضاء مجلس الحاكم العام وكذلك عند زيارتى مدرسة الساعاتا أطلعنى العمدة بخارى على خطاب باسمه من أحد يدعى أن سيد الجميع أرسله لتحصيل حقوق الله من الأخوان الصادقين أمثالك ليصرفها فى مستحقيها وأخبرنى بخارى أنه يريد أن يوصل هذا الخطاب لمدير كردفان فلما قرأته أمتنعت من رده له وضممته للاعلان فلما مررت من كوستى زرت يوسف أخى الذى وصل معى للقطار وقبل يدى عند قيام القطار على غير عادته فوجدت بذلك القطار السيد عبد الله الفاضل فأطلعته على الاعلان والجواب وقلت له لأى سبب السيد عبد الرحمن يرسل هؤلاء ؟ هل عنده اذن من الحكومة بذلك فأخذ منى الاعلان والجواب ورجع بهما لكوستى ليريهما السيد بالجزيرة أبا ويرجع لى بهما فى البوستة الآتية لأعرض الاعلان لسعادة المدير وبوصولى وجدت خبرهما عند السيد حسين شريف الذى سألنى عن تفصيل الاعلان فلما أكدت له صيغته أخبر بها المستر ولس مدير المخابرات وجاءنى السيد حسين ليلا بمنزلى وأخبرنى أن المخابرات سألت مدير كردفان الذى سأل مفتش باره الذى أنكر كل ماقلته

عن وجود الاعلان وأخبرنى حسين شريف أنه بلغ مدير المخابرات انى مصدر هذا الخبر ولربما تسأل عنه فأصبحت وبوصولى المكتب أخبرت مدير المعارف بالاعلان وأنا أتحدث معه طلبه مدير المخابرات الذى أخبره بما حصل وأن مصدر هذه الفتنة بابكر بدرى فرد عليه مدير المعارف هو الآن يحدثنى بذلك وأنتم بأى سبب تحدثون مثل هذا وشكرنى بعد اتمامى للحديث وانصرفت ولكن نتج عن ذلك انى كنت فى حفلات السراية أدخل بالكرت الأحمر الخصوصى مع الممتازين ففى أول حفلة أخذت الكرت الأبيض الذى يخول لحامله الدخول فى ميدان السراية وليس فى بوفيه الغرفة الخاصة الى اليوم ولكنها بيعت غالية .

برجوعى قمت لمديرية سنار فلما وصلت سنجة وجدت أمرا من المعارف بالبحث عن قضية فراش ادعى صاحبنا عونى أفندى أن عبد الله شوقى الأسد ناظر كتاب الروصيرص جار قبض مرتب فراش مدة أربعة شهور ولم يكن بالمدرسة فراش وأنه فى مدة العطلة المدرسية يخدم الفراش فى زرعهالخصوصى فأخذت معى من المديرية أسماء الفراشين وما صرف لهم من المرتبات وقيمتها عن سنة كاملة ولما وصلت الروصيرص تركت الناظر مشتغل فى فرقه ودخلت الفرقة الرابعة وبدأت معهم الأسئلة العلمية شفهيا فى مقرراتهم ثم صرفتهم لمعلومات الذاكرة قائلا لهم أن تلاميذ بعض المدارس يحفظون ويذكرون ما يمر عليهم من المعلمين والمآمير وحتى الفراشين مدة سنين كما يفهمون كم شباكا بالمدرسة وكم عرقا فى سقف الغرفة قلت طأطأوا رؤوسكم وقبل أن ترفعوها جاوبونى كم شباكا بغرفتكم وكم عرقا بسقف فرقتكم وكم معلما مروا عليكم هذه السنة وما اسم المأمور السابق وما اسم القاضى الحالى وكم فراشا مروا عليكم هذه السنة وما أسماؤهم وهل منهم أحد ساكن فى منزل عمدة أو ناظر مدرسة فأجابوا حتى حصلت منهم على أن الفراش الأخير والدته ماتت وسافر منذ شهرين والتلاميذ الكبار يخدمون خدمته حتى جاء من يعرف اسم الشهرين اللذين غابهما الفراش ياشاطرون فعينوهما مارس وابريل فلما راجعت أوراق سنجه وجدت هذين الشهرين غير مصروف فيهما مرتب فذهبت لجناب المفتش وعرضت عليه الأوراق وأخبرته بما عملته مع التلاميذ فطلب المأمور عونى صاحبنا فذهل حينما رآنى مع المفتش الذى سأله بالعربى ان بابكر بدرى عمل

تحريات شفهية قضت ببراءة ناظر المدرسة ففى الحال قبل أن يتكلم وقفت وصافحته فقال لجناب المفتش أنا متأكد أن شهرين من هذه السنة لا يوجد بالمدرسة فراش قلت ماهى الشهران قال لا أعيهما قلت التلاميذ قالوا هما مارس وابريل • قال يمكن هما الشهران • عرضت عليه أوراق المديرية انهما لم يصرف فيهما مرتب فطأطأ رأسه وخرجت منهما وأظن المفتش يناقشه الحساب لأنه عمل على طلب محاكمة الناظر من المعارف ثم بعد يومين بلغنى أنه شكا نائبه اليوزباشى محمد جمعه بأنه مغتصب خادمه من جماعة العمدة أبو شوتال وعاملها امرأة سرية وظهر أخيرا أن محمد جمعة صافحها بقسيمة وحضرة المأمور هذا يتهم الناس قبل أن يتحقق تماما من وقائع الحادثة كما حصل معى برفاعة وكما حصل منه مع الشيخ محمد أحمد الحاج بسنجة ومع الشيخ العاقب نور الهادى بالروصيرص •

قلت استلم المركز بكوستى مفتش لا يعرفه يوسف بدرى ولا يعرف هو عن يوسف بدرى ولا عن قضية السكر شيئا وكان يوسف رحمه الله لا يتصل بالناس بسهولة حتى يظنه من لا يعرفه انه متكبر أو أنه لا يحسن آداب العشرة لكن أنه اذا عاشر حفظ عشيره غائبا وحاضرا ووفى له غنيا وفقيرا نعم أن ميله للمساكين أكثر من ميله للاغنياء وللرعية أكثر منه للحكام فانتدبت لمديرية النيل الأزرق والأبيض معا فلما وصلت الكاملين من أبو دليق أبرقته فى يوم أربعة يونية سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة وألف انى قادم لمدارس النيل الأبيض فهل ترى ابتدائى بالقطينة أو بكوستى فرد على ابتدء بالقطينة لتمر على الدويم لمهمة لازمة فوصلت القطينة مساء يوم ستة يونية فنزلت على الشيخ حسن أحمد ناظر المدرسة والذى مكث معى برفاعة سنتين فصار كاحد أولادى • فلما أصبحت ناولنى تلغرافا من صديق المرحوم نصه : الشيخ بابكر بدرى القطينة : الشيخ يوسف بدرى ضرب نفسه رصاصا وأخذ لمكوار بقطار خصوصى لتعمل له عملية فأبرقت ابنه ابراهيم بدرى فى الحال ليبرقنى نتيجة العملية وذهبت للمدرسة بدأت التفتيش بأحد الفرق فاذا الساعى يحمل لى تلغراف نعى — من لو يفدى باثنين من أولادى لما بخلت يعلم الله بفدائه بهما ولكنه الأجل المحتوم الذى لا يقبل فداء ولا رشوة•قرأت التلغراف فأحسست بأن قلبى فتح ودخلت فيه ريح باردة تصبب لهما جسمى عرقا ثم فى الحال آل الى رشدى

وقلت لو مت أنا يوم رماني الجمل بأرض الحجر ومات يوسف اليوم لأصبح أولادنا هملا بلا هاد ولا راع وقد علم الله أن بقائي لارشاد أولادنا مقدم من علمه على بقاء يوسف وقد فعل الله لنا الخير فلا يجوز أن تقابل نعمته مقابلة نقمة وقد مات حبيبي فلا يليق بي أن أغضب ربي وحاولت أن أسير في عملي ولكني هبطت قوتي المعنوية والعقلية فخرجت من الفرقة وذهبت لمكتب التلغراف لأخبر أولادي بأم درمان ولأعزي ابراهيم بمكوار فاذا تلغراف من علي بدري معناه بعد العنوان : أبي أتدري بمن أصابنا وكلام بعده مؤثر فعزيت الجميع مصبرا على اني ملهب القلب وأني كنت طلق اللسان للمعزين . في اليوم نفسه علمنا أن وابور قادم للدويم فتأهبت للسفر فجاءني الشيخ حسن أحمد يحمل بيده أربعين جنيها مهر ابنتي عزيزة التي سبق أن خطبها مني فقلت له الآن قد حصل ما ترى وطبعا هو ما يؤجل الفرح فابق نقودك بيدك حتى يأتي الوقت لما تريد فرجع بعد أن دخل معي الوابور فوجدت اليوزباشي محمدجمعه الذي واساني في مصيبتي ولا برح يوانسني حتى وصلنا الدويم الذي علمت فيه السبب التافه الذي أدى لهذا العمل المفجع لكل من سمعه وفي الحال قلت هذا البيت الذي أتممته قصيدة في ليلة واحدة وهو :

هي غضبه من عاقل قالت لنا   أن القضاء منفذ في حينه

ماهو السبب التافه قلت أن يوسف لما رجع من كردفان قبل يدي عند وداعه لي على خلاف عادته وكان قبل هذا جاء لأم درمان وفي ليلة انتظرته بالعشاء فما جاءني الا بعد الساعة ١١ احد عشر مساء قلت أين كنت فتنفس الصعداء ولم يبح لي بشيء وفي صباح ذلك اليوم سافر لكوستي فاهتممت بالأمر فعلمت بعد سفره أن هنري جيد قد خصم عليه فروق السكر نقدا من حساب يوسف أما السبب المباشر لما كان أول يونيو الذي سيدفع فيه ثمن السكر مقدما نقصت من القيمة مائتا جنيه أخذها يوسف من أخ الفقيه الضو بكوستي وحول بها على هنري الذي لم يقبل التحويل فأمر الفقيه الضو أخاه باسترداد المائتي جنيه من يوسف فردها له وخرج من السوق لمنزله وشرع يكتب وصيته التي بدأها بقوله : اني أعلم أن الانتحار جبن وعار ولكني أقدمت عليه اتكالا على عفو ربي ورحمته وغفرانه الذي يعم كل عاصي مالم يشرك به ثم ذكر

مايخزينته من نقود وخصص منها أربعمائة وعشرين جنيها قال انها أمانة لأحد لا يذكر اسمه ابقاءا على سمعته وأخبر عثمان محمد صالح الذى كان معه منذ صغره بصاحبها أو أصحابها وقد سلمت له أولهم •

بعد وصولى الدويم وجدت فراش المأتم الذى جلست عليه وقبل رفعه جاءتنى حسب سيدها أختى وأخبرتنى أن كل ماعندها من حلى الذهب ومعه حلى عاشه ابنتى وحلى مدينه بنت أختى جملته يزيد على الثلاثين أوقية ضاع من بيتى وأنا أتهم به خادمه ولد طلق النار تخدمنا بالأجرة ولا أحد يعلم مكانه غيرها وهى قد غابت عنا كل هذا اليوم فأرسلت فى الحال لحمزه أفندى طمبل نائب المأمور فأخبرته بالحادث وقد اهتم بالأمر اهتماما عظيما حيث وضع الخادمة فى السجن فلما جاء اثنان من أولاد سيدها يحتجان على سجنها وضعهما أيضا فى السجن منعزلين عنها وفى نحو نصف الليل تسمع لها ولهما فسمع مما أكد له أنها السارقة وان الذهب وضعته عند احدى خادمات محمدبشيرالعبادى فجاء فأخبرنا وفى الحال طلبت بشير أفندى محمد بشير وهو صديقى فأخبرته بما قال نائب المأمور فذهب الى منزله وطلب خادمته وأقسم لها على المصحف والطلاق ان لم تخبره بالحقيقة ليقتلنها ويقتل فيها فوعدته أن ترده الى أهله قبل طلوع الفجر لأنها أودعته عند صائغ باعت له منه أوقيتين والباقى تبيعه شيئا فشيئا وفى صبح تلك الليلة وجدته أول خارجة بمنديله داخل السور ناقصا أوقيتين لعائشة ابنتى فأخبرت حمزه أفندى الذى أفرج عن الجميع وتنازلنا عن الأقيتين الناقصتين •

وبعد رفع الفراش زرت سعادة المستر نكلس المدير فأبدى أسفه الزائد لوفاة يوسف وأخبرنى أنه سمع الكثير عن عقلية يوسف وشرفه وخسارته فى السكر التى دبر لها تعويضا مضمونا بأنه عزم على اعطائه سكر كل المديرية باسمه مدة ثلاثة سنوات وذهب لكوستى ليخبر يوسف حينما يقابله بخصوص خسارته ولكن يوسف زاره الزيارة العامة الاعتيادية للتجار ثم لم يعد بعدها حتى رجع الى الدويم فشكرته وقلت له ان القضاء نفذ فيه واذا أراد الله له أمرا هيأ أسبابه • قال صحيح وودعته وانصرفت وبارحت الدويم لكوستى ومما هون على وقع المصيبة وجودى بكثير من القرى مأتما على يوسف لدى أناس لا أعرفهم •

ولما وصلت الى كوستى لقينى بها ابراهيم بدرى ومحمد على شوقى الذى أخبرنى أن والده المرحوم موسى شوقى أمره وهو فى مدة الاجازة أن يبق معنا مادمنا محتاجين له ويستعد لكل ما نطلبه منه وهو كما أمره والده يقدم نفسه لنا فى محنتنا فشكرته ووالده والآن أكرر شكرى لهما • فتحنا الدكان وفتشنا الأوراق فوجـــدت فيـــه مصحفى الذى أخـــذه منى رحمـــه الله فأخـــذته حيث لا أرى ان ابراهيم يحتـــاج له ووجـــدت بين الأوراق سنداً على محمد على ميرغنى بمبلغ ينوف على الأربعمائة جنيه فمزقته بعد أن خرجت من الدكان وسندا على الأستاذ محمد ســـعيد العباسى بمبلغ ثلاثين جنيها وكما كنت سمعت من المرحوم انه لا يريد استردادها منه حملت له سنده حتى سلمته اياه وأخذت صورة يوسف الوحيـــدة التى رسمت له مع العائلة الكركجانية بمنزلهم بأم درمان واستخلصت منها صورة منفردة بواسطة مصور ماهر كبرتها بمصر ووضعتها بمنزلى لأنظرها صباح ومساء •

وقد كتب الأستاذ العباسى تحتها هذين البيتين :

لو أنصف النـــاس الكرام لشيدوا
تمثـــال كل مســـود ســـباق

رســـموك يوسف فى النواظر منهم
عوضا عن التصـــوير فى الأوراق

وكما احتفظت بصورته احتفظت بخطه فى دفتر كوبيته وأردت أن أحتفظ بساعته المكتوب على ظرفها حروف اسمه ولكن أخذها ابراهيم ابنه ولا أدرى أحفظها أم ضاعت • قلت قصيدة فى رثائه وأنا بين الدويم وكوستى لم أذكر منها سوى هذه الأبيات :

قد مات يوسف يا دنيـــا فسوينى
فى حـــرامك واغلى فى تهـــاوينى

اليأس والبؤس والضراء اجمعهـــا
من بعد يوسف لا تســـطيع توهينى

هذا الذى كنت أخشى أن يزعزعنى
قد جزت محنته والفضـــل للدين

وفى ختامها قلت : —

يا رحمة الله تغشى روحه أبدا　　　فانه كان كهفا للمســاكين

رحمه الله رحمة واسعة فانه مع القدر قد بخل علينا بنفسه فى وقت أحوج ماتكون لعونه رحمه الله .

بعد وفاة يوسف بشهر توفى المرحوم سلمان المدنى فزادت جرحنا اتساعا رحمه الله لأنه توفى وعمره لا يتجاوز الخمســة وعشرين سنة ولم يخلف ذرية وكان رحمه الله ناهضا ذا أمل واسع وتشوق للادب العربى حسن الانشاد على رواية الشيخ العباسى جميل الصوت لم يتمم تعليمه الذى أردته له لاصــابته بضعف القلب وقرار طبيب الكلية برفته على انى طلبت من المستر سمسن وكيل المعارف رسميا استمراره فى التعليم على حسابى واشترطت له انى لا أطالب باستخدامه فى الحكومة فرفض بتاتا فحفظت الأوراق التى تداولت بينى وبين المستر سمسن حتى بلغ رشده. وأطلعته عليها ولما قرأها أدمعت عينيه ودعى لى بالخير وندب حظه وليتنى لم أطلعه عليها فانه علم منهــا مرضه بالقلب فارتاع لذلك ولم يزل يضمحل الى أن توفى رحمه الله رحمة واسعة وعوضه الجنة فى شبابه . قبل رؤيتى لوصية يوسف بخطه وكتابه معها لهنرى جيد يلومه ولمــا سمعته بالدويم من أن هنرى هو السبب فى موت يوسف كنت حانقا على هنرى أدبر أكثر ما أدبر كيف ألحق به ولكن عنــد ما قرأت الوصيــة وكتابه لهنرى هدأت ثائرتى على هنرى الذى لما وصلت أم درمان وزارنا للعزاء ورأيت منــه كما بلغنى عنه تخوفه من عائلتنا بدأ يعتذر بأنه لو كان يعلم أو يؤمل ما حصل لتلافاه . قلت انت تعلم عقلية يوسف التى تحل الكثــير من صعوباتكم حلا مناسبا ولكن (الملويه لا تحل نفسها) فوالله لولا انى رأيت كتابه لك بخطــه وانه يبرئك من الجريمة بما حمله كتابه لك من اللوم فوالله لو وضعتك الحكومة فى قفص من حديد مانجوت منا ولا حال دوننا ودون تلك حائل مهما كان حصينا ولكن الآن نم مطمئنا . فظهر على وجهه السرور طافحا ولم أره بعــدها حتى حل به الافلاس المشين وفارق السودان نهائيا . حينما قابلت المستر هس بالمكتب جاملنى فى مصابى أحسن مجاملة وحتى قال ما الذى تطلبه منى بخصوص موت أخيك وكان يظن ان أطلب منه مساعده فى أخذ ثأره ممن كان السبب فى موته .

اعتجب لما قلت له تساعدنى فى أن أخذ الدرجة الرابعة فسكت واشتغل عنى فخرجت منه وأحسست بما دبر لى من شر منهم •

فلما فتحت المكاتب بعد العطلة علمت بأنى نزلت من مفتش الى ناظر الابتدائى بالخرطوم بدلا من مصطفى السيد الذى نقل لأم درمان ناظرا بدل عبد الحليم بك الذى نقل ناظر لقسم المعلمين والقضاة بالكلية فزاد ألمى انى سأفارق مدارس البنات التى أحبها وأرتاح للعمل فيها لاحياء واثارة أمهات المستقبل وسكنت الخرطوم بنتى الساره زوجة ابراهيم بدرى الذى رأيت ان مرتبه الأربعة عشر جنيها لم تقيم له شئونه الشخصية فى وظيفته الحالية ورتبت لوالدته ستة جنيهات شهريا لمعيشتها ومن معها وطلبت أيضا ابنتى عائشه زوجة المرحوم سلمان المدنى وأجرت منزل سالم رئيس فراشى كلية غردون الذى هو ساكن فى نصفه وكان بعض أولادى برفاعه وبعضهم بأم درمان وقطعوا عنى بدل السفرية وأجرة الزوامل التى كنت أكسب منها • بقيت فى الخرطوم وتوزعت معيشتى وتقلص ايرادى وكانت بيدى ثمانية وتسعين جنيها أمانة لابراهيم مالك وخمسا وأربعون جنيها مرتب عائلة لعبد المجيد على طه وطلبت من شبيكة بالدويم أربعين جنيها كل هذا مع مرتبى البالغ سبعة وعشرين جنيها ضاع فى مصروفاتى قبل أن يمضى عام واحد وزاد الطين بله انى ربطت بالخرطوم للطارئين من الضيوف والعشام أضنانى جدا مسيرى راجلا بين منزلى بالسجانة والكلية بذلك الطريق الرملى أربعة مرات وفطورى الذى لم أجد مكانا آكله فيه • وفى أحد الأيام مر على سعادة المدير ووجدنى آكل فدخل على المكتب وقال لى هذا مكان الأكل قلت ولقمتى بين يدى أين مكانه قال أنا آكل بمنزلى قلت منزلى بالسجانة أكثر من كيلو ونصف فسكت ولم يعد يسألنى بعدها اذا رآنى آكل بمكتبى لأنه رجل مؤدب • كان عبد القادر شريف وكيلا للناظر وكان التلميذ ابراهيم الجزولى خارج المدرسة من فبراير الى اكتوبر سنة ١٩٢٣ لمرضه فلما جاء وقت الامتحان منعه عبد القادر دخول الامتحان ولما ظهرت النتيجة لم يكن اسمه ضمن من يستخدمون عادة بعد اتمامهم رابعة ابتدائى فطلبت من سعادة المدير تعيينه فقال انه لا يستحق التعيين لسقوط اسمه فقلت أنا ناظر المدرسة منعته الامتحان وسعادتك المدير فجازنى أنا المانع له وألحقه بالمستخدمين وتبعت سعادته الى باب منزله فوقف معى دقائق ثم

قال لى أنا أريد تغدى فقلت لسعادته ما السبب فى منع ابراهيم الجزولى الاستخدام فقال لى امشى اسأل المستر يودال يخبرك وأخبرنى المستر يودال ان ابراهيم مرض بالسل وان الطبيب قرر عدم لياقته للخدمة والدروس معا وقال انه سيموت بعد ستة شهور فأرسلته لأهله برفاعة التى توفى فيها كما قيل عنه .

فى هذه السنة طلبنى سعادة المستر يودال بمكتبه وقال لى انه وصله بلاغ عن التلميذ ... انه لوطى وانى صممت أن أرسله للطبيب يكشف عليه . فقلت لسعادته انى لا أوافق على الكشف الطبى لا له ولا لغيره من تلاميذى الذين تحت ادارتى ولا لغيرهم من السودانية قال ولم قلت نحن عندنا ثمانية ضباط خمسة انجليز وثلاثة وطنيون تخبرهم أن يراقبوا هذا التلميذ بصفة خصوصية فأن أثبتوا عليه وهو متلبس بالجريمة نرفته بغير هذا السبب وان كان كلام ولد فى ولد لا قيمة له . قال الأحسن أن نرسله للطبيب قلت هب سعادتك أرسلته وأنا بصفتى والده فأن قال انه مفعول أقول لسعادتك أنا سلمتك ولد برا نقيا واذا قال الطبيب انه برىء أقول لك قبحت سمعة ولدى بماذا يجاوبنى سعادتك فأطرق مليا ووافقنى . كان هذا يوم الثلاثاء فلما جئت من أم درمان صباح السبت طلبنى سعادته حالا وقال لى وقعت مصيبة كبيرة (جملته المعتادة) قلت ماهى قال التلميذ .. هرب من المدرسة قلت لا يهمنا أمره لأننا فى مدرسة ولسنا فى سجن علينا أن نخبر والده بغيابه الفجائى . فقال سعادته أخبره برقيا فحضر والده وأمره المستر بودال بمقابلتى لأعرفه سبب غياب ابنه فلما سألنى قلت له ان ابنك ضعيف فى بعض علومه وانى أقسمت له أن سقط فى الامتحان أجلده ثلاثين جلدة فى الطابور فخاف من الجلد المزعوم وهرب فابحث عنه واحضره للمدرسة فبعد يومين طلبنى سعادة المستر يودال ووجدت والد التلميذ .... معه فناولنى كتابا مفتوحا وقال لى اذهب مع هذا للشريف يوسف الهندى وأعطه هذه الكتاب فلما قرأته قلت لسعادته لا يمكننى أن أوصل هذا الكتاب عنك للشريف يوسف الذى تعتبره الحكومة والشعب ثالث الزعماء الدينيين بالسودان فاذا أوصلته له يعتبرنى كأنى أنا الذى هديت بما فيه فلما رأيته مصمما على وصول هذا الكتاب المملوء بالسباب خرجت وطلبت الرجل أن ينتظرنى بمكتبى ثم دخلت على سعادته وقلت له لا تكتب

مثل هذا الكتاب للشريف يوسف على قول شخص لم تتأكد من صدقه فاذا قدم الشريف هذا الكتاب للحاكم العام فما هـــو السبب الذى تبديه قويا مؤكدا لمثل هذا السباب ثم قلت الأحسن أن تترك هذا الكتاب وأسير اليه أنا ومعى الشيخ لطفى الذى هو بمكتبى الآن مع والد التلميذ فان أعطانا الشريف التلميذ انتهى الموضوع بسلام وان امتنع الشريف وجدت شهداء عليه ووقتئذ أرسل له هذا الخطاب وليفعل ماشاء له أن يفعل فوافقنى .

أخذت الشيخ لطفى وابنى يوسف والرجل فلما وصلنـــا الشريف يوسف وجدناه فى برندة سرايه القديمة ومعه جمع من اخلاط الناس والتلميذ بالقرب منه فبعد التحية وقبل جلوسنا فاجأنى بقوله وهـــو مغضب بأعلى صوته : (المايبقالكم مره) تمنعونه التعليم فى الكلية ذهلت لهذه الصراحة الخطــرة فدخلت غرفة من الغرف وانتظرت حتى مر بى أحـــد خدمه قلت له قل للشريف عمى بابكر بدرى يرجوك الحضور له بمكان جلوسه فجاءنى ولما جلس قلت ياسيدى الشريف أليس المستر يودال صديقك ؟ قال نعم : قلت هل لا توافق ان الكلية تحت عهدته فى سيرها ونظامها قال نعم قلت هل تضمن ان ما قلته صريحا بين هذا الجمع لا يصله اما أنا ومن معى فعليك أمان الله لا نوصله له واذا وصله ورفعه عنك لسلطة عليا فهـــل تثبت ما قلتـــــه على حقـــائق تبرئك أو تعذرك على الأقل فتقول مثل هذا القول علنا فى هيئة محترمة بانيا حكمك على قول تلميذ غير مسئول عما يقول . فطأطأ راسه ويعلم الله جرى جسمه عرقا حينمـــا قدر ما قال ثم أمرنى بالخروج معه وهجم على التلميذ الذى كان (قد حلف بعزة الله وملكه ان مطرق الريحان ماتمسه بضرب) فقال يا ملعون كل من غلبته دروسه رمى فى الكلية هجيمه ثم قال يعلم الله ويشهد أنا جار الكلية خمسة وعشرين سنة ماسمعت عنها ما قلته يا منافق ثم قال يا ود عائم جىء بالسوط واضربه ثمانين جلدة حد القذف . فقلت للشريف أنتم تضربونه هنا والمدرسة تضربه ثانيـــــة الأفضل أن تجلده المدرسة فسلمنا اياه مقهورا مغضوبا عليـــــه فأخبر والده يودال بتناقض الشريف على ولده بين عطفه وغضبه وقســـاوته ولكنه لم يذكر له ماقال لى أولا لأنى حذرتهم أن لا يقولوه للمستر يودال لما يترتب عليه من جرنا للشهادة أوصلنا التلميذ الذى جلد اثنى عشر جلدة وسار فى دروسه ونجح

فى امتحانه ونقل الى الثانوى الذى أتمه وتوظف بعده ولم يعرف عنه أى علاقة أو علامة لما رمى به .

فى آخر هذه السنة نشرت الجرائد طلب عمل اكتتاب لمنكوبى السيل ببلاد النوبة فطلبنى الشيخ أمين قراعة قاضى القضاه ورئيس لجنة الاكتتاب بالحقانية بأن أجمع اكتتاب المعلمين الوطنيين وكلف عبد الحليم بك أن يجمع اكتتاب المعلمين والاداريين المصريين والانكليز فجمعت عشر جنيهات وأرسلتها لقاضى القضاه الذى أرسل وصلا واحدا مطابقا فى الأسماء والنقود للكشف الذى أرسلته له ومع هذا الوصل كتاب آخر بجمع اكتتاب باقى مستخدمى الكلية الذى اعتذر عبد الحليم بك عن تحصيله فأخذته وأول ما بدأت رئيسى المباشر الرجل الذى يدعونى أباه المستر يودال فلما عرضت عليه الموضوع رفض أن يشترك وقال لى انت تكتتب للمصريين قلت أنا أكتتب لكل بائس مستحق كما أكتتبت للصليب الأحمر وخرجت من عنده وذهبت للمستر كروفوت الذى أمسك منى الكشف وسألنى كم تريد أن أدفع قلت خمسين قرشا على انى كنت آمل جنيهين منه فكتب المبلغ واسمه وسلمنى الكشف الذى جمعت به تحت اسم سعادته أكثر من عشرين جنيها من كل المستخدمين عدا سعادة المستر يودال الذى هو أسخى أبناء جنسه بدفع ماله للأعمال الخيرية وغيرها ولكنى أظن أن ما منعه بغضه للمصريين فى تلك الآونة فلما وصل قاضى القضاه التبرع الثانى ورد لى منه كتاب تقدير مطنبا فيه .

فى هذه السنة بدأت حركة اللواء الأبيض بدعاية المصريين دعاية نشيطة وأظن سببها المجلسان اللذان عقدا فى منزل السيد عبد الرحمن والامضاءات التى كتبت بالولاء للانكليز فظهرت فى الكلية فى قسم القضاه أولا بدعاية معلم الشريعة الشيخ مبارك الذى علمت أنه أمر التلاميذ بالضغط على المصلحة بمشترى كتاب فتح القدير الذى يرى القاضى انه لا يلزم لدرس قسمهم ونفخ فى روح اقدامهم أن قابلوا مدير المعارف وصارحوه بقلة أدب ووقاحة وكان المتكلم عنهم أحمد بدرى الذى قال المدير لى عنه ان أحمد أتعبنا فضغطت على أحمد ولما لقينى المدير فى ملعب الكره قال ان أحمد أصبح عاقلا ماذا صنعت له قلت نصحته ففى ليلة ذهبت للشيخ مبارك فى بيته الذى كان فى زقاق ضيق

وبيدى المصحف فخرج معى كطلبى منه فلمـــا اختليت به أخرجت المصحف وحلفت له عليه انه بعد اليوم اذا سمعت أنه أغرى الأولاد فى الفصل أو خارجه بالسياسة أو أى تحريض يضر بمستقبلهم عند الانجليز لأخبرت مدير المعارف بكل ما حصل منه ووضحته له بزمانه ومكانه لكل حادثة ثم قلت له اننى لست جاسوسا وانت رجل عالم من علماء المسلمين احترمك ولكنى لا أسمح لك أن تضرنا فى أولادنا وتعليمهم فوضع يده على المصحف انه لا يشتغل فى الكليــة ولا خارجها مع الوطنيين فى السياسة أبدا وشكرنى على نصحى واخلاصى له فلم أسمع بعد ما كنت أسمع عنه •

فى هذه السنة تنبه الأولاد بالسفر لمصر لطلب العلم وبدأت حركة الدعاية لمصر وكنت ساكنا فى الداخلية التى كانت لورشة النجارة فأخذت قسم المعلمين والقضاه لمنزلى لأرشدهم لما فيه خيرهم وخير بلادهم وأولادهم ولكنهم كمــا كانوا يرموننى باخلاصى للانجليز فلم أنجح كل النجاح فى توجيههم لمــا أردته منهم ولهم فمن ذلك قلت لهم هل الانجليز أمة أجنبية أم وطنية بالنسبة لنــا قالوا أجنبية قلت اذا اختلفت مصلحتنا ومصلحتهم فالســير الطبيعى للبشر يقدمون مصلحتنا أو مصلحتهم قالوا يقدمون مصلحتهم واذا اتفقنــا يأخذون الكثير أم يعطونا الكثير قالوا يأخذون الكثير قلت هم الآن عاملون بهذا السير الطبيعى للبشر • ثانيا قلت لهم الرجل الذى يتمكن من خدمة وطنه الجاهــل أم العالم قالوا العالم قلت المضمون له رزقه أم الذى يصبح مهتما بتحصيــل رزق يومه قالوا الذى ضمن رزقه قلت أهو القريب من الحكومة يعرف مقاصدها فينتهز الفرصة كلما سنحت ليخدم وطنه أم البعيد عنها فيجهــل سياستها قالوا هو القريب منها قلت هذا هو المستخدم لأنه بعلمه اللغة الانجليزية يمكنه يطالع الجرائد الانجليزية فيعرف قواعد دستورهم وعاداتهم وبمرتبه ضــمن رزقه وباحتكاكه معهم فى المكاتب يعرف الكثير من مقاصدهم للبلاد فينتهز الفرصــة كلما سنحت له خصوصا حينما تكبر سنه وتعلو مكانته بمكتبه فعلى هــذه النظرية يجب عليكم أن تجعلوا الكليــة دار علم لا دار سياسة فأنى أخاف اذا تماديتم فى طريقكم هذا الحكومة تقفل الكلية ولو الى أجل فتسدوا الباب على أنفسكم وعلى الجيل الذى بعدكم على الأقل • فبعضهم قال مستحيل قفــل الكلية فلما قفلت الحربية سنة ١٩٢٤ أيقنوا بامكان قفل الكلية وبعد أيام من

هذه المحادثة مع التلاميذ طلبني سعادة المستر يودال وقال لى ديوان المخابرات أخبره أن يأمرنى بأن لا أجتمع بالتلاميذ بعد ذلك لأنى أعرفهم مالا يعرفون فانقطعت منهم وبعد أيام طلبنى المستر يودال بمكتبه ورمى لى كتاب كان بيده فى حجرى بدفع قوى وقال لى انت نائم غير منتبه لأحوال تلاميذك وغير عارف ما يدور بينهم هذا كتاب خطب سعد جاء لى به معلم مصرى وجده عند أحد تلاميذك فانى أشكره • قلت من هو التلميذ الذى وجد عنده قال هو الخضر عمر الخضر قلت هذا مريض بالاستبالية قال وجد على سريره بالشفخانة قلت اذا كنت أنا مكان سعادتك لا أشكر هذا المعلم المصرى قال ولما قلت سعد زغلول الآن هو نبيهم والمضحى بحياته لمنفعتهم فهذا المعلم اما أن يكون ساقطا خائنا بلده وهذا لا يستحق الشكر واما أن يكون له غرض خصوصى عند سعادتك قدم هذه الخدمة لينال بها غرضه المقصود ومن كانت هذه أخلاقه لا يستحق الشكر اما أنا فعندى مجموعة من خطب وقصائد قالوها بمرأى من التلاميذ وعندى عليهم جواسيس منهم يرفعون لى أخبارهم أولا بأول وقبل أن ينتشر الداء بينهم فأطلب صاحب الحادثة وأخبره فى أن أقدمه لسعادتك أو يحلف على المصحف ألا يعود فيحلف على المصحف ويقلع فعلا عن مبدئه فقال سعادته أليس الأحسن أن تأتينى ببعضهم أرفتهم من المدرسة فيخاف الباقون قلت لا أوافق على ذلك لأمرين أحدهما أن أهل المرفوت يقبحون سمعتى والثانى ان كل من يكره بقاءه بالمدرسة يستعمل هذه الطريقة ليرتاح من الدروس والغرض اطمئنان التلاميذ واشتغالهم بدروسهم فأنا المسئول عن أى حركة تحصل فشكرنى وفوض لى وبعد أيام قليلة أخبرنى ان المعلم المصرى عبد اللطيف أفندى يوسف الذى سلمه خطب سعد طلب منه التوصية باحالته على مصر قال سعادته فذكرت فراستك ولم أجبه •

دخلت سنة أربعة وعشرين وحالتى بائسة جدا لأن العمل أصبح بين المستر يودال وعبد القادر أفندى شريف وشاع فى المكاتب احالتى الى المعاش فأعددت نفسى اذا أحالونى للمعاش أن أفتح مدرسة ابتدائية بأم درمان ولو أوضع فى السنجن لأن معاشى القليل ستأخذ السلفية للبناء جله ومرتب أحمد لا يتجاوز ضرورياته ويوسف مات وعلى بدرى دخل مدرسة الطب وأملاكى برفاعه لو بعتها لا يتجاوز ثمنها آنذاك مؤونة سنة فصار كل تفكيرى فى تقلب الزمن

وتوالى مصائبه على ففى يوم ما طلبنى المستر يودال الذى اعتمد عليه بعد الله فى محنتى هذه فقال لى عندكم بيت فى الدويم قلت نعم فقال لى أترضى أن تنقلك مفتشا محليا بالنيل الأبيض ويكون مركزك الدويم فوقع على هـــذا القول كالصاعقة وأصابنى يأس من خير فى الانجليز وتأكلت عنـــدى نيتهم نحوى وبجملى السوء المجسم تحت هذا التأثير قلت له أنتم لا خير فيكم وأنا غلطان جدا نحوكم والله لو تدخلونى فى جوال وترمونني فى البحر ما رجعت مفتشــا محليا بعد أن كنت عموميا فقام من كرسيه وجلس على كرسى آخر ثم قلت له ما الذى عملته أنا مع المستر كروفوت حتى يعاملنى هذه المعــاملة قال لا والله هذا فكرى أنا لأنى رأيتك فى حالة معيشية صعبة وخصّــوصا فى الخرطوم • قلت اذا ترد مساعدتى فأسع لى فى الدرجة الرابعة قال لى اذا أردت الدرجـــة الرابعة فاسع لها بواسطة فريد بك عطية • قلت له سعادتك بريطـــانى ونائب المدير فأن لم تستطع مساعدتى بها فان فريد والله لو مدها لى ما تناولتها منـــه وانى لا أعتبر فريدا أكثر من انه انسان غلبته المعيشة فى بلده فجـــاء لطلبهـــا فى بلدنا وعلى هذا فانى أفضل استغنائى من الدرجة وخرجت منه • وبعـــد أيام جاءنى مدير المعارف وطلب منى فجأة أن أدرس التلاميذ حرب ولد النجومى بالقطر المصرى لأنى كنت فيه وفى أثناء تدريسى خرج سعادته فضعف أملى فى الدرجة منه وبعد يومين طلعت لسعادته فى مكتبه وطالبته بالدرجة الرابعة فطلب الدوسيه الخاص بى وباطلاعه عليه قال لى انت خدمتنا رسميا فخدمناك رسميا فأخدمنا خصوصيا نخدمك خصوصيا • فقلت لسعادته انى قنعت منها لأن ثمنها غال فما رأيك فيها ؟ قال أردها للمالية قلت بمصلحتك درجة واحدة كانت عند مصرى وعند السكرتير القضائى ثلاثة مثلها فانى أنصح لســعادتك ألا تردها وعندك نحو العشرة ممن يستحقونها بمقارنة أقرانهم من القضاة الذين جلسوا معهم فى معهد واحد بمدرس واحد وزمن واحد • فقال من يستحقها فى نظرك ؟ فقلت أعطها من شئت من العرفاء الذين لم يتخرجوا والى أول دفعة من المعلمين قال سأنظر فيها فنزلت منه وطلبت الشيخ عمـــر اسحاق وقلت له اذهب الآن لسعادة المدير طالبه بوضعك فى الدرجة الرابعـــة وان عرض لك باسمى فعرفه انى أثرتك بها عن رضى منى ولا أطالبه بغيرها • فطالب بها فأعطيت له •

بعد هذا الكلام ذهب المستر يودال لرفاعه التى فتح بها فصـــل ابتدائى

تحت نظارة الشيخ لطفى الذى كنت أعتقد انه أبر أولاد رفاعه المتعلمين بى والذى قلت فيه تلك الجملة التى عارضنى فيها شبيكه حينما كانوا تلاميذ بكتاب رفاعه . فطلب المستر يودال من لطفى (بعد أن أخبره بما حصل لى من سوء المعاملة وضيق العيش وارتكاب الديون بالخرطوم .) أن يسمح بنقلى لرفاعه ناظرا لمدرستها فرضى فى أول يوم ولكنه على ما بلغنى انه اجتمع بالقاضى الشيخ الحاج الأمين وكاتبه محمد النور فاغرياه على الرفض فأصبح أبيا . فقال له المستر يودال كما أخبرنى ان بابكر قد مات أخوه وذهبت ثروته وأصبح أولاد أخيه عالة عليه بعد أن كان يستفيد من أخيه المرحوم فقال له لطفى كما أخبرنى المستر يودال وأنا أيضا أخى مات فكانت هذه المقارنة بين الأخوين الميتين أشد وقعا على من الامتناع بالنقل لرفاعه الذى لم أطلبه من المستر يودال ولا أخبرنى يعلم الله عند قيامه لرفاعه سيقترحه على لطفى وان كنت حسن الظن بلطفى فى ذلك الوقت وقد ختم المستر يودال كلامه عن رفاعه بقوله : اذا كان أولادك لا يعطفون عليك فماذا أصنع لك . ففعلت هذه الجملة فى نفسى فعلا مؤلما لا تزال تؤلمنى ذكراه لأنى أولتها تأويلات متعددة متنوعة وليت لطفى استمر فى رضاه لأنى ماكنت أرضى برفاعه مرجعا تحت ظروف رجاء واستعطاف (ولكن جملة المستر يودال الأخيرة كانت لى بلسما) من تأثيرى لوعتى وحزنى على أخى يوسف لأنى عندما خرجت منه وصلت مكتبى وألهمنى عقلى عن ربى فقارنت بين موت يوسف الذى عمر حتى حفظ له تاريخا مجيدا ودفن فى موكب عظيم بكى عليه الأقربون والغرباء وخلف ولدا يحفظ ذكراه وبين موت موسى شقيقنا الذى مات بفرص ولم يتزوج وكيف دفن وبين بؤسنا بسريةولدالنجومى التى من أخف بؤسها انى لم أذق طعم غلال سبعة وعشرين يوما ناهيك بالخوف والعطش وذكرت أيضا ما حصل لى فى أسرى بالسجن ودراو فحمدت الله وخرجت من هذه المقارنة باليأس من المخلوق والاعتماد على الخالق وقلت لنفسى (العاقل هو الذى ينتفع من مصائبه لا الذى يتقيد بها وخلعت ثوبى البؤس والحزن) .

ولكن وقعت فيما هو أشد منها حيث أصابتنى حمى بقشعريرة ظننتها ملاريا مما تصيبنى غادة برفاعه فذهبت الى الدكتور شريف المصرى بشفخانة الكلية فأشار الى تمرجى أعطانى حقنة فى أليتى اليمنى بابرة لم يعقمها أمامى

فتورمت أليتى واشتدت الحمى على فى اليوم الثانى حيث وجدنى سعادة المدير جالسا القرفصاء مستحليا وقع الشمس على جسدى فقال لى بشفقة امضى الى بيتك بأم درمان فذهبت وعرضت نفسى على الدكتور سليمان الصليبى الذى أمرنى أن أضع عليها مكمدات بذر الكتان وكلما قربت البروده غيرتها بآختها الحاره ولم يوضح لى كيفية العمل ولم يعطنى شاش المشمع فعدت أضع الأولى على أليتى والثانية فى ماعونها على الجمر وعندما قربت الأولى تبرد حرارتها وضعت على النار فى الخرقه ووضعتها فى مكان الأولى حتى التهبت البرستاته من شدة الحرارة وشعرت بمبادىء حبس البول وكان الدكتور يزورنى يوميا بمنزلى ويأخذ خمسين قرشا وبعد أيام صار يجى معه الدكتور راجى نصر ويأخذ ثلاثين قرشا وفى بعض الأحيان ينسيان ميزان الحرارة فيأتيان لى ويشربان القهوة ويأخذون الثمانين قرشا : فى هذه الأثناء زارنى سعادة المستر يودال فرآنى فى حالة سيئة جدا شعر بأنى سوف أموت فيها وفعلا أنا كنت قد كتبت وصيتى فعرفنى أنه قبل يوسف مجانا وأرجع لى قيمة القسطين عن شهرى يناير وفبراير اللذين طلب ردها لى من الخزانة فشكرته جدا وكان جالسا بجانبى فلما تحركت أودعه أقسم انى لا أقف فضاعفت شكرى لزيارته ومجالسته وشفقته ثم ان سليمان الصليبى نصحنى بدخول الاستبالية التى أهملنى فيها لأنه صديق مصطفى أفندى السيد الذى أسس بينى وبينه عداوة لا أعرف لهما سببا وأشاعوا كما بلغنى أخيرا انى مريض بالسيلان الذى لم أعرفه فى حياتى ولا تطرق لى سبب من أسبابه فمكثت بالاستبالية خمسة أيام تعبت فيها جدا لصعوبة المخرجين بسبب تضخم البرستاتة • وفى يوم الأربعاء زارنى الدكتور هودسن بتوصية المستر يودال ومعه سليمان الصليبى فسألنى عما أشعر به • فأخبرته فكشف بطنى ولمسنى ضاغطا وقال : أيوجعك هنا قلت لا • فصار يوضع أصبع يده الثانية بلصق أصبعه السابق حتى وصل محل الألم • قلت نعم يوجعنى • فاشتد فى ضغطه حتى خرج الصديد من قبلى (ذكرى) فرفع رأسه مغضبا الى سليمان وقال له بالعربى : الى الآن ما شخصت مرضه وما عرفت انه تضخم برستاتة ثم التفت الى وقال لى ياشيخ نعمل لك عملية الآن فانى لا أرجع الا يوم الأحد الذى بعده أسافر بأجازة المعاش قلت اليوم الأربعاء وسعادتك عرفت المرض فخبر الدكتور سليمان بالعلاج غير العملية نستعمله

ليوم الأحد ان لم يفد نعمل العملية • أخبره بالعلاج الذى لم نستعمله أكثر من مرتين بيومه فى الحال وفى عشية اليوم نفسه وفى صباح الخميس فى غده بلت بولا طبيعيا • فلما جاءنى الدكتور هدسن يوم الأحد لقيته خارج الباب ماشيا عاديا ففرح جدا وودعنى •

خرجت للمنزل وصار الدكتور فوتنر خلف الدكتور هدسن يجيئنى مرتين فى الأسبوع بمنزلى ثم أعطانى خمسة عشر يوما أقضيها ببلدى الأصلى فزرت الشيخ ابراهيم مالك بأبى حمد حينما كان قاضيا ورجعت للكلية فى أول شهر مايو وحصلت حركتان الأولى ان التلميذين • • • • • • • •
أتهما بالردة بأن الأول قال • • • • • • • • • • • •
فجاءنى المشايخ عبد القادر المصرى والشيخ مجذوب جلال الدين والبشير الفضل طلبوا منى تنفيذ الحكم الشرعى فيهما فطلبت التلميذين من الثانوى الذى لم يكن لى عليه سلطة وسألتهما هاكذا أتتما قلتما هذا القول الذى نسب لكل منكما قوله الذى يخرج به من الاسلام ويوجب القتل شرعا عن عقيدتكما أم حكى كل واحد مانسب اليه حاكيا عن غيره فقال كل منهما انه حاك عن غيره فطلبت المشايخ وأخبرتهم بما قاله التلميذان وانهم يشهدان حقا بعقائد الايمان فقال بعضهم انهما قالا ذلك عن عقيدة راسخة فى كل منهما بما له ويجب عليك وعلى الكلية أن تنفذ فيهما حكم الله • قلت يا سيدى ان مثل هذا الحكم ليس لى ولا للكلية وانما يطلب اذا صح طلبه من سماحة المفتى ولكن أسألكم هل الأحسن لبلدنا كمسلمين ولاسم الكلية كمعلمين فيها للدين وللتلميذين أن نقبل عذرهما أو نتوسع فى البحث فى مسألة اذا أثبتناها لحقنا عارها وضررها • فاستحسنوا رأيى وانصرفوا شاكرين •

لما قرب قيام سعادة مدير المعارف بالأجازة لانكلترا قابلت سعادته بمكتبه وقلت انى أريد من سعادتك أن أعرف بعد الأجازة أين يكون عملى • قال لى بحزم بالخرطوم كما كنت • قلت أنا أطلب من سعادتك نقلى من الخرطوم • قال لى بحزم أيضا ان المستر هسى يرفض بقائك معه بالتفتيش.وأنا لا أعرف لك محلا غير ابتدائى الخرطوم • فلما سمعت ذلك تغيرت فطرتى فقلت له عندك احدى عشر ابتدائى بالسودان يجب أن تنقلنى لأحداها • قال

ما فكرت فى نقلك من الخرطوم فى سنة واحدة فقلت سعادتك مدير المعارف ستأتى من الأجازة وتصمم على بقائى بالخرطوم وأصمم أنا بدورى على رفضى بقائى بالخرطوم فتشكل سعادتك مجلسا يأمرنى فيه بالبقاء وأستمر رافضا فيحكم على المجلس برئاستك بفصلى من الخدمة وحرمانى من المعاش فتضيع أنت كل ماضى وآملى فى المستقبل . فصمت قليلا وقال أنت لا تعمل ما تقول قلت على الطلاق لأعملنه . قال ولماذا تعمل ذلك قلت ليعلم الناس انى كيف عملت بهذه المصلحة وكيف عوملت فيها فى زمن أحوج ما أكون فيه للمساعدة حتى والمجاملة التى لم أجدها من أحدكم فى محنتى البؤس والمرض الا من المستر يودال فطأطأ رأسه المفكر طويلا ثم رفع رأسه وقال هل من سبب طرأ عليك قلت قد استدنت فى هذه السنة التى لم تتم بعد مائة وثلاثة وثمانون جنيها . قال ممن استدنت . قلت ابراهيم مالك عندى ثمان وتسعون جنيها ولعبد المجيد على طه مرتب عائلة ليتزوج بنتى خمسة وأربعون جنيها والباقى طلبته من شبيكه بالدويم وكل هذا فقد . قال اذا كنت انت تبحتر الفلوس أنا أعمل لك ماذا . قلت أنا أبعثر الفلوس ! أمسك قلما أوضح لك صرفها . فتواضع وتكرم وأمسك القلم . قلت لسعادته أنا قلت لك كم يصلنى من يوسف اعانة فى السنة . قال بين مائة وثمانين جنيها . قلت تعتبر الشهر سبعة جنيهات ضعها فى رأس الكشف فوضعها . قلت أنا الآن أعطى أولاده ستة جنيها ضعها وأعيش فى الخرطوم مع بنتى بعشر جنيهات وضعها وأجرة بيتى جنيه ونصف . رفع رأسه وقال لى أنا أجرة بيتى ثلاثة جنيهات أنت تسكن بجنيه ونصف قلت لسعادته أنا مستعد أخذ بيتك من الحكومة بخمسة عشر جنيها وأربح فيه يا سعادة المدير . أنا ساكن فى بيت ساكن صاحبه (سالم الفراش) فى الشقة الثانية مثل شقتى تماما أتريدنى أن أسكن فى أقل من سكن فراش فطأطأ رأسه وظهر على وجهه أثر الحياء وكتب الجنيه ونصف . قلت أرسل لأولادى برفاعة ثمان جنيهات ولأولادى بأم درمان عشر جنيهات وبالمكتب أقل ما أصرفه شهريا جنيهين للزوار بخلاف الغداء وعشام قبيلتى فلما جمعها . قال لى كم ماهيتك ؟ قلت ماهيتى سبعة وعشرون جنيها . قال لى ولكن هذا فوق الأربعين . قلت من هذا الفرق تنتج الدين . وضع قلمه بين أصبعه ثم طلب الدوسيه الخاص بى . فلما فتحه التفت الى فى عزم الغالب

وقال لى انت أخذت أحد عشر جنيها فى سنة واحدة • قلت يا سيدى قلنا هذا عند طلبى الدرجة الخامسة وقلت سعادتك انت لم تعطنى علاوةتفتيش الا أربع جنيهات ثم ان سعادتك أعرفت انها لم تف بفرق المعيشة بين رفاعة والخرطوم • اما الباقى من الاحدى عشر فقد أخذ كل من مستخدمى حكومة السودان مثلها. فسألنى كيف ذلك ؟ قلت كان مرتبى برفاعة اثنى عشر جنيها فصار ستة عشر جنيها ثم جاء فى تعويض سنة خمس عشر فصارت ثمانية عشر ثم المائة وعشرين التى ضمت للمواهى فصار واحد وعشرين جنيها وستمائة مليم ثم تعديل الدرجات الى ثلاثة وعشرين جنيها • سكت ثم قال لى سعادته ماذا تريد أن تفعل لخلاص الدين • قلت أريد أن تقرر لى سفريتين كل سفرة ستة شهور فبهذا يمكن خلاصى من الديون • قال سعادته ما عندنا مكان لم يسبق تفتيشه غير مديرية الفاشر هل يمكنك الذهاب اليها ؟ قلت لو وضعت سلما للسماء لصعدته من غير أن أطلب من سعادتك ماء ولا زادا الا لاضطرارى • فتبسم ضاحكا وقال لى بصيغة جده وعطفه : المعهودين بى اللذين عهدى بهما طويل حينما أرجع أعمل لك ترتيب السفرتين ولكن من ينوبك فى ادارة المدرسة ؟ قلت عبد القادر شريف • هو الذى متولى ادارة المدرسة مع المستر يودال سل ساعدته • فوعدنى وعدا حارا حل به مسألة حصر فكرى فودعته وأنا أقول المثل السودانى (ضحك البان خلاصه)

وقبل أن يعود سعادته من الاجازة بدأت المظاهرات التى بدئت أول مرة بمقابر أم درمان حيث دفن رفات المرحوم عبد الخالق أفندى حسن المصرى مأمور أم درمان الذى صار آخر مأمور مصرى لها (ولم يشترك فى مظاهره ذلك اليوم من الناس المعروفين غير الشيخ ولد عمر دفع الله •)

وكان يلى ادارة صلحة المعارف وقتئذ جناب المستر هسى الذى طلبنى يوما وقال لى ان تلاميذ الحربية الذين كانوا موضوعين بالليل فى الوابورات يصيحون بالليل بأصوات مزعجة فهل ترى طريقة تسكتهم بها • قلت الأحسن فيما أرى أن أذهب أنا لهم وأنصحهم بالسكوت •

استحسن هذا الرأى وقال لى اذهب الآن للبكباشى بيز الذى كان وقتئذ قمندان المدرسة الحربية ومعه اليوزباشى الزين الذى أغرى تلاميذ الحربية

بالمظاهرة ضـــد الانجليز (ومن العجب ان البكبـاشى بيز لا علم له بذلك فيتداركه) فسعيت للبكباشى واتفقت معه على أن تتقابل مع جنابه يوم الأحد الساعة عشرة باستبالية الحربية لنركب اللنش لمقابلة التلاميذ فى زيارته المعتادة لهم وكنت معتمدا فى وعدى هذا على نفاذه تماما • غير انى وصلت بيتى واجلت فكرى خطر ببالى ان هؤلاء الأولاد هم فى ثورة فكرية قادتهم لهذا العمل الذى لم تزل بوادره مستمرة • فاذا ذهبت لهم وحدى فلا شك انهم يعتبروننى داعية للانجليز ولا أنجو من سبهم لى علنا وربما ضربونى ليجعلونى عبرة لغيرى حتى يظلوا فى نجوه من وسائط خائنى الوطن فى رأيهم • ولكنى وعدت بمقـابلتهم فكيف لا أوفى بوعدى مهما كلفنى • ثم قال جولان فكرى لهذا الوفاء تجعل نقطة سوداء فى تاريخك لضربهم لك ثم اهتديت الى أن أخذ أربعـة رجال من أم درمان لهم أولاد فيهم هم محمد على ارناءوط ، صالح بك ، جبريل ، خليل النادى ، بابكر الشفيع • وأنا ذاهب لمحمد على ارناءوط لقيت الشيخ عمـر اسحاق طلبت منه مرافقتى لهؤلاء الأباء فرفض طلبى قائلا : أنا مالى • زرتهم كلهم فى بيوتهم ووعدونى بأن تتقابل فى أول معدية بموردة أم درمان لنركب الترام الأول حيث ننتظر البكباشى بيز بالاستبالية فى أو قبل الميعاد ولكنى لم أجد منهم غير صالح بك جبريل والشيخ بابكر الشفيع حيث علمنا ان الباقين منهما منعهما ولداهما عباس ومحمد النادى الضابطين بالجيش فركبت المعدية وياعجب ما خطر ببالى ونحن بالمعدية من ان الحكومة لم تحصـــل للان على خلاف ظاهر من هؤلاء التلاميذ تجعله أساسا لمحاكمتهم عسكريا • فاذا ذهبنا اليهم نحن مع البكباشى بيز وتكلموا كلاما بحسب عقليتهم يوجب محاكمتهم سنكون نحن شهداء على أبنائنا أو نكتم شهادة الله • فتفـاديا لذلك الخطـر اتفقنا على أن تتأخر عن موعد البكباشى بيز ثم نطلب اللنش ونصـل أولادنا منفردين عن البكباشى بيز وننصح أولادنا فان وافقونا فالحمـــد لله انتفعوا بنصحنـا وان خالفونا كتمنـا حديثهم وعاودناهم مرة أو مرات حتى يؤوبوا لرشدهم فقال صالح بك جبريل أنا أدخل على مكاون باشا بمكتبه فأمكث معه وأبدأ معه حديث التلامذه بصفتى أبو أحدهم فدخل وخرج والميعاد لم ينتهى بعد فواصلنا سيرنا الى سراية الحاكم العام حيث جلسنا فى دهليزها لنضيـــع الوقت فاذا بالمستر ماكميكل والمستر هس ومعهما ثالث لا أعرفه فوقفنـا لهم

فحيونا ودخلوا على المستر استرى السكرتير القضائى ونائب الحاكم العـــام وخرجوا من عنده (وفاتنى أن أختلى بالمستر هس وأقص عليــــه خبرنا حتى يخبر من بيدهم اللنش ليسهلوه لنا) فمضينا بُعَد فوات الميعــــاد للاستبالية وطلبنا اللنش فامتنعوا طبعا • فقلت لهم عندنا اذن بزيارة التلاميذ من ســعادة المستر هس فلما سألوه أرسل لى الشيخ عمر اسحاق يطلبنى بمكتبه • فلمـــا قابلته عبس فى وجهى وقال لى لأى سبب تأخرت (أمام الشيخ عمر اسحاق) قلت أنا الذى اقترحت وأنا الذى عدلت الاقتراح فما سبب غضبك • فصرفنى وبعد هنيهة طلبنى وحدى فأخبرته بكل ما حصل • فقال هذا رأى من ؟ قلت رأيى فصرفنى دون أن يكلمنى •

ثم بعد أيام جمع كل مستخدمى المصلحة فى أكبر غرفة بالكليــة وأمرنى بتلاوة الأمر الذى أصدره المستر بيل نائب مدير الخرطوم بمنع التجمع فى مكان واحد وما يترتب عليه من الجزاء • فأمرنى المستر هس بقراءة هذا الأمر عنى المجتمعين وكنت نسيت نظارتى بمنزلى وكان طبعــة البالوظى مسقوما فقرأته بصعوبة وجلست دون أن أعلق عليه بشىء بقولة من عندى • فقام الشيخ محمد أحمد فضل وأبان للمستمعين الشفقة التى تنويها الحكومة لهم خوفا أن يقعوا فى المحظور وانه نصح لهم أن لا يقتدوا بضعفاء العقول قصراء النظر ممن غرهم المصريون بوعودهم الخلابة فهم مثلنا فى بلدهم خاضعين للانجليز الى آخر ماقال مما سر به المستر هس وجعله يعتقد عدم اخلاصى من حادثة تلاميذ الحربيــــة وعدم تعليقى كما علق صديقى • فلما جاء سعادة المدير أفهمه عنى مافهم جنابه.

ففى ذات يوم أخبرت سعادة المدير بما حصل لأحد أبنائى من ضبــــاط مصريين بالمحطة العمومية من ضربه واخراج شقيقته من الغــرفة حتى قال لهم قولة سيئة • فلما سمع منى هذا طلب المستر هس وأخبره بما قلت له عن ابنى فأطالوا الكلام بالانجليزية بصفة تدل على اختلافهما فى الرأى مما جعلنى أفهم ان الكلام بخصوص اخلاصى وعدمه •

ثم شرعوا فى توزيع ابتدائى الخرطوم للابتدائيات الأخرى كل مجموعة من مديرية الى مديريتهم ان كان بها ابتدائى أو للمدرسة التى تكون قريبة لهم فأبقى بلا وظيفة وأحال على المعاش ولكن تدبير الله فوق تدبير خلقه فعارضته فى نقل أولاد رفاعه لمدنى بحجة الخوف على خسارة أخــلاقهم وصمم المستر

هس على ذلك فقلت للمدير اذا كان لا بد من الحاقهم بمدنى فيلزم أن أسبقهم لأحضر لهم منزلا فى منطقة مأمونة من اختلاطهم بفاسدى الأخلاق واجعل الشيخ عبد اللطيف أحمد ناظر كتاب النهر مراقبا عليهم بحيث يسكن معهم • فوافقنى سعادته • فلما دخلت القطار خطر ببالى الجوال الذى لا يهدأ ، ان أمر برفاعه فى طريقى وأحرض آباء التلامذه الذين بثانية وثالثة ورابعة الذين عددهم ثمانية وعشرون تلميذا أن يطلبوا من مدير مدنى مساعدتهم بضم أولادهم بمدرسة رفاعه التى بها أولى ابتدائى فوعدونى بتقديم هذا الطلب فى الحال فوصلت مدنى بيومى بكليتون وفى صباح غد قابلت سعادة المستر هدلستم مدير النيل الأزرق بمكتبه وعرضت عليه رأيي فى الحاق أولاد رفاعة الذين يكلفون الحكومة ثمانية وعشرين جنيها شهريا بخلاف أجرة المنزل وأكل المراقب وقلت له ان أولياء أمورهم سيقدمون لسعادتك طلبا بذلك فقال لى انى رائح رفاعة اليوم فان قدموا الطلب سأوافقهم عليه وبلغنى ان الشيخ عوض الكريم لم يوافقهم على تقديم الطلب وقال ود بدرى يريد اتمام المدرسة فى عامها ففى صباح اليوم الثانى لمقابلتى المستر هدلستم ورد لى منه تلغراف يطلب قيامى بقطار الساعة الحادية عشر للحصاحيصا فلما قابلته قال لى ان آباء التلاميذ لم يقدموا لى طلب كما قلت لى أخبرته أنهم خافوا من الشيخ عوض الكريم فأمرنى بمصاحبته للخرطوم وفى القطار بحثت الموضوع من كل نواحيه ولكنى والله ما دار بخلدى انى سأكون ناظر المدرسة الكاملة برفاعه لأنى مقتنع باحالتى للمعاش بعد أربعة شهور • ففى صباح وصولنا الخرطوم جاء سعادة المستر هدلستم فوجدنى ومعى الشيخ كمال الدين عباس خارج باب مكتب مدير المعارف فقال لى خلاص انت تأخذ تلامذة رفاعه وغيرهم من تلاميذ ابتدائى الكلية الذين لم يسبق الحاقهم بابتدائيات أخرى وانت ناظر مدرسة رفاعه ومضى مسرعا قبل أن أشكره على هذه البشاره المركبة المنافع فقلت للفراش عوض الكريم الذى كان واقفا أمامى : امش خذ كل أدوات الابتدائى للمحطة واشحنها لرفاعة فمشى ورجع قائلا حتى الكليم قلت نعم فمشى ورجع لى وقال حتى الدولاب الكبير قلت وانت معه لا تترك الا الكهربة وما يتعلق بها فقال لى كمال الدين (قدره والله) فسافرت لرفاعه مع المستر هس الذى لم يجد منزلا يليق بالداخلية غير منزلى لسعته ووجود البير بداخله فطلبه منى بخمس

جنيهات شهريا وان يعطينى مائة جنيها لتكسير ما يلزم تكسيره من المنافع وبنائه فى المستقبل وثمانية عشر جنيها لترميمه وتبليطه للخريف فرضيت وأنا مسرور فمكثت الداخلية به سبع سنوات كما سيأتى فى سنة ١٩٣١ م

فتحت المدرسة كاملة رغم معارضة بعض الناس فلما كان آخر هذه السنة ذهبت للخرطوم بعد مقتل السردار بمصر وشدة المظاهرات فوجدت الكلية مفتوحة فى القشلاق الذى بجانب السكة الحديد فلما رآنى المستر يودال الذى كان يدعونى (أبونا) والذى كان هو ملجئى فى محنتى نظرنى معبسا ولم يجبنى بل قال لى ماذا تريد قلت أريد غذاءات داخلية رفاعة قال لى بجفاف اذهب الى محمد يوسف هنا ثارت نفسى قلت لسعادته أنا أستعفى ولا أذهب لمحمد يوسف أليس هو كاتب المدرسة التى كنت أنا ناظرها فرد على بقوله انا لا نحترم سودانيا بعد الآن قلت ما السبب قال أما علمت واقعة الكبرى فقلت له بجرأه ذنبكم أتتم تريدون أن تعاقبونا عليه قال وهو ثائر ذنبنا نحن قلت ونصيبك أنت فيه أكبر لأنك مدير الكلية اسمح سعادتك أن أقول لك اذا كان هذا رأيك وحدك عدله واذا كان رأى مجموعتكم فغيره فان السودانى يرى نفسه قد وفى معكم كل الوفاء وأخلص لكم كل الاخلاص فان جهلتم ذلك أو تجاهلتموه فربما تحصل حركة أخرى يقودها كبار من السودان أنا ما أدعى انهم سيغلبوكم ولكنهم سيسودون تاريخكم المجيد فهدأ قليلا ثم قال وفيتم معنا والذنب ذنبنا كيف قلت نعم ألم تعلم ان هذه الحركة يدبرها المصريون منذ ثلاث سنوات وظهرت منذ ستة شهور فكانت نتيجتها لا تزيد على مائتى شاب ليس بينهم وطنى كبير غير الشيخ ولد عمر وان كل الشباب له أسباب اما مستخدم فصل من وظيفته أو مجرم تستر على جريمته أو راغب فى وظيفة لم يحصل عليها هأتتم قد نصبتم محكمة المجرمين فى الخرطوم بحرى وبدأتم تحاكمون أولادنا كما تريدون هل جاءكم والد سألكم لماذا حاكمتم ولده وفلذة كبده أم طلب منكم والد الرحمة لولده ماذا تريدون منا من علامتى الاخلاص والوفاء أكثر من هذا . فوقف سعادته وعانقنى كعادته وطلب محمد يوسف وأمره بأن يعطينى كل ما يكفى دون مراجعة .

أخــذت مقدراتى وزرت أولادى من المعلمين والتلاميــذ الذين كانوا يقرءون بالقشــلاق ويتغذون بالكليــة فاشتريت للخضر أخى بسكليت بعشر جنيهات خوفا عليه من الحر والبرد فى المستقبل أو العكس •

رحلت بناتى عائشه والساره لأم درمان لمرضى فقالت لى يوما أم أحمــد ابحث لبناتك عن معيشة فقلت لها أى بناتى تعنى قالت الساره وعائشه فلعنت الريف وأهله وما كنت أظن ان امرأة زوجها فى مثل ما أنا فيه تشغل نفسها بغير مشاركته فى ألمه وحزنه على أخيه فحلفت بالطلاق منها لأتزوجن عليها ان شفانى الله ولكن عديله بنتنا التى كانت حاجزه بيننا وان أمها حينما رأت غضبى ورمى الكرسى عليها خرجت مسرعة لا أدرى أكان خروجها خوف الضرب • أم سترا للخجل فقالت لى عديله والله يا ابت نحن وأخواتنــا بنات حفصه كالشقيقات لا نميز بيننا فلا تحزن وانت بهذا الحال فهبطغضبى بما قالت

سنة ١٩٢٥ فى أول هذه السنة جاء لقبول المستجدين برفاعه فريد بكعطيه فزرنا مدرسة البنات ومعنا لطفى بصفته ناظر مدرسة البنات فقال لى فريد بك لانكليز بدءوا يشكون فى اخلاصك لهم فقلت ليكن ذلك فمــا قدرتهم ولا فدرتك انت غــير توصلهم مايقــال فيهم قل لهم انى لا أحبهم فقال لى أنا جاسوس يا شيخ بابكر قلت له ما معنى قولك هذا قال نصحا لك قلت اذا أكدوا ذلك حتى شفهيا لا يقدر أحدهم ان ينالنى بسوء الا بالاحالة على المعاش قال يقدروا على اخراجك من السودان ضحكت ثم قلت أنا لست سفيها أرفع راية العصيان لهم وهم عقلاء لا ينون عقابهم على غير سبب •

وردنى كتاب من ابراهيم بدرى بمدنى يشكو فيه تثبيت الخواض أفندى وغلام الله وعدم ترقيه وان الحاكم العام أعطاهما عصاتين ولم يعطه مثلهما وهذه علامة عدم رضاء الحاكم عنى ولذلك حدثتنى نفسى بالاستعفاء فكتبت له قائلا ان الحكومة الآن تكافىء الناس الذين يشتغلون لها الأشغال الخصوصية فكيف تزاحم فى أشياء نتيجة لعمل تهزأ بعامليه ولكن الأمور سترد لمجاريها فيتغلب النبهاء العاملون بكفاءة على غيرهم (وانت منهم) فتأخذ حظك فوقع هــذا الجواب بيد المستر هدلستم الذى حينما زار رفاعه وجعل مجمعه بالمدرسة فحينما خلص منهم قال لى اذهب معى للمكتب فلما وصلنا مكتب المفتش قفله

على وقال لى مـاذا كتبت لابراهيم بدرى قلت له ابراهيم ولدى وأنا أكتب له كثيرا فأخرج سعادته الخطاب من جيبه وقالى هذا خطابك ؟ قلت نعم • قال : هل قلت فيه الحكومة مشغولة بالأشغال الخصوصية قلت نعم وهى مشـغولة فعلا بها دون الرسميات قال : من أين لك ذلك قلت لسعادته أنا راض بشهادتك هل ابراهيم أكفأ فى الأعمـال الرسـمية أم •••• ؟ قال : ابراهيم أكفأ قلت : لماذا لم يثبت ولم يحظ بهدية الحاكم العام وقف سعادته وجلس على الكرسى بأحد شقيه والشق الآخر أكثر مائل على الأرض ثم قال لى : ان ابراهيم فى مدة الصيف الماضى عمـل هـكذا ان كانت معنا جلس على الكرسى وان كانت للمصريين وقف معهم على الأرض قلت اذا عمل هذا على صغر سنه خـير ممن جاهروا وتظاهروا وانى كنت معه بالخرطوم فما رأيت منه ميلا للمصريين قال لى سعادته هو دائما فى الخرطوم بالمحكمة قلت نعم سعادتك تعلم ان أملاك والده العقارية ومنزله بالدويم معروضة ضمن التركة للبيع وأنا مريض وكنت أرسله يعلن المزاد فى المنزل والأطيان فيخبرنى حتى تتمكن من شرائهما قال هو يحضر محاكمة المجرمين السياسيين قلت حضرها مرة واحدة فلما أخبرنى نهيتـه عن حضورها فلم يعد لها مرة أخرى قال لى سـعادته : جاءنى أمر من الخرطوم بتفتيش منزله فكتبت لهم ان مديريتى لم يوجد فيها ما أشك فى اخلاصه قلت كفى بك شهيدا قال أنا قلت هذا خوفا من أن نجعل بيننا وبينك سوء فهم قلت أشكر سعادتك واسمح لى أن أقدم لك سؤالا : هـل قال لك ابراهيم حينما فهم انك تتهمه بجمعية اللواء الأبيض هل قال لك ارسلنى الى محكمة المجرمين السياسيين ان كنت مذنبا أسجنونى وان كنت بريئا أعطنى حقى قلت له سعادتك أخرج من مكتبى ولا تعرض على بعدها قال نعم قلت ألا تعلم ان والده انتحر العام الماضى وسبب افلاسه من الحكومة وهذا ولده الوحيد سلوتى فيه يخشى عليه من هذا الضغط أن ينتحر أو يخرج من السـودان فأحـرم على الحالتين سلوتى برؤيته ما الذى صنعته لكم حتى تكافؤنى بهذه المكافأة فسكت ثم فتح الباب فخرجت •.وفى سفرة راجع فيهـا من الخرطوم اجتمعت بالمستر بوسن نائب مدير النيل الأزرق فجرت سيرة المرحوم يوسف بدرى فبالمناسبة حكيت لجنابه ماجرى بينى وبين سعادة المدير فقال لى جنابه ان المدير سيقوم قريبـا بأجازة وأنا أجلس مكانه وسأثبت ابراهيم ولكن ليست المشكلة تثبيته انمـا

المشكلة مستقبله فابراهيم أنا أعرف انه معتاد معيشة لا يقوم بها مرتبــه الآن والمأمور لا يزيد فى الوضع الحالى على الدرجة الخامسة فماذا يصنع حينما يكثر أولاده فقلت له أنا فى غير مصلحته الحكومية ويوسف مات وجنابك أبوه الحى الذى معه فى مصلحته حيث تتمكن جنابك من خدمته • فقال لى هنــاك فكرة حكومية أن يجعلوا بعض نواب المآمير ضبــاط بوليس ربما يكون مستقبلهم أحسن من مستقبل المآمير اذا سيكون ابراهيم منهم قلت افعل فيه ما شئت •

وصلت الحصاحيصا ونزلت بعد وداعه وشكره على ما أبداه من شفقــة وفعلا بوصوله مدنى سافر المدير بأجازة قصيرة فخلفه ووجد بالقمطر للسريات ورقة تثبت ابراهيم فأرسلها للمفتش رئيس ابراهيم الذى ســـلمها لابراهيم فأنكشفت غمته واستمر فى عمله • بعد أيام من تثبيته صـــدر أمر بأن يلبس شارة الحداد على السير لى استاك حاكم عام السودان الذى اغتيـــل بمصر فأحضر مفتش مدنى شارات الحداد للموظفين معه وأمرهم بلبسها فلبسوها الا ابراهيم رفض أن يلبسها وبعد الحاح من المفتش وعتاب من المأمور عبد الهادى سبر والخواض ومحمد غلام الدين الذين لبسوها وضعها فى جيبه وخرج لمكتبه طلبه المفتش فى الحال وقرأ له الأمر القاضى بأمر كل الموظفين بلبسها فقــال ابراهيم للمفتش : الموظفون المعنيون أنتم ونحن المستخدمون فســأل المفتش المدير عما قاله ابراهيم وعرفه بامتناعه فقال المدير المقصود بالموظفين المفتشون ومن فى معناهم فأخلعها عمن لبسوها من غيرهم فى الحال فطلبهم ونزعها عنهم فهذه بعض مواقف ابراهيم فى الحكومة ومنهــا أن مستخدما مصريا بمكوار آتهم بخيانة ما أوتمن عليه وشكل له مجلس برئاسة القاضى هلفورد الذى أدان المستخدم وكان ابراهيم ضمن أعضاء المحكمة فخالف القاضى متمسكا بالقانون الذى لم يدن هذا المستخدم وذاعت المسألة فطلبنى يوما سعادة مدير المعــارف مشيرا الى أن أكتب لابراهيم يخفف من خلافه لرؤســـائه وذكر لى طرفا من الحــادثة فالانجليز أول ما يطلبون من مرءوسهم الطاعة فان نقصت فالأدب اذا المرءوس معه الحق • فلا يتجاوز استعمال العقل فى مخاطبته وعمله ولهم الحق فى ذلك لأنهم يستعملونه مع بعضهم •

زرت مدنى وزرت سعادة المستر هدلستم بمكتبه فبدأنا المحادثة بالكشف

لسبب قلة أدب صغار السودانيين بالنسبة لكبارهم فعللها المستر بوسن باختلاطهم للاجانب واحتكاكهم بهم فيما يرى ان الكبار نشأوا فى حكومتى التركية والمهدية تحت الظلم والاستبداد فلما جاءت هذه الحكومة الديمقراطية رفعت عنهم كابوسيهما ففرحوا بها وارتاحوا لها اما أولادهم قد نشأوا فى هذه الحكومة متمتعين بعدلها وحريتها وطالعوا الكتب والجرائد للشعوب فى بلادها فتطلعوا ليكونوا مثلهم فطالبوها به فى نفوسهم مظهر فى معاملتهم فمثلهم وآبائهم مثل انسانين أحدهما كان فى طقس ردىء فانطلق الى طقس طلق الهواء معتدل المناخ فاستنشق الهواء بنفس طويل فتح أنفه وأثلج صدره فارتاح له وقال أح أح متلذذا به مرتاحا له لا يسأمه ولا يختار غيره ومثل أبنائهم مثل ساكن هذا الطقس من نشأتهم لا يرون له فضلا واذا سمعوا بأحسن منه تتوق له نفوسهم فظهر على وجه سعادة المدير عدم استحسان هذا الشيء من نائبه الذى يعتبر عذرا مغريا لصغار السودانيين يستمرون به فى أدبهم على حد تعبيره وتفكيره هذا ما خطر ببالى وقتئذ والعلم لله ثم انتقل المدير يشرح لى قانون زراعة القطن بين الحكومة والشركة والمزارعين وقال فى كلامه ان الحكومة حجزت بعض استحقاق المزارعين لسببين الأول ان المزارعين حينما وجدوا فرصة غلو سعر القطن لم يحفظوا نقودهم التى كثرت عندهم بل ضيعوها فى كماليات لا يحتاجها مثلهم فرأت الحكومة ان تعاملهم معاملة القاصر فتحفظ لهم الباقى لوقت الحاجة والسبب الثانى ربما تأتى سنين تنخفض فيها نسبة المحصول أو قيمة البيع فتلحق المزارع خسارة يطالب بها فتصعب عليه ثم أبان لى نصيب المزارع أربعين فى المائة وعليه كل شيء من الحرث والمجارى والبيع قلت لسعادته والله نحن كنا نعامل رقيقنا أحسن من هذه المعاملة قال كيف قلت نعطيه بلادا خاصة به يزرع فيها يوما فى الأسبوع ويوم راحة يرتاح فيه ببيته أو يعمله فى مزرعته ثم يوفر ما يحصله من بلاده الخاصة لمتعته أو يشترى به بهيمته وأكله وكسوته وأولاده وزوجته على سيده طول السنة فلو خصصتم للمزارعين جزءا من حواشته مثلما نعامل رقيقنا وضمنتم له مؤونته • كل السنة لاختاره على هذا الوضع المجهول فالتفت سعادته بالمحادثة لموضوع آخر ثم تشاغل بمكتبه فودعته فتكرم بتوديعى للباب وأظنه حينما يرجع عنى يدون محادثتنا لأن الانجليزى عادته ينتفع باللاذع من الحديث أكثر مما يغضب منه ولكن قل من يصغون اليه

منهم وأقل من يسمعونهم اياه منا وانا الحمد لله من هـــذا الأقل لأنى أخلص للبلد وأرى ادخار النصح لهم خيانة منا لأنهم يجب علينـا أن نعرفهم ما يجب عليهم لنا وليس لنا أن نحملهم على تنفيذه .

زارنا سعادة مدير المعارف برفاعه فى أوائل شهر مارس وبعد تفتيشـــه المدرسة سار للداخلية ففتشها تفتيشا دقيقا نالنى منـه شك فى سببه وأكدنى ماظننته أمره بنقل دفتر الداخلية من الشيخ على ناصف للشيخ يعقوب أبو زيد فقلت لسعادته هـذا التحويل حفظا للمـال أم ثقة بنجاز الأعمال قال كليهمـا قلت اما المال فالله قد حفظه لكم حيث ولانى الاشراف عليه واما انجاز الأعمال فذلك مفوض لسـعادتك فطلب سـعادته الشيخ يعقوب الذى رفض أمره باستلام دفتر الداخلية حتى غضب المدير ولم يزل يعقوب مستمرا فى رفضـه فخشيت ان المدير يطرده من الخدمة أو يوقع عليه عقابا قريبا من الطرد فأخذت يعقوب وانفردت به وقلت له أنا أخفض حصصك كما تطلب وارجـع للمدير فأجب طلبه ثم دخلت به للمدير الذى أعطاه تعليمات عمله فى الدفتر ثم استنجزت المدير وعده بالسفرتين فقال سعادته انت تقوم الآن حالا لكردفان وتسـلم المدرسة لعمر أفندى سليمان الذى يكون وكيلا عنك مدة غيابك ويساعدك فى الكلمات الأفرنجية بوجودك تقابل مدير كردفان لتعمـل لنا أربعين خـلوة فى الأماكن التى يعينها لك ويكون عملك متصلا به وما يختار المدير رفعه لنا هو الذى يخاطبنا عن أعمالك بمديريته قلت أجعل نفسى كأنى أحد عمال مديريته قال نعم « قالها بارتياح » وسافر سعادته ، سلمت عمر أفندى سليمان المدرسة والداخلية ثم طلبت منه ستة فناجين شاى كعهدة عندى أردها حينما أرجع من المأمورية فرفض فقلت أنا الناظر قال ولكن سلمتنى العهدة قلت أعطيك بهـا مستندا نوعا وعددا قال لا أقبل قلت اكتب لك فى كشف استلامك ملحوظة بها قال لا أقبل . أخذت الكشف ومزقته وقلت قد لغيت استلامك فاستلم الآن وسلمته الفناجين ناقصة ما أخذتها بالكشف الجديد فقبل ، فاشتريت حمارا من يوسف أفندى مراد وأجرت خادمة تدعى الرحمه من صاحبها محمد مرتضى التى أهداها لى أخيرا رحمه الله لأعلم ولده مجذوب محمد مرتضى مع ابنى يوسف ، مكثت معى خمس سنوات وكذلك الحمار فلما أحلت على المعـاش خرجت الرحمه وبعت الحمار وانى شاكر لهما ، فلما سافرت وجدت صدفة المستر يودال

القطار مسافرا الأبيض سألنى سعادته عن تفتيش المدير للمدرسة وعن العمال
رخصوصا عن عمر أفندى سليمان حتى استطردت حكاية الفناجين فضحك جدا
على ربطته فيها وحلى لها

وصلت كردفان وجدت المدير سعادة المستر سرسفيل هول فسررت به جدا
فأمرنى ان أتوجه لمركز باره لأعمل به عشرة خلوات كتعليمـات المفتش الذى
طلبت منه ان يصحبنى الشيخ المرضى دفع الله ناظر المدرسة لأستنير برأيه لعلمه
بالبلاد أكثر منى وليعلم كيف تؤسس الخلوات ربما تحتاجون لزيادتها بمركزكم
الواسع فى المستقبل فأمره بالسفر معى فعملنا أربع خلوات فى شرق المركز وخلوة
للجوامعة بحلة الناظر شمال المركز مباشرة وخلوة لناظر بنى جرار جنوب المركز
مباشرة ثم أمرنا بالسفر لدار حامد لنأخذ رأى ناظرهم عمر عيسى قش فلم نجد
عنده رغبه وبعد محاولة طويلة متنوعة الأسباب والنتائج قبل عمل خلوة بحلته
دميره ثم توجهنا شمال غرب لحلة شرشار التى لم يقبل شيخها خلوة رغما عن
سعتها وسوقها وكونها معدن للملح الذى يطرقها الناس له من نواحى كثـيرة
ويئست من عملها حينما سمعت بنتا اسمها الريف قالت لوالدها الذى نسيت
اسمه يا أبت الجلابه رفعوا أتمان الحاجيات فقال لها هى مايرفعونها اتن تنطونهم
النقود بالنهار وتسترجعوهن باللـيـل فضحكت وقلت للشيخ المرضى هؤلاء
لا يستحقون خلوة ثم سعينا شرقا الى بير كجمر والى حلال المرامره فعملنا لهم
خلوه فى حلة العمدة ورجعنا حيث وصلت بمفردى للابيض الذى أمرت منه فى
الحـال الذهاب لغرب كردفان وكذا النهود والأضيـه وأبى زبد جلت بمركز
النهود الذى كان مفتوحا به خلوات فى أقصى غربه وعملنا به خلوتين ومضينا
الى الأضيه حيث زرت قبر المرحوم أحمد أفندى عبد الله سعد الضابط الذى
عمل له أخوانه الضباط قبرا مبنيا بالطوب الأحمر وفى الأضيه ورد لى جواب
من الشيخ لطفى يخبرنى فيه ان المستر فيلد يرغب وصـــولى للمجلد لأفتش
مدرستها فخابرت مدير كردفان الذى وافق فوصلت المجلد اما الأضيـه ففى
مركزها مدرسة شبه خلوه ولم تعمل لها خلوه . فتشت مدرسة المجلد وعملت
به خلوة رحالة بواسطة رجل معتقد وحضرت معرضهم الذى بنوا له عششـا
خارج البلد والسوق واجتمع له كل أعيان الحمر بخيلهم ورجلهم كان المأمور
وقيع الله أفندى الفيل الذى لم يعتن بى خصوصا حينما أردت السـفر . كان

المفتش للبقاره فى ذلك الوقت المستر بريدن واجتمع للمعرض المساتر سرسفيل هول بمبروك الدكتور أتكى وغيرهم فدعانى المستر بريدن للعشاء معهم فكنت آكل بيدى وهم مسرورين وكانت جل محادثتهم معى وعن آكل اليد وبعد ثلاثة أيام زرت الشيخ على جله المتقاعد من النظاره لابنه الشيخ نمر وسافرت بصحبة الدكتور كركشون حينما وصلنا حلة أم تنبول عرض لجنابه فتى يربو عمره على العشرين عاما طلب منه أن يختنه لأنه كان مع والدته النوبيه من أبيه الحمراوى وقد جاء لأهاله والبنات عيرنه بأنه أغلف ورفضن أنسه فختنه ولكن بصعوبة مكث نحو ربع ساعة أو أكثر يقص بالمقص ويسلخ والفتى يتصبب جسمه عرقا والبنات حوله لم يتحرك ولم يظهر أى علامه للجزع حتى قال قم فقام بين زغاريد البنات وما زلت مصحبا للدكتور الذى كان يركب جوادا وخادمه كذلك وأنا على حمار وخادمتى على حمار تتقدمه فى السير الاعتيادى واذا قرب جواديه يلحقنا ويسبقنا كثيرا ثم ندركه فى مساء يوم سبقنا وفى سيرنا خرج أسد ولبؤته وشبله من شرق الشارع الى غربه فستر الأسد لبوءته وولدها فى الغابة ثم رقد بارزا أكثر من نصفه فى الشارع فوقفنا مكاننا وكان الهلال بدرا وقفنا حتى وصلنا عساكر الحمله أشرنا لهم على الأسد فما زادوا على أن وقفوا معنا الا انهم يسبؤنه بملء أفواههم وهو رابض مكانه لم يتحرك ولما طال الوقوف أخذت الرحمه ومررنا بجانب الشارع الشرقى فلم يتحرك لنا لحقنا الدكتور وجدناه نائما على كرسين • أحضرت خشبا حرقته فحما وعملت شايا حملته له لنشرب معا فقال لى من عمل هذا الشاى قلت أنا عملته قال كم عمرك قلت خمسة وستون سنة قال والله لما أصل سنك اذا أكون مثلك فى القوة أكون مسرورا جدا واستمرينا حتى وصلنا أبا زبد التى مكثت بها نحو العشرين يوما نازلا باستراحتها مستأنسا بمولانا العظيم الشيخ أحمد الطاهر القاضى وصالح أفندى زكى المأمو الذى تعرفه جيدا رفاعه أسعى للامكنة التى عينت لعمل خلوات بها وقد رأيت ترده البرديه التى بها نبات البردى والتى يبلغ قطرها نحو ثلاثمائة مترا فهى غريبة المنظر ليتها كانت ببلد يعرف قيمتها ليجعلها منتزها • بارحت أبا زبد بعد أن أتمت بخلواته العدد المطلوب فى شهر أغسطس فلما قابلت جناب المستر فيلد كنت حاملا له صورة من التقرير الذى قدمته لمدير كردفان بملحوظاتى عن الخلوات من حيث ما يحتمل أن تستمر فيها وما

تلغى قريبا لمختلف الأسباب التى وضحتها فأخذ يعاتبنى عتاب شبه تهديد من أذنب لأنى لم أخابر المصلحة بتنقلاتى وما أنجزت من عمـــل أولا بأول فقلت لجنابه أظن ليس من واجبى أن أخاطب المصلحة بشىء من ذلك لأنى لا علاقة ولا مخابرة الا بواسطة مدير كردفان لأن مدير المعارف قال لى انك فى هــذه المأمورية كعامل من عمال مديرية كردفان وهذا التقرير الذى قدمته لجنـابك هو صورة من ماقدمته لمدير كردفان وهو تبرع منى لمصلحة المعـارف ويمكن جنابك تسأل مدير المعارف الذى أرسلنى فسكت فأخـذت تقريرى.وخرجت وبوصولى رفاعه أرسلته بجواب لمدير المعارف الذى رد على شاكرا ومقدرا .

مكثت مدة الاجازة واتندبت لتفتيش كتاتيب بعض مديرية كسلا التى رجعت منها آخر ديسمبر حيث أدركت قبول المستجدين برفاعه ولم توجد بها حوادث تستحق الذكر غير فراغ الماء منا بين حلة الطنيطبه ومشروع عين اللويقا لعدم الماء بمشرع الميت حيث جىء لنا منه بماء قذر لقلته بمحله ووطء البقـر وبولها وروثها فقيل لنا اغلوه فلما وضع على النار تبخر مابه من ماء وصارت الأوساخ عصيده ثم وضعته فى جردل قماش فلم تقطر منه قطرة فقمنا فى الحال فسرنا باقى يومنا وليلنا حتى أصبحنا فى عين اللويقه التى وجدنا ماءها كمـاء مشرع الميت ووجدنا امرأة تزور قبر الشريف الهندى وعندها سعن ماء جاءت به من بئر الفاو فاشتريت ماءه بعشرة قروش شربناه أنا ومن معى وواصلنـــا سيرنا للشريف يعقوب حيث أقمنا نهارنا وليلنا .

سنة ١٩٢٦ فى أول فبراير من هـــذه السنة حضر الشيخ ابراهيم مالك وأولاده بالاجازة وزوجته أمنه بنتى فى صحة جيدة فبعد يومين أصابتها حمى كنا نظنها حمى برد أخذته بترام مقرن الخرطوم ولكنها تطورت وفى ليلة ستةمنه طلبتنى نحو الساعة ١١ مساء فوجدتها تتكلم واعية العقل مطلوقة اللســـان ولكنها تقول لى آه يا ابت أموت ولم أبرد فيك شـــوقى وبعـــد هنيهـــة قالت اعطونى ولدى (مرتضى) فأخذته والذتها حفصه وناولتها اياها فحولته أنا من ثديها الشمال الى ثديها اليمين فلما شرعت ترضعه توضأت أنا لأقرأ عليهـــا سورة يس فقالت يا أبتى انى أرى نور الفنيران بهره لا شعاع له فقلت لها قولى أستغفر الله فأخذت تكررها وأنا ساند رأسها حتى خفت صوتها فأرقدتها وقد فارقت الحياه .

جاءنا لقبول المستجدين جناب المستر وليمس مفتش أول بالمعـــارف فأتذكر ان رجلا يدعى يوسف محمدالشيخ يوسف ألحعلى جنابه الحاحا مملا فى قبول ولده وأنا والشيخ لطفى بجانبيه كلجنة تنيره فى أحوال الغنا والفقر لولاة المأمور فلما اشتد الحاح يوسف شتمه جنابه فوقفت أنا وقلت لجنـابه لا لزوم لشتمه والقلم بيدك يكفيه رفض قبول ولده حسرة فطأطأ رأســه وقال لى لا أشتم أحد بعده فانتهزت الفرصة وقلت لجنابه هذا الولد جـده لأمه الشيخ حسنان أبو سن وليس بعيدا أن يأتيك الآن ويطلب من جنابك قبول هذا الولد فالأحسن أن تترك له مكانا فى الآخر يقبل فيه فقبله فى الحين . انظـر يا قارئى لدماثة الأخلاق الانجليزية وقبولها الحق بارتياح مع الانتقاد اللاذع من مرءوس بسيط فى مركزه الرسمى .

وصلنا الأستاذ زين العابدين الطيب مدرسا وضابطا للداخلية ومعلمـــا للكشافة فعلى صغر سنه وفى عام تخريجه قام بهذه الوظائف خير قيام .

ورد لى كتاب من مدير المعارف ومعه أوراق تدل على مخـــاطبة مدير دارفور هل عنده مانع من زيارتى لمديريتهم لتفتيش الكتاتيب والخلوات التى بها وانشاء خلوات جديدة فكان رده انه يقبل بارتياح وكان الرد من المســتر ديبوى نائب المدير وقتئــذ والذى أعرفه ويعرفنى فقمت فى أول شهر مارس للابيض التى اشتريت الجمال من سوقها بناقص جمل لوجود حمــارين لى ولخادمتى وسافرنا بطريق أبى زبد حيث زرت الشيخ مجذوب وأحمد أفندى جلى الأول القاضى والثانى نائب المأمور فبارحتهم غدا فوجدت بالطريق منزل جديد فنزلت فى راكوبه به واذا بالشيخ منعم منصور «ناظر حمر ألان» ينزل من حصانه الذى تولت انزال سرجه زوجتــه بنت عمه اسماعيل قراض القش ناظر حمر وقتئذ وهو معى اذ خرج من عشه صغيره فى منزله رجل أعرج يحمــل ابريقا يريد قضاء حاجة الانسان فسألت الشيخ منعما عنه فقـــال لى انه فقير جاءنى من نيجريا وقال لى انه أمر باعطائى نظارة قبيلة حمر جمعاء فقلت له فهل قال انه سيقتل عمك اسماعيل وأولاده كلهم حتى يخلو لك الجو منهم فقـال لا أدرى فهو لا يكلفنى شىء غير الأكل معنا فاذا صدق وعـده رد الله لى حقى واذا كان كاذبا يأخذ أيام ضيافته ويعود « يســافر » وأبقى فى حالى فلمـــا رجعت من دارفور بعد ستة أشهر وجدت حالة عمه مزعزعه وفى نفس العـــام

صار منعم ناظرا فقلت اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء الخ .

فلما وصلت النهود زرت أولاد أخت صديقي المرحوم ابراهيم حمودي وعند قيامي من النهود أحضروا باشرى الرحاله وما كنت أعرفه وطلبوا منى أن أوصله برفقتي للفاشر عاصمة دارفور فقبلت ولم أعلم انه من جمعية اللواء الأبيض وأظنهم لا يعرفون عنه ذلك وكان لابسا رديا وقميصا وجزمه باتا بيضاء قديمة فقط لا متاع له يحمله ولا يحمل عنه ولو عصا من خشب ولكنه نشط يحب المشى على رجليه أكثر من الركوب وانه ذو أخبار شيقة يرويها فى عبارة لطيفة وذو مروءة ونشاط بدن نادرين فانه كان أكثر خدمة للرفقاء عند نزولنا من المراحل الطويلة المضنية رغم ماكان يقطع جلها ماشيا وما زال يحدثنى بما يزيدنى رغبة فى رفقته التى أتمنى لو تطول حتى اذا وصلنا منزلة فشار التى كانت مقيلنا الذى ندخل الفاشر فى مساء ذلك اليوم جلس بعد الغداء على خلاف عادته وقال لى كنت أود أن أصحب غير معروف مثلك يكون مسئولا عني اذا واصلت سيرى لوداى ولكنا يجب على أن أخبرك انى من جمعية اللواء الأبيض فاذا وصلنا الفاشر قدمنى للمدير حتى أباشر ما يترتب على بنفسى ولا أجعلك مسئولا عنى قلت له الأحسن أن تتقدم بنفسك للمدير وتخبره عن نفسك فلما زرنا المستر ديبوى فى نفس الليلة قابلنا بسرور وأطلعنا على آثار السلطان على دينار التى عنده بمنزله بقطية السلطان الذى يبلغ قطرها نحو سبعة أمتار (لم أقسها) وفى الصباح قدم باشرى عبد الرحمن نفسه لسعادته فقال لى ديبوى خذه معك لنيالا فاذا جاءنا خبر عنه من الخرطوم أخبرنا عنه المأمور هنالك فلما وصلنا يوم الوقفة كساه محمد أفندى حاج الأمين (المأمور) الشهم بدلة أهلية كاملة فسأله باشرى عما اذا جاءهم عنه خبر قال نعم بالقاء القبض عليك قال باشرى اذا أروح السجن قال ولكن بعد أن تصلى العيد وأنا ضامنك وبعد العيد سافرت وتركت باشرى الرحاله بنيالا ولم ألقه بعدها ولا أعرف باقى خبره ولكنى مازلت أسمع عن رحالته وأقرأ كتاباته فى الجرائد .

حينما بارحت الفاشر قال لى المستر بمبروك انت ستقابل الشيخ محمود

ولد أبو سعد ناظر الهبانية بحلة برام (الكلكه) قل له سعادة المدير غير راض عنك لأن الحكومة سمحت لك بسلطة تغريم من يستحق الغرامـة من أهلك فتأخذ الغرامة لنفسك حتى تظهر غنيا أكثر من أهلك فيحترمونك لعدم احتياجك لهم ولكنك ترسل دفترك أبيض لا غرامه مع ان النظار غيرك ملأوا جيوبهم نقدا ومرحاتهم بقرا فلمـا وصلت للشيخ محمود وصيـة المدير قال لى انت راجع لسعادته قلت نعم قال لى قول محمود يقول لك انكم قلتم الغالى خرب الدار فانت اعمرها وأنا كنت فى البحر الحكومة تعطينى ثلاث جنيهات (وفرد أصابعه الثلاثة الوسطى اشاره) فانا لقيت قبيلة الهبانية التى كانت أغنى القبائل أقلها فرأيى أرعاهم حتى يكونوا أغنياء تجلب حالتهم غائبهم بعد ذلك أخذ من مراح ذا بقره ومن مراح ذا بقره أملأ مراحى فى يوم واحـد دون أن يبكوا منى فيشتكونى للمدير والله تعالى الآن الغالى موجود ردوه لنظارته وأرجعـونى للبحر فلما أخبرت المستر بمبروك بما قال أعجب من رأيه وتركه حتى توفى فى وظيفته .

لما قمت من الفاشر صحبنى الشيخ محمد فضل ناظر مدرسـة الفاشر ومفتش الخلوات بكل المديرية وبقيامنا من نيالا غرضنا عمل خلوات بقبـائل التعائشة التى أوصانى القاضى محمد على محمد نور بانتخاب فقيه منهم ليجعله مأذونا ولكن أسفت كثيرا لعدم وجود من يحفظ القرآن حتى نعمل لهم بهخلوة أو نأخذه معنا للقاضى ولما يئست قلت لناظرهم ــ وقتئذ الزبير سام مادمتم بحالة لا يوجد فى كل التعايشة من يليق لمعلم أو مأذون كيف ملكتمونا قال لى على الفور أسأل الله هذا السؤال فعجبت لسرعة جوابه ثم بارحناهم لبنى هلبه التى قابلنى ناظرهم محمد ابراهيم دبكة عند الحدود التعائشية وصحبنا حتى زرنا خلوتهم بحلة (كبن) ووكيله عمر جميل ــ وفى أثناء سيره معنا حكى لى هذه الحكاية التى لم يصدقه فيها سعادة المستر بمبروك خالما حكيتها له وهى قال لى دبكة فى يوم ماجئت فى حلة (عد الغنم) وجدتها خالية من الرجال فسألت عنهم قيل لى ان الأسد قتل بقرة فلان وفزعوا له فلما أدركتهم وجدتهم مصطفين والأسد حين وصولهم خرج من غيله وقفز على أخى ووضع يديه على كتفيه وقبل أن يرميه

وضعت حربتي في فمه الذي فتحه ليلتقم أخي — وركزت الحربة بكل قوتي فلم يقع أخي ولم يتمكن الأسد منه وظل الناس واقفين في صفهم حتى جاء أحد رجالنا ممن يعادوننا — قال للناس لماذا واقفين والكلب بينكم فعند ذاك انتبه الناس وقضوا على الأسد ...

وصلنا كاس وجدنا بها الناظر عبد القادر ناظر المسيرية بكاس وزرنا خلوتها النظامية وسوقها وبعد الظهر توجهنا لنطلع جبل مرة من ناحيته الجنوبية ولكني لما وصلته أحجمت من طلوعه لعلوه ووعرة طريقه ودخول الليل وعدنا نيالا حيث وجدنا في طريقنا المستر ديبوى على كرسى في شجرة وحوله نظار القبائل وعمدها جلوسا على الأرض وبمرورنا من كاس عملنا خلوةلعبد الرحمن آدم رجال بحلته (قص جمه) التى فتشنا مدرستها وتناولنا الشاى عند الصباط الوطنيين ورأينا طابيتها الحصينة وسوقها العامر ثم رجعنا للفاشر عن طريق وادى قولو فحلة ودعة وسانية كو فالفاشر ولم نستطع عمل خلوة بأحدها لعدم وجود الرغبة وعدم توصية المدير عليها وبعد وصولنا الفاشر استأنفنا سفرنا غربا للجنينة ففى طريقنا زرنا خلوة كبكية التى معلمها حاله كأسمه « مسكين » كبير السن — بطىء الحركة وكان بودى أن أصل حلة طرى التى تبعد من كبكبيه قدر ساعتين لأرى جامع السلطان تيراب أحد سلاطين دارفور — ولكن ضيق الوقت لم يسمح لى لا فى ذهابى للجنينة ولا فى ايابى منها . وصلنا الجنينة بعد اثنى عشر يوما ولم أجد بها المندوب ولا الأمير محمد بحر الدين فلحقناهما بحلة الكرنيك فوجدنا جناب المستر (آركل) الذى طلب منى أن أراجع السلطان فى طلباته الثلاث وهى : (١) يرسل ولديه المتزوجين للتعليم بكلية غردون (٢) ينفرد بالأحكام الأولية الشرعية دون القاضى (٣) يريدمشترى عربيات لسفرياته بدل الزوامل وقد وجدت الفرصة للكلام مع السلطان حينما دعانا لنتغدى معه بخيمته بحلة الكرنيق . سألته لماذا لم يعلم أولاده التعليم المدنى فذكر لى رغبته لتعليم ولديه الكبيرين بعد أن سألته عن أعمارهما قلت هذا لا يمكن لسببين الأول أن أعمارهما كبيرة وانهما لا يعرفان الانكليزى الذى يتوقف عليه فهمهم للعلوم المدنية والأحسن أن تطالب بعمل كتاب ببيتك لأولادك الصغار ثم ترسلهم للابيض بمندوب يرافقهم وامرأة تخصهم وبعد ذلك ترسلهم للكلية وأولادك الكبار أحدهما يكون نائبك والثانى أمين خزنتك

فيألفهم أهلهم ويألفونهم فى عوائدهم فوافقنى ثم قلت له أحكامكم هنا بلغنى أنها شرعية فمن ينفذها ؟ — قال : عنـدنا قاضي ولكنى عزمت على أن أتولاها بنفسي . قلت الأحكام الأولية تكون للقاضي — والاستئناف عند سماحتك . قال الأحسن أن تكون الأولى عندى . قلت : اذا يكون القاضى رئيس السلطان لأنه يكسر حكمـه — قال : لا يكون ذلك — قلت : اذا يتداخل المنـدوب فى أحكام الشريعة — قال : لأى سبب ؟ قلت : كل حكم أولى قابل للاستئناف . اما ينقض الحكم أو يعدل — أو يؤيد وكلها من صفات الرئاسة فعدل عن رأيه مقتنعا — ثم بعد محـادثة قلت : تعبت من الطـريق بين الفاشر والجنينة لطوله فلو كانت توجد أوتومبيلات عندكم لما تعبنا — قال السـلطان : انى عازم على مشترى عربة ركوبة ولورى . قلت : هل مهـدت طرقكم الرئيسية فى نواحى قطركم كله بحيث أن العربة تمشى فيه آمنة من هيل الرمال ومصادفة الحجـار والصعود الذى يحل نظامها ؟ . قال : نحضر العربتين ثم نصلح الطريق ..قلت: الأحسن تمهيد الطريق أولا لاحظ أن كل من يريد وصولكم من الفاشر يبرق سماحتك بارسال العربية له وما دامت موجودة فلا سبيل لغيابها فان أرسلتموها مضره وان أبيتم بها معره لا تليق بمكانتك السـامية وأنت سيد البـلد الذى يزورك فيهـا كل قادم لها ، أما حينما تصلح الطريق فهنـاك مندوحة العـذر بغيابها فى سفرية أو نية فقال أى والله وأجل مشترى عربيته .

أول ما عرفت مسـتر آركل فى قرية (تسمى بروش) فى طـريق دارفور مقتول قتل فى مكان ما بينى وبين قاتليه الاصريف . ففى الحال طلبت شرتاى بنى محمد الذى رافقنى من أول مادخلت حدود مديرية دارفور كتعليمات الحكومة لهم وطلبت شيخ الحلة وأمرتهما بعمل نقط من رجالهم حول الحلة لئلا يهرب القاتل ثم طلبت من مع المقتول والقاتل وعملت المحضر الأولى فى الحلة حتى لا يتمكنوا خلق تدابير يطمسون بها معالم القضية ورغم احتياطاتنا هرب القاتل وفى صباح اليوم علمت أن مفتشا انجليزيا اداريا نازل باستراحـة القرية فسعيت له وهو المستر آركل الذى عزمته أول مرة وسلمته المحضر فشكرنى على عملى وقام معنا فى الحال للقتيل الذى وجدناه منكفئا على وجهه وبدأت جثته بالتـورم فأصلحه المستر آركل وأدخل يده فى موضع الطعنة التى فى صدر القتيل حتى نهاية أصابعه كلها فى فجوة الواسعة فلا تسأل يا قارئى عن اعجابى بالانجليزى

وخزيانى فى نفسى حيث أنى أولى من المستر آركل بهذا العمل لأنى سودانى مسلم يجب على غسل القتيل وكفنه ودفنه دينيا ــ والدين أقوى مسئولية من الادارة قوة النسبة بين القانون الشرعى والقانون الوضعى ــ ولم أزل كلما ذكرت هذه الحادثة يعاقبنى ضميرى وأكبر فعل المستر آركل •

رجعنا من الجنينة بعد أن أقمنا فيها أسبوعا زرنا أثنائها السلطان مرتين بمنزله وبمجلسه الذى رأيت فيه من الأدب ما لم أره حتى فى مجلس الخليفة عبد الله الذى كان قاصرا على طأطأة الرؤوس ولزوم الصمت ما لم يخاطب أحد الجالسين فيقتصر على الرد • واذا أرسل يطلب حضور أحد فالمطلوب حينما يرى رسول الخليفة يقابله جاريا فينقلب الرسول جاريا أمامه ويستمران فى جريهما ، حتى يصلا باب الخليفة فاذا وصل المطلوب يحيى الخليفة ويداه على صدره (السلام عليك يا خليفة المهدى) فيرد الخليفة له التحية ويأمره بالجلوس أو يخبره بما يطلب منه قضاؤه • فينصرف له • أما ما رأيته بمجلس السلطان محمد بحر الدين فان زائره من رعاياه حينما يقرب من مجلسه (يبرك) ويسعى حابيا ايمسح الأرض ويدعو بطول العمر للسلطان حتى يصل أول صف الجالسين من الحلقة الخلفية من الصفوف : فيرفع السلطان رأسه مكتفيا بنظرة الى القادم ــ دون تحية أو سؤال واذا أراد القادم الانصراف بدأ حركته كالأولى لكنها منعكسة السير يزح ورأسه مقابل للسلطان وجسده بصلبه للخلف حتى سعد ويختلس انصراف السلطان عنه فيعتدل •

وصلت المحكمة الشرعية فرأيت ــ ويا عجب ما رأيت ــ رأيت رجلا من زغاوة وهو من عمدهم مات أخوه وخلف على فوله عشرين زوجة والعمدة الوارث لزوجات المتوفى اعترف لنا بأن له عشرة زوجات ، فيصير بما يرثه عن أخيه كعادتهم ثلاثون زوجة ، وجدنا القاضى يراجعه ويذكره بالدين وما أحله وما حرمه وأخذنا نراجعه فيعترف أنه مسلم بمحمد ومؤمن بكتابه ولكن هذه عادتهم فاذا تركها يكتسب نفسه وأولاده عارا ، وقال له القاضى الشيخ (عبد المالك) : لا يمكننى أن أحكم لك ولو بواحدة منهن ولا من زوجاتك العشرة الا بأربعة فقط تختارهن من بينهن ويجب أن يكون الأوائل منهن ومن

الخامسة الى العاشرة لا عصمة لله عليهن • فبقدر ما راجعته خارج المحكمة لم أر فيه الينا سماع لنتيجة أو تقييدا بحكم •

لقيت الشيخ (عبد المالك) القاضى بجدة سنة تسع وعشرين وتسعمائة وألف ميلادية ونحن راجعون من مكة المكرمة فسألته عن هذه العادة فى زغاوة فقال لى لم تزل قائمة لأن الانجليز يمنعون التدخل فى العقائد والعوائد •

رجعنا من الجنينة متمتعين بمناظر الطريق الجميلة من وديان ماؤها ينبع من وطء رجل الحصان أو الحمار وأشجارها الخضراء ، الغليظة ، الطويلة ، خصوصا وادى (بارى) الذى يلقاك فى تعاريجه أكثر من أربع مرات حيث يبتدىء بعد كبكية بقليل ويرافقك للجنينة •• ووادى (بليل) ، وجبال كبكية ، خصوصا جبل (كورى) الذى لا يشك رائيه من بعيد أنه مأذنة لارتفاعه وشكله المخروط وملسته فسبحان الصانع القدير • لما وصلنا كبكيه ملنا شمالا شرقيا حتى وصلنا مركز كتم حيث وجدنا المستر (ايفنس) وحيواناته الغريبة وعبد الله أفندى الشفيع المأمور وكرمه الحاتمى والشيخ عبد الله أحمد يوسف القاضى ومكتبته العظيمة ومعلوماته الغزيرة عملنا بها خلوة ، ومركز كتم مبنى على قلعة عالية ، شمالها وادى قريب نبعه وبارد جدا طقسه • أتذكر أن الشيخ ابراهيم مالك عندما كان قاضيا بكتم كتب مرة فى الشهرين الآخرين من السنة ان الماء أصبح جامدا بالآبار والأوانى • بارحنا كتما لمركز (مليط) التى ذكرتنى الكاملين بواديها ونخيلها ، وجدنا بها مأمورها الشهم نصر الدين شداد الممدوح بقصيدة الشيخ العباس التى يقول فيها :

زار حضرته معنا خلوة الشيخ آدم تحيم كما زار معنا عصر اليوم رغم المطر الكثير وسيل الوادى الشديد التيار ، فريق الزيادية الذين لم يوافقوا على فتح خلوة عندهم رغم مجهودنا معهم ولكن رأينا نسجهم لأكاليم الشعر المجوز السداء واللحمة التى يتخذونها بيوتا تمنع نزول المطر عليهم والتى يتخذها غيرهم فرشا جميلة • بارحنا (مليط) للفاشر حيث تمت رحلتنا التى زرت فيها كل مراكز مديرية دارفور غير مركز زالنجى • بارحنا الفاشر يوم ثمانية أغسطس بعربتين لورى وركوب ومعنا فى هذه السفرة البكباشى مارتن مفتش نيالا •

أرسلت حملتى بالبر مع الرحمة وركبت مع البكباشي مارتن فى عربة الركوب على حسابى الخاص فلما وصلنا قرية الطويشا اعترضنا خورها وطلعته التى منع على العربات صعودها فنزل الركاب وصعدوها راجلين وغلبنى صعودها لتحرك آلم فى ظهرى فتأخرت طويلا حتى رجع لى البكباشي مارتن الذى وجدنى أحبى كالطفل فى صعودى تلك الهضبة الملأى بالحجارة المسننة فاتكأت على كتفه وتوكأت على كتفه حتى أوصلنى العربتين ولما رأى ما لحقنى من التعب مهد لى سريرى السفرى باللورى الذى أنزل منه ... وأركبهم معه حتى وصلنا النهود الذى نزلت به بمنزل خلف الله أفندى حاج خالد مأمور المركز متوكأ على كتفى البكباشي مارتن واحدهم الذى حينما وصل الخرطوم وسئل عنى بالمعارف فأخبرهم أنى نزلت مختارا منتظرا حملتى الامر الذى حمل المستر يودال ان يبرق لمفتش النهود يعلننى بأن الايام التى أقضيها بالنهود لا أستحق فيها بدل سفرية وتطور الخبر فى الخارج أن التلغراف ورد بطردى من الخدمة ولما رأيت منزل المأمور ضيقا تحولت بمنزل ابراهيم افندى الخليفة نائب المأمور الذى كان بالاجازة حينما ورد تلغراف المستر يودال لمفتش النهود عرضه للمأمور الذى أقنعه بأنى مريض بمنزله . والمفتش بدوره سأل الدكتور حكيمباشي النهود فرد عليه أنى أحتاج الى العلاج خمسة عشر يوما وبعدها ينظر فى امرى فأبرق المفتش للمعارف التى اقتنعت .

هـذا ما أخبر به المعارف . وقد أخبر أولادى بأنى مريض حملنى على كتفه من العربة الى منزل المأمور فانهالت التلغرافات بعضها باسمى وبعضها للمأمور من أولادى وأصدقائى وليته عكس خبره بصدقه للمعارف لتعذرنى وكذبه لاولادى ليطمئنوا على وبهذا شفى غيظه منى ـ غفر الله له ـ بكرمه .

فى أثناء الخمسة عشر يوما وصلت حملتى وأمرتها بمواصلة سيرها للابيض الذى لحقتها به بعد شفائى عند وصولى الخرطوم حملت على فريد عطية والشيخ عمر اسحق فأغلظت عليهما بتوجيه اللائمة وانى لا أصرف بدل السفرية لمدة اقامتى بالنهود الا من خزنة المعارف بالخرطوم ، فقال لى أمين

حداد باشكاتب المعارف : (أى وربى اديتهم) فلما قابلت المستر يودال هنأنى بالسلامة تهنئة تحمل فى طيها الاعتذار ــ وخصص كشف بدل السفرية التى صرفتها من خزينة المعارف •

مكثت مع أولادى بأم درمان وذهبت لرفاعة حيث أرسلت مهر زواجى لخطوبتى زهراء الفكى التى أخبرت بخطوبتها المستر كروفوت فردوا هـذا المهر لى معتذرين بكثرة أولادى الذين يعرفونهم كما يعرفون أبناءهم حتى قالت جدتها الحاجة بنت أبى شريعه : (بابكر ود بدرىعضما ملاندر) والدر هو النمل كناية على كثرة متعلقاتى • فعرفت أن هـذا الرفض من أثر زيارة المستر كروفوت •

وفى أثناء تفكيرى فيمن أتزوجها بعد فشلى هذا الذى هو ليس فشـل فى نفس الزوجة وانما هو فشل فى الغرض من زواجها الذى قصدت منه أنها تستمر معلمة وهى زوجتى حتى يقتدى بى أزواج المعلمات بتركهن يعلمن لتفرج أزمة المعلمات ولولا هذا الغرض ما اخترتها لانها لا تحمل من مميزات الزوجة غير دينها وعقلها وكفى بهما دافعا للاختيار لأن والدها فقير فى عقله ومـاله ووالدتها أميـه ولكنها حى أخرج من ميتين • فنبهتنى أختى أم طبـول قائلة : (الحمد لله نحن لسنا موافقيك على زواج زهراء ولكنا نهابك فلماذا لا تخطب بنت صديقك ابراهيم مدنى العالم قاضى المديرية ووالدتها بنت محمد ابراهيم البدوى فحل الجزيرة • فكتبت برقية لوالدها هذا نصها :

«لاسباب منها توريث صداقتنا لأولادنا تكرم بتزويجى بابنتكم نفيسة الأهل هنا موافقون » •

فكان الرد هكذا : أشكرك على هذا الاقتراح الذى صادف محله أوافق بارتياح • فلما أرسلنا المهر لوالدتها ردته أيضا معتذرة بغيـاب والدها تريد أن يحضر الزواج ليقوم لأبنته بواجبها العرفى لمثلها ولكنى علمت أخيرا أن فاطمة عبد الله فريجون أغرت والدتها بأنى كبير فى السن فصبرت حتى حضر والدها الذى جاءنى بمنزلى ومعى الشيخ ابراهيم مالك وطلب منى أن أزيدها عشرة جنيهات وأنه سيردها لى بعد زواجى فقلت أنه لو كانت والدتها طلبت منى بقدر ما دفعت لها زيادة ما توقفت ثانية عن اعطائها ما طلبته وفعـلا دفعت

العشرة جنيهات زيادة وكنت على أهبة سفر وبعد رجوعى عقدت يوم أول محرم سنة خمس واربعين وثلاثمائة والف هجرية الموافق يولية سنة سبعة وعشرين وتسعمائة والف ميلادية .

سافرت لجبال النوبة يوم خمسة عشر سبتمبر سنة ١٩٢٦ لكوستى بالسكة الحديد ومنها بوابور البحر وليس معى غير الرحمة التى كانت تعمل لنا الاكل أنا ويوسف أفندى نقولا باشكاتب مديرية جبال النوبة حتى وصلنا تونجة ومنها ركبنا الخيل وحملنا أبقارا الى تلودى العاصمة حيث نزلت بمنزل الشيخ ابراهيم مدنى وفى اليوم الثانى وردت لى برقية من عبد الكريم بدرى يطلب عشر جنيهات تأمينا لشركة سنجر طلبت تعيينه بها محصلا وكتاب من احمد بدرى يخبرنى بأن عمه ميرغنى شكال أحضر المهر لزواج ابنه الطيب بعزيزة تعليماتك . فقلت بحضرة صديقى وصهرى المزمع أين اجد ثلاثين جنيها أحولها لهم فقال فضيلته أنه كان سلف قبطيا بعض النقود فاتعبه فى الحصول عليها ولذا حلف طلاقا لا يقرض أحدا نقودا فغضبت لهذا العذر الذى لم اكلفه اياه فقلت له : والله يا مولانا لم تأت على بالى فى مهمتى هذه ولقد ذكرت عبد النور ابراهيم الذى أعلم أنه لايملك نصف ما أريده وذكرت فى بالى الخواجات فى السوق على عدم معرفتى بهم ولم يجر ذكرك على بالى بأمل قضاء حاجتى منك فبدأ على وجهه الكسوف ثم قال لى الباشكاتب يوسف افندى عنده خزنة المدير الخصوصية اكتب له أنا ضمان يسلفك الثلاثين جنيها . قلت : أشكرك ولكنى سأكتب له بنفسى ان لم يعتمدنى شخصيا سأتركه . وكتبت ليوسف أفندى فأرسل الثلاثين جنيها مع رسولى (العسكرى) وكتب لى أن من ضمنها عشرون جنيها من خاصته فرددتها له بكتاب ربما يحتاج قبل أن أردها له فى آخر اكتوبر من مركز رشاد فرد كتابى والنقود قائلا أنه لا يحتاج اليها قبل آخر يونية من السنة القادمة حينما ينزل بالاجازة ويسره جدا تأخيرها لذلك الوقت حيث تكون السبب فى زيارته لمنزلى بأم درمان وتعرفه بأولادى فقبلتها بعد أن كتبت له مستندا ضمنته شكرى الزائد وحولت له كل المبلغ من رشاد .

قابلت سعادة المستر جلن نائب مدير جبال النوبة الذى دعانى للشاى ومعى الشيخ ابراهيم مدنى وأتذكر أنه رسم لى خطة مرورى على المحلات التى

يسكنها العرب فى الاكثرية لاعمل بها الخلوات فشكرته وودعته واشتريت حمارين لى وللرحمة •

سافرنا فى مقيلنـــا وهالنى ما رأيت • عشرين امرأة يحملن حطبا كلهن عريانات واعمارهن لا تنقص عن العشرين سنة وهذه أول مرة أنظر فيها امرأة كيوم ولدتها أمها تمر بشارع فى طريق عام • ثم مع التوالى الفت هذا المنظر البشع • وصلت قرى قلوقى التى لم أستطع أن اعمل بها غـير خلوتين فقط رجعت منها لتلودى حيث وجدت سعادة المدير نود سكوت الذى عرفت من محادثتى معه أنه لا يشجع التعليم فى غير مدينتى كدقلى والدلنج اللذين بهمـا مدرستين أوليتين ووافق على أمر مدير المعارف لى بتفتيشهما •

بارحت تلودى لكادوقلى وبعد تفتيشى مدرستها عمل لى نائب المـأمور على افندى السيد اسمعيل الازهرى شايا اجتمعت فيه بعبد اللطيف افنـدى فوزى الذى طلب لى من بكباشا البلك الذى هو مترجم له أن يحملنى معـه بعربته للدلنج بحيث أقصنى من تفتيش مدرستها قبل وصـول حملتى التى تقوم بالبر لأواصل سفرى من الدلنج حينما تصلنى فرضى جناب البكباشى • ركبت بجانبه وهو السائق بنفسه فلما خرجنا من المدينة وقطعنا نحو سـبعة أميال أوقف العربة وقال لى : انزل واركب وراء مع كلبى • قلت : الاحسن جنابك أن تأخذ كلبك بجانبك وأنا أركب وحدى • فأمرنى بغلظة أن أركب مع كلبه فرفضت فانزلنى فى الشارع وركب عربته ومضى لسبيله • وكانت حملتى بارحت كادقلى فانتظرت مكانى حيث لا قرية قريبة • وبينما انا حائر فيما أصنع اذ مر بى راكب حصان يقصد كادقلى فاستأجرته منه بعشرين قرشـا رجعت به لكادقلى حيث أجرت عربة لحسابى الخاص وسرت بها ولما توسطت بين الدلنج وكادقلى وجدت جناب البكباشا واقفا فى الشارع فتح يديه لتقف عربتنا له فأمرت السائق بعدم الوقوف فمررنا عليه مسرعين فى سيرنا فأصلح عربته وبوصوله الدلنج أخبر المفتش بما حصل له منى فعاتبنى مفتش المركز لعدم وقوفى له فلما أخبرته بنزوله لى فى شارع ليس به ماء ولا قرية وعـدم مبالاته حتى بحياتى • قال لى : لك الحق فيما عملت وهذا البكباشـا لا أذكر اسمه ولكنى أصفه بأنه يتمتم فى حديثه •

بارحت الدلنج الذى أكرمت فيه من مأموره اليوزباشا حسن افنـدى سرور فنائبه اليوزباشا محمود أفنـدى بشير بك كمبـال قاصدا دلامى التى وصلتها بعد الساعة الثانية عشر بعد نصف الليل المأمور الدرديرى افنـدى محمد عثمان الذى أدخلنى عليه قائدى دون اذن وجدته فاتحا مصحفه بين فنيارين يقرأ القرآن بصوته الرخيم فقلت الحمد لله ان شـابا كهذا نشـأ فى رفاهية يحفظ الله ما رأيت منه فهذا يطمئن على الشباب بالتمسك بدينهم .. فاستقبلنى خير استقبال ووجدت خادمى الذى هرب منى بين الدلنج ودلامى فى سجنه فأقمت معه يومى ذالك حيث فسحنى بماء أم بريمبيطة الحار الذى على ما أظن لو عنى به ونظف منه الحشائش المحيطة به ويكون مغطسا وحماما جميلا بارحته وقلبى ممتلأ باحترامه لدينه أكثر من كرمه فى استقباله . وصلت رشاد التى فتشت مدرستها وجدت بها اليوزباشا احمد افندى عقيل المـأمور واليوزباشا محمد افندى عوض نائبه . قضيت معهم يومين فى اجتماع صداقة وأنس برىء ثم بارحتهم لتقلى حيث وجدت بعاصمتها العباسية المعلقة بجبل حصـين ليس له الا طريقـان للصعود لاعلاه .. ذكرت به قول السموأل بن عاديا :

لنـا جبـل يحتله من نجيره ☆ منيع يرد الطرف وهو كليل

وجدت به الملك جيلى الذى يحفظ نسبه الرباطابى ويعتز به وبمـا أنى أنا أيضا رباطابى كان أكثر أنسنا فى ذكرى قبيلتنا ثم وجه معى مندوبا مررت فى قرى تقلى التى عملت بها خلوه واحدة غير خلوة العباسية الشبيهة بمدرسـة صغرى وبارحتهم بطريق جبل جراده فعقبه أم طاع الشهيرة فى تاريخ الفونج والتى قطعها المهدى عم بمن معه من الضعفاء فى هجرته لقدير . قطعها ماشـيا لم يخل كتفه من حمل طفل أو عاطل هرم . قطعناها بمشقة من الطقس وتعب الدواب التعب الذى شملنا وشملها من الساعة اثنين بعد الظهر الى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى راكبين أو ماشيين طول هذه الثمانية عشر ساعة خوف العطش اذا اصبحنا بعيدا من القرى التى على الحدود فتبين لى عزم ملك سنار الذى قطعها ماشيا حينما غزا ملك تقلى الذى قال لمن هدده بغزو ملك سنار . قال له (اذا قطع ملك سنار أم طاع فليفعل ما شاء) .

وصلنا للقرى وملنا شمالا حيث وصلنا أم روابة وركبنا القطار لكوستى، ومنها الباخرة التى كان الكمسارى فيها محمد افندى ولد عمى عبد الحليم مساعد اميرنا بديم صرص فأدخلنى فى درجة أولى ظنا منه أن تذكرتى أولى وعندما اتضح له أنها ثانية استحيا ان يطلب منى الانتقال من أولى لثانية فلما رأيت منه علامة الارتباك قلت لحضرته اعطنى التذكرة فأصلحتها أولى ووقعتها بخطى تحت مسئوليتى وأخبرت مدير المعارف حينما وصلت الخرطوم الذى دافع عنى وبوصولى الدويم خطبت لعبد الكريم أخى آمنة بنت ميرغنى ودفعت لهم المهر وهو السبب الذى جعلنى أركب وابور البحر . وصلت الخرطوم فى أوائل يناير سنة ١٩٢٧ حيث فصلت عن ابتدائى رفاعة وجدد لى سنتين أباشر فيها تفتيش الخلوات فى كل السودان . وذلك بناء على طلبى فى أوائل سنة ١٩٢٦ من سعادة المستر كربابين الذى خلف المستر كروفوت مدير المعارف بأن يجدد لى سنتين فى الخدمة لاتمكن من القيام بواجبات عائلتى الكبيرة الذى يعرف سعادته عدد أفرادها منذ سنة ١٩٠٣ خصوصا بعد وفاة شقيقى يوسف، فقال أنه سيوصى المستر يودال بتنفيذ ذلك .

فى أوائل سنة ١٩٢٧ انفصلت من نظارة ابتدائى رفاعه وخصصت لتفتيش الخلوات فى الفونج وكسلا . بقيامى لسنجه سألت على بدرى بمن يتزوج قال طبعا بالحرم .

أعطيت أجازة شهر واحد أقضيها برفاعه اتمم فيها سقف الديوان الكبير وفى أثنائها وصلنى كتاب من المستر يودال يأمرنى فيه أن أضع قانونا يعتبره المفتشون المحليون دليلا يستضيئون به فعملته جامعا وعرضته على الشيخ لطفى بصفته مفتشا محليا حتى يتفق على رأيى ورأيه فحبذه لى معجبا به فلما عرضته على سعادة المستر يودال جمع له مجلسا برئاسة سعادته وسكرتيرية فريد عطيه الذى كان أول منتقديه بأنه كثير المواد التى لا تلزم . فقلت : أنا كتبت ما رأيته لازما فخذ أنت منه ما شئت واترك الباقى ، ففى الحال تحول لطفى منتقدا بعد ان كان محبذا وقد تحاشى نقد ذلك القانون الشيخ حسن على الذى تخلص بأن جعل نفسه كاتب الجلسة وانبرى لطفى للانتقاد حتى قلت للمجلس اسألوا هذا الذى أكثركم انتقادا بقولكم هل رأيت ما تنقده برفاعه أم لم تراه فلم يتكلم بعدها . ولما رأى سعادة المستر يودال حملتهم على

وقف وقال : يجب ان نشكر الشيخ بابكر بدرى على اقتراحه بعمل الخلوات التى أنا كنت ضمن الانجليز الذين يعتقدون عدم نجاحها ولكنى لما زرت بعضها اقتنعت بنجاحها وقد نجحت فعلا ، كما نشكره بنصيحته العظيمة فى البدء بتعليم البنات فى وقت لا يقدم على عمله فضلا ظهوره فعلا الا من خاطر ورضى بكل ما يقال فيه فأجابوه بالشكر وهم واقفون فقمت وقلت (على خلاف عادتى) اشكرونى أيضا على أنى أول من اقترح وجاهد فى ضريبة التعليم بمركز رفاعه وقد عممت فى كل السودان مما ساعد أكبر مساعدة فى نشر التعليم الاولى • فقال سعادته : ونشكره أيضا على هذه فأجابوه بالشكر ثم قال لى من قال لك أنك رئيس المفتشين المحليين ؟ قلت : وهل ادعيت ذلك أنت المفتش العام للخلوات بالسودان اذا سمونى كما شئتم فضحك وتفرق المجلس ثم طلبنى فى مكتبه وقال لى اذا كنت راغبا فى اتمامك السنتين التى حددت لك فارضى المستر كربابن وفيلد وقد أخبرنى المستر فيلد أنى مختص بالخلوات فصرت اقتصر عليها ولا أصل الكتاب ولو لزيارة معلميه •

فى يوم سبعة فبراير زرت المستر هللسون كطلبه لأفسر لجنابه الكلمات السودانية الدارجة وهو اذ ذاك مدير المخابرات أو موظفا فى مكتب الشئون الاهلية الذى كان مديره المستر ديفس الذى جاء بتعليمات الادارة الاهلية من نيجريا حيث بعث من حكومة السودان لدراستها وتطبيقها فى السودان فلما قضى المستر هللسون تفسير كلماته قال لى : سعادة المدير يريد مقابلتك قلت : لا مانع عندى وان لم أتشرف قبلا بمعرفته فأخذنى المستر هللسون لمكتبه فوجدت معه السيد على التوم ومعه شخصان ونعلاتهم الثلاثة عند الباب وهم دخلوا حفاة • فعجبت لمكر الشيخ على التوم وقبول المستر ديفس. أو الانجليز الذين يعطون رجلا لقب سير الذى هو لقب حاكم عام السودان ويتقبلون منه هذا النزول المهين •

بعد أن صافحت المستر ديفس وجلست بجانبه فاجأنى بعبارة ممزوجة بالحزم والغضب قال لى : قالوا السيد عبد الرحمن صديقك • قلت : نعم •• قال لى هو كذب علينا • قلت : هو لا يكذب •• قال : هو غشنا •• قلت : هو لا يغش •• قال : سلنى عن السبب • قلت : مبدئيا لا أوافقك على أنه يكذب

أو يغش .. قال لى : هو وعدنا انه يقف هجرة أهل الغرب للجزيرة ابا من أول فبراير واليوم سبعة منه ولم تقف الهجرة . قلت : يا سعادة المدير السيد عبد الرحمن اذا كان الرجل غرب النيل الأبيض قبالة حلة الفار أيراه ويجده ؟ قال : لا . قلت : لو كان البحر يحول بين السيد عبد الرحمن وبينه أيراه ؟ قال : لا . قلت اذا أقول لسعادتك ما قلته للمستر ديبوى بدارفور . انتم عندكم قوة الجيش ومعونة الوطنيين من الناظر الى الشيخ . اذا كنتم بكل هذه القوة عجزتم عن منع الناس وتطالبونه بايقاف مصلحته بنفسه أو قفل بابها بيده من منا يستطيع عمل هذا ؟ فاذا كان السيد أرسل رسولا ينظر للهجرة أو أرسل كتابا يدعو لها أو جاء بنفسه ليشرف عليها يكون مخطئا وأزيد سعادتك على ما قلته للمستر ديبوى .. نحن الستة الموجودين هنا اذا كانت الحكومة بعظمتها تأمر أحدنا بايقاف مصلحته بنفسه أو قفل بابها بيده من منا يستطيع عمل ذالك باخلاص . ثم قلت انني أعجب من حكومة عاقلة كهذه الحكومة أن تعدل عن اقتنائها رجل واحد بمرضاته اليسيرة عليها لتحفظ به قلوب ثلث رعيتها ان لم يكن نصفها . واعجب أكثر من ان السيد عبد الرحمن يقول لكم أنا صديقكم تقول له الحكومة أنت عدونا . قال سعادته : لم تقل له أنت عدونا قلت : لسان الحال ابلغ من لسان المقال . فسكت سعادته واستأذنته فخرج معى وقال لى لا تقل للسيد عبد الرحمن أنى قلت كذب أو غش . فقلت لسعادته : أنا فى طريقى هذا أمر عليه وأخبره بما حصل ولا اكن خنتة فلما انفردت بنفسى جال قلبى الباطن ففسرت كلام سعادته بتفسيرين ، الأول هو اننا معاشر السودانيين فى عين الانجليز والثانى عدم تضامننا لأن هذا الكلام الذى قيل فى السيد عبد الرحمن أمام السيد على التوم يدل على عدم تضامن كبارنا أو يدل على عداوة السيد على التوم للسيد عبد الرحمن وهذا أقرب لأن المهدية قتلت رجال الكبابيش ولكن ما ذنب السيد عبد الرحمن الذى كان طفلا ؟.

كما أخبرت السيد عبد الرحمن لساعتى بمنزله بالعباسية قال لى : الاتفاق على ايقاف الهجرة مكتوب فى ثلاثة نسخ واحدة بمكتب المستر ديفس فليقرأها ويطلب تطبيقها وأنا سأذهب للحاكم العام ليحدد هذا الموقف كما حدده سلفه السير آرشر فى الثلاث نسخ ولم يهتم بتكذيبه أو نسبته للغش أقل اهتمام

فتمثلت فيه وقتئذ أحد المثلين (القادرعايب) (ان جاتك غلبيه اعملها صحبية) •

بعد هذه الحادثة أتذكر أنى لقيت المستر ديفس بالسراية ومعه السيدة قرينته وكان معى الشيخ حمد الملك ناظر شمال دنقلا بالجزيرة ارقو فصافح الشيخ حمد وقدمه للسيدة قرينته وهو ملتفت عنى جاعلنى وراء ظهره • ومرة أخرى دعيت لوداعه بالقراند أوتيل فكنت بالقرب منه فصافح كل الذين بالقرب منه وتركنى ، فلو كان سعادته يعلم بتلذذى باعراضه نظير أدائى لواجب عظيم أديته لصديق اعترف سعادته بصداقته لما أعرض عنى اذا أراد غيظى لأنه باعراضه قدر لى عملى •

ندبت لتفتيش خلوات مديرية الفونج فى أول فبراير • لما وصلت مدينة سنجة زرت مديرها صديقى المستر ديبوى الذى كان يؤكد لى صلاحية الادارة الأهلية بدار صباح وأنا أرى عدم صلاحيتها بذلك فلما وصلت مكتب المديرية وجدت ثلاثة جنائز حصل موتها من غلظة ادريس النعيم ناظر قبيلة رفاعة الهوى (غرب النيل الأزرق) (وتفصيل القصة لا أعتمده لعدم رؤيتى له) دخلت على سعادة المدير بعد التحية فأجابنى أنه سيخرب حلة الرحمانية التى عمرها السيد عبد الرحمن الذى يخدم سكانها بأكلهم وكسوتهم دون أجرة نقدية كما كان يعمل والده مع جميع سكان السودان • فقلت لسعادته : أمخبرك أصدق عندك أم أنا ؟ قال : أنت الاصدق فى نظرى • قلت : انى متأكد من ان للسيد كنتين بكل حلة به كل الانواع التى تلزم لعماله يستجرون منه ما يلزمهم بأسعار معتدلة جدا وبيد كل أحد منهم نوتة يكتب بها ما يستجره وفى آخر الشهر يخصم من حسابه ما استجره ويدفع له باقى ما استحقه نقدا أو أشياء من الكنتين كاختياره ، فاذا شئت التحقق من ذلك فاذهب توا بنفسك وعندما تدخل الحلة أطلب من أول رجل يقابلك نوتته فاذا قدمها لك ووجدت قولى حقيقة ارجع عن خراب الرحمانية ، واذا وجدت خبرى لك غير صحيح أمضى فى نيتك فى خرابها • فقال لى : سبق منى أن أخبرت الخرطوم بما قلته لك أولا وأن المستر ديفس مدير الشئون الاهلية سيحضر غدا ونذهب معا للامر بخراب الرحمانية • قلت لسعادته : الأفضل أن تذهب قبل حضور المستر ديفس وتتأكد من أحد الخبرين ، خبرى وخبر مبلغك الاول قبل وصول المستر

ديفس نقطع المحادثة صامتا فابتدرته بقولى : ألم أقل لسعادتك أن هذه الادارة لا تنفع بدار صباح ؟

هذه ثلاثة جنازات قتلت بسبب غلطة ناظر قبيلة أوهى سبب لضعف ادارته . فرد على سعادته : يا شيخ بابكر هذا انقلاب وكل انقلاب ينتظر منه حصول حوادث كهذه . قلت فى حزم وغضب : حينما كانت الحكومة تحرص على العدل الحقيقى خصوصا فى اصابة الدماء حصل فى أوائل سنى دخول الحكومة أن أحد كبار الشكرية هرب رقيقه فلحق الرقيق بمن معه من رجال فى البطانة وبحث عمن أغراهم بالهرب فتحقق منهم بدعاية عبد مولد عنده من الرقيق فقتله ورمى جنازته فى بئر خربة وبعد أن تعينت مصلحة الرقيق وجعل لها مركز بالبطانة وشى أحد اعداء هذا الرجل الكبير الشكرى بقتله لعبده عند رئيس قلم الرقيق فاجتمع مفتش رفاعة والقضارف وشندى حتى وقفوا على الحقيقة بواسطة الواشى وأخرجوا عظام الجثة من البئر وقبض على القاتل وحكم عليه بالسجن المؤبد فلما كان القطار بين شندى والدامر رمى المحكوم عليه بنفسه تحت القطار وانتحر . هذا كان عمل الحكومة حينما كانت تعنى بالدماء والآن ثلاثة جنائز تحملها سعادتك على الانقلاب . فسكت سعادته ثم سألنى عن بروجرام سفرى فسردته عليه ثم ودعته ولم أدر ما حصل بخصوص القصاص فى الجنائز ولكنى تأكدت من أن الناظر ادريس النعيم لم يعزل ولم يعاقب عقابا علنيا .

هذه حادثة من حوادث كثيرة من تأييد الحكومة للادارة الأهلية على حساب العدل الذى جاءت الحكومة الانجليزية رافعة علمه .

فتشت مدرستى أبى هشيم والقويسى بنهر الدندر ووصلت المفازة حيث وجدت المأمور بها كنتباى أبى قرجه والقاضى أحمد بدرى ووجدت معهما الشيخ موسى يعقوب ناظر قلع النحل والمفازه لأهل الغرب وصحبنى لمنزله حيث فتشت مدرسة قلع النحل وبارحتها لمدرسة ولد ضعيف وناظرها الشيخ ادريس الحبر ثم وصلت عصارا وبعد تفتيش المدرسة قضيت ليلتى بمنزل الشيخ عوض الكريم ولد زايد ناظر الضبانية وكانت الليلة بردا قارسا بحيث حينما وصلنى المستر فيلد بعربته وجدنى بعد الساعة الثامنة موقدا نارا للتدفئة فأشار على بالقيام فقلت لا أستطيع السفر الآن فمضى بعربته وبعد قليل جاءنا

راجعا ليتدفأ فوقف على النار وكان هذا فى شهر ابريل الذي هو مظنة الجو
انحار .. وصلنا القضارف وبعد تفتيش خلوتها وكتابها طلبت من المأمور
عبد الله أفندى محمد الكارب أتومبيلا نصل به كسلا فأحضره لنا من أحد
الخواجات وصحبنى فيه الشيخ زكريا شقيق أبى قرجه الشهير. تغذينا بالتومات
عند شيخ العرب محمود حامد الخليفة وبتنا بحلة الشوك حيث فتشنا خلوتها
النظامية وبارحناها نحو الساعة الرابعة والنصف رغم طلب الفقيه الحثيث بأن
نبات معه ولما تقدمنا بالشارع الموصل لحلة المحرقات وجدنا الشارع مزدحما
بقطيع كبير من الابل اللائى جرين أمام الاتومبيل وثار الغبار ولم نشعر الا
والاتومبيل راكب على جذع شجرة فى وسط الشارع فاتتفت لثتى وأصيبت
أسنانى بصدمة قاسية لانى كنت راكبا بجوار السائق فجعلت أقطع ما اندق
من لحم لثتى بالمقص وأكوى مكانه بصبغة اليود . ولم يكن غيرنا فى ذلك
الشارع المحاط بالاشجار الكثيفة ولم ننم تلك الليلة لترويع الخادمة والسواق
بحركة الليوث التى تقرب منا بحركتها وان بعدت فبزئيرها . وأوقدنا أكثر من
دستة شمع فى فنيارين فلما أصبحنا سرنا أنا وزكريا راجلين حتى وصلنا حلة
المحرقات فوجدناها خالية لا أنيس بها وبالبحث اهتدينا لآثار من يأخذون
الماء من البئر فوجدناهم فى وسط الغابة فأجرنا أحدهم ليوصل كتابى للشيخ
محمود حامد خليفه بحلة التومات فينجدنا بجمال للحملة وحمار ركوبة لى
حتى وصلنا خشم القربة التى أخذنا منها أتومبيلا وصلنا به كسلا .

* * *

قابلت الرجل الفاضل الشيخ عبد الله محمد صالح الحلنقى ناظر المدرسة الأولية
بكسلا واستعنت بحضرته على الحلنقة لنعمل لهم خلوة نظامية أعنى نضيف
لتعليم القرآن الكريم مبادىء الديانة أى العقائد والطهارة والعبادات وقليل من
الانشاء والحساب فلم يقبلوا الا مبادىء الديانة فوافقتهم وقفلنا بطريق
القضارف كما أتينا . فلما وصلت الخرطوم فى ٥ ــ ٦ بعد تفتيش ٣٥ خلوة
بخلاف الكتاتيب التى كلفت ببعضها ، خرجت لتفتيش خلوات مديرية الخرطوم
فخلوات مديرية بربر وبذلك استمر سفرى من أول سبتمبر الى يوم أربع يناير
سنة ١٩٢٨ حيث جاءنى عسكرى بطلبي من السير مفى حاكم السودان العام

فوجدنى بحلتى العار والعشكوت آخر ساقية للرباطاب وأنا أنظر لأول ساقية لقبيلة المناصير فرجعت ولم أدخل المناصير لأعمل لهم خلوات نظـامية وأسفت لذلك جد الأسف من الحوادث التى حصلت فى هذه السفرة مما يستحق الذكر حينما خرجت من أمدرمان لديم الفتيحاب والزنارخة رايت على البير عـددا كبيرا من البنات العانسات وما زلت آرى هذا العدد بكل حلة حتى وصلت الى ناظر الجموعية على ناصر بجوار حلة السليمانية التى بها خلوة فحادثته للاتنباه لتزويج هؤلاء العانسات فوعدنى ببذل جهده فى تنفيذ الخطة التى اتفقنا عليها فى مجلسنا ثم وصلت عمدة الجموعية غرب جبيل أوليـــا فوافق على الخطة فعبرت النيل الأبيض للشرق وما زلت أدعو لتزويج البنات حتى وصلت حـلة ود رملى فوجدت بها ناظرها الهمام الشيخ محمد رملى الذى أخذنى نحــو الساعة ٨ مساء وسار بى حتى أوقفنى على عدد من الفتيان نائمين ثم قال لى : لمن نزوج البنات ألهؤلاء النيام من الآن أم لغيرهم ؟ وحكى لى قوله : نحن كنا فى سنهم هذه نسعى للفضـاء مثـل هذا الزمن ونضرب الصفقـة تأتى كل من خلصت من عملها من البنات حتى يجتمعن فنلعب أو يرقصن فترتبط بين الولد والبنت فى ذلك الزمان المحبة الخالصة من شوائب الريبة فيخطب الولد من علقت بفؤاده من البنات فيتزوجها أما أولاد هذا الجيل فلا هم لهم الا الجلابية المكوية النظيفة . واللمة المسرحة والأكل والنوم أسأل الله أن يهديهم .

رجعت لأم درمان وفى الحال قمت بالاجازة التى تزوجت فيهـا نفيسة أم مانك فى ليلة ١٠ من شهر يوليو الموافق ليلة عاشر محـرم سنة ١٣٣٥ هـ وقالت عديلة اذا حضرت زواجك ولم أشارك فى فرحه تماما أحرجت نفسى معك ومع أصهارنا واذا شاركت فيه أحرجت نفسى مـــع والدتى فقبلت عذرها فقامت لأم درمان ووصلنى منهـا كتاب تهنئة فى صبيحة ليلة العقـد فشكرتها لحسن تصرفها .

فى أول سبتمبر قمت لتفتيش خلوات مديريتى دنقلا وحلفا وعـددها مائة وواحدة وآماكنها مختلفـة شرق النيـل وغربه الى جزيرة فرص ظللت راكبـا حمارى كل هذه المسافات التى قضيتها فى مائة واثنين وعشرين يوما بواقع يوم وخمس من يوم للخلوة الواحدة من الزمن بعد أن نخرج الـ ١٦ يوما الجمع بدأت يوم ٣/٩ بخلوة البركل وانتهيت يوم ٢/١ الذى قضيته بخلوة حلفـــا

الضريح وكنت كلما طلبت لنفسى الراحة أراجعها بقولى فى الأبيات التى قلتهـا لموسى ووالدته :

وما طلبى للمـــال والجاه وحـده حدا بى الى أن أنهب الأرض ذا النهبا
وأترك موسى يلتـوى خلف دابتى تضمه أم حزنهـا يلهب القلبـا
ولكنمـا أسـعى الى الله والنهى ونفع بنى جنسى وان ضعت مذهبـا

ورد لى تلغراف من أحمد مالك فى يوم ١/٤ يطلب تحويل ثمانية جنيهات للباسه لأنه تخرج مهندسا . فحولتها له فى الحال مسرورا باتمامه دروسه .

كذلك ورد لى جواب من ابراهيم بدرى من مشرع الرق يطلب فيه خطبة ابنتى فاطمة للشنقيطى فرددت له تلغرافى هكذا : هل نسيت خطبة أحمد مالك لها ؟ فرد على فى الحال : لم أسمع بخطبته لها فاتهم

وخوفا من غضب ابراهيم كتبت خطابا لمجذوب مالك الذى هـو أهـدأ أخوانه طلبت منه هل يمكن تنازل أحمد مالك فرد على احتجاجا على طلبى هذا وتمسكا بزواج أحمد بفاطمة فلم أخاطب ابراهيم بشىء بل اكتفيت بما حصل حيث لم أنجح فى تصرفى الذى يعـلم الله ما أردت به الا تجنب غضب ابراهيم الذى أعرف طبعه وعزيز مكانته عندى كما أتجنب غضب أولاد مالك وهم عصبـة أولادى وأمانة أبيهم ــ رحمه الله ــ فى ذمتى • لما قضيت تفتيشى لخلوة فرص ذهبت مع العمدة للمكان الذى كنت أتدحرج فيه ليلا لملء قربتى ورأيت انحدار الشاطىء عجبت كيف كنت أستطيع السير فيه متدحرجا مضطجعا ثم واصـلنا سيرنا لمكان الديم حيث دفنت شقيقى موسى بدرى لعـلى أعرف مكان قبره فأتعهده واذا تأكدت منه أبنى عليه علامة ثابتة ولكنى حينما وصلت المكان رأيت ويا هول ما رأيت المكان الذى أهاج على ذكرى مهيجة محزنة • ذكرى جوعنا وخوفنا وسرقتنا للماء ليلا من الوابورات وذكرى ضرب موسى بالجـلة وأنا جالس فى صدره • ذكرى قول والدتى حينما تأكدت ضربته المميتة • قولتهـا التى لا أنساها وهى : وهبته لله تعالى (راجع هذه القصة المحزنة فى مكانهـا واعجب لثباتنا لها فتقتنع بأنا قد ساعدنا على صحة عقيدتنا بالجهاد)

وصلت الخرطوم فى يوم ٦ يناير سنة١٩٢٨ فسلمت على فريد بك باشتياق وحادثته بلطف فقال لى : يا شيخ بابكر انت راجل لطيف ولا تتعقب أحد بسوء فلا أدرى لماذا يشتغل بك الناس • فقلت له على الفور :

الام على ما يوجب الحمد للفتى   واهدأ والأفكار فى تجون

فقال فريد بك : أي والله .

ثم اشتغلت فى المكتب بتنجيز تقريرى وفى يوم ٢٠ يناير سنة ١٩٢٨ طلبنى السير معالى الحاكم العام بسرايه وجرت بيننا هذه المحادثة التى أذكرها •

بعد التحية :

انت تسافر كثيرا • ماذا رأيت فى السودان ؟

من المجلد والروصيرص جنوبا الى فرص شمالا ومن الجنينــة غربا الى طوكر وسواكن وبورتسودان شرقا تتعب كثيرا •

ـ كلمااشتد تعبى كثر سرورى لأنى أخدم بلدى •

ـ انت مشهور بالاخلاص فى التعليم

ـ اخلاصى للحكومة ناتج عن انها أفضل حكومات الاستعمار وانسيرها فينا ان لم يكن طبق العدل من كل نواحيه فلم يخرج حكمها عن دائرة العقــل واما التعليم دولتك فانه نور البلاد وأفضل ما يرثه الأبناء عن الآباء .

ـ نعم • نعم • كم يوما قضيتها فى سفرتك هذه ؟

ـ مائة وسبع وعشرين يوما ماعدا يوم القطار من الخرطوم لكريمة

ـ كلها قضيتها بالحمار ؟

ـ نعم

ـ هل لغة الدناقلة والمحس واحدة ؟

ـ مختلفتان

ـ اسكتلندا فى بلادنا مثل ذلك ، بعض كلامهم أنا لا أفهمه •

ـ الفقهاء كلهم مقيدون ومشروع الخلوات مفيدة ؟

ـ الفقهاء مقيدة أسماؤهم وأكثرهم متمرنون والمشروع للخلوات مفيد للقرى الصغيرة وخصوصا للبوادى اذا عمم فيهم •

ـ هل الناس مسرورون ؟

ـ كانوا تعبانين فى العام الماضى بسبب المجاعة وهذا العام هم مسرورون لجودة المحصول •

ـ هل المحصول يكفى البلد أربع سنوات ؟

ـ نعم اذا لم يصدر بكميات كبيرة •

ـ تفتكر نمنع التصدير ؟

ـ اذا منع التصدير مطلقا يتعب المزارعون برخص القيمة ونخاف انهم يكسلون فى زرع جميع مزارعهم •

ـ تفتكر ماهو الثمن المتوسط للاردب عادة ؟

ـ اذا نقص ثمن الأردب عن مائة قرش يضر بالمزارع واذا زاد عن مائة وخمسين قرشا يضر بالمستهلكين •

ـ أهنيك بنجاح ولدك أنا رأيته فى كلية الطب هو أحسن يفهم ان علمه لم ينته •

ـ وهو عمره كم ؟

ـ عمره أربعة وعشرين سنة وأربع وثلاثون يوما

ـ هل هو ولدك الكبير ؟

ـ ولدى الكبير قاضى شرعي وهو الآن بالمغازه •

ـ أنا شفته بالمغازه • كم ولد عندك الآن ؟

ـ خمسة عشر منهم خمسة ذكور وعشر أناث •

ـ هل على متزوج ؟

ـ لم يتزوج •

ـ هل تريد على بدرى بعد هذه السنوات أو يشتغل بالمديريات الجنوبية؟

ـ أنا لا أختار لأولادى مكانا معينا بالسودان كل السودان بلدهم ولذلك أوصى أولادى بالتعليم أو لظهرى بقولى له اذا نقلتك الحكومة بالسودان لبلد لم تجد فيه انجليزيا حاكما أو يونانيا تاجرا لا مانع من أن تضجر واذا وجدتهما فلا حق له فى الضجر .

ـ هذا أدب جميل • كبرى النيل الأبيض مهم ومفيد ؟

ـ نعم لأنه ربط البلدين .

ـ انت حضرت أمس احتفاله ؟

ـــ لا لأنه قاصر على مستخدمو الدرجة الرابعة من السودانيين .

ـــ الآن الترمواى سيره بطىء لعدم تمرين السواقين وبعد تمرينهم يسير بسرعة ، هل الناس مسروورون به ؟

ـــ طبعا لأنه وفر الزمن وأراح البدن .

ـــ أنا مسرور من محادثتك وانشاء الله أراك مرة أخـــــرى . هل عندك حديث خصوصى تحدثنى به ؟

ـــ نعم . أنا الآن قريب من الاحالة للمعاش ومعاشى لا يتجاوز الثـــلاثة عشر جنيها وعلى سلفة مبانى تبلغ ستة جنيهات ومائة وستين مليمـــــا . فاذا خصمت هذه القيمة شهريا يبقى لى أقل من سبعة جنيهات أعيش عليهـــا لمـــدة سنتين فاذا كنت ترى دولتك ان فى بقائى مدة السنتين المقبلة فائدة للحـــكومة أكون استفدت واستفادت الحكومة .

ـــ أنا أوصى بذلك (وأخرج نوتة وكتب فيها مذكرة بذلك) ولكنى لمـــا وصلت مدينة أتبرة فى شهر اكتوبر من هذه السنة وصلنى ورق المعـــاش وطلب منى ملؤه فملأته وأحلت للمعاش يوم أربعة فبراير سنة ١٩٢٩ ولا أدرى أنسى دولته أم لم يوافق المستر فيـــلد رئيسى المبـــاشر والذى طالبنى بالاستعفـــاء سنة ١٩٢٢ .

فى ٢٢.ـــ١ـــ قمت لتفتيش خلوات رفاعة . فتشتها فى خمســـــة أيام وفى أثناءها طلبت من جناب المستر ريتشارد تحضير أربعة جمال لحملتى حيث كان عندى حماران لركوبتى وخادمتى بدل جمل خامس فاحضر لى الجمـــــال ولم يسمح لى بعسكرى يرافقنى وقال لى بعنف : أخبر مصلحتك بأنى غير مستعد أعطيك عسكريا . فقلت لجنابه : أنا لا أخبر مصـــلحتى ولكنى أؤكد لك انى لا أبارح رفاعة بغير عسكرى يرافقنى فقال لى واحد اسمه أحمد بدرى أخـــذ عسكريا يرافقه للمفازه فوصلها فى تسعة أيام ورجع العسكرى فى ثمانية أيام . فقلت له : أحمد بدرى قطع أكثر المسافة راجلا من كثرة الأمطار وعلى كل حال اذا كنت جنابك غير مستطيع محاكمة أحمد بدرى هـــل تعجز عن محـــــاكمة العسكرى ان لم تجده محقا فى تأخيره .

ثم قلت لجنابه مازحا : انت وأحمد بدرى أخوان وأنا والدكما الاثنين . فاشتد غضبه حتى استوى قائما وقال لى : انت لا تستحق عسكريا . قلت له بحزم :

لماذا انت تستحق ثلاثة عساكر فى جولاتك بمركزك الذى تعرفه طرقا وأشخاص وأنا لا أستحق عسكريا واحد فى طرق أجهلها وبين أناس أنكرها ؟ فقال لى بحدة : انت وطني والوطنى لا يستحق عسكريا . قلت : هل لا تعطى القاضى الشرعى عسكريا يرافقه فى جولاته . فجلس على كرسيه وتناول قصاصة ورق من السبت كتب على ظهرها للمأمور الحصا حيصا يعطنى عسكريا يرافقنى لآخر مركز الحصاحيصا . فلما قرأت الورقة قلت لجنابه : أنا لا أحتاج للعسكرى الا بعد آخر مركز الحصاحيصا . فأخذت الورقة للمأمور الذى أمر العسكرى أن يرافقنى حتى مركز القطينة فسافرت على بركة الله . هذا المستر ريتشارد الذى أعرفه أكثر من أربعة سنوات قضيناها معا بمصلحة المعارف فشتان بين تصرفه وتصرف المستر ديبوى بمدينة الفاشر . اذا شئت فراجعها فى سنة١٩٢٦؛ لترى الفرق الشاسع بين الرجلين .

وصلت القطينة ونزلت مع المأمور محمد الفضل ابراهيم لغياب محمد صالح الشنقيطى وفتشت الخلوات فى القطينة وبالقرب منها فى ثلاثة أيام حضر فى أحدها الشنقيطى أفندى الذى صحبنى حتى أوصلنى حلة ود شلعي وكلما مررنا بحلة أسمع ألسنة ذكرى حسنة وثناء عاطر لما قدمه للفقراء فى أيام المجاعة من عطف وكرم جزاء الله عنهم وعن المروءة خيرا . أخذت عمى على شكاك كعادتى كلما مررت بالنيل الأبيض . نزلت بود الزاكى فى منزل المرحوم الأمين الأصم فحكت لى خادمتى الرحمه بأن للأمين بنات عانسات . فلما وصلت حلة الشقيق أخبرت عمهن عبد الله سليمان الأصم وطلبت منه ومن معه من ذويه أن يرسلوا من أولادهم من يليقون لزواجهن وفى الحال ينقلن مع أزواجهن بالشقيق فأجابونى وحمدونى وفى الحال عملوا بوصيتى جزاهم الله خيرا .

مررنا على كل خلوات النيل الأبيض وبتنا بحلة قبيلة سليم وحادثت عمدتها أن يطلب انشاء خلوة بحلته فلم أر منه رغبة تركته . وبمرورنا بين النيل الأبيض وتندلتى حصلت لى حادثة ببلدة الأحامده فى فريق على حفير يقال له أم صبر لولا انى أقصد من تدوينها أن يطلع عليها أولادهم الذين يتعلمون فينتبهون لمقاومتها لنزهت لسانى عن ذكرها وقلمى عن كتابتها وهى انى كنت مصاب بزكام عند وصولى هذا الفريق فأخبرت الأمباشى المرافق لى أن يضع سريرى السفرى فى بيت من بيوت الفريق لأنام فيه خشية ازدياد الزكام فوضعو نى فى

بيت من البروش على سريرهم الذى يسعه فراغ البيت تقريبا وبعد منتصف الليل شعرت بحركة انسان ظننته سارقا فقلت له من هذا ؟ قال : أنا فاطمة سيدة البيت فقلت : ماذا تريدين ؟ فسكتت هنيهة ثم قالت : جئت لأسد لك البيت خوفا عليك من كلابنا المتعودة الرقاد معنا على السرير قالت أربطه من الداخل أو من الخارج أم من كليهما ؟ قلت : الأحسن أن تسديه من الخارج فلما تحركت وفعت على صدرى وهى ملتحفة بثوب حرير وهى معطرة فقلت يالرحمة يا الرحمة ثلاثة مرات فلما سمعت اجابة الرحمه بنعم قفزت واقفة فقلت للرحمه: سدى البيت مع صاحبته وخرجت وفى الصباح حزارنى شيخ الحلة الذى نسيت اسمه فسألته : لمن هذا البيت الذى نمت فيه ؟ • قال : لأختى • قلت : أهى متزوجة ؟ قال : نعم ومطلقة • قلت : اذا رأيت معها رجلا أجنبيا ماذا تصنعوا بها • قال لى : أتحاشى رؤيتها ورؤيتى لها بأن أمر من بعيد عنها • قلت : تغضب على أحدهما • قال لى : كيف أغضب على أحدهما وهى عزبة (ثيب) فالعزبة هى تفعل كما تشاء • تعوذت بالله من هذه الأباحية ورحلنا عنهم فى الحال • وصلنا جديد ووجدنا سوقها عامر وبه كثير من تجار رفاعة ثم وصلنا تندلتى بعد مرورنا على الناظر مكى البدوى عساكر بمكان يسمى طويل (بالتصغير) كما وجدته فى سنة ١٩٢١ وهو تلميذ فى طور التعليم ومن تندلتى ركبنا القطار حيث وصلنا الخرطوم فى يوم ٢ـ٤ـ١٩٢٨ م بعد أن ودعنا عمى على شكاك بكوستى ليصل أهله على حماره •

ثم قمت يوم ٨ـ٤ـ١٩٢٨ م لتفتيش خلوات كردفان التى أسستها سنة ١٩٢٥ فى ستة شهور وكتبت عنها تقريرا اصلاحيا لكل خلوات كردفان ولكنه لم يعمل به ولم يهمل جميعه • قدمته للمستر فيلد يوم ٤ـ٦ـ١٩٢٨ م.

فى هذه السفرة لقيت الشيخ ••• بأحد الدكاكين فى الأبيض وسألنى ماذا أركب فى سفرياتى بكردفان المترامية الأطراف على حمارى وجمال حملتى • هزىء بى وافتخر أمام الجالسين بأن المصلحة أذنته خصوصيا باستعمال الأتومبيل فى جميع سفرياته ولم يدر صاحبى انى أستعمل الركائب لأكتسب أجرتها التى أستعين بها على قضاء ديونى التى ارتكبتنى فى اقامتى فى الخرطوم من جهة ومن جهة أخرى أتمتع بمجالسة الرجال الكبار أدرس منهم تاريخ

قبائلهم وصاحبى لا يحتاج لأحدهما لحمله الخفيف ومرتبه الكافى ويمكن لزهده فى تاريخ بلاده .

بوصولى الخرطوم قصدت مكتب فريد بك عطيه لأسلم عليه فوجدته يكتب فلما رآنى مد لى يده اليسرى للسلام فمددت له رجلى بنعلها فلما أمسكها وهو مطأطىء الرأس أحس بخشونة النعل فرفع رأسه وفى الحال وضع فمه ودخل على المدير شاكيا فلما سألنى المدير وفريد بجانبى أخبرته بأنى صعدت له من مكتبى الأرض المنزوى فى آخر جناح الكلية الشرقى غرفة واحدة ونحن بها أربعة مفتشين وطنيين صعدت له فى مكتبه الرفيع الواسع المنفرد فيه فما رضى الا أن يمد لى يده اليسرى تمجيدا لنفسه وازدراء لى فرجلى بنعلها فى هذه الحالة أشرف من شماله . فرفع المدير رأسه لفريد خاطبه بالانجليزية ثم التفت الى وقال : تفضل . نتيجة لهذه المحادثة أو لسبب لا أدريه نقل الشيخ عمر اسحق لمكتب فريد بك حيث وضعت له تربيزة مقابلة لترابيزة فريد بك فسررت جدا لهذه المحازاة السريعة ولوضع وطنى معه .

وفى يوم طلبنى المستر يودال وقال لى : اذا كنت تنفذ هذا المشروع الصناعى الذى يراد ادخاله فى الكتاتيب يمد لك سنتين بدون معاش بمعنى انك تحال للمعاش من أول السنة الجديدة وتشتغل السنتين بمرتبك كاملا وتمر على الخلوات والكتاتيب لتثبت عمل الصناعات بها . قلت لسعادته : ماهى الصناعات التى يتعلمها المعلمون وأين يتعلموها . قال : ستقدم لك بها معلومات تبين كل ما يتعلق بها . ولما كنت محتاجا لمد السنتين لصغر معاشى الذى لا يتجاوز ثلاثة عشر جنيها سيخصم ستة جنيهات ومائة وستون مليما سلفية مبانى ومصاريف أولادى بالمدارس وانى متزوج زواجا جديدا يلزمنى مصروفات سخية ولأنى لم يسبق لى أن فشلت فى عمل قط تجاريا أو صناعيا أو اداريا أو تعليميا ولاعتقادى كما رأيت أعمال الانجليز واقتراحاتهم تؤيد من بعضهم مهما كانت علاقاتهم الشخصية فبعد أيام وصلنى منه كتاب التعليمات وهذا نصه وشفهيا أمرنى بأنه عمل كل الترتيب اللازم للادوات والأكل مع المستر أستيرك قلت لسعادته : والأسطوات والفعلاء قال : كله عند المستر استيرك تلقاها منه وما نقص عليكما سلا عنه المستر فيلد حتى يرجع المستر ويلمس اتصل به بدل المستر فيلد . وقام بالاجازة قبل وصولى التعليمات .

وصلنى هذا الكتاب بعد قيامه بالاجازة وفى يوم ١٥ــ٧ــ١٩٢٨م حضرت وحضر المعلمون وعددهم تسعون المستر استيرك الذى أعطانى هذه التعليمات من نوتته فنقلتها بنوتتى •

أولا : انتدب تسعة أسطوات بنايين لتعليم تسعين معلما لكل معلم عشرة مشـــايخ •

ثانيا : يوجد عشرون فاعلا بما فيهم ستة بالايجار على ميزانية الورشـــة وأربعة عشر فاعلا من خدمة الورشة السائرة منهم خمسة عمال المركب برئيسهم وثلاثة خفراء وطباخ ومرمتون وصفرجيان وفاعلان مستدعين •

قلت لجنابه : أرنى مكان العمل للبناء طوبا وجالوسا ولضرب الطـــوب ولعجن المونة • قال لى : الطوب مضروب جاهز واما المونة فيعجنها الطلبـــه (العمال) ويكون مع كل اثنين منهم معلم (شيخ) نوبتجى يوميا بالتغاير ينظر كيفية عجن المونه ويساعد المعلمون الفعلاء فى وصولها لمكان البناء داخل العنبر ويعتبر صحن العنبر كأساس ملآن وبعد نهاية العمل يبلط ويرمل لكل جانب ذبله والثانى رمله •

رابعا : الأكل والشاى للمعلمين يقوم به الضابط كالكلية كأنهم طلبة

خامسا : مكان التراب للمونة مسئول عنه عبد الجليم خيرى •

سادسا : أدوات الطبخ موجودة اما الطباخ فسيرسل من الكلية •

سابعا : العنقريبات والبطانيات والمخدات التى بالورشة ســـتة وستون والباقى وهو أربعة وعشرون يطلب من الكلية •

ثامنا : سعادة المدير اشترى عشرة أمتار رمئة للشغل •

تاسعا : كيفية عجن الطين كل يوم تعجن حوضين واحد يستعمـــل بيومه للمونة والتـــانى يترك حتى ينبل وهكذا يكون هنـــاك دائمـــا حوض مبتـــل ترابه ليسهل عجنه •

عاشرا : عجن الزبالة وتنظيفها يكون بواسطة الفعلاء وبحضور المعلمـــين النوبتجية واما الرملة فغربلتها وعجنها بواسطة المعلمين •

أخذت هذه التعليمات ونقلتها حرفيا بمذكرتى فعرضتها على جناب المستر فيلد فوافق عليها كلها كتعليمات المستر استيرك زمانا ومكانا وعمـــلا الا انه

استحسن أن يعجن المعلمون الطين بأنفسهم ليتمرنوا عليه ولكنى لم أنفـــذ
اقتراحه هذا ولا طالبت به المعلمين ولا أخبرتهم علم الله به ولكنهم سمعوه من
غيرى وأظنه ممن نصبوا آلة لفشل الموضوع كما علموه من المستر فيلد الذى
عادته الصراحة ولو فى غير مكانها أو زمانها فبنوا عليه تعصبهم فلمـــا ابتدأوا
التعصب جئت للمستر فيلد يوم ١٨ــ٧ــ وأخبرته ببدء التعصب فلم يهتم له .
فقط قال لى سأكتب لسكرتير المعارف أخبره بذلك ثم زاد قوله ان أكبر عقبة
تقف فى سبيل هذا العمل عدم تقرير ميزانيته لمشترى المواد الخام لكل نوع ولا
يمكن أن يستمر العمل بخلاف تقرير مالية لأن المستر يودال لم يقرر ماليـــة .
فأحسست بالشر من جملته هذه لما أعلمه من ســوء الفهم المستحكم بينه وبين
المستر يودال فجعلت أفاوض المعلمين باللين وأشاركهم فى العمل بيدى فبعضهم
ممن يحترمون شخصى يسير فى العمل وبعضهم يتلكأ وبعضهم يمتنع فمن نسن
من كلمته باللين ولم أعلم انه من رؤساء المتعصبين البدرى الريح فلما بدأت كلامى
له أغلظ على فقلت له أنا عمك وصديق والدك فنهرنى بأعلى صوته قائلا : أنا
لا أليق لعمومة ولا لصداقة والده وكان هذا بمحضر مـــن أولادى من رفاعة
أذكر منهم محمد سعيد محمد خير ومحمد الجزولى فذهبت توا لجناب المستر
وليمس الذى وصل قبل يومين وطلبت منه أن يزورنا بأم درمان لتدارك الأمر
فجاءنا يوم ٢٨ــ٧ــ فلم يتفقوا على العمل فقلت لجنابه هل عنـــدك مانع أن
تنتقل بهم الى الخرطوم ونبتدىء العمل فى النجارة والخياطة وتترك البناء وما
يتبعه من مسببات للتعصب ؟ قال : لا مانع عندى . فنقلت مركز العمل للخرطوم
حيث قابلت باب الله أفندى بمكتبه فأخبرنى أن معلمى النجـــاره للعناقريب
والكراسى معمول ترتيبهم تحت رقابة أحمد أفندى غندور فلما قابلته قال لى :
وكذلك عندنا صناديق للشبابيك والأبواب وكل الأدوات للعمل موجـــوده
فابتدأنا العمل فعلا وبعد يومين رفض أكثرهم فذهبت للمستر وليمس وطلبت
منه أن يحضر كل المعلمين بالجره بحراسة فضل المولى الصول ويدخلهم عليـــه
واحد واحد فمن يقبل الاستمرار فى العمل يكتب اسمه فى وجه الورقة ومن
يرفض يكتب اسمه فى ظهر الورقة لعلنا نجد من بينهم من يرضـــون الاستمرار
فنعمل معهم لحينما يحضر المستر يودال خير من أن تقطع العمـــل فوافقنى على
ذلك وحينما حضر المعلمون دخل عليه الشيخ عمر اسحق فخرجت لأخبر المستر

فيلد الذى كتب للسكرتير بخصوص المالية فلما قابلته بمكتبه أخبرته بماحصل قال لى انه سيأخذ رأى السكرتير فى استمرار العمل أو وقفه فرجعت للمستر وليمس الذى وجدته غير فكره وطلب المشايخ كمال الدين عباس وعبد الكريم محمد وأمين مكى ليتقبلوا الاستمرار فى العمل فرفضوا • فى اليوم الثـــانى وضعت له طرقا لتخفيف الاعتصاب فلم أر من جنابه ميلا لها فتركتـــه وذهبت للمستر فيلد لأعلم ماذا تم فى جواب السكرتير له • حينمــــا رآنى قال لى أن السكرتير أجل الموضوع ليبدأ كتجربة فى الخارج والمستر وليمس طلب الشيخ عمر اسحق وأنا معهم بلهجة الظافر ان المستر وليمس عفاكم من الشغل فزقفوا وزقفت معهم نعم زقفت معهم لأنى لم أر نفسى فاشلا بالنسبة للمجهود العظيم الذى بذلته والأسباب والأشخاص التى تضافرت على ايقاف الموضوع ممـــا بذلوه من تشنويه السمعة بالأغانى التى نشروها بلسان الأطفال تشنيعا عـــلى المعلمين يعيرونهم بالزبالة كالفعلاء مع أن هذا يعلم الله لم يكن برأيى ولم أقوله ولم يوجد بسور الورشة كله قبضة من زبالة ولكنه خلقه مروجو فشل الموضوع وأذاعوه لبـــلوغ غرضهم • عـــلى انى أذكر أن زرت الشـــيخين يوسف قوى ولطفى فوى بمنزل الأول بأمدرمان لأفاتحهما رأيهما ولأستخبر لطفى عن سبب نصيحته لى برفاعه أن أمتنع عن قبول مباشرتى لتنفيذ عمل الصناعات بواسطة معلمى الكتاتيب لعلى أجد عندهما رأيا يفتح لى طريق معرفة الأسباب لأعالج حلها اذا قدرت أو طريق عذر مقبول اذا عجزت • عملا بقول الشاعر الحـــكيم عندما يحبس الرأى لأمر عظيم :

ولا بد من شكوى الى ذى مروءة ... يؤاسيك أو يسـليـ او يتوجع

لقيت معهما محمد الجزولى وليتنى لم أزرهم • بعد محادثة يسيرة ظهر لى منها أثر الشماتة على ما لحقنى من الفشـــل فى رأيهما لم أفاتحهم فيما جئت من أجله وتطورت فكرتى مما رأيته منهما أن لهما يد فى نصب المكيـــدة التى دبرت للفشل المزعوم ولم يقفا عن هذا الحد فان محمد الجزولى انفجر موبخا لى مما ظننت منه أنهم كانوا فى سيرتى وعلامة ذلك ما أبداه محمد الجزولى من الجرأة على وانفجاره بدون مناقشة سابقة توصله لتوبيخى بينما قال فيما قال انى سجنت والده بغشى له وانى نقلته بمدرسة شركيله ناظرا فلما رأى الشيخ لطفى جرأته وأحس بما تتركه هذه المهاجمة بحضورهما من الأمر الذى ربمـــا

يترفى لغاني باشتراكه فيها معنى تطبيقا للمثل السوداني القائل : (ان جاتك من صغارهم اعتبرها من كبارهم) وان بساطة محمد الجزولي هي التي دعتــــه للمجاهرة بأكثر ممـــا يقصرانه انبرى لمحمد الجزولي وهو مغضب قائلا (أنت يا محمد الجزولي لئيم • والدك لم يسجنه أبونا (بابكر) وانما سجن نفســه ببلادته فاني ووالدنا كنا نسهر مع والدك الليـــالي نصــلح له دفاتره • والدنا المصحح بالرأي وأنا المغير بالكتابة فوالدك حينما وقف أمام المفتش ذكر أسماء لا مسميات لها وهنا ما كان يخافه عليه والدنا فحكم عليه بالسجن وانت يامحمد شـ ـسيا فقد جاءني سعادة المستر يودال وأنا كنت ناظر مدرسة كســلا جاءني المستر يودال غاضبا وقال لي أن الشيخ بابكر بدري عين محمد الجزولي ذلك الأعور مدرسا برفاعه دون موافقتي واما نقله لك ناظر بمدرسة شركيــله كان يقصد ترقيتك ثم كرر له انت يا محمد الجزولي لئيم) هذا ماقاله الشيخ لطفي لمحمد الجزولي دفاعا عني أو دفاعا عن نفسه لئلا أتهمه كما تقدم • بارحتهم في الحال وأنا ضاحك على ماجرى رضاء بقــدر الله ذاكرا للحكمــة (اتق شر من أحسنت اليه) بعد أيام وقبل تسريح المعلمــين حضر المستر يودال من الاجازة وجمع المعلمين المتعصبين وطلبني والشيخ كمال الدين عباس فقط أخذ رأينا عن الاعتصاب وكيفيته وأسبابه فقلت أسبابه كثيرة في نظري أولها غياب سـ ـادتك وأن العمل بدء بالطين وهو محل مساءه وفرصـــــة للمشنعين • وانه بديء في أم درمان مما سهل للمعارضين وضع أغاني نشرها أولاد الشــوارع تعير على المعلمين كيف يخلعون الفرجية والطربوش ويلبسون الشماره ويعجنون الزبله ويلطخون الحائط فأثارت الشعور فرد سعادته قائلا لي : انتم وكل من مررت عليه في تفتيش المدارس من كبار السودانيين قلتم لي ادخال الصنــــاعات في الكتاتيب مفيدا قلت للشيخ كمال الدين : اما ترد على سعادته ؟ قال لي الشيخ كمال الدين : انت عارفني اذا كنت أعارض وأتكلم بما يدل على المعارضـــــة تركته واتجهت على المستر يودال سائلا ، هل ذكر لك أحد منـــا أو من غيرنا هل المعلمون يقبلون تنفيــذها على الصـــــورة التي حررت بها لي الأمر ؟ قال سعادته : لم أسأل أحدا هذا السؤال • قلت : من ترك هذا الســـؤال غزانا المعارضون . قال لي سعادته : هؤلاء المعارضـــــون هم أعدائك • قلت : لا يا سعادتك هم أعداؤك أنت لأن أعدائي لا يستطيعون أن يؤجلوا العمــــل

للتجربة فى الخارج ولا يستطيعون أن يضمنوا للمعلمين مستقبلهم مع هـــذه المخالفة العلنية وانما يغرى أعدائى التلاميـــذ بأن يقولوا : لا تشتغلوا تحت اشراف بابكر بدرى • فأسقط أنا ويتعاون رجل غيرى من أمثـالى الكثيرين • فسكت سعادته قليلا ثم طلب كل المعلمين المتصبين وأدخلهم فى غرفة كبيرة ثم قال لنا : أنا قائم للمعلمين أقف عند الباب وأقول لهم كل من يرفض العمل منكم فليخرج من هذه الغرفة لمنزله وهو مرفوت • فقلت لكمال الدين مرة أخرى : ما رأيك يا أستاذ ؟ قال لى : الرأى عندك لاحاطتك فى الموضوع • التفت لسعادة المستر يودال وقلت له : اذا خـرجوا أجمعـين قال لى : ارفتهم • قلت : وماذا نصنع بالكتاتيب ؟ قال : أقفلها قلت : يا صديقى • انك بريطانى ونائب مـدير المعارف وأنا أجلك أن تقول كلمة لا تستطيع تنفيذها قال سعادته : سـأنفذها هنا • أحسست بالشر ففكرت ثم قلت لسعادته : هل تضمن ان أهلك الكبـار يوافقونك فالأحسن أن تأخذ رأى كبار المسئولين منهم عن سياسة البلاد فان وافقوك تعال واعلن ماتريد وان لم يوافقوك وافقهم على رأيهم • فأخذ الأوراق الخاصة بالموضوع على ما أظن أو غيرها لا أدرى وتوجه لسعادة المستر كريد وهو السكرتير الادارى آنذاك فرجع منه وســعادته هادىء من تلك الثورة فدخل على المعلمين وخطب فيهم بالعربى وبلباقته المشهورة حمــدهم على حضورهم للعمل ويأسف لما اعترضه من الموانع وانه وافق على تأجيـله حتى يجرب فى الخارج فرادى • فرد أحدهم وهو يوسف القــاضى الذى هو من تلاميذى والذى يعلم الله بما قصدته له من خير وهو طفل وما عاملته به وهـو معلم معى برفاعة • طعن فى وفى ادارتى • وتفرقوا فلما خرجت من باب السور لقينى يوسف القاضى هـذا نفسه وحيانى أحسن تحيـة يقدمها ولد لوالد أو تلميذا لمعلم ولم يمضى بين الطعن وتقديم هذا الاحترام غير نصف ساعة•عجبت من الانسان وقدرته على جمع الأضداد وقلت سبحان من خلق الانسان وألهمه الطاعة والطغيان وجعل بعضهم يجمع بقدرته بينهما معا كما شاء • وحمدت الله على انى لى قلب واحد يحب أو يكره فيجاهر ورأيا واحـدا يوافق أو يخالف فيعلن ومبدأ واحدا يقبل فيعمل أو يخالف فيترك فان ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيها •

فى يوم ٧ــ٨ــ١٩٢٨ م توفى المرحوم المأسوف على شبابه ونشاطه وعقله وعمله السيد حسين شريف فبكته القلوب قبل العيون فلما وارينـــاه التراب رجعت برفقة الشيخ عمر اسحق ومحمد أفندى حلمى • فلما وصلنا حــوش القزاز أى منزل السيد محمد طه وقفنا قليلا فى نقطة التفرق وتحادثنا والحديث شجون فسألنى أحدهما : ماذا انتويت أن تعمل اذا أحلت للمعـــاش ؟ فقلت بصراحة واضحة فكرت فى احدى ثلاث اما عمــل وابور بالرباطاب للزراعة أو عمل مدرسة لأولادى وأحفادى أو مشروع دواجن برفاعه فقال لى حلمى أفندى أبو سمره : نوصيك أن تجعل عنوانك التلغــرافى لمشروع الدواجن (كاك) حكاية صوت الدواجن • ثم عقبه عمر اسحق بقوله لى لا تقارن نفسك بنا نحن الذين منحنا الدرجة الرابعة فتستقل معاشك ولكن قارن نفســك بأمثالك • فانزعجت لهذا التهكم وقلت للشيخ عمر : انت من يأخذ لك الدرجة الرابعــة من بعدك فى بيتك اما أنا فســيأخذها من بيتى ثمانية من أولادى لصلبى أو لجدى مباشرة • وعددت منهم ما حضرنى فسكت•وفارقانى • مثل هذا التبجح لا يجوز قوله من مثلهما وكلاهما لا يتمتع بمــا أتمتع به من الماضى العـــامر بالحوادث مسيئه ومسره وأنا الذى أقول فى أشد مصائبى :

كلومى أراها مــن كلامى دائمــا وقــد تأتى أحيــانا بغـير تكلمى
فمــا كان مــن قولى أملت لمســه وما كــان مــن ربى فليس بمؤلمى

بانتهاء هذا الفصل (فشل الموضوع) صرت بين عاملين : عامل الأمل فى بقائى سنتين بالخدمة كوعد السير مفى الذى كتبه بمذكرته أمامى • وباحالتى على المعاش بتمكن المستر فيلد وتأثيره على المستر ماثيو باحالتى على المعـــاش دون علم الحاكم العام والأخير يغلب على ظنى لاستحكام كراهة المستر فيلد لى وقد وجد الفرصة فبعد انقضاء اجازتى انتدبت لتفتيش خــلوات مديرية بربر حيث بارحت منزلى على حمارى كالعادة يوم ١٢ــ٩ــ١٩٢٨ م فلما وصلت أتبرا وصلنى كشف المعاش لمثله وارجاعه فاقترح على الشيخ على أبى قصيصــه أن أعارضهم بناءا على وعد السير مفى وأكتب مذكرة لدولته أطلب انجــاز وعده فرفضت بتاتا وأرى هنا انى أعطيت أعدائى سلاحى لنحرى أو انى تبدلت حتى صرت من تنابلة السلطان ولكن كل ذلك لم يكن وانما كان هو أن القدر يعمى البصر واذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه والله قد هيأ لي وله الحمد أن أديت فريضة

انحج فى أول عمل عملته بعد دخولى المعاش كما يأتى أسأله تعالى أن يجعله حجا مبرورا مقبولا آمين آمين فلو كنت فى الخدمة ما تيسر لى ولو بقيت حتى فتحت مدرسة الأحفاد لشغلنى تأسيسها المضنى •

من حوادث هذه السفرة فى يوم ١٥ــ٩ــ دخلت خلوة قرنات احدى جزائر ولد حسونه التى لم يسبق أن رأيتها فى عمرى والتى كنت أصدق قول العامة انها تسع وتسعون جزيرة على انها لا تبلغ هذا العدد وأغلب سكانها من الشايقية كما ان ساكنى شرقها وغربها منهم وأظن أن أجدادهم استوطنوها حينما جلاهم خربهم مع اسماعيل باشا ابن محمد على باشا فاتح السودان فانتشروا من قرية سلوه الى خشم العقبة عند قوز نفيسه بدء شلال السبلوكه وأظن أنهم وجدوا هذه المنطقة خالية أو أخلاها لهم السعداب من الشمال والجموعية من الجنوب لأنهم أولاد عمهم • حينما مررت بحلتى مدينى وو ادى بشاره ملأت أذنى ذكرى على جاد الله مما جعلنى مشتاقا لرؤياه ولكنى أسفت كثيرا حينما وجدته غائبا ولكنى وجدت والده أحمد جاد الله الذى يزيد عمره عن الثمانين وزاملته الاعتيادية الحسان ووجدت أخاه الشيخ أحمد جاد الله بمنزله المعد لمحصولات وآدوات وابوره بحلته ود الحبشى اذا أسفت لعدم رؤيتى لعلى جاد الله لكنى سلتنى سيرته التى منها أنه حينما اشتدت المجاعة على قريته بجزيرة نسرى وبريها شرقا وغربا علمت بالتواتر ممن حصل لهم فعلها انه فتح مطامير محصولاته وقسمها على الناس حتى يحصدوا مزارعهم فيردون ما أخذوا صنفا كل نوع يرد لمطمورته التى تحفظ لمثل هذه المجاعة • أكثر الله من أمثاله• حين أردت السفر منهم كتبت له مذكرة أشكره على صنيعه هذا ورجوته فى أن يشتط فى عنايته بزواج النساء ثيبات وأبكارا على اثر معروفه هذا وقبل وبعد أن ينسى فى بلد كل شيء فيه ينسى بعد حين وعجبت حينما رأيت على جاد الله بأم درمان بدكان البرير رأيته معيديا مثلى فذكرت المثل السودانى (الرجال ماهم ثياب تذرع) • مررت بالشرق على البوالين والبرياب حتى حلة ولد بانقا الشهير بطبقات ولد ضيف الله كلا هذه الأماكن لم يسبق لى رؤيتها لانزوائها فى مجرى النيل وقبل أن أصل شندى وصلنى بريدى فوجدت ضمنه كتابا من زوجتى بت ابراهيم مدنى بوفاة والدتها فملأنى حزنها لفقدها شبابها الذى لم يتجاوز الاحدى والأربعين سنة ولا أنكر انه ازداد حزنى لأن زوجتى فى الخامس

من حملها لأول مرة شفقة أن تجهض واذا وضعت لم تجد من يباشر راحتهـا كوالدتها التى كانت مشتاقه لها جـدا • وصلت شندى ولما دخلت على المفتش بمكتبه وجدت على بابه بنتا يتراوح عمرها بين الثمانية عشر سنة ولما خرجت وجدتها مكانها فلما رجعت الى مكتب المأمور وهو على أفندى نديم ومعه السيد عبد السلام الخليفة عبد الله سألتهما عن هذه البنت أخبرانى أنها من حـبـلة الهوبجى وانها حملت بالحرام وخافت أهلها يقتلونها فلجأت للمركز • قلت لهما : هل وصل المفتش خبرها ؟ قالا : لا • قلت : أطلبها با حضرة المأمور • فطلبهـا فجلست عند الباب ولم نلح عليها فى الدخول فعزمت على آن نزوجها لأى رجل يرضى بزواجها خوفا من انتشار هذا الداء اذا دخلت هذه تحت حماية الحكومة وفتحت بيتا للبغاء بشندى وتحسنت حالتها تحسنا يغرى غيرها وتكون مأوى لغيرها كغيرها من بنات الهوى بالخرطوم • فوافقانى بشهامة واستحسان فبينما نحن مفكرون لها فى زوج دخل علينا عسكريا من الشايقية فعرضنا عليه فرفض بأنفه ولم يدر غرضنا وبعد قليل دخل علينا ساعى تلغراف من الجعليين فبسماعه مقدمتى له وتخويفى له من تفشى هذا الداء ببلدهم قبل زواجها أردت تحميسه لئلا ينقلب عن عزمه قلت له : انت يا هذا اما أن تكون ناجحا جدا واما أن تكون خاسرا جدا فى رغبتك بهذا الزواج • قال : كيف ذلك ؟ قلت له : أن كنت أردت سترة بنت عمك فقط بشرط آلا تقربها حتى تلد مافى بطنها وتساوى بينه وبين ما تلده منها ولا تذكر لها حالها هذا مهما كان غضبت منهـا فأنت ناجح واذا قصدت من زواجها انك تجعلها متاعا ترتزق منه أى تتركهـا تزنى وتحضر لك ما أعطيت من غيرك أى ثمن شركيك فى نكاح زوجتـك فأنت تكون خاسرا تحمس وانتفض حماسا وقال هى بنت عمى آعاملها بكل ما قلت ولا تسمع ولا ترى منى ما يخجلها ولا ما يغضبها ففى الحال طلبنا القـاضى الشرعى الشيخ عوض الكريم العوض فعقدنا لهما ونهاه أن يقربها حتى تضع حملها من غيره ثم إنها تحل له • فأخذها وسار بها لمنزله وبينما نحن نتغدى فى منزل السيد سليمان الخليفه اذ نظرت الشيخ محمد نمر السعدابى رفيقى فى دراستنـا الألفيـه والمختصر على الفقيه حامد محمد أحمد المتقدم ذكره واقفا على باب السـور فخرجت له فأخبرنى بأنه حضر لشندى ومعه جماعة فيهم والد البنت ولا يعلمون شيئا عن خبرها فأخبرته بما تم بشأنها فطلب منى أن أصل للجماعة ولأحكى لهم

ينفسى فلما وصلناهم وجدت والدها فى غيبوبة كاملة بدليل أن الشيخ محمد نمر ناداه باسمه وبأعلى صوته أربع مرات حتى شعر بصوته ورفع له رأسه فى ذهول ولما أخبره بقصتى اضطجع وجرى عرقه وبعد أن أفاق استوى جالسا وقرب منى ورغب منى فى سرد القصة فحكيتها له فلما سمعها اضطرب جسمه وأخذ يقبل يدى ورجلى ثم أشرت لهم بأخذهم أحد أمرين اما أن يرجعوا لأهلهم وبعد حين يبتدئون زيارتها بوالدها ثم يوالون زيارتها الأقرب فالأقرب تطمينا لها على حياتها ومنزلة لها عند زوجها فى صيغة شكران له واما أن يتوجهوا لزيارتها مساء اليوم ليشكروا زوجها فاختاروا الأمر الأول فودعتهم ولم أرهم ولا رأيتها بعد ذلك • بوصولى عطبرة نزلت بمنزل الشيخ على أبو قصيصه بصفته ابن عمى وهو ناظر المدرسة وانى متمتع بغذائى كما أكون بمنزلى لأنى بصحبتى الرحمة الصانع فى كل ما يؤكل طعاما (الكسرة الكرب) والادام اللذيذ مهما كان نوعه وبحضور البريد وصلنى كشف احالتى على المعاش فلما شرعت فى ملئه منعنى الشيخ على وحرضنى أن أرده للمصلحة محتجا بوعد الحاكم العام كما تقدم وملأته وأرسلته • لما وصلت حلة القريحة وجدت محمد أفندى الضوى الشهير كاتبا بوابور الحصا الذى كان يزرعه الخواجه الأرمنى فيمرورى معه فى جنى القطن وجدت معه نحوا من ستين امرأة كلهن كاشفات الشعور رابطات اصلابهن بثيابهن محددات الأصلاب والصغار منهن بارزات النهود بينهن فتى نحو العشرين من عمره راكبا على مقود قصير ينتقل بينهن للمراقبة على أعمالهن ومما يزيد الطين بله أن شجر القطن قصيرا يطأطئن لجنيه فلما رأيت هذا المنظر المنافى لغيرة الجعليين لحريمهم ثارت نفسى فقلت للفتى مراقبهن : كم أخذت على هذا التعريض ؟ فثار هو بدوره وقفز من سرجه على الأرض وهجم على بعصا فحال بينى وبينه محمد أفندى الضوى • فقلت له : ياولدى ، أغضبت فى قولى ؟ قال : معلوم • فقلت : اسمع ، اذا جاء الخواجه وهن على هذه الحالة أتستطيع منع الخواجه الأجنبى من النظر لهن ؟ قال : لا أستطيع • وهدأ • قلت : أتضمن أن يكون نظره كنظرى ونظرك خاليا من اللذة؟ فرفع رأسه لى خجلا وقال : والله انه بعد اليوم لا يأتى لمراقبتهن • فقلت للفتى ولمحمد أفندى : غير هذا أحسن وهو يؤمر بلبس كل واحدة قميصا وطرحه

على رأسها ومقطف صغير فى يدها كلما ملىء صبته فى قفتها الكبيرة • فدعا لى التى وشكرنى على الغيرة والتدبير ثم سألت : كم تكسب المرأة فى يومها ؟ قالوا : الرطل مليم • وهى تجنى بين عشرين وثلاثين رطلا ويستلم منها ما تجنيه يوميا فى مكتب الميزان فذهبت مساء على حمارى لمحل الميزان وحملتنى رحلت العبيدية فوجدت عمدة العبيدية الشيخ مختار رحمه مصطفى بمحل الميزان فى نقطة متوسطة الحلال تبعد عن كل حلة نحو خمسة كيلو مترات والمرأة تحمل القطن على رأسها تصله نحو الساعة ٦ مساء فى وقت الاعتدال الخريفى وتمكث منتظرة الوزن حتى يأتى دورها على حسب الأسبقية فربما تخلص آخرهن نحو الساعة ٨ أو الساعة ٧٫٣٠ وأهلها يبعد عن مكان الميزان ليس أقل من ثمانية كيلو مترات تقطعها على الأقل فى ساعة ونصف فتصل بيتها الساعة ٩ و الساعة ٩٫٣٠ فطلبت من العمدة أمرين شفقة بهن : الأول أن يطلب من مفتش المركز الأجرة تكون باليوم وليست بالرطل أسوة بمشروعى الجزيرة وطوكر لأن هذا الخواجه لا شك انه يبيع فى السوق الذى يباع فيه قطن المشروعين والأجرة بالجزيرة سبعة قروش للمرأة فى اليوم فلتكن هنا ستة قروش • والأمر الثانى نقل الميزان من مكانه ليتحرك مع محل جنى القطن ليوفر للمسكينات مشوارى الذهاب والاياب والخواجه يكلف نفسه بجمع قطنه مكانا واحدا على مصاريفه فسر العمدة برأى هذا ولكنى لا أدرى سروره يستمر حتى ينفذ الأمرين أو يطالب بتنفيذهن أو ينتهى بوجودى • وصلت الباقير بجنوب دار الرباطاب وهى منطقة طيبة التربة بها ستة وثلاثون ألفا من النخيل الطازج طلبت من عثمان أبى حجل اشتراكه معى فى الحصول على وابور لرى الأرض وسقى النخيل بحيث نأخذ على النخلة أربعة قروش فى السنة ونأخذ النصف فى محصول ما نزرعه من القمح والذرة واللوبيا فوافقنى على أن يدفع هو ثلث القيمة وادفع أنا الثلثين وتكون أراضى المنطقة التى سبق زرعها بلا أجره وكان غرضى أن أبنى من نصيبى خلوات • أجمع عشرين ولدا ممن يحفظون القرآن من كل دار الرباطاب واعلمهم طرق التعليم وأخرجهم معلمين فى دار الرباطاب التى لم تكن بها مدرسة غير أبى حمد حتى ألحقهم بقافلة التعليم فى البلاد الأخرى • انتهزت فرصة مرورى بخلوات الرباطاب لأنظر حالة البلد الاقتصادية والادارية والاجتماعية اما التعليم فلا أمل فى رقيه • رأيت فى الباقير الذى يعد من المناطق الخصبة رأيت النخيل

البالغ الطول لم يفرح ولم يجنى ثمره ورأيت ساقيه نحو ثلاثة أفدنة وهى الوحيدة بها (حاحايه) (وهى عريشة صغيرة على أربعة قوائم ثم يطلع عليها الشخص ليتمكن من رؤية الطير فيرميه بالحجر ويطيره من أكل السنبل) رأيت أربع نسوة على الحاحايه ترمى كل واحدة منهن الطير بحجر فى حصتها الخاصة بها رأيت أربع نسوة فى الأرض يلتقطن الحجارة التى ترمى بهن الصاعدة المقابلة للارضية فترجع كل امرأة ما التقطته وترجعها للرامية وهكذا دواليك فسألت : كم رجلا ذا عائلة فى هذه الساقية ؟ قالوا : ستة رجال . قلت : وكم تنتج من الأرادب الصغيرة ؟ قالوا : ستة أرادب . ومنذ أن يبذر بذرها الى أن تحصد كم شهر تمضى ؟ قالوا : خمسة أشهر . قلت : شهر الرجل والمرأة يعملون فى الساقية خمس من أردب غلالا . والله حبة العيش (الغلال) لا تستحق هذا التعب . وبارحتهم وأنا معجب من أرستقراطية الشيخ عثمان أبى حجل أكبر عمدة فى أكبر بلدة لا يرضى بوضع خلوه فى بلد من أغنى العموديات طينا ونخلا. لما وصلت خلوة الدومه لقينى بها ابن عمى الطيب عبد الله نورى شيخ قبيلتنا السياسى وصحبنى لخلوة ابخرى وهناك وصلنى خطاب فى ١٥-١١- من الشيخ عز الدين الحسين ان زوجتى الكبيرة أم أحمد بمنزله بالشريك ولم يكن لى علم بقيامها من أم درمان فرجعت للشريك فعلمت منها انها جاءت بابنى محمد بدرى متوسلة بضريح جده الفقيه مالك ليشفى من مرض فعوفى والحمد لله . وكانت حملتى سبقتنا على أهلنا بجزيرة كشوى . وكانوا جائعين فاقتسموا عليقه جمالى بالطاسة (نصف قدح) فلما عطفت عليهم فأرسلت لعز الدين الحسين التاجر استلفت منه عشر جنيهات وزعتها على ضعفائهم ونزل العسكرى على مزارعهم وأخذ علفا لجمالى التى قسمت عليقتها فما كان من صاحب الزرع وهو ابن عمى الا أن أسترد العلف من الجمال بعد أن بدأت فيه الأكل فلما علمت هذه الحادثة الشاذة تذكرت بها ما سمعته من والدى وهو أخبرنى أن والده توفى وتركه ابن احد عشر سنة وهو أكبر اخوانه الثلاثة لأبيه وكان والده قائما بربع الساقية فأدخله أعمامه الثلاثة أشقاء والده ملزما بالقيام وكان والده ليعيش اخوانه فما حكاه من أثر التعب انه جيء يوما بعشائه فأخذ منه لقمة ووضع يده للثانية هجم عليه النوم فنام حتى جاء وقت نوبته سحرا فجاءوا وهو جالس نائم فلما أحس قال انه أكل بقية عشائه قام لعمله قلت له : يا أبت الا

تخشى أن يكون آكل منه كلب ؟ فقال : لا يأتى الكلب عنـدنا • قلت : كيف تسكنون بلدا يأبى الكلب سكناها ولكن أقام العباد فيما أراد • نعلق قليلا على هذه الحادثة فنعلل نزع الرحمة من قلوب الأعمام واستبدالها بمثل هـذه القسوة على الطفل وتكليفه مالا طاقة لمثله به من تكليفه القيام بخدمة والده مع الفارق بينهما فى الجسم والسن والتمرين على العمل تدريجيا وناهيك بتكاليف ربع الساقية المركبة من عناية بينها ثمنها المركب على الأقل من حمار أو ثور أو بعض الغنم علفا وسقيا ورباطا ورعاية أغنام بغرض أن يقوم بالرعاية أحد أخويه بطاحى أو نعمه لأن أخاه المسمى ضعيف فى جسمه وعقله لا يعينه بل يزداد حمله كلما كبر سنه فهل نحمل هذه القسوة على الجفـوة ؟ اما أنا فأحملها على التعب المركب جسما وعقلا وروحا • اما الجسم فلتوالى العمل الشاق المتواصل واما التعب العقلى فلدوام التفكير فى حماية البهائم لقلة العلف ومراعاة الزوجة المشتركة مع زوجها فى التعب بتحمل كلمتها الشاقة ونظرتها القاسية ولمدارات أبناءه أو عبيده الذين يعذرهم فى تقصيرهم فى بعض أعمالهم ان لم يظهـر لهم ذلك لئلا يستمر فى الكسل فلا منـدوحة عن اعترافه بنقص ملابسهم الساترة المدفئة وأكلهم المغذى المقوى • واما الضيق الروحى فلا شك انه نتيجة لهذين التعبين وبذا نقدر الأعمال تشبيها مع الفارق لحالنا بسرية ولد النجوم حيث يترك الولد والدته والوالد ولده والزوج زوجته ناجيا بنفسه على انى أحمد الله كثيرا حيث لم أكن أحدهم • من هذا عملة ابن عمى الذى أخـذ العلف من وجه جمالى فله عذره وان كان قد أخذ نصيبه من علوقها والعشرة جنيهات التى وزعت عليهم •

بارحت أهلى وفى قلبى لوعة من حزنى على حالهم قابلنى فى طريقى بحلة الكرى محمد ولد خالصه بنت خالة أبى وسعيده بنت ولد سعيد من أخـوالى والدى الأول محتاج والثانية غنيه أكرمتنى وكان معى الشيخ ابن عمى الفقيـه على الذى سألته عن مصحف والده الذى رأيته بيده برفاعه وعمرى لا يتجاوز العشرة سنوات • عرفنى الشيخ بأنه باعه لابن عمنا الفقيه الطيب محمد الخليفة الذى توفى فى هذه السنة رحمه الله كان عاملا عالما ذا كرامات ذكر بعضهـا • واصلت سيرى حتى وصلت حلتى العار والعشكوت آخر الرباطاب والعـار حدها من الشمال وقد سهى على أن أسأل شيخ الحلة عن المسمى أبا سدير فى

تحديد الرباطاب فى قولهم من الشنقير الى أبى سدير وقد رأيت وادى الشنقير الفاصل بين عقبة السليمانية وأول الرباطاب الواسع العميق • بوصولى الى حلة العار حيث كنت أنظر أول ساقية للمناصير جهة الجنوب المعكوس بالنسبة لوقوعها فى أول الدال المبدوء للنيل بعد أبى حمد من آخر ساقية شمال الرباطاب المعكوس أيضا لحقنى عسكرى يطلب رجوعى للخرطوم بأمر السيرمفى الحاكم العام فرجعت ولم أصل خلوات كجى التى بالمناصير وهى الوحيدة ببلدتهم وكنت اتفقت مع ناظرهم سليمان نعمان قمر أن أغير معلمها بالفقيه أحمد محمد مصطفى كوصية الناظر ولكن الله لم يرد ذلك • وصلت أبا حمد يوم ٢٠-١٢ وأرسلت منه كيلتين قمحا لبنات مالك وبعت زواملى بأبى حمد منها جمل بعته لمحمد أفندى حامد موسى ولم يدفع لى ثمنه لأنى بارحت أبا حمد بالقطار ولما وصلت محطة الشريك رأيت رجلا كبيرا فى سنه ركب القطار فى الدرجة الرابعة ذهبت اليه لنأنس به ولعلنى أجد عنده سببا واضحا لتأثير الضيق فى الرباطاب أكثر من غيرها وفى أثناء المحادثة والحديث شجون ذكرت له عزمى على عمل وابور بالباقير بشركة العمدة عثمان أبو حجل وفصلت له ما اتفقنا عليه ونيتى لتعليم أولاد الرباطاب مما أربحه فيه فقال لى بحزم : لا تفعل ذلك • قلت له : لماذا ؟ قال : انت يا شيخ بابكر نشأت بعيدا عن الرباطاب ولذلك تجهل أحوالهم فاذا دخلت معهم فى عمل وفى أول سنة رأوا ماربحته منهم يهيج عليهم داء حسدهم الكامن فى جبلتهم فيرفضون استمرار العمل معك ويختارون حرمان نفسهم المنفعة الظاهرة والراحة البينة ويضرون أنفسهم ليضرونك فان شاكيتهم وانت رجل مشهور تلومك القبائل وان سامحتهم تلحقك المضره بوقف عملك وتتكلف نقل وابورك • فلما علمت معاكسة أهل الجزيرة ارتل لعبد الرحمن على عبد الماجد ووقف وابوره حمدت الله وتركت عملى •

وصلت الخرطوم يوم ٢٢-١٢-١٩٢٨ م وقابلت دولة السير مفى بسرايه يوم ٢٤-١٢-١٩٢٨م • دارت بيننا هذه المحادثة بعد تبادل التحية اللطيفة من دولته :

- متى وصلت الخرطوم ؟ وصلت الخرطوم مساء يوم السبت ٢٢-١٢. كعادتك راكبا حمار ؟

- نعم •

ـ كم يوم قضيتها فى سفرتك ؟

ـ قضيت يومين ومائة •

ـ كم خلوة بالمديرية ؟

ـ بالمديرية الشمالية ستة وخمسون خلوة •

ـ كلها ناجحة ؟

ـ رأيتها كلها ماعدا خلوة المناصير بحلة كجى لم أزرها والبقية كلها ناجحة

ـ الخلوات من أعمالك المفيدة ؟

ـ هى مناسبة للقرى •

ـ صحيح • وهل المجاعة مؤثرة على الناس الذين مررت بهم ؟

ـ أثر المجاعة غير ظاهر فى أحد ظهوره بالرباطاب فيما رأيت وأظن أن المناصير يكونون مثل الرباطاب وأشد •

ـ لماذا ؟

ـ لأن أولاد الرباطاب الأقوياء الذين يقدرون على ادارة السواقى نزحوا بين الدريسة وقلع النحل وتسنى بارتيريا والنساءوالعجائز والأطفال تركوا تفريع النخل فضلا عن ادارة السواقى حتى وان المستر جكسن سعى برجليه فى مراكز أبى حمد ومما رآه من ضعفهم خفض الضريبة من خمسة وعشرون مليما عن النخلة المثمرة الى خمسة مليمات رأفة بالناس ولما شاهده أنهم لا يستطيعون حصاد الثمر من النخلة الطويلة •

ـ هل ترى رأيا لمساعدتهم ؛

ـ نعم • رأيى أن الحكومة اذا رأت ضرورة لبقاء الرباطاب ببلدهم لحفظ الأمن والمواصلات تعفوهم من الضريبة مطلقا واذا لم تر بقائهم فلتخصص لهم قطعة أرض فى المساحة الواسعة الواقعة على أحد النيلين تنقلهم اليها ليعيشوا مدة التأسيس ويستريحون بعدها وان رأت الحكومة ضرورة بقائهم واستثمار بلدهم أصوب فلتعمل أربعة وابورات فى أربع أماكن لتسقى نخيلهم البالغ عدده مائة وثمانين ألفا بواقع النخلة أربعة قروش كمشروع نورى بالشايقية وتأخذ ثلث المحصول من القمح والذرة واللوبيا نظير الماء وبذلك تحصل من سقاية النخيل سبعة آلاف ومائتين من الجنيهات ففى ست سنوات

تحصل الحكومة على كل ما صرفته من سقى النخيل فقط بخلاف قيمة بقية المحاصيل .

ــ لماذا لم يسبق عمل وابور بالرباطاب ؟

ــ لم تعمل وابورات لأن البلاد لا تنبت القطن .

ــ هل تضمن أن الأولاد الذين بقلع النحل وتسنى والدريسه يرجعون ؟

ــ أظن أنهم يرجعون مادام ان الماء لزرعهم لا يكلفهم مشقة دفعه كما كان بلا شك أنهم يرجعون ومن استمر فى غربته منهم وكان مستفيدا يكون قليلا واما غير المستفيد من غربته تكرهه الحكومة على الرجوع لتفيده وتستفيد منه

ــ هذه محادثة مفيدة . هل تصورتها أم ارتجلتها ؟

ــ تصورتها فى مرورى بالرباطاب لأن رأيت بالباقير وهو من أخصبها أرضا أربع نساء طالعات على حاحايه بيد كل منهن حجاره ترمى بها الطير من ناحيتها وفى الأرض أربع نسوة تجمع كل واحدة منهن الحجارة التى تقذفها مقابلتها بالحاحايه وترجعها لها لترمى بها الطير وهكذا دواليك . فتألم دولته من شرحى هذا ثم قل :

ــ لماذا اهتممت بالرباطاب ؟

ــ أجبته لأنى رباطابى يادولةالحاكم العام . قال لى : لقد خدمت بلدك وسأنفذ عمل الوابورات . ثم قال لى : هل لك حاجة خاصة تطلبها ؟ الجملة السابقة . وحيث ان مسألة احالتى على المعاش قد انتهت قلت لدولته : حاجتى سلامتك للبلاد . وانصرفت .

وبعد مدة لا أذكرها بالضبط حضر سعادة المستر نكلوس مدير بربر بمكتب المستر يودال وطلبنى وسلم على بغضب ثم قال لى : لماذا طلبت من الحاكم العام عمل وابورات للرباطاب دون علمى ؟ قلت : أن الحاكم العام وهو الحاكم العام سألنى عن أثر المجاعة وأخبرته كما رأيت أثرها على الرباطاب نسألنى رأيى فيما يخفف عليهم الوطأة فحصرت رأيى فى اعفائهم من الضرائب أو نقلهم لمكان خصب بين النيلين أو عمل أربعة وابورات لهم وسعادتك كنت بالاجازة فهل فى أمكانى أن أقول لدولة الحاكم العام : اسمح لى دولتك أن أؤجل الجواب على هذا السؤال الى أن يأتى سعادة المدير من الاجازة وأعرض

رأيى على سعادته . حتى بعد اذنه آرد على دولتك ؟ فقال لى وهو مغضب : أنا لا أنفذ هذا الطلب . قلت : أعمل ماشئت فالرباطاب رعيتك وأنا لا أدخل بينكما ولكن أملى فيك وعلمى بك أنك فعال للخير ومساعد للبؤساء وخرجت وأنا أنشد :

ومن نكد الدنيا على الحران يرى عدوا له ما من صداقته بد

وبعد مقابلتى للحاكم العام مباشرة دخلت فى اجازة المعاش التى اعتبرت خمسين يوما من يوم ٢٧—١٢—١٩٢٨ م الى ١٤—٢—١٩٢٩ م

قمت لرفاعة يوم السبت ٢٩—١٢— محالا للمعاش ولا أكتم القارىء غضبى على المصلحة التى لم تجاملنى وزاد أسفى أن أولادى متعلمى رفاعه الذين كنت أعدهم ذخيرتى لحياتى والذين احتفلوا بى احتفالا رائعا حينما رقيت مفتشا لم يجاملونى ولو بدعوات فرادى ان كانوا يزعمون مأمورين ممن يخشون بأسه منهم أو من غيرهم ولكنها المصائب تتوالى والحمد لله .


Bibliotheca Alexandrina
0691436